الإعلام عند العرب
من
المصادر التاريخيّة والأثريّة

د. عبد العزيز حميد صالح
الأستاذ في جامعة بغداد





www.dardjlah.com


مكتبة
طريق العلم

الإعلام عند العرب
من المصادر التاريخية والأثرية

الإعلام عند العرب

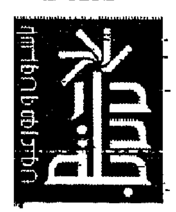
من المصادر التاريخية والأثرية

الدكتور عبد العزيز حميد صالح

الأستاذ في جامعة بغداد

الطبعة الأولى

2015



رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (5934/ 12/ 2014)

071.56

صالح، عبد العزيز حميد

الإعلام عند العرب من المصادر التاريخية والأثرية/ عبد العزيز حميد صالح. – عمان: دار دجلة للنشر والتوزيع.

() ص.

ر.أ.: (5934/ 12/ 2014)

الواصفات: /الإعلام// الحياة الاجتماعية// البلدان العربية/

أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية.

2015





المملكة الأردنية الهاشمية

عمان- شارع الملك حسين- مجمع الفحيص التجاري

تلفاكس: 0096264647550

خلوي: 00962795265767

ص. ب: 712773 عمان 11171- الأردن

E-mail: dardjlah@ yahoo.com

www.dardjlah.com

ISBN: 9957-71-478-9

المحتويات

تمهيد

الإعلام يعني الاتصال بالآخرين عن طريق (الإبلاغ) أو (الأخبار) أو (الربط وإقامة الصلة)؛ أي التواصل Communication؛ وبعبارة أخرى إنها أفكار أو معاني يريد المرء نقلها إلى طرف آخر ربما لمرة واحدة أو أكثر. فالتواصل هنا يعني الرغبة في إقامة علاقة بين أنسان وآخر في زمن ما ويبغي استمرار تلك العلاقة أو ذلك الاتصال؛ إنها في واقع الأمر شراكة بين اثنين من البشر على الأقل، أو اشتراك طرفين أو أكثر في إرسال المعاني واستقبالها بصورة تبادلية. فإن الاتصال هنا يعني في واقع الأمر المشاركة في المعاني، أوالاطلاع على أمور لا يمكن الاطلاع عليها إلا بمثل تلك المشاركة.(1)

وهناك من يرى أن الاستعانة بمصطلح **(الاتصال)** أفضل من **(التواصل)** بسبب أن الأول يعكس واقع الحال في حياتنا اليومية لأنها تقوم على الربط بين الأفراد عن طريق اللغة أو غيرها في أي مجتمع كان أو يكون من المجتمعات البشرية، وليس التواصل الذي قد يعني انفتاح الذات على الآخرين في علاقة حيّة لا تنقطع حتى تعود من جديد.(2)

أما بصدد مصطلح **(الإعلام)** فهناك تحفظات عند بعض المختصين بشأنه؛ إنهم يرون أن من الصعب في أيامنا هذه تحديد ماهية هذا المصطلح تحديدا أكاديميا جامعا: " **لأن اللفظة متداولة في الميادين التقنية والشعبية دون التفات دقيق**

---

(1) هادي نعمان الهيتي، الاتصال الجماهيري: المنظور الجديد، بغداد 1998، ص9

(2) عصام سليمان الموسى، المدخل في الاتصال الجماهيري، عمان، 2009، ص28

إلى ما تدل عليه، لذا فإن مصطلح (الاتصال) بدأ يحل شيئا فشيئا في الدراسات العلمية... ليشير إلى فن انتقال المعاني بين الأطراف......" [1]

ومع ذلك إن الإعلام في اللغة، كما يفهمه عامة الناس اليوم ولاسيما المثقفين منهم دون المختصين، هو الإشهار؛ أي نشر الخبر؛ أي إظهار ما يريد المرء إظهاره أو إعلام الآخرين عنه؛ سواء كان الخبر أو الإشهار من النوع الذي يدخل السرور إلى النفس أو يحمل أخبارا محزنة أو يرتبط بأمور عامة يهم الشعب أو عامة الناس معرفتها أو الاطلاع عليها؛ أو قد يكون أعلانا عن عمل أنجزه المرء أو عازم على القيام به أو إنجازه يخص الآخرين أو على الأقل يهمهم الاطلاع عليه. أو أن يكون خبرا أو مجموعة أخبار تهم الدولة أو فئة معينة من الناس اطلاع الجماهير عليها؛ فقد يكون الخبر غير صحيح، أو أن يكون محرّفا أو منحولا، أو ربما أن يكون خبرا صحيحا تماما وأن في صالح الدولة أو تلك الفئة أن يطلع عليه الآخرون، فإن الغاية في نفس يعقوب"، كما يقال. أو قد ينقل إلى المتلقي في صيغة تراها تلك الفئات مناسبة تماما.

والحق أن الإنسان قد أدرك منذ عهود وأحلة في القدم؛ وربما منذ بدأية حياته على الأرض أهمية الاتصال بين البشر أو الإعلام كما نسمّيه اليوم؛ ومع ذلك فإن الإنسان لم ينفرد في هذه الخاصية بل تشاركه فيها معظم الكائنات الحيّة بما في ذلك الحشرات حيث تدرك بغريزتها أهمية الاتصال فيما بينها الغرض تسهيل أمور حياتها اليومية أو في سبيل ديمومتها. وربما خير مثال على ذلك الحشرات بمختلف أنواعها، مثل(النحل) و(الدبابير) وغيرها. وغني عن البيان

---

(1) هادي نعمان الهيتي، اللغة في عملية الاتصال الجماهيري، بغداد، 1997، ص7.

أيضا أن الطيور المهاجرة لا يمكنها أن تقوم برحلاتها الطويلة عبر القارات مرّة أو مرتين في كل عام دون اتصال واضح فيما بينها كمجموعة.

غير أنّ الإنسان العاقل لم يتوقف عند هذا النوع من الاتصال البدائي فابتدع أساليب جديدة ولوازم وآلات أو وسائل في الاتصال عظيمة الأهمية؛ بعضها بسيط والبعض الآخر في غاية التعقيد؛ ولاشك أن الذي ساعده على التوصل إلى مثل هذه الوسائل أو الأدوات الخاصة بالبدع الجديدة في الإعلام أو الاتصال ذكاؤه المفرط قياسا بأي صنف من أصناف الحيوانات التي خلقها الله جلّ شأنه على الكرة الأرضية.

إن من أهم الوسائل التي تمكّن الإنسان القديم ابتداعها في الاتصال هو (الكلام). والكلام هنا يعني النطق بأصوات متباينة بعضها متجانس وبعضها متنافر؛ لكل صوت منها مدلول متميّز أو مفهوم خاص عند جماعة واحدة من البشر تعيش في موقع واحد أو في البيئة نفسها والتي قد تختلف عن المعاني أو المدلولات الصوتية عند الجاميع البشرية التي تسكن بعيدا عنها؛ وعلى ذلك يمكن القول أن لكل مجموعة كبيرة من هؤلاء الناس صار لها كلام أو لغة خاصة بها. واللغة في الحياة لها شأن كبير قد يضعف من انتباهنا اليه أننا نشأنا مزودّين بالقدرة على الكلام كما نشأنا مزوّدين بالقدرة على المشي؛ ولكن هل أن الإنسان قد انفرد باللغات المختلفة والمتباينة حسب الموقع أو البيئة الجغرافية التي يعيش فيها، العلم عند الله وربما أيضا عند المختصين بعلم الحيوان.

ولاشك أن الغرض أو السبب المباشر في ابتداع الكلام منذ وجود الإنسان على الأرض كان لتقوية روابطه الاجتماعية وفي سبيل أن يكون وسيلة فاعلة في تعاونه مع بعضه البعض ولاسيما عند الصيد أو عند جمع القوت أو في سبيل الدفاع عن ذاته أو عن مجموعته الذي كان على نحو عام يتم جماعيا. والحق أن

كل فرد كان وما يزال يرغب في التعبير عمافي نفسه عند اختلاطه بالآخرين في سبيل أن يتبادل مع من معه بما يختلج في ذهنه من أفكار وليطلع في الوقت نفسه على ما في ذهن الآخرين أيضا لما فيه من صالح له وللمجموعة البشرية التي يعيش بينها. إنها في واقع الأمر عملية تبادل الأفكار والآراء المختلفة لا يمكن ان تتم بسهولة دون التوصل إلى بدعة الكلام والتخاطب.

ان هذه الرغبة الكامنة عند كافة الطوائف البشرية في التناغم والتقارب فيما بينها كانت السبب الأساس وربما المباشر في تطوير طرق أو أساليب الاتصال عندهم. ولاشك أن عملية تطوير وسائل الاتصال قد استغرقت إلاف السنين، كانت بلا ريب رحلة طويلة شاقة ومضنية عبر الزمن، غير أنها أزهرت في آخر المطاف ثم أعطت ثمارها، وسوف تظل في تطوّر نحو الأفضل والأمثل إلى ما شاء الله.

وفي واقع الأمرأن الاتصال قبل كل شيء عملية نفسية اجتماعية ضرورية، عن طريقها يتم تبادل المعاني والمعلومات بين الناس أو بين الأفراد عبر نظام شامل من الرموز المتفق عليها فيما بينهم؛ إنها اللغة المشتركة. وقد بات بحكم المؤكد أن الناس كانوا وما يزالون على درأية تامة في جميع المجتمعات أو التجمّعات السكانية ولاسيما المتحضرة منها بأن تأثير الإعلام أو الاتصال الجماهيري كان وما يزال كبيرا جدا عند المتلقي أو لنقل عند الرأي العام أينما كان أو يكون. ولا يمكن للمرء أبدا أن ينسى أن مداخلات أو تأثيرات منوّعة يمكن أن يحدثها الإعلام المنظّم على الجماهير؛ بعضها ظاهر وسريع مثل الغضب أو الرضا أو الفرح أو الحزن والتعجّب؛ في حين أن لبعضها تأثيرات نفسيّة خفيّة تظهر بعد حين؛ ومن المؤكد أن الناس قد عرفت التأثير النفسي في الإعلام أوالاتصال الجماهيري منذ أقدم العصور.

وقد يكون من المفيد أن أذكر هنا على سبيل المثال أن الآشوريين الذين تعد دولتهم واحدة من أطول الإمبراطوريات عهدا في العالم القديم، كانوا على دراية تامة بأهمية الإعلام وتأثيره النفسي عند الشعوب. ومما يرجح ذلك أنهم لم يشيروا إطلاقا في أي من مسلاتهم، وهي السجلات الرسمية الخاصة بهم وكذلك البابليون أو في أي من وثائقهم الرسمية التي كانوا يعلنوها على الجمهور انهم خسروا حربا من الحروب أو معركة من المعارك، أومنوا بنكسة اقتصادية أو بفاجعة أليمة نتيجة لفشلهم في معالجة أمر من الأمور من النواحي السياسية أوالاقتصادية أوالاجتماعية أو الدينية. كانوا على الدوام يعرضون على شعبهم النجاحات الباهرة والمكاسب التي حققوها في حروبهم ضد الشعوب الأخرى، مثل المدن التي دكّوا حصونها وعدد الأسرى الذين وقعوا في قبضتهم والأسلاب التي غنموها، أو ما شيّدوا من الحصون وما مصّروا من المدن أو المعابد التي أقاموا صرحها للآلهة التي كانوا يظنّون أنها ترعاهم وتشملهم بعنايتها وحمايتها خلال عهد هذا الملك أو ذاك من ملوكهم.

ولم يكن قدماء المصريين في مثل هذه الأمور يختلفون في شيء عن الآشوريين. فنحن نعلم أن الفرعون رمسيس الثاني (1290–1223 ق.م.) ثالث ملوك الأسرة التاسعة عشر الذي يعد عهده واحدا من أطول العهود وأكثرها ازدهارا وقوة في مصر القديمة؛ أنه قد خاض معركة كبرى ضد الحثيين في شمال سوريا في شهور سنة 1285 قبل الميلاد عرفت في التاريخ باسم (معركة قادش)، ذكر في مدوّناته أو في سجلاته الرسمية التي وصلت إلينا أنه حقق انتصارا باهرا على الحثيين؛ الدولة القوية آنذاك التي كانت حدودها تتاخم الأقسام الشمالية من سوريا وجنوب بلاد الأناضول، غير أن الرُقُمْ الطينية أو النصوص الكتابية التي خلّفها لنا الحثيون أفادت أنهم هم الذين حققوا النصر على المصريين في

تلك المعركة،[1] وهكذا يبقى موضوع النصر أو الخسارة لأي من الجانبين معلقا في ذمة التاريخ إلا إذا كشفت التنقيبات المستقبلية ما يدعم هذا القول أو ذاك.[2]

وفي العصر الحديث ربما أن أول من جعل من موضوع الدعاية السياسية في الاتصال الجماهيري علما وفنا في آن واحد كان جوزيف كوبلز J.Goblitz (1897-1945م) وزير الإعلام وأحد أقطاب النظام النازي في ألمانيا في الثلاثينات وحتى أواسط الأربعينات من القرن الماضي. لقد كان المسؤول الأول عن تحسين صورة هتلر والنظام النازي عموما أمام الشعب الألماني،[3] وكذلك عند الكثير من الشعوب الأخرى بما فيهم العرب. لقد عرفت وزارته في العهد النازي في ألمانيا بوزارة الدعاية والإعلام الشعبي Ministry of PublicEnlightens and Propaganda. لقد هيأ عددا من المختصين بعلوم الاتصال والتواصل ضمن كادره الإعلامي في وزارته فضلا عن مختصين آخرين في علم النفس لتطويع الجمهور وإخضاعه للسياسة التي تختارها حكومته.

لقد تأثر العالم إعلاميا عندما اكتشفت يومياته التي جمعها عدد من خبراء الإعلام وطبعت في فرنسا قبل بضع سنوات، وأصبحت مناهجه وخططه

---

(1) على اثر تلك المعركة تم عقد معاهدة سلام بين رمسيس الثاني والحثيين، وتزوّج الملك المصري من أميرة حثيّة. لقد فاقت إنشاءاته المعمارية ما شيّده أي من الملوك المصريين طوال العصر الفرعوني من حيث العدد والروعة؛ منها على سبيل المثال بهو الأعمدة الضخمة بالكرنك وكذلك معبدي (أبو سُنْبُل) الرائعين اللذان انقذا من الغرق قبيل الفراغ من بناء السد العالي في جنوب مصر (الموسوعة المصرية تاريخ مصر القديمة وآثارها، القاهرة 1960، الجلد الأول، 1/ 250).

(2) Robin, Andrew, The Story of Writing, London, 1995, reprinted 2001 (Hong Kong), p.8

(3) يكتب اسمه باللغة الألمانية على هذا النحو: Joseph Goebbels

الإعلامية تـدّرس في الكـثير مـن معاهـد الإعـلام في أوربـا؛ ويفهـم مـن تلـك اليوميات أنه سعيد عندما يعتبره الكـثير مـن خـارج ألمانيـا بأنـه الخبير الأول في التضليل الإعلامي ويتفاخر بأنه قادر على تعبئة الجمهور ورفع معنويات الجيش الألماني في أحلك الظروف (شكل1). وقد كان يردد في هـذا الإطـار أن: (لـيس **هناك أمر اسهل من قيادة الجماهير إلى حيث ما أريد. ويكفـيني أن انظـم حملـة إشهار تبهره وسوف يسقط في الفخ).**[1]



(شكل1)

الهر جوزيف كوبلز وزير الإعلام والدعاية في ألمانيا النازية

وكما هو معروف لنا جميعا تعتبر الصحافة والإعلام على نحو عام (السلطة الرابعة) في العالم المتحضر ليس فقط في الحروب حيث لم يكن أبدا أقل من حيث الأهمية والقوة عن البندقيـة والمـدفع والطـائرة وفي الفـترات العصـيبة الـتي قـد

(1) Shiter, William L., the Rise and Fall of the Third Reich: *A History of Nazi Germany,* London, 2011, p. 233

تتعرض لها المجتمعات البشرية، بل أنها تسلّلت إلى جميع المجتمعات البشرية وقبلت بل رحّب بها من قبل جميع الناس وفي كل مكان في هذه المعمورة. لقد بات الإعلام جزءاً مهما إن لم يكن أساسيا في التركيبة التي تدخل في جميع مناحي الحياة في أيامنا هذه.

والحق أن كوبلز وغيره من الخبراء بالاتصال الجماهيري من الألمان قد استغلوا الدعاية أو الرسالة الإعلامية أعظم استغلال لتحقيق التأثير المنشود في الجمهور الموجهة إليه، حتى ليذكر أن كوبلز تمكّن من إقناع الشعب الألماني في خطبة له أن استسلام الجيش الألماني السادس للروس في سنة 1943 في مدينة (ستالينجراد) خلال الحرب العالمية الثانية لم يكن هزيمة بل اعتبرتها وزارة الدعاية الألمانية تضحية من قبل الجيش للشعب الألماني ليس غير. بذلك تمكّن كوبلز من إثارة حماس الشعب الألماني والتفافهم حول هتلر وتعضيدهم له ولسياساته مجدّدا، لبعض الوقت على الأقل.[1]

ومهما يكن من أمر ذلك فإن أصحاب الوسائل الإعلامية كانوا يسعون على الدوام إلى استغلال الجمهور والاستحواذ على مشاعره وأفكاره. ويمكن القول أن الرسالة الإعلامية الناجحة تؤثر في المتلقي وتحركه للقيام بعمل محدود يريده له المرسل أو صاحب الفكرة المطروحة، وهذا ما كان ينشده جوزيف كوبلز وغيره من كبار الإعلاميين لتحقيق الهدف في تسخير الإعلام لخدمة المرسل أو صاحب الرسالة الإعلامية. والحق أن الإشهار يساهم أيضا وعلى نحو عظيم في تشكيل الرأي العام وبلورته والتأثير على الأفئدة والعقول، والانصياع الحتمي للجمهور ومن ثمّ وضعه في اتجاه فكري معيّن.

---

(1) Ibid. ،p. 238

نعم... إن من النجاحات المؤكدة التي حققها جوزيف كوبلز خلال الحرب العالمية الثانية استغلاله ببراعة منقطعة النظير مشاعر الجماهير أو الرأي العام ليس في ألمانيا في العهد النازي فحسب بل حتى في البلدان المعادية له والتي كانت تقف ضده في حرب ضروس لا هوادة فيها، مثل بريطانيا وجه للجزء الشرقي من بولندا في بداية الحرب العالمية الثانية سنة 1939، متهما الاتحاد السوفياتي آنذاك بإعدام ذلك العدد الغفير من الضباط البولونيين ودفنهم في مقابر جماعية في شرق بولندا. لقد كان النجاح حليف (كوبلز) تماما في أيصال تلك الرسالة الإعلامية إلى الجماهير وتحقيق الغرض المنشود منها، ليس إلى الشعب الألماني فحسب بل حتى إلى شعوب الدول المعادية له مثل إنكلترا والولايات المتحدة الأمريكية وحتى البولونيين انفسهم؛ لقد كان بارعا حقا في علم الاتصال الجماهيري، فما يزال العالم المتحضر حتى يومنا هذا مقتنعا بمقولة وزير الإعلام في ألمانيا النازية بهذا الشأن.

فما هو المقصود بالجمهور المتلقي؟ إنه غالبية الناس إن لم يكن جميعهم في أي مجتمع من المجتمعات البشرية الذين توجه إليهم الرسائل الإعلامية والذي يتشكل منهم ما يعرف اليوم بالرأي العام. فمن المؤكد أن الجمهور (المتلقي) يعد عنصرا أساسيا في عملية الاتصال الجماهيري لان هذه العملية تقوم أصلا على نوعية الرسائل الموجّهة من جهة معينة إلى الجمهور الذي يضم أو يحتضن أعدادا كبيرة جدا من الأفراد الذين تتفاوت مستوياتهم الثقافية والاجتماعية من فرد لآخر، فهل أن الجمهور المتلقي يقف عاجزا تماما أمام قوة الإعلام؟

وهل أنما ذهب اليه جوزيف كوبلز كان صحيحا حقا؟ حيث أن من السهولة بمكان أن تقاد هذه الكتلة الكبيرة من الأفراد Mass Audience إلى حيث يريد المرسل الإعلامي البارع؟ وهل أن الجمهور يقف فعلا عاجزا أمام قوة الإعلام المنظّم تنظيما جيدا؟

نعم ..... لقد نجح كوبلز في الكثير من محاولاته الإعلامية. وربما لاقى بعض النجاح حتى في السنة الأخيرة من الحرب العالمية الثانية وذلك بأقناع شريحة كبيرة من الجمهور في ألمانيا أن الجيش الألماني كقوة ضاربة كان ما يزال بخير وأن مع شيء من الصبر والمثابرة سوف يتحقق النصر النهائي لألمانيا وحلفائها من دول المحور، وتكون الهزيمة من نصيب بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية وحلفائهما. ومن المؤكد أيضا أن جوزيف كوبلز قد فشل في أيصال الكثير من رسائله الإعلامية إلى الجماهير ولاسيما في أواخر الحرب العالمية الثانية التي من جملة ما تمخّض عنها سقوط الرايخ الثالث بهزيمة ألمانيا وانتحار كوبلز مع هتلر في ربيع سنة 1945.

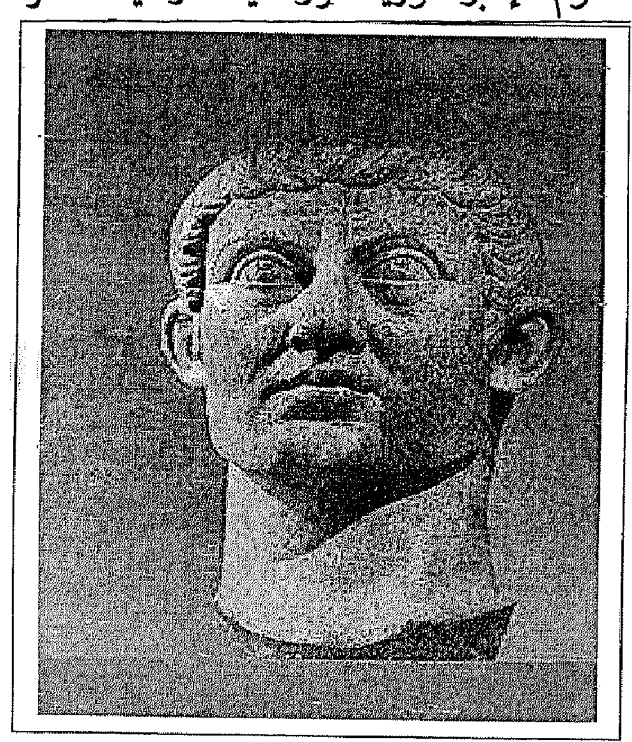
غير أن الجمهور في واقع الأمر لايقف دائما عاجزا أمام الإعلام مهما كان صاحب الرسالة الإعلامية قديرا؛ والحق أن الجمهور يعد شريكا أساسيا في قوة الإعلام، فقد اعترفت النظرية الإعلامية الحديثة بالدور الحيوي الذي يلعبه الجمهور في اللعبة أوالعملية الإعلامية. أنه رأي جديد مغاير تماما للنظريات القديمة التي تقول أن الجمهور يقف مكتوف الأيدي أمام الإعلام المنظم بما في ذلك الأثر الكبير الذي قد يحدثه المرسل الإعلامي في المتلقي، فلابد للمرسل الإعلامي أن يدخل في حساباته إن الجمهور لا يقف أبدا كمتلقي مسالم أمام الرسائل الإعلامية مهما بلغت من قوة أو حسن تنظيم في عمليات الاتصال الجماهيري. وعلينا أن لا ننس أيضا دور الإعلام المضاد أوالإعلام التحريضي الذي تبثه أو تقوم به القوى المعارضة أو الجهات المعادية للسلطة بين الناس بهدف دفع الجمهور إلى رفض مثل تلك الرسائل الإعلامية ولاسيما الخاصة بسياسة الدولة الخارجية أو طريقة معالجتها للأمور الداخلية والمالية. ليس هذا فقط بل وحتى التحريض على الثورة المسلحة وقلب نظام الحكم إذا ما تطلّب

الأمر ذلك. وخير مثال على ذلك ما حدث في كل من تونس ومصر وليبيا واليمن وما يحدث اليوم في سوريا وفي بعض الأقاليم الأخرى في العالم.

وهذا ما حدث في العصر الإسلامي الأول عندما تمكن معاوية بن أبي سفيان من تحقيق نصرا إعلاميا كبيرا ولاسيما في بلاد الشام؛ ذلك النصر الذي أوصل الأسرة الأموية إلى سدة الحكم. غير أن الأمر لم يستمر طويلا على ذلك النحو حيث كان من نتيجة الإعلام المضاد أو السلبي ولاسيما في الربع الأول من القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي الذي أدى بالتالي إلى سقوط دولتهم وانتهاء أمرهم في شهور سنة 132 هجرية (750م).

إن اعتراف أساتذة الإعلام مؤخرا بالدور الحيوي الذي يلعبه الجمهور في العملية الإعلامية يعد موقفا مغايرا لبعض النظرية القديمة التي مفادها أن لا حول للناس ولا حتى دور مهم أمام قوة الإعلام المنظم. أن الأهمية العظمى للجمهور المتلقي في الأمور الحيوية والإعلامية على ما يبدو لم تغب أطلاقا عن أذهان الأذكياء والفطنين من القادة السياسيين في العالم القديم. إنهم لم يغفلوا أو ينتقصوا من أهمية الناس العاديين البالغة وإن كانوا أميين في العملية الإعلامية. لقد أدركوا تماما أن الجمهور المتلقي يعد عنصرا أساسيا وقد يكون خطرا أو مخيفا إذا ما أخذنا الوسائل التي كانت أو تلك التي ما تزال متبعة في عملية الاتصال الجماهيري بنظر الاعتبار. وخير مثال على هؤلاء القادة العظام الذي حسبوا للجمهور والرأي العام كل حساب كان الإمبراطور الروماني قسطنطين الأول (324-347م) الذي اخفى نبأ اعتناقه المسيحية عن الشعب الروماني طيلة فترة حكمه، فإنه لم يصرّح علنا عن نصرانيته إلى أن سقط طريحا على فراش الموت وذلك خشية من الرأي العام والخوف من ظهور الفتن والاضطرابات أو الثورات أو الانتفاضات الشعبية من قبل أصحاب الديانات الوثنية بتحريضات خفية من اليهود التي قد تؤدي به وبأسرته إلى التهلكة، وبالإمبراطورية الرومانية

بأسرها إلى السقوط أو التداعي؛ وفي الوقت نفسه تلحق بالمسيحيين الأذى الشديد. والسبب في ذلك يعود إلى أن غالبية السكان كانوا ما يزالون على الوثنية وإن المسيحيين كانوا آنذاك شريحة مضطهدة لا تشكل سوى خمس مجموع العدد الكلّي للسكان في عموم الإمبراطورية الرومانية المترامية الأطراف-(شكل2).[1]



(شكل 2)

رأس تمثال رخامي للإمبراطور قسطنطين الأول

محفوظ في متحف المتروبوليتان بنيويورك

ومن أجل مساعدة المسيحيين مساعدة فاعلة أصدر الإمبراطور قسطنطين الأول في سنة 313 ميلادية مرسوم ميلانو الشهير the Edict of Milan الذي ساوى بموجبه في الحقوق والواجبات بين المسيحيين الوثنيين واليهود؛

---

(1) Baynes, N. H., The Byzantine Empire, London, 1926, p.3

لقد كفل لهم التمتع بكافة الحقوق التي كان يتمتع بها غيرهم من المواطنين. لقد برّز هذا العمل ما جاء في صلب مرسوم ميلانو: "....**لابد لنا أن نبذل للمسيحيين وسائر الناس حريتهم في أن يتبع كل منهم ما يشاء من ديانة.....**"[1]

وفي سبيل تهدئة عقول الجماهير وضمان رضاهم قام بجملة إصلاحات كانت في غاية الأهمية؛ أولها فصل الإدارتين المدنيّة والعسكريّة عن بعضهما البعض؛ وكذلك اتّخذ التدابير الحازمة في موضوع الإصلاح النقدي حيث تشدّد في هذا الجانب إلى ابعد حدود التشدد؛ فسحب من التداول الدنانير الرديئة العيار والمنخفضة الوزن واحلّ بدلا عنها دنانير ذات عيار عال ووزن معلوم ثابت غير قابل للتغيير. ولاشك أن كانت لهذه الإصلاحات أهمية بالغة في كسب رضا كافة أطياف الشعب الروماني والذي ساعد بالتالي إعلامياً في تسريع عملية نشر المسيحية في عموم الأقاليم التابعة للإمبراطورية. فمن الواضح والحالة هذه أن الإمبراطور قسطنطين الأول قد حسب للجمهور المتلقي الف حساب مع أنه شخصيا لم يكن على درجة عالية الثقافة والتعليم حتى أن اعتبره الكثير من المؤرخين في الغرب المعاصرين أنه كان شبه أمّي.[2]

ومع ذلك فإن بعد وفاته عاد بعض الأباطرة الرومان إلى الوثنية ولاسيما الإمبراطور جوليان الذي عرف في التاريخ بجوليان المرتد Julian the Apostate (361–363م). غير أن من حسن حظ المسيحيين أنه قتل في معركة ضد الساسانيين في سنة 363 ميلادية.[3] ولم يجرأ أي من الأباطرة على رفع رأية

---

(1) Ibid., p. 12

(2) Cantor, Norman F., Medieval History: *the life and death of a Civilization,* USA, 1970, p. 36

(3) Ibid., p. 51

الديانة المسيحية عاليا سوى الإمبراطور ثيودوسيوس الذي لقّب بالعظيم Theodosius the Great (379-395م)؛ وقد أشعل الوثنيون حرب أهلية عارمة في البلاد؛ غير أنه استطاع إخمادها والقضاء على الرؤوس الوثنية الكبيرة في البلاد؛ وبعد القضاء على تلك الثورة هدّم المعابد الوثنية أو حوّلت إلى كنائس (شكل3).[1]



(شكل 3)

تمثال نصفي رخامي للإمبراطور ثيودوسيوس الأول محفوظ في متحف الفاتيكان

ليس هذا فقط بل حتى الأنبياء والرسل أنفسهم عند القيام بنشر دعوتهم على عبادة الله جلّ شأنه قد أولوا موضوع تقبل الجماهير لدعوتهم السماوية حسابا. وأرجو أن لا أكون قد خرجت عن العرف بأن أضرب مثلا بنبينا محمد

---

(1) King, Q. N., the Emperor Theodosius and the Establishment of Christianity, Philadelphia, 1960 Web-Site; www.kids.infoplease.com

عليه أفضل الصلاة والسلام؛ فقد اتبع في بعض الأحيان رضوان الله عليه أسلوبا متدرجا في دعوة الناس إلى الإسلام؛ طبقا لما كان ينزل به الوحي. كان في ذلك مراعات الظروف أو للحالة النفسية لقريش في ذلك الوقت وهي المعروفة بغطرستها وشدة تمسكها بعبادة الأوثان والأصنام؛ دين آبائها وأجدادها راكبة رأسها في عدم تقبل الدين الإسلامي الحنيف، فاتبع رضوان الله عليه في دعوتهم إلى الإسلام أسلوبا متدرجا كما ذكرت.[1] ولذلك مرّت الدعوة إلى الدين الإسلامي الحنيف بثلاث مراحل أتبع فيها أساليب إعلامية منوّعة. في الأرجح أن ذلك كان بإيحاء أو بأمر مباشر من الله جلّ وعلا. وخير مثال على ذلك موضوع تحريم الخمر فقد جاء على نحو متدرّج؛ ففي الآية الأولى التي جاء فيها ذكر الخمر لم يرد ما يدل على الكراهية أو التحريم،[2] ثم أن الله جلّ شأنه طلب من المؤمنين أن لا يدخلوا مساجد الله وهم سكارى،[3] ولم تجيء الكراهية أو التحريم سوى بعد حين؛ كان ذلك في الآية الكريمة التي تقرأ: "... الخمر والميسر رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلّكم تفلحون."

وقد يكون التشهير أو الإعلام معكوسا تماما؛ فلم يكن القصد منه كسب رضا الشعب والرأي العام بل الغرض الأساس منه الإرهاب والتخوف من

---

(1) مختار التهامي، الإعلام في الإسلام، مجلة كلية الاداب، جامعة بغداد، المجلد الأول، العدد 21، سنة 1977، ص483

(2) في الآية القرآنية التي جاء فيها: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ....﴾ (سورة النحل، أية 16).

(3) في الآية الكريمة: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ...﴾، سورة النساء أية 4.

عاقبة المعارضة أو أبداء المقاومة للسلطة الحاكمة. من ذلك على سبيل المثال أن الآشوريين كانوا يعدمون الكثير من خصومهم والمعترضين على سلطتهم أو حكمهم للأقاليم المحتلة بالإعدام علنا جلوسا على القازوق. ومن الغريب حقا أن هذه الطريقة في الإعدام التي نراها في العصر الحديث في منتهى الوحشيّة قد استعان بها الفرنسيون المحتلّون في مصر في مطلع القرن التاسع عشر للغرض نفسه. فإن محكمة عسكرية فرنسية في القاهرة أصدرت حكما على سليمان بن محمد الحلبي الازهري السوري الأصل قاتل الجنرال الفرنسي كليبر Kleberg حاكم مصر العام من قبل نابليون بونابرت في مطلع القرن التاسع عشر بالإعدام صلبا على (القاز وق) بعد أن تحرق يده اليمنى ثم يترك جسده طعاما للنسور.[1] وقد نفّذ هذا الحكم الوحشي علنا في القاهرة في شهر حزيران سنة 1800 ميلادية، وعلّقت إلى جانب جثته رؤوس ثلاثة من علماء الأزهر الذين قيل أن سليمان الحلبي كان قد أفضى اليهم بنيّته بقتل حاكم مصر الفرنسي قبل الشروع بالاغتيال بعدة أيام حيث وجّهت إلى الأزهريين الثلاثة تهمة مفادها أنهم لم يخبروا السلطات الفرنسية بذلك فحكم عليهم بالإعدام.

وكان الفرنسيون قد نشروا خبر ذلك الحكم القاسي على قاتل الجنرال كليبر بمختلف الوسائل المتاحة لهم في مصر آنذاك؛[2] مثل الخطب من فوق المنابر بالمساجد وفي خطب أيام الأحاد في كنائس مصر عامة، وكذلك عن طريق المنادي والرقاع المطبوعة والملصقات وغير ذلك من الوسائل؛ كل ذلك في سبيل إرهاب وتخويف الجماهير المصرية؛ إنها جزء من الحرب الإعلامية النفسيّة ولاشك

---

(1) الزركلي، خير الدن، الإعلام، 3/ 133

(2) في المصادر التاريخية المصرية المعاصرة للحملة الفرنسية ورد اسمه على نحو: (كلهبر).

(شكل4)، وعملوا كذلك على نشر الخبر في عموم فرنسا عن طريق الصحف لتطييب خاطر الشعب الفرنسي وأعلامه أن دم القائد الفرنسي لم يذهب هدرا! وفي سبيل توكيد ذلك أيضا احتفظ الفرنسيون بالهيكل العظمي لسليمان الحلبي ووضعوه في متحف الحيوانات والنباتات في باريس.[1]

ومع ذلك إن الفرنسيين المحتلين لمصر كانوا في الوقت نفسه يحاولون من الناحية الإعلامية كسب ود ورضا الشعب المصري مستغلين كل الفرص المتاحة. من ذلك على سبيل المثال أن قادتهم كانوا يقيمون ولائم كبرى للإفطار في شهر رمضان لذوي النفوذ والجاه من المصريين؛ فقد كتب بعض المؤرخين المعاصرين لتلك الأحداث في مصر:

"والآن هل يمكن القول أن للجمهور دورا مهما أو مؤثرا في الإعلام؟ فكما هو معروف لجميع الإعلاميين إنه يمكن القول دون وجل أو خوف من الوقوع في الخطأ أن الجمهور هو الكتلة العامة للسكان أو مجموعة البشر في أي مدينة أو قطر. أما الرأي العام فهو الجمهور الراشد في أي مجتمع من المجتمعات البشرية؛ إنها الشريحة المثقفة أو الواعية من الجمهور وهي التي يحاول صاحب الرسالة الإعلامية إيصالها اليه وفي الوقت نفسه التأثير عليه ببعض وسائل الإعلام المتيسرة له. إن الرأي العام ينبثق من جمهور يتألف من عدد كبير من

---

(1) ولد سليمان بن محمد أمين الحلبي ونشأ في مدينة حلب وأقام ثلاث سنوات في القاهرة حيث تعلم في الأزهر الشريف وحجّ مرتين. وقد ظل شهرا كاملا يترصد الجنرال كليبر حتى حظي به فقتله بخنجر كان يخفيه تحت ثيابه، وقد سرد المؤرخ المصري المعاصر الشيخ عبد الرحمن الجبرتي تفاصيل كاملة عن ذلك الحدث بما في ذلك سرد كامل لسير التحقيق الذي قام به المصريون والفرنسيون في القضية (الجبرتي، عجائب الآثار في التاريخ والأخبار 2/ 364-390).

الأفراد الذين لا يعرف بعضهم بعضا معرفة شخصية إلا أنهم يشتركون معا أو يهتمون اهتماما خاصا بقضية محدودة تشدهم إليها. وهكذا يمكن القول أن للجمهور على الدوام رأيا معينا في قضية من القضايا، يلتف حولها مشكلا بذلك ما يعرف بالرأي العام الخاص بتلك القضية.(1)



(شكل4)

رسم تخطيطي لسليمان الحلبي لواحد من الرسامين الفرنسيين

بعد حرق يديه قبل إعدامه في سنة 1800. عن: خير الدين الزركلي

ومهما يكن من أمر كل ذلك فإن الأفراد الواعين الذين يتشكل منهم الجمهور وهو الرأي العام، كانوا وما يزالون يقدّمون المعلومة عند استقبالهم لها

---

(1) Davison, W., On the Effects of Communication, in " *Communications and Public Opinion*, edited Carlson, R. O., New York, 1975; p. 384-401

ويحلّلونها عن طريق حواسهم، ثم يقرر كل فرد منهم قبول تلك المعلومة أو رفضها. فمن المتفق عليه اليوم أن الإنسان يتقبل على نحو عام المعلومات التي تتفق مع مخزونه المعرفي ولا تتناقض معه. أما إذا تناقضت مع ما عنده من معلومات هو نفسه يرتاح إليها ويثق بصحتها، فإن الفرد المستقبل هنا يرفض ما يبعث إليه مع ما عنده من معلومات يثق بصحتها فإن المستقبل هنا يرفض ما يبعث اليه جملة وتفصيلا مهما زاد المرسل في تنميق رسالته الإعلامية.[1]

وعلى ذلك فان من الأمور البالغة الأهمية أن يلقى الخبر أو مجموعة الأخبار قبولا حسنا من لدن المتلقي. ومع ذلك لا نجد للإعلام، أو الاتصال الجماهيري، كما يطيب لمعظم المختصين بفن أو علم الإعلام عدّه أو تسميته،[2] تعريفا جامعا مانعا في المعاجم اللغوية العربية القديمة مثل (الصحاح في اللغة) للجوهري أو (لسان العرب) لابن منظور أو (تاج العروس) للزبيدي. ومع ذلك ان من الأمور اللافتة للانتباه والذي يبدو بديهية هنا أن يكون الاتصال أو الإعلام العام معروفا ومعمولاً به عند مختلف شعوب الأرض وعلى مر العصور.[3]

ربما لهذا السبب نجد أن وسائل الإعلام تعد هي الأقوى أثراً في النفوس من أي شيء آخر. فمن المؤكد اليوم أن الوسائل الحديثة الحرة المستخدمة في الإعلام التي ليس لها ارتباطا مباشرا بأي جهة سياسية أو دينية هي أكثر تأثيرا على الجمهور المتلقي من أي وسيلة ثانية. ومما يدعم هذا القول أن استطلاعا

---

(1) عصام سليمان الموسى، المدخل في الاتصال الجماهيري، عمان 2009، ص25.

(2) المصدر نفسه، ص19.

(3) المصدر نفسه، ص31.

للرأي تمّ في روسيا الاتحادية مؤخرا تبين منه أن معظم المواطنين الروس يرون أن التلفاز والوسائل الإعلامية البسيطة الحرة الأخرى تترك أثرا أقوى في الجماهير من البيانات السياسية التي تصدرها الأحزاب في البلاد أو المواعظ الدينية التي يلقيها كبار رجال الدين في الكنائس ودور العبادة الأخرى. وحتى توجيهات النقابات العمالية وبياناتها التي تخاطب بها الطبقة العاملة لا تلاقي الأثر القوي التي تحدثه وسائل الإعلام المستقلة في نفوس الجماهير.[1] وفي الأرجح أن مثل هذا القول يمكن أن ينطبق على جميع الشعوب المتحضرة في العالم اليوم.

ولم يكن الناس في القرون السابقة على زماننا هذا متباينين أو مختلفين اختلافا كبيرا في هذا المفهوم. فمن المتفق عليه اليوم أن الإعلام والسلطة الرابعة في المجتمع؛ حتى أن عرفت الصحافة في البلدان المتقدمة بـ(صاحبة الجلالة) أو بـ(السلطة الرابعة). إن الإعلام بمختلف أنواعه يلعب على الدوام دورا مهما في التأثير وبقوة على الرأي العام. وكما ذهب إلى ذلك الأستاذ هنسي B. C. Hennessy أن التنظيم الجيد المدروس له لا يشكّل إلا عاملا واحدا من بين عوامل أخرى متعدّدة تؤثر في تكوين وبلورة الرأي العام. إن العوامل التي تساعد على ذلك متعددة الجوانب؛ ربما من أكثرها أهمية الثقافة العامة للمجتمع يليها في الأهمية المعتقدات الدينية في ذلك العهد، ثم القيم والتقاليد العامة السائدة في المجتمع؛ إلى جانب ذلك علينا أن لا ننس الاعتبارات الاقتصادية في هذا المجال.[2]

---

(1) جريدة (المدى) البغدادية، الصادرة يوم 28/ حزيران/ 2012

(2)Hennessy, B. C. , Public Opinion, USA, 1975, p.141

لقد باتت فنون الإعلام في العصر الحديث ليست فقط سمة متميزة من سمات الحضارة العالمية؛ بل علما مهما ذا أهمية بالغة تدرّس أصولها اليوم في معظم جامعات العالم. ليس هذا فقط بل لم تعد أساليب الإعلام وعلومه تكرّس لها بعض الفصول أو المساقات الخاصة في عدد من المعاهد التي تعنى بالعلوم الإنسانية على نحو عام، بل صارت للإعلام أقساما أو فروعا خاصة به في كليات الآداب في معظم جامعات العالم. ولم يستمر الأمر طويلا حتى على هذا النحو بل أقيمت للإعلام معاهد أو مراكز خاصة بتدريس فنونه وأساليبه في كثير من الجامعات في دول العالم المتحضر سواء كان ذلك في الأميركتين أو في الدول الأوربية بل أيضا في غالبية دول الشرق الأوسط، عندما بانت لهذه الشعوب الأهمية البالغة لهذا العلم سواء كان ذلك في الأمور السياسية والاجتماعية أو التجارية بدأ بأوائل القرن العشرين. ليس هذا فقط بل صارت للإعلام معاهد مستقلة في بعض الدول المتحضرة لا علاقة لها بالجامعات.

صحيح إن دراسة الأساليب الخاصة بالإعلام قد بدأت على نحو علمي منذ أوائل القرن العشرين غير أنه كان بلا أدنى ريب معروفا ومعمولا بالكثير من جوانبه في العقود السابقة وربما في القرون التي سبقت ذلك التاريخ لاسيما عند الشعوب المتحضّرة.

وإذا توجّهنا بسؤال إلى أي من الإعلاميين في أي قطر من أقطار العالم اليوم؛ صحفيا كان أو مراسلا تلفزيونيا أو إذاعيا، عن هدفه أو عما يروم أو يبتغي من وراء عمله هذا؟ سوف يجيب في أغلب الظن دون تردد.... أنه يبحث عن الحقيقة أو عن حقائق الأمور التي تهم الناس الاطلاع عليها، أو أنه يتحرى عن الأخبار الصادقة دون زيادة أو نقصان لينقلها إلى الجماهير عن طريق

صحيفته أو الشبكة التلفازية أو الإذاعية التي يعمل فيها. ومن المؤكد أن الإعلامي مصيب هنا تماما فيما يقول: إن ما يقصده هو الإعلام المجرد النزيه؛ غفل من كل شائبة.

وعلينا ان نتذكر إن الله جل شأنه هو الإعلامي الأول والأعظم، قد اخبرنا في محكم كتابه الشريف أكثر من مرّة بما يفيد ذلك. والحق أن القرآن الكريم لم يكن المصدر الأساس لتعاليم العقيدة الإسلامية فحسب بل أنه كان ولا يزال الوسيلة الإعلامية الأولى في الدعوة الإسلامية. يقول جلّ شأنه: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾.[1] إنها القصص والأخبار الخاصة بالأولين التي لم نكن نعلم عنها إلا النزر اليسير. ونحن، سواء كنا مؤرخين أو مثقفين عاديين، قد أفدنا فائدة عظيمة من القصص التاريخية والإعلامية التي وردت في القرآن الكريم ليس فقط لتضاف إلى ذاكرة التاريخ بل أيضا لنتعظ بها. وبكلمة أخر يمكن القول أن القرآن زاخر بالقصص عن الأمم السابقة التي آمنت برب العالمين واستجابت للأنبياء فنجاها الله أو كفرت فحلّ عليها الدمار أو العقاب.

ويمكن القول أن العرب لم تكن لتختلف كثيرا عن بقية شعوب الأرض في هذا المضمار. ويجب أن لا يغرب عن الذهن إطلاقا أن لم تكن بين أيدي الناس قديما وسائل إعلام سريعة ومتقدمة كما هي عليه اليوم، مثل الصحف اليومية والأسبوعية، وكذلك المذياع والتلفاز والهاتف وغيرها من وسائل الإعلام الحديثة، وإنما الاتصال بالجماهيركان يتم بطرق مختلفة أو متباينة قد يعد أغلبها في

---

(1) سورة يوسف، الآية 3

أيامنا هذه وسائل إعلامية بدائية؛ ربما من أهمها النقل السريع للخبر إلى الآخرين عن طريق الكلام المباشر البسيط أو الخطابة، أو عن طريق (الكتابة). وقد كتب ابن خلدون بهذا الخصوص: **(اعلم أن الخط بيان عن القول، والكلام بيان عما في النفس والضمير في المعاني؛ فلابد ان يكون كل منهما واضح الدلالة).**(1) وعلى ذلك فإن نقل الخبر سواء كان فرديا أو جماعيا ما هو في واقع الأمر سوى وسيلة من وسائل الإعلام؛ وما حفلات الزواج والختان المعروفة والمعمول به عند العرب والشعوب الإسلامية على نحو عام إلا ضربا بسيطا من ضروب الاتصال الجماهيري.(2)

وفي ختام هذه المقدّمة أستميح القارئ الكريم عذرا عندما أقول أن ما جاء في هذا الكتاب المختصر ليست دراسة لما يجب ان يكون الإعلام أو الاتصال الجماهيري بتطبيق نظرياته الحديثة ولاسيما في الصحافة والمذياع والتلفاز وغيرها من الوسائل المعروفة، وإنما هي دراسة شبه تطبيقية لبعض النظريات الإعلامية الحديثة في الماضي البعيد: أي لما كان عليه الأمر في العالم العربي يبدأ بالعصر الجاهلي ومرورا بالعهود الإسلامية المتعاقبة حتى نهاية الفترة المظلمة بالاحتلال الأجنبي للبلدان العربية الذي دمّر المفاهيم الحضارية على نحو أو بآخر. لقد بدأت الفترة المظلمة الطويلة الأمد بالاحتلال التتري المغولي للشرق الأدنى بدأ

---

(1) ابن خلدون، عبد الرحمن، (ت 1406م)، المقدمة، القاهرة 1977، ص443

(2) ابن منظور، محمد بن مكرم، (ت711هـ)، لسان العرب، بيروت 1973، الجزء 12، ص420-421

بأواسط القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي؛ أعقب ذلك خضوع البلدان العربية للحكم الأجنبي غير العربي دولة الجلائريين ثم دولتي (الخروف الأسود) و(الخروف الأبيض) على التعاقب؛ أعقب ذلك الاجتياح التيموري الدموي المدمر ثم الاحتلال الصفوي الإيراني وأخيرا دخول العثمانيين الذي استمر لقرون متتابعة التي استمرت عمليا حتى الربع الأول من القرن العشرين أي بنهاية الحرب العالمية الأولى في سنة 1918.

الفصل الأول

الإعلام عن طريق الكتابة قبل الإسلام

الفصل الأول

الإعلام عن طريق الكتابة قبل الإسلام

(الكتابة) كما عرّفها ابن خلدون أنها: (.... رسوم وأشكال حرفية تدل على الكلمات المسموعة الدالّة على ما في النفس.... إنها صناعة شريفة، إذ الكتابة من خواص الإنسان التي يميّز بها عن الحيوان. وأيضا فهي تطلع على ما في الضمائر وتتأدى بها الأغراض إلى البلد البعيد فتقضي الحاجات، وقد دفعت مؤونة المباشرة لها ويطلع بها على العلوم والمعارف وصحف الأولين وما كتبوه من علومهم وأخبارهم، فهي شريفة بهذه الوجوه والمنافع. وخروجها في الإنسان من القوة إلى العمل إنما يكون بالتعليم...).[1] إن تعريف الكتابة على هذا النحو لا يختلف اختلافا جوهريا عما يراه غالبيّة علماء اللغة في وقتنا الحاضر. وفي أيامنا هذه حدد المرحوم الدكتور صالح أحمد العلي رئيس المجمع العلمي العراقي الأسبق الكتابة والتدوين بقوله: إن الفكرة الأساسية التي يقوم عليها التدوين هي التسجيل الكتابي لما يعتبر جديرا بالحفظ والبقاء؛ أي تثبيت الأمور التي يراها الكاتب أو الأمر بالكتابة جدير بالاهتمام والبقاء حريه باتت تورّث للأجيال.[2]

ومن البديهي أن نعدّ الكتابات التذكارية واحدة ربما من وسائل الاتصال الجماهيري المهمة في العالم القديم، وظلت على ذلك النحو عبر العصور

(1) ابن خلدون، المقدمة، ص437

(2) صالح أحمد العلي، التدوين وظهور الكتب المصنّفة، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد 31، سنة 1981، ص4

الإسلامية المتعاقبة. ولم يختلف العرب في هذا المضمار عن غيرهم من الشعوب. فقد تركوا لنا في شبه جزيرتهم كما هائلا من النقوش الكتابية؛ الكثير منها إعلامية إخبارية لاسيما تلك النقوش التي تعلوا واجهات المباني العامة أو ما تبقى منها أو ما كشف عنها المسح السطحي أو عن طريق التنقيبات الأثرية في نواحي مختلفة من شبه جزيرة العرب وعلى نحو خاص في بلاد اليمن وفي قلب شبه جزيرة العرب أو في الأجزاء المتاخمة منها لفلسطين والأردن. إن أغلب النقوش التذكارية التي تسبق الإسلام كانت تعلو واجهات المباني العامة مثل المعابد والمباني الخاصة بمراكز التسوّق التي تعرف في بعض البلدان العربية اليوم بـ(القيصريات) والسدود المقامة في مختلف أنحاء شبه جزيرة العرب وأسوار المدن وغيرها من العمارات التي كانت في إقامتها فائدة عظيمة للشعب. ليس هذا فقط بل حتى أن شواهد القبور تعد واحدة من الوسائل الإعلامية الخاصة والمهمة عند المعنيين بهذا الجانب من المعرفة.

أن الخط العربي في القرون التي سبقت الإسلام في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام كان في معظمه غير الذي نكتب به في يومنا هذا، فقد كان للعرب ضربان من ضروب الكتابة؛ الأول والأقدم هو (المسند) الحميري نسبة إلى مملكة حمير في بلاد اليمن، والثاني هو القلم الذي نكتب به في الوقت الحاضر.[1]

---

(1) إن المسند خط يختلف جذريا عن القلم أو الخط العربي النبييين أيدينا أي الذي نكتب به في يومنا هذا، وليس هنا مجال للتطرق أو لتوضيح ذلك الاختلاف في نوع الخطين في هذا الكتاب الخاص بالإعلام. ولا أريد التطرق أيضا إلى مميزات كل من هذين القلمين. والأسباب التي حملت العرب على ترك قلمهم القديم؛ قلم آباءهم وأجدادهم الذي ظهر أولا على الأرجح في جنوب جزيرة العرب تحديدا في بلاد اليمن في أواسط الألف الثاني قبل الميلاد؛ والأخذ كليا بالقلم الجديد الوافد إليهم من الشمال حيث ابتدع أو تطوّر إلى =

فبالنسبة للقلم الأول ترك لنا العرب في شبه الجزيرة العربية ولاسيما في بلاد اليمن كما هائلا من النقوش الكتابية بالمسند الحميري تغطي فترة زمنية لا تقل عن الف وخمسمائة سنة، غير أن معظم تلك الكتابات التي وصلت إلينا هي نقوش على الصخور.

ولا أريد هنا إلا أن أضرب بضعة أمثال عن النقوش الكتابية التذكارية في اليمن بقلم (المسند) كانت لها أهمية إعلامية بالغة في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام؛ واحد منها النقش الذي ما يزال يعلوا جانبا من جدران (سد مأرب) الشهير؛ السد الذي يعد واحدا من أعظم منجزات الإرواء في العالم القديم.[1] لقد قام السبئيون ببنائه في القرن السابع أو الثامن قبل الميلاد؛ شيّدوه بين جبلين عظيمين عند وادي (ادنا) الكبير على بعد بضعة كيلومترات عن العاصمة اليمنية القديمة (مأرب).[2]

= ما هو عليه إلان في جنوب بلاد الشام والأردن وربما في جنوب العراق؛ وكان ذلك في مطاوي القرن الرابع قبل الميلاد أو قبل ذلك الزمن بقليل.

(1) إن سد مأرب هو ليس السد الوحيد في بلاد اليمن أو في شبه الجزيرة العربية، ففي واقع الأمر هناك عشرات السدود بل ربما المئات ليس في بلاد اليمن فحسب بل في جميع انحاء شبه جزيرة العرب. إن الكثير من تلك السدود ما تزال قائمة وبحالة جيدة من الحفظ مع أن ليس في شبه جزيرة العرب أنهار دائمة. إن الغرض من إقامتها في بلاد اليمن وبعض الأماكن الأخرى خارج ذلك الإقليم كان لحجز المياه والحفاظ عليها للاستفادة منها في الزراعة عند الحاجة؛ أما في بقية أنحاء شبه جزيرة العرب فكان الغرض الأساس من إقامتها لحجز السيول العارمة الخطيرة وابعداها عن المدن أو التجمعات السكانية في المنطقة.

(2) أقيم السد في موقع تلتقي فيه السيول في حصرها خلفه مكوّنا بحيرة عملاقة مستفيدين =

ومن الطبيعي أن يخضع سد مأرب لأعمال الصيانة والترميم ما كان يصيبه من تصدع أو تشقق بسبب شدة السيول في بعض الأحيان أو الزلازل التي كانت تتعرض لها المنطقة من حين لآخر. وكان الحكام أو الملوك هم الذين ينفقون ويشرفون على الترميمات المطلوبة؛ يدوّنون على بعض جدره عن طريق الحفر الغائر أو الناتئ ما قاموا به من إنجازات. وما يزال هناك عدد من النقوش التذكارية الخاصة بأعمال الصيانة والترميم على بعض جوانب السد تحمل أسماء هؤلاء الذين نفّذوا تلك الترميمات، جميعها بقلم المسند الحميري. أن سد مأرب في اليمن قد خضع إلى الكثير من الترميمات عبر تاريخه الطويل كان من أواخرها شاهد تذكاري تم نقشه بالنحت البارز على بعض أحجار السد المصقولة بخط المسند الحميري المنمّق والمجوّد. يحمل النقش اسم والقاب القائد العسكري (**أبرهة**) حاكم اليمن من قبل ملوك الحبشة.

أن سد مأرب قد تعرض إلى تصدّع هائل مدمّر قبيل بزوغ نور الإسلام بقليل أدى إلى انهيار جزء كبير منه؛[1] كان من نتيجة ذلك كارثة كبرى حلّت ببلاد اليمن حيث اندفعت السيول العارمة على ما يبدو في جميع الاتجاهات؛ حتى أن وردت إشارة إلى ذلك الحدث المروّع في القرآن الكريم تحت اسم ﴿سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾.[2] وكان من نتيجة ذلك الحدث أن هجرت أو نزحت موجات بشرية

= من مياهها في إرواء أراض شاسعة في وسط بلاد اليمن؛ وفي الوقت نفسه في إقامته حماية للعاصمة والمدن القريبة منها من السيول العارمة عند هطول الأمطار الموسمية.

(1) لا ندري إن كان ذلك التصدّع بسبب إهمال السلطة الحاكمة أو بسبب سيول عارمة خارقة للعادة تعرض لها فلم تتمكن جدره من مقاومتها فتهدم على نحو شبه كلي.

(2) سورة سبأ، الآية 16.

كبرى من عرب اليمن ولا سيما من سكان مدينة مأرب والمناطق المحيطة بها أو القريبة منها إلى شمال شبه جزيرة العرب؛ كما نزحت بعض تلك القبائل إلى بلاد الحبشة.

أما القبائل التي تعرف بالعرب البائدة والتي منها (عاد) و(ثمود) و(ليحان) و(ديدان) وغيرها التي كانت قبل بزوغ نور الإسلام بعدة قرون تتخذ من الجزء الشمالي من شبه جزيرة العرب مواطناً ومراتعاً لها، فقد اقتطعت أقلامها جميعا من قلم المسند الحميري.

لقد تركت لنا هذه القبائل على سفوح الجبال وحافات الوديان كماً هائلا من النقوش الكتابية معظمها شخصية والقليل منها تذكارية، بعضها في غاية الأهمية. ونلاحظ من كتاباتهم التي تركوها لنا عن طريق التحزيز على المسطحات الصخرية المبعثرة أو على الواجهات الصخرية للجبال والوديان أنهم كانوا ينزعون نزعة شديدة إلى تخليد أنفسهم وإبقاء آثارهم وذكرياتهم بكل الطرق الممكنة وأرخوا بكل حادث كان معروفا عندهم. لقد كانت لديهم نزعة قوية لتأريخ كل ما يقع عندهم وتدوينه ليطلع عليه غيرهم ممن يجتاز بالأماكن التي نزلوا بها؛ غير أن جميع تلك المخلفات الكتابية كانت ذات طابع شخصي إعلامي.[1]

ومن النقوش مسلة كبيرة كاملة كشفت عنها التنقيبات الأثرية في موقع مدينة (تيماء) في شمال جزيرة العرب.[2] تحمل المسلة نقشا بالقلم اللحياني

---

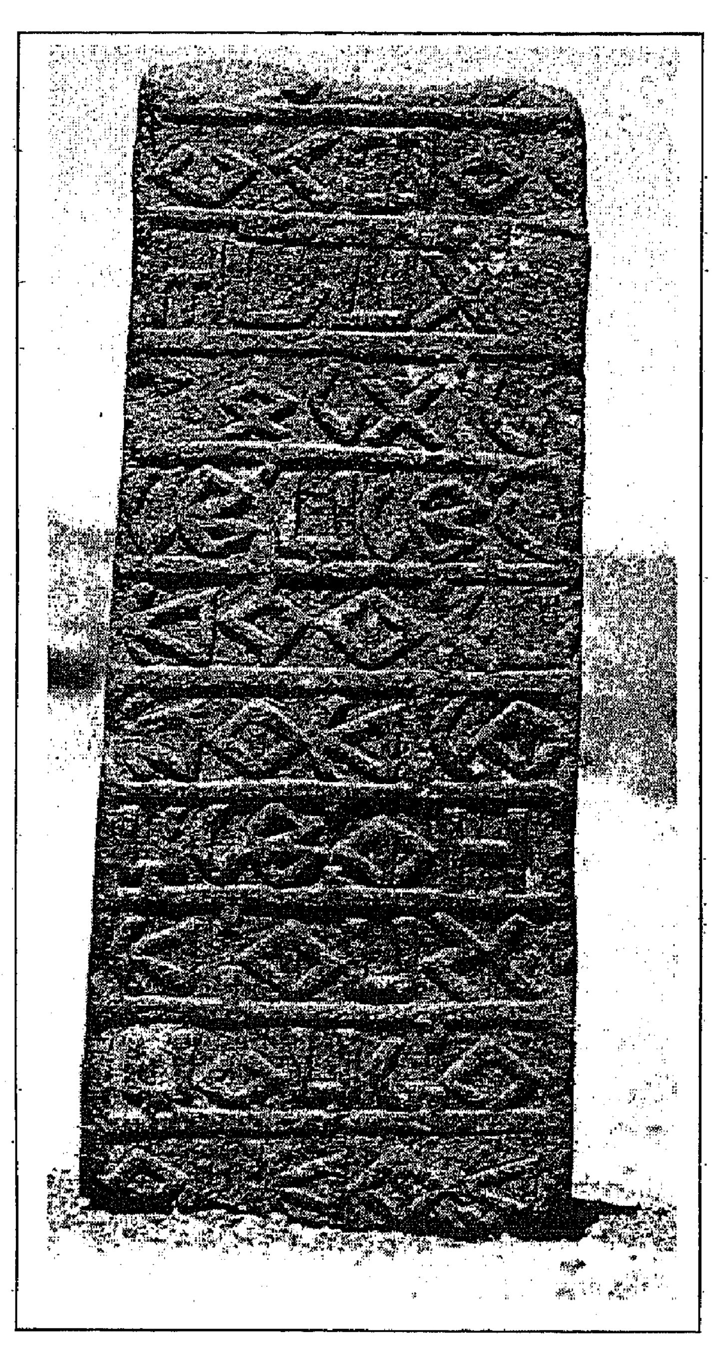
(1) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت 1993، 3/ 147.

(2) إنها محفوظة في الوقت الحاضر بمتحف اللوفر بباريس. وبسبب أن العثور عليها كان في موقع (تيماء) الواقعة في الجزء الشمالي الغربي من شبه جزيرة العرب لذلك عرفت بين الناس وعند المعنيين بالآثار بـ(مسلة تيماء).

بالنحت البارز في عشرة أسطر؛ وضع بين السطر والذي يليه خطا مستقيما أفقيا عريضا وبارزا أيضا. وقد يظن المرء للوهلة الأولى أن المسلة خاصة بأخبار بعض الملوك الليحانيين غير أنها في الواقع سجل شخصي إعلامي خاص ببعض الأسر الأرستقراطية، فيها سرد مع تفاصيل للقرابين والهدايا التي قدمتها تلك الأسرة لمعبد خاص ببعض الآلهة الليحانية أو تلك التي تعبد من قبل عرب شمال شبه الجزيرة العربية (شكل5).[1]

صحيح إن قلم (المسند الحميري) قد عفى عليه الزمن حيث استعاض عنه العرب تدريجيّا قبيل الإسلام بقليل، أو في أوائل العصر الإسلامي بما يعرف بالقلم العربي الشمالي؛ إلا أن أمره لم ينته تماما ولاسيما في اليمن حيث ظل قيد الاستعمال حتى أواسط عصر الخلفاء الراشدين؛ ليس هذا فقط بل ظل قيد الاستعمال في بعض الأقاليم مثل الحبشة وأريتيريا وفي بعض أقاليم الجزء الشرقي من أفريقيا الأخرى حتى يومنا هذا.

(1) Nasif, A. A. , Al-Ula, Riyadh,. 1988. P. 22 ،pl.21



(شكل5)

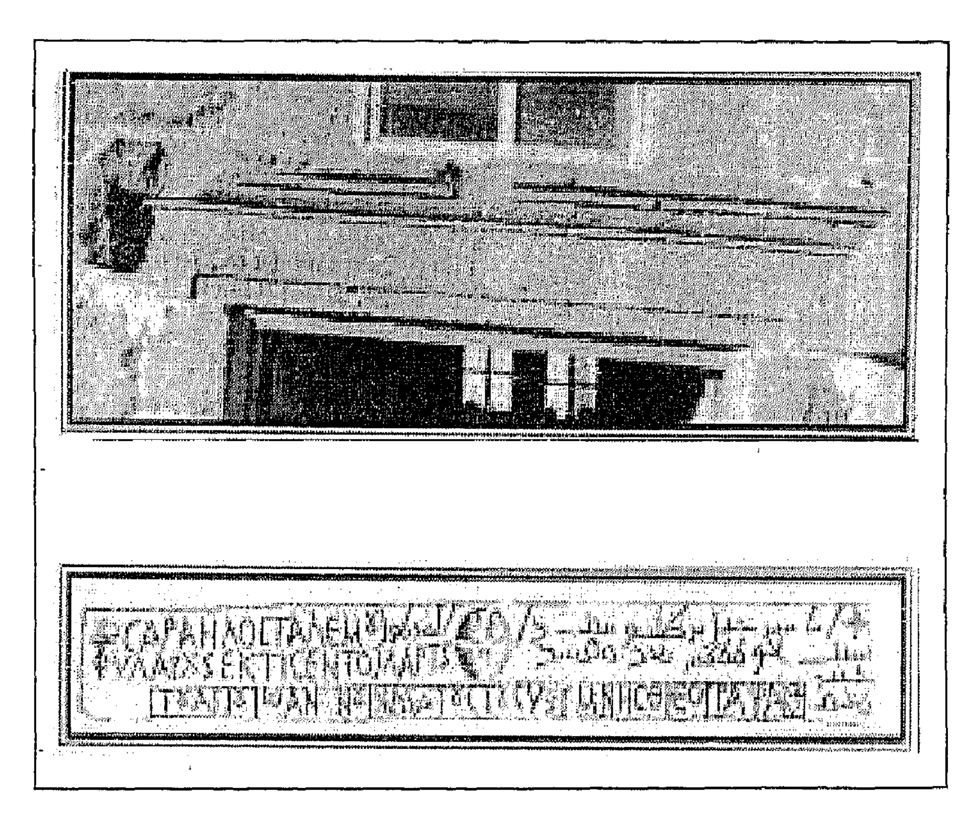
مسلة (تيماء) تعود إلى القرن الثالث الميلادي- متحف اللوفر بباريس

عن: A. A. Nasif

أما الضرب الثاني الخط الذي يعرف عند المختصين بـ(الخط العربي الشمالي) وهو الذي نكتب به اليوم الذي فلم يبتدعه أو يطوّره العرب في شمال

شبه جزيرة العرب أو في جنوب بلاد الشام إلا في القرن الرابع أو أوائل القرن الخامس الميلادي، ولم يدخل إلى قلب شبه جزيرة العرب، إلا قبل بضعة عقود من بزوغ نور الدين الإسلامي الحنيف ولذلك فإن ما وصل إلينا منها نادر جدا.

إن أغلب ما بين أيدينا من النقوش الإعلامية التي تسبق الإسلام قد كتب بالقلم العربي الحالي ويعرف عند المختصين باللغات السامية بالعربي الشمالي من تلك النقوش الكتابية التي وصلت إلينا التي تسبق الإسلام بنحو نصف قرن من الزمن نقش منفّذ عن طريق الحفر الغائر



(شكل6)

الكتيبة الرخامية المنقوشة التي تعلو مدخل كنيسة الشهداء في موقع مدينة ام الجمال

تصوير وتفريغ: Christian Robin

على إفريز رخامي مصقولا صقلا جيدا كان يعلو مدخل (كنيسة الشهداء) القديمة في مدينة (أم الجمال) الواقعة خرائبها شمال شرق مدينة عمان في

الأردن؛ ومن الواضح أن قد جدد بناؤها أكثر من مرة غير أن الآمرين بالتجديد كانوا حريصين إلى ما يبدو في الحفاظ على اللوح القديم وليحتل مكانه المعتاد فوق مدخل الكنيسة الرئيس (شكل5).

يقرأ النقش على النحو التالي: (انا شرحيل بن ظلمو (ظالم) بنيت ذا المرطول سنة 463 (حسب تقويم بصرى الذي يقابل سنة 568 ميلادية) بعد مفسد (خراب) خيبر بعام (أي بسنة واحدة)؛[1] الذي يمكن أن يعد ترجمة شبه حرفية للنص اليوناني المحاذي له في الإفريز نفسه يتسم بشيء من الأهمية من الناحية التاريخية الإعلامية.

لقد أفادنا كاتبه، ويدعى كما جاء في النص (شرحيل بن ظالم)، انه قد أقام صرح كنيسة أطلق عليها اسم (ذو المرطول): أي (كنيسة الشهداء) حيث أن الكلمة العربية هذه معرّبة من اللفظة اليونانية Martyr؛ كان ذلك في شهور سنة 568ميلادية وهي السنة السابقة على غزو أو خراب حصن أو مدينة (خيبر)؛ كما جاء في النص (شكل7). وكما هو معروف أن (خيبر) التي تقع على مسافة 160كيلومترا إلى الشمال الغربي من مدينة يثرب كان غالبية سكانها من اليهود آنذاك. وظلت على ذلك النحو حتى سنة 20 هجرية (641م) عندما أجلى اليهود عنها عمر بن الخطاب (13-23هـ/ 634-644م) (ﷺ) إلى العراق.[2]

---

(1) يبدأ هذا التاريخ باحتلال عاصمة الأنباط بصرى من قبل الإمبراطور الروماني تراجان Trajan في سنة 105 ميلادية.

(2) وكذلك أجلى اليهود والنصارى عن نجران في شمال اليمن إلى بلاد الشام في السنة نفسها، وقد احتج الخليفة عمر الفاروق في ذلك بحديث نبوي جاء فيه أنه سمع رسول الله (ص) يقول: (لا يجتمع دينان في جزيرة العرب).

إن أهمية هذا النقش من الناحية الإعلامية تكمن في أن (خيبر) قد تمّ غزوها في السنة السابقة على تاريخ النقش. في حين أفادنا مؤرخ عباسي أن واحدا من ملوك دولة الغساسنة في جنوب بلاد الشام كان قد اجتاح قبل الإسلام (خيبر) غير أنه لم يعرّفنا باسم ذلك الملك ولا تاريخ تلك الغزوة أو ذلك الاجتياح.[1] في حين أن النقش الذي بين أيدينا قد أفادنا بوضوح تام من الناحية الإعلامية التاريخية بخبر مفاده أن الاجتياح قد تمّ في سنة 567ميلادية؛ أي قبل ولادة النبي محمد (ﷺ) ببضع سنوات فقط والتي تقع في أيام حكم ملك الغساسنة المنذر بن حارثة في عهد الإمبراطور البيزنطي جوستين الثاني Justin II (565-578م).

ونلاحظ ان من بين أقدم النصوص الكتابية العربية التي وصلت إلينا من التي تعود إلى عهود سابقة على الإسلام نقوش كتابية تذكارية إعلامية وإن كانت على الصعيد الشخصي الصرف. وصلت إلينا تلك النصوص جميعها منقوشة عن طريق التحزيز العميق أو السطحي (الخربشة) على قطع من الحجارة الصقيل الصلدة متفاوتة في الحجم؛ كان قد كتبها أصحابها ثم وضعوها على جوانب طرق القوافل لأسباب ليست واضحة تماما ولكن كتبت في أغلب الظن ليقرأها من اجتاز بتلك الطرق من المارة من بني جلدتهم أو بعض أفراد القبائل العربية الأخرى.

إن معظم النقوش التي وصلت إلينا شخصية كتبت ببعض الأقلام المشتقة من قلم المسند الحميري الجنوبي مثل القلم الثمودي واللحياني والصفوي

(1) ابن قتيبة الدينوري، محمد بن مسلم، (ت276هـ)، كتاب المعارف، القاهرة 1969، ص421

وغيرها غير أنها جميعا قد كتبت بلهجات عربية ثقيلة قياسا بالعربية الفصحى، والنادر جدا منها بالقلم العربي الشمالي الذي كان الناس حديثي العهد به. وكثيرا ما نجد أن من بين تلك النقوش ما يتسم بشيء من الأهمية الإعلامية أو التاريخية كانت مثيرة أو تتسم بشيء من الأهمية في الزمن الذي وقعت فيه. أو ربما أنها قد حدثت أمام نظره؛ مثل معركة دارت بين الروم والفرس أو بين الروم وبعض القبائل العربية أو معركة دارت بين قبيلتين عربيتين أو مشاهدتهم لحيوانات ضارية في المنطقة وغيرها من أخبار تهم الآخرين معرفتها. إن جميع تلك النقوش الكتابية على قصرها تتسم بأهمية خاصة لاسيما من الناحية الإعلامية.

ومن النقوش الكتابية الإعلامية البالغة الأهمية التي سبقت الإسلام وتهم المؤرخين المحدثين نقش كتب بخط عربي قديم على قطعة من الحجارة تمّ العثور عليها عند جبل (اسيس) في جنوب بلاد الشام (شكل8).[1] أفادنا كاتبة واسمه (رقيم بن معروف الأوسي) أن الملك الغساني جبلة بن الأيهم قد أوفده بمهمة عسكرية خاصة أو ليكون على رأس حامية عسكرية في حصن بجبل (أسيس) في سنة 423 حسب تقويم بصرى الذي يقابلها سنة 528ميلادية. وما يزال هذا الجبل الذي يقع في جنوب بلاد الشام يعرف حتى يومنا هذا بالاسم ذاته.

ويبدو أن حصن جبل (أسيس) كان واحدا من الحصون الحربية المتقدمة التي كانت قد أقيمت في الأراضي الفاصلة بين دولتي الغساسنة في الشام

(1) يقرأ النص على النحو الآتي: (أنه (هكذا) رقيم بن معروف إلاوسي. أرسلني الحارثة الملك على مسلحة أسيس بسنة 423).

والمناذرة في العراق.[1] كان ذلك في الأرجح قبيل المعركة الكبيرة التي وقعت بين الغساسنة والمناذرة في شهور سنة 529 ميلادية.[2] لقد سجّل التاريخ لجبلة بن إلأيهم هنا انتصارا عسكريا كبيرا على ملك المناذرة المنذر الثالث، كان من نتيجتها أن صار للملك الغساني نفوذا عظيما في المنطقة، ليس هذا فقط بل أعتبر رئيسا على جميع القبائل العربية في بلاد الشام والأردن وفلسطين بأمر من الإمبراطور البيزنطي جستنيان الأول Justinian I (527–565م).[3]

ولم تكن جميع النقوش الإعلامية العربية التي تسبق الإسلام التي وصلت إلينا تعدّ نقوشا إعلامية تشير إلى حدث معيّن أو فيها مفاخرة أو تباهي والنادر جدا منها نقوشا إشهارية تنكيليه أراد بها من كتبها الإساءة والتنكيل برجال معاصرين له معروف له تماما، بسبب عمل غير مستحب قام به على ما يبدو ذلك الرجل.

ويبدو أن العرب سواء في العصر السابق على الإسلام أو في العصر الإسلامي المبكّر، كانوا مولعين بمثل تلك الأخبار التي يدوّنها أصحابها عن طريق التحزيز على صخور الطرق السالكة ليقرأها من يجتاز بها من السابلة. من

---

(1) المسعودي، علي بن الحسين، (ت 347هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، القاهرة 1948، الجزء الثاني، ص221

(2) لقد كتب النقش عن طريق الحفر الغائر بخط عربي قديم غير منقوط أو مشكول على قطعة صلدة من الحجارة عند جبل (اسيس) الواقع على مسافة 150 كيلومترا إلى الجنوب الشرقي من مدينة دمشق، تمّ اكتشافه في سنة 1966. النقش محفوظ في الوقت الحاضر في متحف دمشق الوطني.

(3) جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، بغداد 1955، الجزء الثالث، ص323

ذلك على سبيل المثال أن مئات النقوش الكتابية من هذا النوع قد حزّزت على صخور الجبال الصلدة الملساء المحيطة بمدينة (الطائف) في قلب الجزيرة العربية؛ يرجع تاريخ معظمها إلى العصر الإسلامي المبكر؛ بعضها نصوص دعائية يخاطب فيها من كتبها الله جل شأنه يطلب فيها منه الرحمة والمغفرة؛ وبعضها إعلامية أراد صاحبها أن يعلم الآخرين ببعض الأحداث التاريخية المهمة التي وقعت في أيامه، والأخرى نقوش تعريفية تحمل فقط اسم الشخص الذي كتبها وكنيته، ولم نجد من بينها نقوشا كيديّة إشهارية إلا في النادر جدا منها.

الفصل الثاني

الإعلام عن طريق الشعر

الفصل الثاني

الإعلام عن طريق الشعر

من الواضح أن المرء يستطيع أن ينقل عن طريق المكالمة العادية رسالته الشفوية إلى فرد واحد أو مجموعة من الأفراد ولكن ليس إلى عدد كبير جدا من الناس، ولذلك غالبا ما كانت العرب قبل الإسلام أو في صدره الأول تستعين بالشعر كوسيلة مهمة من وسائل الاتصال أو التواصل في سبيل أيصال الرسائل الإعلامية إلى أكبر عدد ممكن من الناس بما في ذلك أناس لا علاقة شخصية لهم بهم. والحق أن الشعر الجزل كان ناقلا ومجسدا للمعاني ومؤثرا في النفس عند الجماهير الغفيرة آنذاك، حيث عن طريق اللغة اللفظية العذبة للشعر يتم نقل الرسائل الإعلامية وإيصالها إلى جمهور واسع؛[1] فمن المسلم به أن الشعر يعد واحدا من أقدم وسائل الإعلام في المجتمعات الإنسانية، ظهر في أول الأمر في البيئات الأقرب إلى البداوة منها إلى الحضارة أو المدنية

ويخطئ من يظن أن الشعر ليس إعلاميا ولا يمكن أن يكون كذلك، والحق إن الشعر ولاسيما الملتزم والموجّه منه يعد من أقوى الوسائل الإعلامية والدعائية عبر العصور المتعاقبة؛ إنه يشبه السحر من حيث التأثير في الأفراد والجماهير؛ إنه يعمل على هز مشاعر الأفراد والتأثير في سلوكهم وذلك في مجتمع معيّن وزمان محدد وهدف ثابت. فلا خلاف بين الجميع في أن إضافة إلى جوانبه الفنيّة والأدبية له جانب إعلامي لا نكران من وجوده، إنه يرتبط

---

(1) هادي نعمان الهيتي، اللغة في عملية الاتصال الجماهيري، ص12

بالجمهور المتلقي ارتباطا وثيقا؛ وربما لهذا السبب عدّ في العهود الغابرة على الأقل بمصاف الصحافة في يومنا هذا. ولئن اتسع نطاق الصحافة الحديثة اليوم وتطوّرت أساليبها وأخذت تؤدي رسالتها السامية في ميادين الإعلام والتواصل فما يزال الشعر في أبسط صوره تعبيرا موضوعيا عن عقلية الجماهير وأفكارها واتجاهاتها، وربما حتى بعض تطلّعاتها؛ إنه بهذا المعنى إعلام وتواصل؛ فالشعر، أو جانب منه على الأقل، يمكن أن يعبر عن عقلية الجماهير وعن ميولها واتجاهاتها المختلفة.[1] إنه في واقع الأمر اللسان الناطق والقلب النابض للجمهور عند العرب في العصر الجاهلي وفي فجر الإسلام لا سيما الشعر الجيد والسلس؛ إنه أشبه بصحيفة حزبية في يومنا هذا، وأشبه بالإذاعة التي تبث رأيها وتنشر عقيدتها بين الجمهور المتلقي؛ فقد أفاد الناس من الشعر في هذا الباب أعظم فائدة، فبوجوده لم يعدموا وسيلة للتعبير عن آرائهم وأفكارهم فقد كان بمثابة صحيفتهم المثلى والوسيلة الفاعلة والمحببة في الإعلام وكذلك في الإعلان والمشاهرة قبيل الإسلام وفي فجره ثم عبر القرون التي أعقبت ذلك.

وعلى ذلك يمكن القول أن الشعر كان عاملا أساسا أو الوسيلة المثلى في عملية نشر الخبر عند القدماء. ليس هذا فقط بل ربما يُعد واحداً من أقدم وسائل الإعلام عند جميع الأمم في العالم القديم بما في ذلك البابليين والآشوريين وكذلك عند اليونانيين القدماء حيث وصلت إلينا الكثير من الملاحم الشعرية المعروفة لنا اليوم كتبها أصحاب تلك الحضارات.[2]

---

(1) منير بكر، الشعر إعلام. العرب وصحافتهم، مجلة كلية الاداب، جامعة بغداد، العدد 19، سنة 1976، ص136.

(2) ومع ذلك لم يلاق صدى حسنا عن بعض كبار فلاسفة اليونان حتى لنجد أن الفيلسوف اليوناني (أفلاطون) الذي عاش في مطاوي المئة الخامسة قبل الميلاد لم يرض عن الشعر =

إن الشعر إذن أدب إعلامي لا نكران فيه، ولا يقل أهمية في تلك العهود الغابرة عن الإذاعة والتلفاز والصحف وما شابه ذلك. ولاشك أن الذي ساعد على الاستفادة المثلى من الشعر في تحقيق الغاية في الاتصال الجماهيري هو قبوله من لدن الناس أو الجمهور المتلقي، ليس عند العرب فحسب بل عند جميع الشعوب المتحضرة أو غير المتحضرة منذ اقدم العصور؛ بما في ذلك الملاحم الكبرى في العالم القديم مثل (**ملحمة كالكامش**) الشعرية عند السومريين والبابليين التي يعود تاريخها إلى النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد على الأقل؛ وكذلك (**قصة الخليقة**) الشعرية عند السومريين القدماء؛ وأيضا (**الإلياذة**) لهوميروس عند اليونان التي يعود تاريخهما إلى النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد وغيرها من القصائد والملاحم الشعرية الخاصة بالشعوب.

أما بخصوص العرب فكما هو معروف كان لكل واحد من الشعراء الكبار في العصر الجاهلي وفي فجر الإسلام راوية يروي عنه للناس شعره؛ فهو أشبه بالمراسل الصحفي الخاص به أو الناطق الرسمي باسمه. كما كانت تقام في شبه جزيرة العرب مهرجانات شعريّة دوريّة خاصة في أيام معيّنة من السنة يجتمع فيها الناس من كل حدب وصوب في مواضع معينة للبيع والشراء وفي الوقت نفسه يستمتعون فيها وبشغف بالغ بإنشاد الشعراء لآخر قصائدهم الشعرية أو أفضل ما عندهم منها. وربما أن اشهر تلك التجمعات التجارية والشعرية في

= والشعراء فهو يرى أن ليس عند الشعراء سوى الإعلام والتجارة بالخيال، وأن الشاعر لا يرضى إلا بحريته التي تستبيح الأخلاق وتداعي الحواجز والمواقع التي يفرضها الفلاسفة والمهذبون؛ ولذلك نبذ أفلاطون الشعر جملة وتفصيلا وأخرج الشعراء من مدينته الفاضلة.

(Plato ،the Republic_London ،1956 ،vol. 3. P.398)

العصر الجاهلي القريب، تلك التي كانت تقام في (المربد) القريبة من البصرة أو (الأبلة) في جنوب العراق، وكذلك في (عكاظ) قرب مكة المكرمة وفي غيرهما من الأسواق.

ولم يغفل الأساتذة الكبار أهمية الشعر العظيمة في الإعلام ولاسيما في فجر وصدر الإسلام. لقد كتبوا أن الشعر كان اللسان الناطق والقلب النابض للجمهور؛ إنه كان في السابق أشبه بصحيفة حزبية في يومنا هذا؛ فمن المؤكد أن الشاعر عند العرب كان يعد صاحب رسالة إعلامية؛ من ذلك على سبيل المثال حسان بن ثابت يعد من الجانب الإعلامي صحيفة الإسلام الثورية، وأن الشاعر الكميت بن زيد (ت 126هـ) كان بمثابة إذاعة آل البيت التي بثت آرائها ونشرت عقيدتها ولاسيما في أجواء العراق؛[1] ثم أن الطرماح بن حكيم (ت 125هـ)،[2] كان صوت الخوارج المدوي في الآفاق والذي جسّد عقيدة الخوارج وأفنى زهرة شبابه من أجل رفع رأية الخوارج عاليا من الناحية الإعلامية على الأقل وبث الدعوة لهم بين الناس جميعا عن طريق شعره الجزل.[3]

ويذكر المعنيون والمختصون بالأدب العربي أن القصائد الشعرية في العصر الجاهلي وفي فجر الإسلام غالبا ما كانت تلحّن ثم تنشد؛ أي تغنى؛ أي تلقى على الجماهير غناء أو ترتيلا. ومن المؤكد أن تلحين الشعر قد ساعد على نحو عظيم في نشر الخبر بين جماهير الناس بمختلف طبقاتهم بطريقة مستحبّة تماما. وبما

---

(1) إنه من بني أسدمن أهل الكوفة، كان خطيب بني أسد وفقيه الشيعة وفارسا شجاعا وسخيا، وكان عالما بآداب العرب وأخبارهم وأنسابهم (الزركلي، الإعلام، 5/ 233).

(2) إنه من قبيلة طيء، ولد ونشأ في الشام ثم انتقل إلى الكوفة فكان معلما فيها (الزركلي، الإعلام، 3/ 225).

(3) المصدر نفسه، ص137.

أن الغالبية العظمى من الأغاني هي عبارة عن قصائد شعرية خضعت للتلحين لذلك نجد أن الشعراء غالبا ما كانوا ينهجون إلى تناول السهل الممتنع السلس من الكلمات لتتلاءم مع قالبهم الشعري من إيقاعات ونبرات ومدّات طويلة وقصيرة التي تمثّل في أغلب الأحيان نوعا من النظام الشعري الموزون. وها هو العالم الاجتماعي والمؤرخ ابن خلدون يعرف لنا القصائد الغنائية بأنها: (**الأشعار الموزونة بتقطيع الأصوات على نسب منتظمة معروفة، يوقع كل صوت فيها توقيعا عند قطعه فيكوّن نغمة. ثم تؤلف تلك النغم بعضها إلى بعض على نسب متعارفة فيلذّ سماعها لأجل ذلك التناسب وما يحدث في الكيفيّة في تلك الأصوات**).[1]

لقد استعين بمصطلح (**إنشاد الشعر**) للتعبير عن الميل نحو الأسلوب الفني في صياغة الكلمات وطرائف البناء اللغوي والرغبة في ترتيل الشعر وتلقائية التنغيم الحروفي المشبّعة به أشكال الكلمات الإيقاعية الخاصة بالشعر المقفى والموزون؛[2] وقد ينسحب هذا القول في بعض الأحيان على النثر أيضا ولاسيما القائم على السجع منه. ومما لاشك فيه أيضا أن قرّاء القرآن الكريم المبكرين قد فادوا فائدة كبيرة في ترتيل آيات القرآن الكريم ربما على نسق قريب من ترتيل الشعر الذي كان في قيد التداول في فجر الإسلام. وما يزال القرآن الكريم يرتل أو يجوّد عند القراءة. ليس هذا فقط بل أن الأذان أيضا ضرب من ضروب الإشهار؛ ونعني بهذا القول هنا الإعلان عن مواعيد الصلاة من فوق المآذن أو

---

(1) ابن خلدون، ص446.

(2) عادل الهاشمي، الشعر والموسيقى، موسوعة حضارة العراق، بغداد، 1985 الجزء التاسع، ص521-522.

أي بناء مرتفع مجاور للمسجد. لقد كان الأذان منذ عهد النبي (ﷺ) وحتى يومنا هذا نسمعه مرتّلا ومجوّدا في جميع أنحاء العالم الإسلامي.

إن الإقبال على الشعر كان عظيما في العصر الجاهلي وكذلك في العصر الإسلامي الأول؛ كان الناس يستمتعون بالإصغاء إلى قصائد الغزل والتشبيب مثل شعر أمرؤ القيس الرقيق، والقصائد الخاصة بالشجاعة والفروسية التي كانوا يجدونها في معلقتي عمرو بن هند وعنترة بن شداد وفي غيرهما من عيون الشعر العربي في العصر الجاهلي. وأيضا كان الناس يشعرون بمتعة بالغة في الاستماع إلى الأشعار التي تحوي على الحكم والنصائح والأمثال؛ مثل تلك التي نتلمّسها في معلقتي التابغة الذبياني وزهير بن أبي سلمى. وبالإضافة إلى كل ذلك صار الشعر النافذة الرئيسة أو الوسيلة الأساس للاطلاع على مجريات الأمورالعامة وما يدور حول الناس من حديث ليس في العصر الجاهلي فحسب بل أيضا في العهود الإسلامية المتعاقبة.

وبكلمة أخرى يمكن القول أن الشعر كان الوسيلة الفضلى بل الأكثر فعاليّة في الإعلام أو نشر الخبرعلى الملأ أو بين الجمهور المتلقي؛ فعن طريق الشعر كان يتمّ الإشهار أي نشر الأخبار المراد نشرها بين القبائل العربية أينما كانت. لقد كان أفراد هذه القبائل وعلى نحو خاص في العصر الجاهلي والعهود الإسلامية المبكرة؛ تشكل الوسيلة المثلى في الاتصال الجماهيري،[1]

---

(1) وضع العلماء العصر الجاهلي في حقبتين رئيستين هما (الجاهلية الأولى) والتي كانت من جملة قبائلها الكبرى (عاد) و(ثمود) و(قسم) و(جديس) التي وردت أسماءهم جميعا في القرآن الكريم وأثبتت الدراسات الأثرية والتاريخية صحة ودقة المعلومات التي وردت بخصوصها في القرآن الكريم والتي ظل بعضها موجودا في شبه جزيرة العرب حتى فجر الإسلام مثل بعض القبائل الليحانية. أن بالإمكان أن نعد نهاية الجاهلية الأولى بأواخر =

ولهذا السبب كانت العرب تحسب للشعر الف حساب. وما التباهي والمفاخرة أو المديح والثناء أو الهجو والتثليب أو الغزل والتشبيب أو الوصف والحكمة في القصائد الشعرية إلا وسيلة من وسائل الاتصال الجماهيري عند العرب، سواء كان ذلك الشعر ذا أهداف سلبية أو إيجابية؛ أي مدحا أو ذمّا أي ثناء أو هجاء، أو أن يكون الغرض منه المفاخرة والمباهاة ليس غير.

لقد كان الناس يتلقّفون الأبيات الشعرية حالما ينطق بها الشعراء وبخاصة المشهورين منهم مثل أصحاب المعلقات السبعة كأمرؤ القيس وزهير ابن أبي سلمى والنابغة الذبياني وطرفة بن العبد وغيرهم والتي يذكر المؤرخون أن معلقاتهم كانت قد كتبت بماء الذهب وعلّقت على جدران الكعبة المشرّفة،[1] ليتمتع بها جميع الناس بمختلف طبقاتهم؛ يقرأها من يحسن القراءة على من لا يحسنها. ويكفي أن نذكر هنا أن القصائد ذات المدلول السياسي أو الديني كانت تنتشر بين جماهير الناس بسرعة كبيرة وعلى نطاق واسع لاسيما إن كانت تلاقي هوى في نفوس الناس وعلى نحو خاص تلك التي يشتم منها رائحة معارضة للسلطة الحاكمة. واستمر الأمر على هذا النحو في العصرين الأموي ثم العباسي. والواقع أن الشعراء ولاسيما الجيدين منهم كانوا أشبه بوكالات الأنباء

= القرن الثالث الميلادي؛ أما الجاهلية الثانية فهي القريبة من العصر الذي بزغ فيه نور الإسلام الحنيف؛ وفي هذه الفترة وجدت أو عاشت القبائل العربية نفسها التي كان معظمها موجودا أيام رسول الله (ﷺ) وفي فجر الإسلام وكان أغلبها على البداوة. (جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، 1/ 66).

(1) أسامة ناصر النقشبندي، التذهيب والزخرفة، موسوعة حضارة العراق، بغداد 1985، 9/ 459

في أيامنا هذه، حيث كانت قصائدهم تنتشر بين الجماهير مثل انتشار النار في الهشيم كما يقال.

وهكذا يمكن القول أن الشعر كان قد استعين به في الماضي بمختلف ضروب الإعلام والإشهار. لقد كان الشعراء يعدّون بمثابة الناطقين الإعلاميين الرسميين للقبائل كما سبق أن ذكرت. وكثيرا ما كانت وقائع وحروب دامية ومريرة تقع بين قبائل عربية في شبه جزيرة العرب قبل الإسلام من جراء أبيات من الشعر قالها شاعر القبيلة الفلانيّة في ذم أو هجاء رئيس أو بعض الأفراد المتنفذين من قبيلة أخرى.

وكما معروف لنا جميعا أن الإسلام لقى مقاومة عنيفة من قبل المشركين يقودهم في ذلك زعماء قريش وأصحاب المصالح من شيوخ القبائل الأخرى. ولم تقف أسلحة ذلك الصراع على السيوف والرماح بل تمّت الاستعانة بمختلف الأسلحة الإعلامية التي كانت في قيد الاستعمال في ذلك العصر، كان منها الشعر، حيث استعين به كقوّة لا تقاوم في الإعلام. والحق أن الشعر كان وسيلة مهمة وفاعلة في الاتصال الجماهيري عند العرب؛ وكثيراً ما كانت العرب تدفع الأموال للشعراء من أجل أن ينظموا قصيدة في مدح أو ذم أو هجاء.

ولم يتخلف رسول الله عن استخدام الشعر لهذا الغرض؛ من ذلك على سبيل المثال ما روي من أن قريش فد حاولت أن تغري الصحابي حسان بن ثابت قبل إسلامه وهو من الخزرج على هجاء رسول الله. وفي سبيل تحقيق ذلك دفعت اليه مبلغا لا يستهان به من المال؛ فوقف على ربوة من الأرض منتظرا الرسول الكريم ليجتاز به علّه أن يكتشف شيئا من العيوب فيه ليهجوه بها. غير أن ما حدث كان العكس تماما؛ فعندما اجتاز به النبي (ﷺ) دخل نور الإسلام إلى

قلبه فاسلم. وكان الصحابي حسان بن ثابت قد عرف منذ ذلك الوقت بـ(شاعر الإسلام).

لقد نظم المسلون حملة إعلامية فعّالة بقيادة حسان بن ثابت للدفاع عن الدين الإسلامي الحنيف لنشر دعوته والرد على المشركين، فظهر نتيجة لتلك الحرب الشعرية ضرب من الشعر الأيديولوجي في الإعلان عن العقيدة ودعوة الناس إلى الدخول في الدين الجديد وتبشير المؤمنين ووعيد الكافرين. وقد حاول الشعراء المسلمون مجاراة القرآن الكريم في جزالة الكلام وروعة اللفظ وبراعة التشبيهات.[1]

وقد يكون من المفيد أن أذكر هنا أن الشعر والقصائد المتبادلة بين قبيلتي الأوس والخزرج في مدينة يثرب (المدينة المنوّرة) بعد أن كان فخرا وهجاء جاهليا من أجل السيادة القبلية والمكاسب الماديّة أخذ يتحوّل بعد هجرة الرسول إلى تلك المدينة إلى فخر وهجاء إسلامي إعلامي ضد قريش وحلفائها. ويذكر بهذا الخصوص أيضا أن القبائل العربية باتت تتجه تدريجيا إلى أحد الجانبين فشعراؤها صاروا أما مع الإسلام وأما عليه مع الكفار والوثنيين.

بعد هجرة النبي محمد (ﷺ) إلى يثرب من البديهي أن يقوم المشركون بمهاجمة الإسلام والمسلمين بقصائد كثيرة كجزء من الإعلام أو التشهير السلبي بحق شخص النبي الكريم. والواقع أن الإعلام السلبي الكيدي المسيء إلى الآخرين على نحو متعمّد عن طريق الهجاء بالشعر كان يؤذي حتى اكثر الناس صبرا واحتمالا وأعظمهم حلما أو شفقة ورحمة بالآخرين مثل رسول الله (ﷺ).

---

(1) محمد التهامي، الإعلام في الإسلام، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد 21، سنة1977، ص493

نعم ....كان رسول الله يتذوّق الشعر الجيد غير أنه كان في الوقت نفسه على دراية تامة بسلاح الشعر كوسيلة من وسائل الإعلام الخطيرة جدا في ذلك العصر ولاسيما الإعلام السلبي المسيء. والهجاء كان يؤذي رسول الله حتى ليروى عنه قوله: (اللهم من هجاني فالعنه مكان كل هجاء لعنه). وفي واقع الأمر لم يكن رسول الله يسمح للإعلام المغرض المسيء عن طريق الشعر أو غيره أن يستمر أو يستشري سواء كان له شخصيا ولمصلحة الإسلام، فلم يكن رسول الله يتساهل بهجاء الشعراء للإسلام أو بهجائهم لشخصه كان عليه أن يظهر للناس بصفة الزعيم الكامل الذي لا يتقوّل عليه أو يخوضون في عرضه. ولم يتورع عن أن يردّ على خصومه بالأسلوب نفسه؛ فالحرب هي الحرب كما يقال.[1]

ويذكر أن حسان بن ثابت استأذن رسول الله في هجاء أعداء الإسلام من قريش أو من غير قريش الذين تأذى النبي منهم أو من هجائهم له أو للإسلام، فأذن النبي الكريم لحسان في هجائهم.[2] فبات حسان يرد بشعره بروعة وقوة

(1) دأود سلوم، الإسلام والشعر، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد الأول، سنة 1959، ص67

(2) من قصائده في مدح الرسول وهجو الكفار بعد معركة بدر قوله:

وقد زعمتم بأنّ تحموا ذماركم	وماء بدر زعمتم غير مورود
ثم وردنا ولم نهدر لقولكم	حتى شربنا رواء غير تصريد
فينا الرسول وفينا الحق نتبعه	حتى الممات ونصر غير محدود
مبارك كضياء الحق صورته	ما قال كان قضاء غير مردود
مستعصمين بحبل غير منجدم	مستحكم من حبال الله ممدود

(ديوان حسان بن ثابت، تحقيق وليد عرفات، بيروت، 1974، 1/ 128)

بالغة على تخرّص شعراء الوثنية وغيرهم لاسيما قريش المتمركزة في مكة المكرّمة التي ناصبت الإسلام ورسول الله أشدّ العداء.[1] فمن قصائده المشهورة التي رد فيها على تخرّص وأكاذيب أبي سفيان بن حرب بعد معركة بدر الكبرى في السنة الثالثة من الهجرة النبوية المباركة: القصيدة الإعلامية التي لاقت صدا عظيما بين القبائل العربية على نحو عام هي تلك التي من أبياتها:

وقال الحق قد سيّرت عبدا — يقول الحق إن وقع البلاء
شهدت به فقوموا صدقوه — فقلتم لا نقوم ولا نشاء
إلا بلّغ أبا سفيان عني — مغلغلة فقد برح الخفاء
وإن سيوفنا تركتك عبدا — وعبد الدار سادتها الإماء
هجوت محمدا وأجبت عنه — وعند الله في ذاك الجزاء
فمن يهجو رسول الله منكم — فيهجوه ويمدحه سواء

الذي أفادتنا المدونات التاريخية أن النبي رضوان الله عليه كان بعد فتح مكة قد أمر بقتل الشاعر المخضرم كعب بن زهير بن أبي سلمى بسبب بعض قصائده الشديدة المرارة التي أساء بها إلى الإسلام وهجا فيها تجنّيا سيد المرسلين وخاتم النبيين.[2] وكما هو معروف أن رسول الله قد عفا عنه بعد ذلك لأسباب إنسانية وربما لكونه أيضا شاعرا مجيدا وواحدا من فحول الشعراء العرب المخضرمين.

---

(1) لقد عاش حسان بن ثابت طويلا؛ يقال أنه توفي عن عمر ناهز 120 عاما؛ ستين منها في العصر الجاهلي وستين منها في الإسلام. وقد اختلف المؤرخون في تاريخ وفاته، فمنهم من كتب أنه توفي في سنة 40 هجرية (660م) ومنهم من ذكر أن وفاته كانت في سنة 54 هجرية (673م) في خلافة معاوية بن أبي سفيان.

(2) (المخضرم) اصطلاح يطلق على الشعراء الذين قالوا الشعر في العصر الجاهلي ثم أدركوا الإسلام وظلوا يقولون الشعر في فجر الإسلام أو في عصره الأول.

وما أن تبادر إلى مسامع كعب بن زهير عفو رسول الله عنه حتى قدم إليه إلى المدينة المنوّرة وانشد بين يديه قصيدته المشهورة التي مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيّم أثرها لم يفد مكبول

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا ... إلا أغنّ غضيض الطرف مكحول

هيفاء مقبلة عجراء مدبرة ... لا يشتكي قصر منها ولا طول

ويستمر في وصف سعاد وعاداتها حتى يصل إلى القول:

أنبئت أن رسول الله أوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمول

وقد أتيت رسول الله معتذرا ... والعذر عند رسول الله مقبول

وعندما وصل إلى البيت الذي قال فيه:

إن الرسول لسيف يستضاء به ... مهند من سيوف الهند مسلول

قال رسول الله: (**بل من سيوف الله**). ثم رمى اليه ببردته التي كانت عليه.[1] وهكذا كسى النبي الكريم بردته التي كانت على كتفيه آنذاك؛ لكعب بن زهير؛[2] البردة التي باعها ورثة كعب بن زهير بعد أكثر من أربعين عاما إلى معاوية بن أبي سفيان الذي كان آنذاك خليفة للمسلمين في دمشق بخمسين الف درهم، وقيل بعشرين الف درهم.[3]

---

(1) الزمخشري، جمهرة اللغة، الجزء الأول، ص22

(2) (البردة) أو (البرد) قطعة نسيج مستطيلة من الصوف غير المخيّطة يأتزر بها الرجل أو المرأة على حد سواء؛ إنها أقرب إلى ما يعرف اليوم بـ(الشال) الذي يتميّز بشيء من العرض.

(3) ويبدو أن رسول الله (ﷺ) قد كسى عددا قليلا من الصحابة المقرّبين بعضا من اورديته وعلى نحو خاص من تلك التي كانت تهدى له؛ فقد ذكر بعض المؤرخين أن عمر بن =

وعند بزوغ نور الإسلام هل وقف رسول الله من الشعراء الموقف نفسه الذي تبناه أفلاطون؟ الجواب كلا؛ إن رسول الله لم يقف إطلاقا في وجه الشعر سوى يوجه الهجاء الظالم وعاقب على كل من أساء إلى الدين الإسلامي الحنيف من الشعراء ظلما وتجنيا وعفى عن من ندم منهم على إنشاد مثل تلك القصائد الشعرية.

فمن البديهي أنّ رسول الله لم يرض بالهجاء في الأشخاص وعده من المثالب غير المسموح بها ونحن نعلم أيضا أن عمر بن الخطاب (ﷺ) وبسبب ما كان يحدثه الهجاء من أيذاء نفسي أو غير ذلك للأشخاص الذين كان يطولهم هجاء الشعراء، يذكر لنا بعض المؤرخين أنّ عمر بن الخطّاب (ﷺ) خلال فترة خلافته صار يعاقب الشعراء على الهجاء.[1] إن هذا الإجراء يذكرنا بالقوانين الحديثة الصارمة التي سنّتها الكثير من الدول المتقدمة في زمننا هذا في معاقبة هؤلاء الذين يسيئون إلى سمعة الآخرين عن طريق التشهير العلني؛ أي عن طريق وسائل الإعلام الحديثة مثل الصحف والمذياع والتلفاز وغيرها.

ومهما يكن من أمر ذلك فإن الشعر عند بزوغ نور الإسلام كان يعكس صورة حيّة للصراع العنيف بين الجاهلية والإسلام؛ بين نظام أذنت شمسه بالمغيب ونظام يكتسح نوره الكون. وقد صدق من ذكر أنّ شعر تلك الحقبة يعد لونا من ألوان العمل الصحفي الإعلامي لو تمّ تقييمه بمفهوم العصر الحديث. فمع الوقائع الحربية التي كانت تدور بين المسلمين والمشركين كانت هناك معارك

= الخطاب (ﷺ) كانت في حوزته واحدة من برد النبي الكريم (السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص85).

(1) السيوطي، المصدر السابق، ص88.

أخرى بين الشعراء لأن مثل تلك المعارك كانت في حاجة لمن ينشر أخبارها في أمة يبلغ فيها الكلام ما لا تطول اليه السيوف.[1]

ومن الطبيعي أن تستمر النظرة نفسها إلى موضوع الهجاء في عهد الخلفاء الراشدين. إن معاقبة الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (ﷺ) للشعراء على الهجاء يؤكد لنا أن الشعر كان يعد وسيلة فاعلة من وسائل الإعلام عند العرب منذ فجر الإسلام على الأقل. وظل الأمر على النحو نفسه في العصر الأموي وكذلك في العصر العباسي. ومع ذلك هناك عدد من الخلفاء العباسيين من كان قد عرف بحلمه غير العادي بخصوص شعر الهجاء، كان أولهم المأمون سابع خلفاء بني العباس.[2] حتى ليذكر عنه ان الشاعر العباسي المعروف **دعبل** لما هجا الخليفة عبد الله المأمون بواحدة من قصائده الشديدة المرارة وهي:

اني من القوم الذين سيوفهم ... قتلت أخاك وشرّفتك بمقعد

شادوا بذكرك بعد طول خموله ... واستنقذوك من الحضيض الأوهد

فلما سمع المأمون بهذا الشعر أو قرأ عليه البيتان، لم يزد على ان قال: "ما أقل حياء دعبل؛ متى كنت خاملا وقد نشأت في حجر الخلفاء"، ولم يعاقبه. في حين ان دعبل لما هجا الخليفة التالي المعتصم بالله (218-227هـ/ 833-848م) بعد ذلك بنحو اثني عشر عاما بقصيدة أكثر شدة ومرارة من الأولى بقوله:

ملوك بني العباس في الكتب سبعة ... ولم تأتنا في ثامن منهم الكتب

كذلك أهل الكهف في الكهف ... غداة ثووا فيها وثامنهم كلب

لقد ضاع أمر الناس حيث ... وصيف واشناس وقد عظم الخطب

---

(1) محمد التهامي، المصدر السابق، ص493

(2) السيوطي، المصدر السابق، ص122.

إلى آخر القصيدة.[1] أثارت ذلك القصيدة الإعلامية المريرة حفيظة الناس ولاسيما العرب من أهل سامراء وبغداد بخصوص هؤلاء أو بحق المعتصم بالله يلاقي قبولاً حسنا عند المتلقين من جماهير الناس. فلاشك إن قصيدة دعبل الهجائية القصيرة بحق الخليفة وقادة جنده من الأتراك قد لاقت القبول الحسن كما ذكرنا. ربما لهذا السبب ثارت ثائرة المعتصم، فطلبه ليعاقبه فخاف وهرب حتى قدم مصر، ثم خرج إلى المغرب الأقصى حيث لا سلطان للعباسيين هناك.[2]

وربما أن من أكثر القصائد الهجائية الإعلامية التي أثارت سخرية الناس وحماسهم وربما سارعت في إسقاط أسرة حاكمة هي تلك التي هجا فيها المتنبي (ت354هـ) أبا المسك كافور سلطان مصر في العصر الإخشيدي. وكان أبوالطيب المتنبي قد قدم إلى مصر في شهور سنة 356 هجرية (967م)، وعلى ما

---

(1) كما هو معروف إن و(صيف) وكذلك (أشناس) كانا غلامين تركيين من غلمان المعتصم باللهثم صارا من القواد العسكريين ووصلا إلى أرفع الدرجات الوظيفية في أيام خلافة المعتصم باللهنفسه حتى إن صارت مقدرات الناس بأيديهما.

(2) غير أن من أكثر الشعراء الهجائيين الذين كان الخلفاء يخافون من هجوهم ولسانهم السليط في العصر الأموي كان الحطيئة الذي كان معاصرا للفرزدق وجرير المتوفيان في عهد خلافة هشام بن عبدالملك.

لقد كان هذا الشاعر لا يشعر براحة وسعادة إذا لم يكن هناك من يناله بشعره بالهجاء؛ حتى ليذكر أنه أراد يوما أن يهجوا أحدا فلم ير أمامه غير زوجته فقال فيها:

لها جسم برغوث وساق بعوضة ووجه كوجه القرد بل هي أقبح
إذا ما رأى الشيطان صورة وجهها تعوّذ منها حين يمسي ويصبح

وفي يوم من الأيام لم يجد هناك من يهجيه فنظر في المرآة، ثم هجا نفسه فقال:

أرى لي وجها قبّح الله خلقه فقبّح من وجه وقبّح حامله

يبدو لم يبرّه السلطان كافور بما كان يحب أو كما كان يتوقع؛ فغادر مصر إلى الشام وقبيل مغادرته هجا كافور بقصيدة عنيفة كان لها صدى عظيم في مصر وفي جميع الأقاليم العربية خارج مصر.[1] من أبياتها:

عيد بأية حال عدت ياعيد — فيما مضى أم لأمر فيه تجديد

أما الأحبة فالبيداء دونهم — فليت دونك بيدا دونها بيد

نامت نواطير مصر عن ثعالبها — وقد بشمن وما تفنى العناقيد

لا تشتري العبد إلا والعصى معه — إن العبيد لأنجاس مناكيد

وكما هو معروف أن كافور الإخشيدي كان زنجيا أسودا عرف بالبخل والتقتير الشديد، وكان جدّه محمد الإخشيد بن طغج قد عيّنة الخليفة العباسي الراضي بالله (322-329 هـ/ 934-940م) حاكما على مصر في سنة 323 هجرية (935م)، فاستقل بها بعد خلع الخليفة الراضي وسمل عينيه.[2] أن هذه

---

(1) إن اسم المتنبي أحمد بن الحسين بن الحسن، من أهل الكوفي' يعرف بـ(قتيل الشعر) بسبب قصيدة هجاء قالها بحق الثائر ضد الدولة العباسية ضبة الأسدي؛ إنها قصيدة الهجاء التي يعتبرها النقاد من سقطات المتنبي، ومطلعها:

ما أنصف القوم ضبة — وأمه الطرطبة

رموا برأس أبيه — وباكوا الام غلبة

(2) أعلن الإخشيد استقلاله بمصر بعد أن سملت عينا الخليفة المتقي بالله في بغداد منقبل الثائر على السلطة التركي (تورون). وكان الخليفة قد استدعى الإخشيد من مصر الذي كان قد عيّنه واليا عليها والذي كان يكن له كل الاحترام والتقدير. فنصح الإخشيد الخليفة القدوم معه إلى مصر وان لا يثق بالقائد العسكري تورون التركي. غير أن الخليفة لم يقبل النصح ووثق بتورون فقبض الأخير عليه وسمل عينية وتمّت تنحيته عن الخلافة لينصب بدلا عنه المستكفي بالله. كان ذلك في شهور سنة 333 هجرية (944م) (ابن =

القصيدة الهجائية الساخرة قد انتشرت بين المصريين بسرعة كبيرة جدا، ليس فقط بسبب أن المتنبي كان ليس فقط شاعرا معروفا للجميع بل كان يعد بلا شك أعظم واشهر شعراء العصر العباسي على نحو عام بل أيضا لطرافة هذه القصيدة والتي عبرت عن عدم رضا المصريين عن الإخشيديين عموما. فليس من المستبعد والحالة هذه أن تكون هذه القصيدة واحدة من الأسباب في عدم وقوف المصريين إلى جانب الإخشيديين في حربهم ضد الفاطميين الدين استطاعوا بسهولة بالغة ومن دون مقاومة تذكر احتلال مصر في سنة 358 هجرية (969م) وإنهاء حكم الأسرة الإخشيد لمصر على يد قائدهم جوهر الصقلي؛ أي بعد ما لايزيد عن ثلاث سنوات فقط على مغادرة المتنبي لأرض مصر.

من تلك القصائد التي حظيت باهتمام جماهير الناس وصارت لها شهرة ما بعدها شهرة عبر القرون المتعاقبة، هي تلك القصيدة الإعلامية أو التعريفية الرائعة بالأمام الرابع عند الشيعة الأمامية زين العابدين علي بن الحسين رضي لله عنه، المعروف بـ(السجّاد) لكثرة صلاته وسجوده. أنشدها إرتجالا الشاعر الفرزدق (ت110هـ/ 728م) داخل الحرم الشريف في مكة المكرّمة عندما كان في رفقة الأمير هشام بن عبد الملك أيام خلافة أخيه الوليد بن عبد الملك (86-96هـ/ 705-715م)، وذلك في موسم حج سنة 90 هجرية (707م). قالها الشاعر ارتجالا عندما سأل هشام مرافقيه باستغراب عنه عندما شاهد الناس يفسحون له الطريق للوصول إلى الحجر الأسود يقوله: "**من هذا؟ فأنا لا أعرفه.**" فأجابه الفرزدق على الفور بقصيدته الصماء التي عدّها النقاد في العصرين

= الأثير، علي بن محمد، (ت630 هـ)، الكامل في التاريخ، بيروت، 1967، 6/ 302-302.
لين بول، طبقات سلاطين الإسلام، ص67).

الأموي والعباسي وحتى يومنا هذا واحدة من أعظم واشهر قصائد المدح الإعلامية التي مع أنها لم تتجاوز العشرة أبيات. منها:

هـذا الـذي تعـرف البطحـاء وطأتـه	والكـل يعرفـه والحـل والحـرم
هـذا ابـن خـير عبـاد الله كلـهم	هذا التقيّ النقيّ الطاهر العلـم
هـذا ابـن فاطمـة إن كنـت جاهلـه	بجـده أنبيـاء الله قـد ختمـوا
إذا رأتـه قـريش قـال قائلـها	إلى مكـارم هـذا ينتهـي الكـرم
مـا قـال لا قـط إلا في تشـهّـده	ولولا التشـهّد كانـت لاءه نعـم

إلى آخر القصيدة. ولما كان الشعراء يعدّون من أهم وسائل الاتصال الجماهيري في ذلك الزمن، كما سبق أن ذكرت، لاسيما ان الفرزدق كان قد أنشد قصيدته الارتجالية تلك أمام حشد كبير من حجيج بيت الله الحرام،[1] مما أغاظ هشام بن عبد الملك وأثار غضبه رغم ما عرف عنه من الحلم الشديد والتغاضي عن صغائر الأمور، فأمر به فحبس، فظل في الحبس بعض الوقت؛ ثم أطلقه ربما خوفا أو تفاديا لما يمكن أن يقول من شعر في هجائه، فينتشر الشعر سريعا بين عامة الناس الذي قد يؤثر على سمعته ومن ثمّ يقلّل من فرص وصوله إلى سدة الحكم. انه احتراس هشام بن عبد الملك كان في محلّه تماما؛ ولاسيما أنه قد عرف بالفطنة والذكاء وبعد النظر في الأمور، ثم أن الفرزدق وكذلك جرير كانا أكثر الشعراء شهرة في العصر الأموي، فقلما كان من الناس أو المثقفين منهم من لم يعرفهما أو يحفظ شيئا من شعرهما أو يسمع عنهما على الأقل سواء كان ذلك في العصر الأموي أو فيما تلا ذلك من عصور.[2]

---

(1) اسم الفرزدق الحقيقي هو حماد بن غالب. توفي في بادية البصرة وقد قارب سنة المئة عام.

(2) تسلّم هشام بن عبد الملك كرسي الخلافة بعد تلك الحجة بنحو خمسة عشر عاما إثر وفاة =

ومما يذكره قدامى المؤرخون بهذا الصدد أيضا أن الأمام زين العابدين علي بن الحسين (ﷺ) حالما وصلت إلى سمعه تلك القصيدة حتى بعث بجائزة مالية سنيّة إلى الفرزدق. غير ان الأخير رفض قبولها وهو يقول: (والله ما قلتها إلا غضبا لله ورسوله)، وأعاد المال إلى زين العابدين. وكان جرير (ت 114هـ/ 732م) قد مدح عبد الملك بن مروان في قصيدة شاعت شيوعا عظيما وصار لها صدى عظيما عند الناس لم تكن لتقلّ عن قصيدة الفرزدق فقد لاقت هي الأخرى إقبالا عظيما عند الناس في ذلك الزمن؛ من أبياتها: [1]

أتصحو بل فؤادك غير صاح ... عشية همّ صحبك بالرواح

ألستم خير من ركب المطايا ... واندى العالمين بطون راح

لكم شمّ الجبال من الرواسي ... وأعظم سيل معتلج البطاح

ومع ذلك فان الشعر الخاص بالمديح، ولاسيما مدح الخلفاء والسلاطين والوزراء وما كان على شاكلتهم، لم يكن يلاقي صدى حسنا عند المستقبلين وهم عامة الناس؛ بسبب أن الاعتقاد السائد في ذلك العصر أن هذا الضرب من القصائد كان يقولها الشعراء لم يكن نابعا من القلب بل رياء وتزلفا ومن أجل الجوائز السنيّة التي كان يغدقها عليهم أولي الأمر. اللهم إلا اذا قيلت تلك

= أخيه يزيد بن عبد الملك في سنة 105 هجرية (724م) وظلّ خليفة لما يزيد قليلا عن عشرين عاما وذلك حتى وفاته في سنة 125 هجرية (743م). وقد عرف عهده بانه من أكثر العهود استقرارا في العصر الأموي ومن الصدف أن كلا الفرزدق وجريرقد توفيا في أيام خلافته.

(1) إنه جرير بن عطية بن حذيفة، نشأ في اليمامة وعاش فيها وتعلم قول الشعر مبكرا. اختلف في تاريخ وفاته فقد قيل في سنة 110 هجرية، وقيل في سنة 115 هجرية، غير أن الأرجح أنه توفي في السنة المثبّتة في أعلاه.

الأشعار في موضعها الصحيح كأن ينجز الخليفة أو الوزير أو أي شخص مقصود قد قام أو انجز عملا معروفا لعامة الناس يستحق عليه المديح. من الأمثلة على هذا النوع من الشعر القصيدة المشهورة التي لاقت قبولا حسنا عند المتلقيين في العصر العباسي الأول التي وصف لنا فيها الشاعر العباسي ابو تمام الطائي (ت نحو سنة 231هـ).[1] كانت القصيدة بحق الخليفة المعتصم بالله (218-227هـ/ 833-842م) بالشهامة والبطولة والذوّد عن حمى بلاد الإسلام عند الرد على هجمات البيزنطيين المتكررة على حمى بلاد الإسلام الذي توّجه بفتح مدينة (عمورية) البيزنطية في سنة 223 هجرية (837م). الفتح الذي صارت له بسببه شهرة واسعة جدا بين جماهير المستقبلين بفضل قصيدة أبي تمام، التي انتشرت سريعا بين الناس ليس في العصر العباسي فحسب بل حتى يومنا هذا؛ والحق إنها واحدة من عيون الشعر العربي؛ من أبياتها:

السيف أصدق أنباء من الكتب　　　في حدّه الحد بين الجدّ واللعب

والعلم في شهب الأرماح لامعة　　　بين الخميس لا في السبعة الشهب

أين الرواية أم أين النجوم وما　　　صاغوه من زخرف فيها ومن كذب

غير إن كان شعر المديح والثناء في معظم الأحيان لا يلاقي القبول أو الصدى الحسن عند عموم المستقبلين، فان القصائد الشعرية الخاصة بالهجاء حتى ولو كانت بيتا واحدا أو بيتين تلاقي في معظم الأحيان آذانا صاغية من قبل جماهير الناس المتلقين حتى وإن كان معظمهم لا يتفقون في الرأي مع الشاعر

---

(1) إن اسم أبي تمام الكامل هو حبيب بن أوس بن الحارث الطائي، تلمّذ على يديه البحتري وتأثر به المتنبي. توفي مبكرا في الموصل عن عمر يبلغ التاسعة والثلاثين عاما فقط. ومع وفاته وهو شابا فإنه يعد مرحلة متطوّرة من مراحل تاريخ الشعر العربي..

فيما يقول. ولهذا السبب نجد أن أعظم ما كان يخشاه ويحسب لها أولي الأمر من الحكام والسلاطين كل حساب هي مثل تلك القصائد اللاذعة؛ حتى ان كثيرا ما كان الخلفاء أو السلاطين أو حكام الأقاليم يصلون ويغدقون العطايا والهبات على الشعراء لا لشي وإنما ليتجنبوا شرّ ألسنتهم التي لا ترحم. وفي الوقت نفسه كانوا لا يترددون في فرض اقسى درجات العقاب على الشعراء على قصائدهم الهجائية أوالتي يشتم منها رائحة الهجاء بحقهم وربما بحق غيرهم أيضا. ليس هذا فقط بل حتى التشبيب بالنساء كان غالبا ما يلاقي بإلاستهجان وحتى بالعقاب في بعض الأحيان.

من ذلك على سبيل المثال أن ما تذكره كتب الأدب أن فاطمة بنت عبد الملك بن مروان حجت ذات سنة ومعها كثيرات من حسان الجواري، فكتب الحجاج بن يوسف الثقفي إلى عمر بن أبي ربيعة يتوعده بكل مكروه إن تغزّل بها؛ وكانت فاطمة تحب أن يقول فيها غزلا لتشتهر إعلاميا بقصيدته في طول العالم العربي وعرضه ولاسيما بين النساء. فلم يكن أحدا في العالم العربي من لم يسمع بعمر بن أبي ربيعة (ت 93-/ 643م) ولا سيما شعره الذي أغلبه في الغزل والتشبيب بالنساء.(1) غير أن عمر بن أبي ربيعة لم يقل فيها شعرا وذلك خوفا من بطش الحجاج. فلما قضت حجها شكت أمرها إلى رجل من خاصتها

---

(1) اسمه الكامل عمر بن أبي ربيعة المخزومي القرشي، ولد في سنة وفاة عمر بن الخطاب(ﷺ) في مطلع سنة 24 هجرية وتوفي شهيدا عندما احترقت السفينة الحربية التي كان عليها وغرقت فغرق معها هو ومن معه من الجنود المسلمين عندما كانوا على ما يبدو في معركة حربية مع الأسطول البيزنطي في البحر الأبيض المتوسط وذلك في سنة 93 هجرية (712م) في عهد خلافة الوليد بن عبد الملك (وفيات الأعيان لابن خلكان، هـ/ 353).

من أهل مكة. فقال لها المكّي إني لا أراه إلا قد فعل. فقالت لـه إن أتيتنـا بشـيء من شعره بخصوصنا فلك مني في كـل بيـت عشـرة دنـانير. فمضـى الرجـل إلى الشاعر وابلغه الأمر فقال عمر إني والله قد فعلت ولكن أحـب أن تكـتم علـيّ، فوعده بذلك.[1] فأنشده قصيدته التي مطلعها:

راع الفـــؤاد تفـــرق الأحبـــاب يـــوم الرحيـــل فهـــاج لـــي أطرابـــي

وعلينا أن لا ننسى أيضا أن كان عند العرب في العصر الجاهلي ومـا تبعـه من عصور مـا يعـرف بالشـعر الإعلامـي الهزلـي. إنـه بمثابـة الصـحافة الهزليـة الكاريكاتورية في الصور الشعرية والكتـب الأدبيـة مليئـة بمثـل هـذا النـوع مـن الشعر.

وبالإضافة إلى كل ذلـك استعين بالشـعر في بعـض الأحيـان في الإشـهار أو لترويج السلع التجارية. قد يكفي أن نذكر هنا القصة الـتي تـروي عـن تـاجر عراقي قدم المدينة المنوّرة ببضـاعة مـن الخمـر المختلفـة الألـوان؛ فبيعـت كلـها باستثناء الخمر السوداء. فذهب إلى صديق له وهو الشاعر العراقي ربيعة بن عامر المعـروف بمسـكين الـدارمي الـذي كـان مـن أشـراف تمـيم المتـوفى (ت89هـ / 708م)؛[2] ولا أظن أن هناك من المثقفين العـرب مـن لم يسـمع بالبيـت الـذي قاله:

أخـاك أخـاك إن مـن لا أخـا لـه كســاع إلى الهيجــا بغــير ســلاح

---

(1) داود سلوم، المصدر السابق، ص135

(2) خزانة الادب للبغدادي، 1/ 467

وكان هذا الشاعر يتنقل بين مكة المكرّمة والمدينة المنوّرة؛ عرف عنه أنه كان ماجنا يتشبب بالنساء وأن معظم شعره بالغزل؛ ثم تزهّد. فطمّن الدارمي صديقه التاجر بأنه سوف يبيعها كلها باذن الله؛ وقال في ذلك:

قل للمليحة في الخمار الأسود ... ماذا فعلت براهب متعبّد

قد كان شمّر للصلاة ثيابه ... حتى خطرت له بباب المسجد

ردي عليه صلاته وصيامه ... لا تقتليه بحق دين محمد

تعدّ هذه الأبيات الثلاثة والقصة التي صاحبتهما مادة إعلامية أو إشهارية مبكرة جدا في التاريخ الإسلامي تتماشى تماما مع النظريات الحديثة في علم الإعلام أو الاتصال الجماهيري. حيث حققت تماما الهدف أو الغرض من تأليفها. فقد أفادت المصادر التاريخية أوالأدبية الإسلامية أن هذه الأبيات انتشرت بين جماهير النسوة كالنار بالهشيم ولاسيما أن الدارمي قد طلب من التاجر العراقي أن يعهد بهما إلى مغن ليلحن هما ثم يغنيهما، حتى أن اعتقدت النساء أن مسكين الدارمي الذي كان قد اشتهر بشعره في الغزل ثم تنسّك أو تزهّد، قد رجع عن زهده وتنسّكه بسبب افتتانه بغانية جميلة ذات خمار أسود؛ فلم تبق غانية في المدينة المنوّرة إلا واشترت واحدا من تلك الخمر السوداء اللون؛ فاستطاع التاجر في وقت قصير جدا بيع جميع ما كانت معه من الخمر ذات اللون الأسود.

إن هذا الحدث يذكرنا بما جرى في عصرنا الحديث؛ ولكن على نحو غير متعمد، وذلك عندما أهدت شركة (طبارة وعبود) لصناعة السجائر في العراق في الأربعينات من القرن الماضي للشاعر معروف الرصافي رحمه الله عددا من علب السجائر التي تحمل العلامة التجاريةTrade Mark:-(**سيجارة غازي**)؛ فبعث إلى الشركة ببيتين من الشعر عبّر فيهما عن شكره على هديتها، والبيتان هما:

دخّــن ســيجارة غــازي   في وقفــة واجتيــازي
إن كنــت ممــن يجــازي   فجــازني بالشــكر جــازي

فاستغل أصحاب مصنع السجائر من الناحية الإعلامية أو التشهيرية هذين البيتين أعظم استغلال؛ فطبعوهما على غلاف كل علبة سجاير تحمل تلك العلامة التجارية. وظل الأمر على ذلك النحو إلى الوقت الذي أغلقت فيه الشركة أبوابها في أواخر الخمسينات أو أوائل الستينات من القرن الماضي.

وقبل أن أنهي الفصل الخاص بأهمية بالشعر في الإعلام لابد من القول أن الشعراء كانوا إعلاميين أدباء فنانين يصوّرون الأمور أو يتخيلونها وليس بالضرورة أن يكون ما ينشدونه صورة صادقة لواقع الأمور. وبكلمة أخرى يمكن القول أنهم يصورون الأمور كما تحلوا لهم وليس المطلوب منهم أن يكونوا علماء واقعيين. وهذا هو عين ما جاء في القرآن الكريم بحقهم: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾؛[1] فالقرآن الكريم لم يحرم أي باب من الفن الشعري إطلاقا. ولم يأمرهم بالتصوير الصادق للحقيقة؛ إن تصوير الحقيقة كما هي ليست من شغل الشعراء في تلك العهود على الأقل.

ويكفي أن نذكر هنا أن النبي محمد (ﷺ) كان يمر على مغالطات الشعراء الصريحة مبتسما وهو يستمع للشعر للمتعة الفنية على ما فيه من مغالطات. من ذلك على سبيل المثال أن حسان بن ثابت، وهو مشهور بجبنه، قد أنشد رسول الله قصيدة طويلة من أبياتها:

---

(1) القرآن الكريم، سورة 26، 224

لقـد غـدوت أمـام القـوم منتطـق   بصـــارم مثـــل لـــون الملـــح قطّـــاع

فضحك رسول الله دون ان يعلق بشيء على شعره.[1]

هذا ما كان عليه امر الشعروالشعراء في العصر الجاهلي ثم تبدّلت صورته قليلا في فجر الإسلام كما أشرنا إلى ذلك؛ فوقف عدد ليس بالقليل من الشعراء في صف الحق فآزروا النبي عليه الصلاة والسلام والدين الإسلامي الحنيف مؤازرة قوية. كما لاحظنا ذلك مع الصحابي حسان بن ثابت الذي. غير أن بعد ثبات دين الحق عاد الكثير من الشعراء إلى ما كانوا عليه ليس إلى الشرك والكفر طبعا وإنما لتجمح بهم شاعريتهم في كل مكان كما جاء ذلك في القرآن الكريم.

لقد استمر الأمر على هذا النحو حتى بداية العصور المظلمة على الأمة الإسلامية وذلك منذ أواسط القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي ليهبّ الكثير من الشعراء الغيارى الذين ينطبق عليهم النصف الثاني من هذه الآية القرآنية الكريمة، فكانوا فرسان إعلام ورسل جهاد ليذودوا عن أمتهم لا عن طريق السيف بل عن طريق شعرهم. فقد كانوا غيارى على امتهم فانبروا للغزاة والمحتلين بكل ما أوتوه من قوة.

وقبل أن أختم هذا الفصل لابد من التأكيد مرة أخرى على أهمية الشعر كوسيلة إعلامية فعّالة وبالغة الخطورة في العصر الجاهلي وفي العهود الإسلامية المتعاقبة؛ إنه أدب إعلامي لا نكران فيه ولا يقل من حيث الأهمية في الأيام الغابرة عن الإذاعة والتلفاز والصحف بمختلف أشكالها وأنواعها في وقتنا الحاضر؛ ليس هذا فقط بل كان يقوم الشعر حتى مقام الأنترنيت في عصرنا الحديث، لتقبل الجمهور المتلقي له بترحاب شديد. إنه كان ينتقل بين جماهير الناس مثل انتقال النار في الهشيم.

---

(1) داود سلوم، المصدر السابق، ص72.

الفصل الثالث

الإعلام عن طريق الخطابة

الفصل الثالث

الإعلام عن طريق الخطابة

أن من نافلة القول إن الاتصال الشخصي كان الوسيلة الأقدم في الإعلام؛ أن الكلام العادي هو بلا شك نوع من أنواع الاتصال الإعلامي غير أنه لا يدخل ضمن موضوعنا هذا إلا اذا كان ذي غرض خاص؛ أي عندما يكون الهدف منه أيصال الرسالة الإعلامية إلى الآخرين؛ ففي العصور القديمة وفي العهود الإسلامية المتعاقبة اعتمد الإعلام على عدة أمور؛ منها الجانب المرئي ومنها الجانب السمعي. ويشمل الجانب السمعي على جملة أمور كان من أهمها الشعر الذي تطرقت إليه في الفصل السابق، غير أن الإعلام لا يقتصر على الشعر دون النثر الذي كان من أساسياته عند العرب الخطابة؛ والخطابة كما تصفها كتب اللغة فن من فنون القول يخاطب به الجمهور ويتجه إلى الإقناع والاستمالة؛ إنها سلاح من أسلحة الاتصال الجماهيري الخطيرة على مر العصور؛ وفي لغة الإعلام الحديث فن من فنون التحريض والتحريك الجماهيري.

وهل يمكن للمرء أن ينسى أو يتجاهل الخطباء العظام في العالم القديم والعصور الوسطى وحتى في عصرنا الحديث؟ فمن الخطباء العظام في العصر اليوناني القديم على سبيل المثال كان سيشرونCicero (106-43 ق.م.) حتى ليقال أنه كان شديد التأثير في نفوس سامعيه على النحو الذي كان بإمكانه أن يقنع مستمعيه بكل ما يروم أو يريد وبكل طروحاته العقلية والنقلية.[1] لقد كان

(1) حتى أن سيشرون كان هو الذي أضفى لقب (أبو التاريخ) على المؤرخ اليوناني الشهير هيرودوتس فصار يطلق عليه هذا اللقب حتى يومنا هذا.

سيشرون في جميع الأمور إعلاميا من الطراز الأول في العالم القديم. أمافي عصرنا الحديث فيعد أدولف هتلر واحدا من أعظم الخطباء في عصرنا هذا؛ كانت خطبه في الربع الثاني من القرن العشرين تترك في نفوس سامعيه أثرا عظيما ولاسيما في نفوس الشعب الألماني الذي كان يشعر بإحباط شديد بعد هزيمته في الحرب العالمية الأولى.

وفي العصر الحديث يعد أدولف هتلر ليس فقط واحدا من ألمع الخطباء الأوربيين في الربع الثاني من القرن العشرين بل واحدا من المع الشخصيات السياسية العالمية الذي له القدرة في الاستحواذ على مشاعر الجماهير الألمانية من خلال خطبه الرنّانة سواء كان ذلك خلال الحرب العالمية الثانية أوما قبل ذلك. لقد كان بخطبه يدفع بالشعب الألماني في أي اتجاه يريده هو. أنه كان بحق واحدا من أعظم الخطباء في القرن العشرين؛ كانت لدية قوة اقناع مؤثرة في الجماهير لا حدود لها؛ كان يعيد في خطاباته بل يحي الأمل في نفوس الشعب الألماني حتى في أحلك الظروف التي مرّ بها الشعب الألماني. وفي الوقت نفسه كان قادرا في خطبه أن يدخل الرعب أو الخوف إلى نفوس أعداء ألمانيا النازية، ليس فقط خلال الثلاثينات من القرن الماضي بل حتى إلى ما قبل نهاية الحرب العالمية الثانية بقليل.

أن الخطابة كانت وما تزال تعد في جميع أنحاء العالم واحدة من أنجع الوسائل وأكثرها أهمية من وسائل الإعلام والتواصل في العالم. ومن المتفق عليه أيضا أن للخطابة أعظم الأثر عند القيام بالانتفاضات أو الثورات الشعبية الكبرى. ولم يختلف الأمر بالنسبة للأديان السماوية الثلاثة، فقد استطاع نبي الله موسى عليه السلام أن يقنع رؤساء القبائل العبرية الاثني عشر في مصر أن يؤمنوا ليس فقط برسالته السماوية بل في إقناعهم أيضا أن يرافقوه في رحلة شاقة جدا

ومحفوفة بالمخاطر العظام بالهجرة إلى فلسطين وذلك في الربع الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد. لقد نجح سيدنا موسى عليه السلام تماما في رسالته الإعلامية الدينية في إقناع هؤلاء على ما أراد. أما نبي الله عيسى بن مريم عليه السلام فقد واجه مقاومة عنيفة جدا من لدن رجال الدين اليهود، ولم يتح له الوقت على ما يبدو سوى إقناع فئة قليلة من الناس بصدق دعوته. غير أن الذين قاموا بنشر الدعوة المسيحية على نطاق واسع كانوا تلاميذه الاثني عشر ثم تلامذة هؤلاء من التابعين أمثال القديس بطرس والقديس بولس وغيرهما الذين انتشروا في الأرض في سبيل نشر الدعوة إلى المسيحية وقد ضحى معظمهم بحياته من أجل تلك الغاية. ومع ذلك فقد تكللت جهودهم ومثابرتهم بالنجاح ولو بعد حين أو بعد استشهادهم.

لم يكن هناك قانون أو نظام عند العرب في الجاهلية يهتدي به الناس في عصر كانت السيادة فيه للأمية؛ فكثيرا ما كانت المصالح تتشابك والأطماع تبرز والفتن تستشري فتحتكم القبائل إلى السيف حينا وإلى الحكمة والحجة الدامغة حينا آخر. وكثيرا ما كانت الكلمة البليغة اذا ما قيلت بأسلوب جيد أمضى من السيف وابعد تأثيرا.[1] فالخطابة عند العرب كانت ضرورة من ضرورات الحياة الأدبية قبل الإسلام. والخطباء العرب قبل الإسلام كانوا كثيرين؛ أغلبهم من سادات العرب ورؤساء القبائل.

فكما كان لكل قبيلة شاعر واحد على الأقل خاص بها كان لها أيضا خطيب واحد على الأقل يقدمه في المواسم العربية المعروفة ليخطب دفاعا عن قبيلته ومظهرا ما تتميز به من حماية المستجيرين بها وإطعامهم للضيف وما شابه

(1) مختار التهامي، المصدر السابق، ص491.

ذلك من أمور، وهل يمكن أن ينسى المرء ما كان يطلبه معلمو اللغة العربية منا ونحن تلامذة في المدارس الثانوية أو المتوسطة حفظ الكثير من الخطب العربية القديمة التي كانت وما تزال تترك في النفس أثرا عظيما التي منها خطب لا يمكن لنا إطلاقا أن ننساها أو نتجاهلها مهما مرت السنين! فكما هو معروف للمثقفين من العرب أن أسقف نجران (**قس بن ساعدة بن عدي بن مالك**) الذي ينتهي نسبه إلى أياد، والذي كانت وفاته نحو سنة 600 ميلادية؛ أي قبيل بداية الدعوة النبوية الشريفة بنحو عام واحد أو عامين؛ لم يكن قس بن ساعدة حكيم العرب وشاعرا مجيدا فحسب بل عدّوه واحدا من أعظم الخطباء قبل الإسلام. ويقال أنه كان أول من خطب من فوق مرتفع من الأرض أو ربوة عالية وإنه أول من اتكأ عند الخطبة على سيفه أو على عصاه. لقد عاش هذا الرجل طويلا إذ كان يعد واحدا من المعمرين في أواخر العصر الجاهلي، وقد ادركه النبي عليه الصلاة والسلام قبل النبوة أو في أوائلها؛ التقى به كفرد من المستمعين إلى بعض خطبه في عكاظ.

قال بشأنه النبي (ﷺ): (**رأيته بسوق عكاظ على جمل أحمر، وهو يقول: أيها الناس اجتمعوا فاسمعوا وعوا. من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت....**)،[1]: وهو القائل في هذا المعنى أيضا: (**ليل داج ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، بحار تزخر ونجوم تزهر وضوء وظلام، وبر وآثام ومطعم ومشرب، وملبس ومركب. إن في السماء لخبرا وإن في الأرض لعبرا، مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون. أرضوا بالمقام فأقاموا أم تركوا فناموا؟**). ومن خطبه

(1) الجاحظ، عمر بن بحر (ت255 هـ)، البيان والتبيين، بيروت، 2000، 1/ 186.

أيضا: (**يا معشر أياد أين ثمود وعاد، أين الآباء والأجداد؟ أين المعروف الذي لم يشكر والظلم الذي لم ينكر؟ .....الخ**).

إن من يقرأ ما جاء في هذه الخطبة يدرك على الفور الروعة والعمق والأصالة فيها فضلا عن الحكم والعبر التي نجدها في هذه الخطبة؟ وقد جاء في المدونات التاريخية أنه عندما كان قس بن ساعدة يخطب كان يتجمهر الناس من حوله ليس فقط يستمعون اليه بكل شغف بل كانوا يحفظون ما يلقي عليهم من خطب عن ظهر قلب ويروونها لهؤلاء الذين لم يسعفهم الحظ بحضورهم لسماعها كان يقول أو ما ينشدهم من الشعر الجزل.

وفي واقع الأمر كانت الخطابة ضرورة من ضرورات الحياة العربية سواء كان ذلك في العصر الجاهلي في فجر أو صدر الإسلام. وقد يكون من أسباب ذلك الأميّة السائدة بين العرب وعند غيرهم من الشعوب فتحتّم الاستعانة بوسائل أخرى في الإعلام الجماعي؛ كان منها الشعر والخطابة. حتى أن قالت العرب: "**أن الكلام عندما جاء الإسلام كان شعرا أو خطابة.**"[1]

أما بخصوص الدين الإسلامي الحنيف فقد بدأ النبي محمد صلوات الله عليه بنشر دعوته على نحو سري تماما في بادئ الأمر.[2] ولم يجهر بالدعوة إلى

---

(1) المصدر نفسه، ص492

(2) لقد كان أول المقتنعين بالإسلام من النساء زوجته خديجة الكبرى رضي الله عنها ومن الذكور ابن عمه علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه وكان حدثا يافعا. ثم آمن بدعوته بعد حين عدد يسير من الرجال؛ كان أولهم أبا بكر الصديق وزيد بن حارثة رضي الله عنهما. وكان رسول الله يجتمع بأصحابه القلائل سرا؛ وعندما يتمّ ذلك يبدأ بقراءة ما كان قد أنزلت من آيات القرآن الكريم، ثم يشرح لهم الغامض منها بالنسبة لهم ويعلمهم تعاليم الدين الإسلامي الحنيف.

الإسلام إلا بعد ثلاث سنوات من نزول الوحي وذلك عندما نزلت الآية الكريمة: (**فاصدع بما تؤمر، واعرض عن المشركين**). فكان هذا الأمر إعلانا ببدء الدعوة العلنية في نشر الإسلام بين الناس.

لقد كانت الوسائل أو الطرق التي اتبعها الرسول الكريم في نشر أو أيصال الدعوة إلى الجمهور المتلقي متعددة؛ فلم يكن رسول الله شاعرا بل كان خطيبا مفوّها ومؤثرا جدا في نفوس الناس الذين كانوا يستمعون إلى خطبه بآذان صاغية. وفي واقع الأمر كان رسول الله يعتمد على الخطابة في نشر دعوته بين القبائل وكذلك في أحياء العرب لاسيما في مواسم الحج وفي الأسواق الموسمية العامة التي تعقد في أماكن مختلفة من بلاد العرب؛ فعن طريق تلك الخطب كان رسول الله يشرح أساسيات الدعوة الإسلامية ويبين أهدافها ومثلها العليا.

من خطب رسول الله القصيرة: (**أيها الناس، إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم. وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم. إن المؤمن بين مخافتين: بين عاجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع به، وبين آجل قد بقى لا يدري ما الله قاض فيه. فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته. ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الموت. فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت مستعتب، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار**).[1] هل هناك خطبة أروع وأجمل من هذه الخطبة أو أكثر منها تأثيرا في النفس البشرية؟ لا أظن ذلك.

وإذا نظرنا إلى القرآن نفسه نراه أحيانا بمثابة الخطب تلقى في الجمهور المتلقي فيستجيب الناس عند سماعهم الآيات القرآنية الكريمة. وكثيرا ما

---

(1) الجاحظ، البيان والتبين، 3/ 203-204

أستخدم القرآن الكريم الأسلوب المباشر الذي يستعين به الخطباء؛ كقوله: (**يا أيها الناس**) أو (**يا أيها الذين آمنوا**) أو (**يا أيها الذين كفروا**).

بهذا الأسلوب المباشر في مخاطبة الناس كان القرآن الكريم يمس شغاف قلوبهم وعقولهم بالحجة الدامغة فيدخلون في الدين الله الحنيف. ربما لهذا السبب كان رسول الله يقرأ على تجمعات الناس أو الملتفين حوله مستمعين لآيات القرآن الكريم ترتيلا إضافة إلى أقواله الكريمة من غير القرآن الكريم حيث كانت هذه الطريقة في الخطابة تترك أعمق الأثر في نفوس الناس. ربما كان من أكثرها تأثيرا في نفوس المجتمعين حوله خطبته من أهل يثرب عند لقائه بهم مرتين قبل هجرته المباركة إليها ودعوته لهم للدخول في الإسلام والتي تعرب عند أصحاب السير بـ(بيعة الشجرة الأولى) وبـ(بيعة الشجرة الثانية).(1)

انبرى الخطباء المسلمون في الدفاع عن الإسلام وعلى رأسهم النبي محمد(ﷺ)، وذلك في شرح الدعوة الإسلامية وبيان أهميتها ومحاسنها للجنس البشري ودعوا الناس إليها ودافعوا عن الإسلام دفاعا مستميتا وبينوا بوضوح تام أهدافها وشرحوا القواعد الأساس للدين الجديد بما في ذلك التعاليم الدينية الرئيسة وحدود الإسلام والحلال والحرام وكذلك ما بشّر به وما أنذر.أما الكفار المشركون فقد اعتمدوا الأسلوب نفسه في الخطابة في محاربة الإسلام.

لقد اعتمد رسول الله (ﷺ) على الخطابة وعلى الاتصال الشخصي في عرض دعوته لشرائح المجتمع فرادا وجماعات حيث كان يعرض نفسه على وفود

---

(1) وكان عمر الفاروق (ﷺ) قد أمر بقطع تلك الشجرة أيام خلافته خوفا من يعتبرها الناس جزءا من الأماكن الواجبة الزيارة للتبرك بها (السيوطي، المصدر السابق، ص44).

فرادا أو في المواسم داعيا إياهم إلى الإسلام ويدعوهم إلى نصرته. مستعينا في ذلك بما يتلوه عليهم من القرآن الكريم.

وحيث أن الكلمات التي تدعوا إلى الإسلام ومبادئه كانت أقدر على التغلغل إلى قلوب الناس وعقولهم بسبب أن الدعوة الإسلامية قامت على مبادئ العدالة والأخلاق فضلا عن أنها كانت أكثر منطقية وإيجابية بكثير من حجج الكفار بسبب أسلوب الإقناع العقلي والبرامج الإيجابية المحددة القائمة على مبادئ الثواب والعقاب. في حين أعتمد الكفار الذين يحتجون في عبادة الأوثان والأصنام بأنها عبادة آبائهم وأجدادهم ولا يجوز لهم أن يحيدوا عنها فضلا عن أن الإسلام قد ساوى بين الأسياد والعبيد حتى أن أخرج الكثير من هؤلاء العبيد عن طاعة أسيادهم وهو أمر لم يكن يرضى به هؤلاء الأسياد ابداً.

ومما لاشك فيه أن أعظم النجاحات في الإعلام ليس فقط في شبه جزيرة العرب بل في العالم أجمع وعلى مر العصور هي تلك التي عقدها رسول الله مع ثلة من أهل يثرب. لقد لقي في موسم من مواسم الحج عند (العقبة) ستة نفر من الخزرج من أهل يثرب فآمنوا به واسلموا. فذهبوا بعد نهاية الموسم إلى يثرب فدعوا الناس إلى الإسلام حتى فشا فيهم ولم يبق دار من دور الأوس والخزرج إلا وفيها ذكر النبي.

وفي العام التالي قدم مكة فبايعوا على الطاعة لرسول الله وعلى أن لا يشركوا بالله شيء وأن لا يسرقوا ولا يزنوا ولا يكذبوا ولا يقتلوا أولادهم. ولما حان موعد انصرافهم بعث رسول الله معهم اثنين من الصحابة ليعلم من أسلم من أهل يثرب القرآن والشرائع. وقد عرف هذا الحدث الجليل في التاريخ بـ(بيعة العقبة الأولى).

وفي موسم الحج التالي التقى رسول الله بحشد كبير من أهل يثرب فكان

من بايع رسول الله على الإسلام ثلاث وسبعون رجلا وامرأتان. لقد بايعوا رسول الله على أن يمنعوه ما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم وأن يرحل اليهم هو وأصحابه.[1] لقد عرف هذا الحدث الجلل في التاريخ الإسلامي بـ(بيعة العقبة الثانية)؛ فبفضل قوة الاتصال الشخصي والخطابة الرائعة التي كان قد منحها الله جلّ شأنه لرسول الله فشا الإسلام في المدينة المنوّرة التي صارت النقطة المضيئة العظمى التي انتشر منها نور الإسلام في العالم.

أما بصدد الكفار والمشركين فإن الذي زاد من ضعف حجتهم في الخطابة أو في غيرها من وسائل الإعلام اختلافهم في عقائدهم وعدم استنادهم إلى أدلة عقلية مقنعة تطمئن إليها النفوس التي لم تستطع إطلاقا الصمود أمام حجج القرآن القوية ومنطقه السليم ودلائله الكثيرة التي نقرأها في آياته وسوره التي تؤكد وحدانيّة الخالق. فلم يستطيعوا أن يقاوموا الدين الجديد فلجأوا إلى ما يسمى بلغة الإعلام المعاصر بضروب الحرب النفسية المختلفة من اطلاق الشائعات والأكاذيب والتشكيك والدس الرخيص.[2]

وفي مواجهة هذه الحرب النفسية تعددّت الأساليب الإعلامية في القرآن الكريم حسب مقتضيات الأحوال. مثل أسلوب الإقناع العقلي وأسلوب البرامج الإيجابية المحدّدة القائمة على مبادئ الإسلام الرئيسة وأسلوب ضرب الأمثلة وغير ذلك.

وقبل أن ننتهي من سرد ما عندنا بخصوص الإعلام في فجر الإسلام لا بد من أن نشير إلى خطبة الوداع الرائعة حقا؛ التي ألقاها رسول الله في موسم الحج

---

(1) ابن خلدون، عبد الرحمن (ت 808هـ)، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر...، بيروت، 1996، الجزء الثاني، ص416-419.

(2) مختار التهامي، المصدر السابق، ص489.

الأخير قبل وفاته في السنة الحادية عشرة من سني الهجرة المباركة. لقد بدأها بقوله بعد أن حمد الله وأثنى عليه: (**أيها الناس اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدا.....اليوم أكملت لكم دينكم .... الخ**)، وأوصاهم أن يعتصموا بحبل الله جميعا وأن يتمسكوا بما جاء بالقرآن وسنة نبيه إن استعصموا بهما لن يضلّوا ابداً. ثم قال: (.... **أيها الناس اسمعوا قولي هذا واعلموا إن كل مسلم أخو المسلم وإن المسلمين أخوه.... فلا يحل لأمرئ من مال أخيه إلا ما أعطاه أياه عن طيب نفس. فلا تظلموا أنفسكم؛..... إلا هل بلّغت؟...**)؛ فذكر أن المجتمعين من الناس قالوا بصوت واحد: **اللهم نعم**، وأوصى الرجال بالنساء خيرا وغير ذلك من الإرشادات والتوجيهات الدينية التي لا تقدر بثمن.[1]

وظل الأمر على ذلك النحو في الخطابة في عهد الخلفاء الراشدين. وهل هناك خطبة أعظم وأروع وأكثر أثرا في الجماهير من الخطبة الأولى لأبي بكر الصديق عند وفاة رسول الله؟ فقد أفادتنا الأخبار أن عند وفاة رسول الله (ﷺ) خطب أبو بكر الصديق رضي الله وقوفا في مسجد رسول الله في المدينة المنورة فقال من جملة ما قال: (**من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت**). أهناك قول أعظم وأروع مما جاء في خطبة أبي بكر الأولى هذه؟ ولاسيما أنها جاءت في وقت عصيب تشتت فيه أفكار الناس وسادهم الهرج والمرج عندما علموا بوفاة النبي حتى بالنسبة إلى الصحابة الذين كانوا الأكثر قربا من رسول الله مثل عمر الفاروق (ﷺ) لم يرد أن يعترف بان

(1) ابن خلدون، عبد الرحمن، (ت 808 هـ)، كتاب العبر...، بيروت 1996 (الطبعة الثالثة)، 2/ 480

النبي محمد عليه أفضل الصلاة والسلام قد توفي إلا بعد سماع خطبة أبي بكر رضي الله عنهما. فعاد المسلمون عند سماعهم تلك الكلمات القصيرة الجامعة المانعة إلى جادة الحق والصواب وآمنوا بواقع الأمر.

وهل يمكن للمرء أن ينسى أو يتناسى بعض خطب الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب (ﷺ) والتي منها قوله يخاطب فيه بعض ولاته في الأمصار: (**متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا**). ثم كيف لنا أن ننسى خطب الخليفة الراشد الرابع الأمام علي بن ابي طالب كرّم الله وجهه عندما كان في العراق وهو يقاتل هؤلاء الذين خرجوا لقتاله في الشام ومصر؛ الخطب التي جمعها الشريف الرضي في كتاب عرف بـ(**نهج البلاغة**) الذي أعيد طبعه مرات عديدة وترجم إلى عدة لغات.

وفي العصر الأموي عرف الخليفة الأول معاوية بن أبي سفيان (41-60هـ/ 661-680م) بخطبه المؤثرة وبدهائه السياسي؛[1] وهو صاحب المقولة المشهورة: (**لو كان بيني وبين الناس شعرة لما انقطعت؛ إن أرخوا شددت وإن شدوا أرخيت**). ولم يكن معاوية الوحيد في السنوات الأولى من العصر الأموي من الخطباء الكبار، بل شاركه في هذه الصفة عمر بن العاص واليه على مصر وكذلك زياد ابن أبيه واليه على العراق؛ لقد عرف عن هذين الرجلين

---

(1) الأمويون أسرة من قريش تنتسب إلى أمية بن عبد شمس؛ إنه سيد معروف من سادات العرب في الجاهلية وابن أخي هشام بن عبد مناف. كان هذان الرجلان يتنافسان على رئاسة قريش. كان أمية تاجرا غنيا أعقب الكثير من الأولاد، منهم حرب وعمرو بن العاص وغيرهم. أما حرب بن أمية فكان قائد قريش في معركة (الفجار) التي وقعت بين بعض القبائل العربية قبيل الإسلام (الشيخ محمد الخضري تاريخ الأمم الإسلامية، القاهرة، 1370هـ، الجزء الأول، ص96).

الدهاء وبعد النظر وقوة الإقناع عند الخطابة. وفي واقع الأمر كان الخلفاء الأمويون وولاتهم في الأمصار يدركون تماما الأهمية البالغة للخطابة في تأجيج الحماس عند الناس للقيام بالثورات والانتفاضات أو في تهدئتهم.[1]

يلاحظ في العهود الإسلامية المتتابعة أن الإعلام نوعان؛ النوع الأول إن كان الموضوع المراد التعريف به أوالإعلام عنه أو الإشهار بها أمراً داخليا يهم سكان المدينة الواحدة أو الإقليم الواحد دون غيرها من المدن أو الأقاليم، غالبا ما كان يقوم بالإعلان عنه أو إذاعته على الملأ في الأمصار قاضي المدينة أو المحتسب. أما النوع الثاني فهي الأخبار المراد توصيلها إلى الجماهير يتّسم بالأهمية البالغة ويهم البلاد كلها أو أن له علاقة بجميع الناس كان يتم الإعلام عنه في الغالب من فوق المنابر في المساجد الجامعة؛ مثل تعيين ولي العهد أو إعلام الناسب وفاة الخليفة أو السلطان، وكذلك عند تنصيب الخلفاء أو تعيين الولاة في الأمصار أو عزلهم وكذلك تعيين القضاة وغير ذلك من أمور تهم معظم الرعيّة.

ومع ذلك إن الإعلام من فوق المنابر قد يكون أمرا في غاية الخطورة؛ إنه في الواقع سلاح ذو حدّين كما يقال. فقد يكون إيجابيا وقد يكون سلاحا سلبيا تكون نتائجه ضارة جدا لأصحابه. فمن الإعلام الإيجابي الذي كان مفيداً بالنسبة للأمويين على الأقل، مثل استشهاد الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان (ﷺ) (23-35هـ-644/656م). لقد استغل معاوية بن أبي سفيان ذلك الحدث استغلالا إعلاميا منقطع النظير. فكما هو معروف أن معاوية كان واليا على بلاد الشام منذ أن عيّنه في ذلك المنصب عمر بن الخطاب (ﷺ) في سنة 15

---

(1) كتب المسعودي أن عبد الملك بن مروان طلب من أمير العراق الحجاج بن يوسف أن يكتب إليه كيف تحدث الفتن والانتفاضات الشعبية فأجاب: "**إن الفتنة تشب بالنجوى، وتحصد بالشكوى، وتنتج بالخطب**". (المسعودي، مروج الذهب، 3/ 126).

هجرية (636م)، واستمر يشغل ذلك منصب ولأية الشام إلى أن تمّ عزله من قبل علي بن ابي طالب (ﷺ) في سنة 35هجرية (656م).[1]

ومن المؤكد أن عزل معاوية عن منصبه الذي شغله مدة عشرين عاما متتالية كانت بالنسبة له ضربة مؤلمة حقا؛ ربما كان ذلك من الأسباب الخفيّة التي دفعت به وبجمع من الملتفين حوله الطلب إلى الأمام علي بن أبي طالب (ﷺ) حال توليه الخلافة (35-40 هـ/ 656-661م) بإقامة الحد على قتلة عثمان، أو تسليمهم لمعاوية لصلة القربى التي كانت تربطه به. فكما هو معروف للمعنيين بالتاريخ الإسلامي أن قتلة ذي النورين (ﷺ) كانوا قد تسوّروا عليه داره في المدينة المنوّرة، وكما كان عليه الأمر في عهد سلفيه عمر وابي بكر رضي الله عنهما، لم يكن يحرس تلك الدار أحدا تواضعا إلى الله جلّ شأنه، فأثخنوه بسيوفهم حتى فارق الحياة شهيداوذلك في يوم الجمعة الثامن عشر من ذي الحجة سنة 35 هجرية (656م).[2]

إنه الحدث المأساوي الذي عرف في التاريخ الإسلامي المبكر بـ(يوم الدار).[3] ليس هذا فقط بل ان المطالبين بدم عثمان باتوا ينشرون أو يعلّقون قميصه الملطّخ بدمه الطاهر فوق منبر المسجد الجامع بدمشق ولاسيما في وقت صلاة الجمعة وفي المناسبات العامة الأخرى كإلاعياد مثلا، مثيرين بذلك سخط وغضب عامة الناس في بلاد الشام ضد الأمام علي كرّم الله وجهه؛ حتى صار لقميص عثمان (ﷺ) شهرة ما بعدها شهرة في التاريخ الإسلامي وحتى يومنا

---

(1) قد آزره في ذلك مؤازرة قوية والي مصر عمرو بن العاص، وكان الأمام علي بن أبي طالب (ﷺ) قد عزل كليهما عن منصبيهما في أول خلافته سنة 35 هجرية.

(2) السيوطي، المصدر السابق، ص204

(3) ابن الأثير، عز الدين، الكامل بالتاريخ، الجزء 4، ص233

هذا.[1] حتى أن معاوية عندما كان يريد أغراء أهل الشام بالأمام علي وأهل بيته يلبس قميص عثمان الملطّخ بالدم في عنقه ثم يرتقي المنبر،[2] ثم ينشره على المنبر. ثم صار لنشر قميص عثمان على المنبر لفترة طويلة جدا أعلاما معاكسا لما كان يروم من ورائه الأمويون فصار موضوعا للتندر فصار يضرب به المثل في الكثرة أو الملحّة الشديدة عن طريق التكرار الشديد للخبر.

ومهما يكن من أمر ذلك فقد حقق استشهاد عثمان بن عفان والمطالبة بدمه لمعاوية بن أبي سفيان على نحو خاص وللأمويين على نحو عام نجاحا إعلاميا منقطع النظير، ليس في بلاد الشام فحسب بل حتى في مدينة الرسول(ﷺ) حيث خرج على الأمام علي (ﷺ) عدد ليس بالقليل من كبار الصحابة وعلى رأسهم طلحة بن خويلد والزبير بن العوام، وكلاهما من العشرة المبشّرين بالجنّة، فضلا عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وعنهما أجمعين.[3] ونتيجة لتلك الفتنة وقعت أول معركة كبرى خلال الحرب الأهلية بين العرب المسلمين قرب البصرة في شهر جمادى الأولى من سنة 36 هجرية (657م) عرفت في التاريخ باسم (معركة الجمل)؛ قتل فيها من العرب الأقحاح ثمانية عشر الف رجل، الكثير منهم من صحابة رسول الله. كان من بين الذين استشهدوا طلحة والزبير رضي الله عنهما.[4] إن الحرب الأهلية الكبرى هذه ظل أوارها مشتعلا طوال

---

(1) لقد صار لقميص عثمان شهرة كبيرة على مر العصورحتى يومنا هذا عدّ رمزا للإلحاح في طلب الأخذ بالثأر.

(2) الزركلي، الإعلام، 7/ 261-262

(3) المسعودي، المصدر السابق، الجزء الثالث، ص388

(4) سميّت بـ(معركة الجمل) لأن عائشة رضي الله عنها كانت تشجع الرجال على القتال وهي في هودجها على ظهر جمل،

عهد خلافة الأمام علي بن أبي طالب التي انتهت باستشهاده هو الآخر (ﷺ) على يد واحد من الخوارج في شهر رمضان من سنة 40 هجرية (660م).

وبعد بضعة شهور تلت استشهاد الأمام علي كرّم الله وجهه،[1] ونتيجة لتلك الدعوة التي تبنّاها معاوية، والتي قال عنها الأمام علي قوله المشهور: (**كلمة حق أريد بها باطل**)، وصلت الأسرة الأموية إلى سدّة الخلافة وتولت إدارة شؤون العالم الإسلامي نحوا من واحد وتسعين عاما (41-132هـ/ 661-750م).

وإذا كان الأمويون قد حققوا نجاحا إعلاميا كبيرا بالدعوة من فوق المنابر وغير ذلك بمطاليتهم بقصاص قتلة عثمان (ﷺ) إلا أن القرار الذي اتخذه معاوية بن أبي سفيان عندما تولى الخلافة في شهر ربيع الأول من سنة 41 هجرية (661م) بلعن الأمام علي بن ابي (ﷺ) من فوق منابر المساجد الجامعة في عموم حواضر العالم الإسلامي كان قرارا إعلاميا خاطئا جدا لم يلق من المتلقي أي من عموم المسلمين الاستجابة الحسنة التي كان ينشدها ويتأملها الأمويون، بل أثاروا بذلك القرار سخط واستهجان واستنكار معظم المسلمين. لقد صار ردّ فعل وأثرا سلبيا خطيرا على كيان الدولة الأموية رغم أن الخليفة عمر بن عبد العزيز قد وضع حدا لتلك اللعنات والشتائم غير المبررة من فوق المنابر حالما اعتلى كرسي الخلافة في سنة 99 هجرية (717م): أي بعد ما يزيد على نصف قرن من فرضها.[2]

غير أن بعض أنواع اللعنات لآل بيت رسول الله لم تتوقف تماما بعد وفاة

---

(1) كان استشهاد الأمام على كرّم الله وجهه في التاسع عشر من شهر رمضان من سنة 40 هجرية (656م).

(2) كان عمر بن عبد العزيز حفيد عمر بن الخطاب (ﷺ) من جهة أمّه.

عمر بن عبد العزيز فقد أفادنا قدامى المؤرخين أن قتل والي المدينة المنوّرة يوسف بن عمر لزيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بأمر من هشام بن عبد الملك طلب من التابعين أن يلعنوا زيدا من على منبر مسجد الرسول ففعلوا ذلك وهم كارهون. ومن المؤكد أن إجبار التابعين وغيرهم من وجهاء المدينة على لعن زيدا قد زاد الحقد والكراهية للأسرة الأموية وهو عكس ما كان يبتغيه الأمويون.

إن التوقف عن تلك الشتائم واللعنات جاء متأخرا جدا حيث تركت، كما ذكرنا، أثرا إعلاميا سلبيا خطيرا جدا على كيان الخلافة الأموية كانت نتيجتهم عاكسة تماما لما كان ينشده معاوية؛ فباتت الجماهير الغفيرة من العرب والمسلمين عموما تكره حكم تلك الأسرة رغم أنها جمعت شمل العرب المسلمين في ظل دولة إسلامية قوية وموحّدة؛ فضلا عن الفتوحات الإسلامية الكبرى التي تحققت في ظلّها فصارت دولة مترامية الأطراف حيث اتّسعت رقعتها وامتدّ حدودها من بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) غربا وحتى تخوم الصين شرقا، ومن آسيا الوسطى والبحر الأسود وجبال البرانس شمالاً إلى صحارى السودان والمحيط الهندي وسواحل الميلبار (الباكستان) جنوبا.

ومما زاد في الطين بلّة استشهاد سبط رسول الله (ﷺ) الأمام الحسين بن علي بن أبي طالب (ﷺ) بطريقة مأساوية جدا في العاشر من المحرم سنة 61 هجرية (681م) أيام خلافة يزيد بن معاوية (60-64هـ/ 680-683م)؛ بات الناس يمقتون يزيدا مقتا شديدا ويلعنوه أينما كانوا وحتى في بلاد الشام

نفسها.[1] مع أن معاوية بن أبي سفيان كان قد أوصى ولده وخليفته يزيد الأول بخلاف ذلك؛ فقد كتب الطبري أن من جملة ما جاء في وصيته تلك: (..... **أما الحسين فإذا خرج عليك وظفرت به فاصفح عنه، فإن له رحماً ماسة وحقاً عظيما....**).[2]

وبالإضافة إلى الأخطاء الإعلامية كان اللجوء إلى القسوة المتناهية التي مارسها بعض خلفاء الأمويين لا سيما عبد الملك بن مروان في التعامل مع كل فرد اعتقد انه غير موال للأمويين وعلى نحو خاص مع من تبقى من الصحابة والتابعين الأجلاء، حتى ان سجن وقتل وشرّد عددا ليس بالقليل منهم، لاسيما في العراق وإيران على يد عامله عليهما الحجاج بن يوسف الثقفي الذي ظل يشغل ذلك المنصب لما يزيد على العشرين عاما؛[3] السياسة التي نجم عنها رد فعل أعلامي خطير لدا عامة المسلمين.

إن هذه الأخطاء الكبيرة التي وقع فيها الأمويون لا يعني ان الخلفاء وولاتهم في الأمصار لم يولوا موضوع الاتصال أو التواصل الإيجابي مع جماهير الشعب العربي والإسلامي ادنى اهتمام. بل ربما ان العكس كان هو الصحيح. لقد اعتبر الأمويون الإعلام وسيلة مهمة في ترسيخ قواعد حكمهم وسيطرتهم

---

(1) الطبري، محمد بن جرير، (ت 310هـ)، تاريخ الرسل والملوك، طبعة دار المعارف، القاهرة 1963 الجزء الخامس، ص484-485

(2) المصدر السابق، الجزء الثالث، ص23-24

(3) كتب السيوطي: **في سنة أربع وسبعين سار الحجاج إلى المدينة وأخذ يتعنت على أهلها ويستخف ببقايا من فيها من صحابة رسول الله (ﷺ) وختم في أعناقهم وأيديهم يذلّهم بذلك، كأنس (بن مالك) وجابر بن عبد الله وسهل بن سعد الساعدي فإنا لله وإنا إليه راجعون.** (السيوطي، عبد الرحمن، تاريخ الخلفاء، ص138).

وتثبيت مركزهم، فضلا عن محاولة تحسين موقفهم أمام الناس وإقناع جماهير المسلمين بأحقيتهم بالخلافة. وفي الواقع انهم كانوا، كما هو عليه الأمر في أيامنا هذه، يحسبون للرعيّة أي لجماهير الناس كل حساب، فكانوا يستعينون بمختلف السبل المتاحة لهم في سبيل تثبيت أركان دولتهم عن طريق الاتصال الجماهيري. ليس فقط بالخطب من فوق المنابر بل استغلوا وسائل إعلامية أخرى ربما من أهمها ترويج الأخبار التي تظهر أن الأمويين كانوا أو صاروا بعد فتح مكة من أعظم أنصار النبي محمد عليه الصلاة والسلام بدليل أن النبي قد أمر من ينادي يوم الفتح: (**أن من دخل بيت أبي سفيان فهو آمن**)؛ وأن ولده معاوية قد صار واحدا من الرهط الذين كتبوا بين يدي النبي (ﷺ).

ويبدو أنهم قد بالغوا في هذا الاتجاه على نحو كبير عندما انتقلت الخلافة إليهم في سنة41 هجرية. حيث وصل إلينا نقش كتابي محزوزا على جدار واحدة من قاعات ما يعرف بقصر (عبيد الله بن زياد) في موقعه مدينة (إسكاف بني جنيد) الواقعة خرائبها اليوم على ضفة نهر النهروان المندرس إلى الشرق من بغداد والي العراق في عهد خلافة معاوية بن أبي سفيان وطيلة خلافة يزيد بن معاوية. إن مضمون هذا النقش الذي حزره في الأرجح عابر سبيل في منتهى الغرابة والجرأة. يقرأ النقش:

(رحم الله أبو بكر (هكذا) وعمر وعثما(ن) وعلي وطلحة و(الـ) زبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف الزهر(ي) ومعاوية بن أبي سفيان)

ومن الغريب حقا أن الكاتب قد اسقط اسم واحد من الصحابة العشرة المبشرين بالجنة وهو ابو عبيدة بن الجراح ليضع بدلا عنه اسم معاوية بن أبي سفيان. أن من كتب النقش لم يكن بالضرورة من المعجبين بشخصية معاوية. ليس هذا فقط بل من الواضح أيضا أن كاتب النقش



(شكل7)

خربشة على الكساء الجصي للقاعة الرئيسة في قصر فبيد الله بن زياد في موقع (إسكاف بني جنيد) على النهروان. العصر الأموي.

تصوير الهيئة العامة للآثار والتراث العراقية

لم يكن بكاذب أو مدعي فلم يكن له في ذلك أية مصلحة وإنما هكذا افهمه الدعاة الأمويين الذين نشطوا نشاطا عظيما ولاسيما في العهد الأخير عندما أدركت السلطة الأموية تماما خطر الدعوة العباسية المتنامي أو خطر الدعاة

العلويين ونشاطهم المتزايد ولاسيما في إقليمي العراق وفي إيران. فقد كان من جملة النشاط الإعلامي الأموي آنذاك إفهام جماهير الناس بجميع الوسائل المتاحة لهم أن معاوية بن أبي سفيان مؤسس حكم الأسرة الأموية لم يكن فقط واحدا من الصحابة الكبار وواحد من كتاب رسول الله (ﷺ) بل كان واحدا من العشرة المبشرين بالجنة وبذلك يكون للأمويين الحق في الخلافة شأنهم في هذا شأن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم الذي لم يكن ليقل من حيث الأهمية وقوة الإيمان عن التسعة الآخرين المبشّرين بالجنة مثل أبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم من الصحابة الأجلاء. ويلاحظ هنا أيضا أن كاتب النقش لم يكن على ثقافة أو معرفة عالية؛ فالخط هو من النوع المبسوط الدارج الضعيف غير المنقوط. ومن الواضح أيضا أن الكاتب كان عابر سبيل لم يكن متمرسا كثيرا في الكتابة وأصول النحو وكان لحّلنا أيضا حيث رفع المفعول به بدلا من نصبه عند كتابته لاسم أبي بكر الصديق (ﷺ) وأسقط حرف النون من اسم عثمان(ﷺ) (شكل7).

وإلى جانب هذا النوع من الإعلام الإيجابي في إظهار أحقية الأمويين بالخلافة فقد كان هناك أيضا في إظهار قوة الأمويين وشدة بأسهم واستعدادهم للبطش بخصومهم. بات هذا الاتجاه في الإعلام واضحا في النصف الثاني من العصر الأموي أي منذ عهد مروان بن عبد الملك (64-86هـ/ 683-705م) فيه ميل واضح نحو التخويف وإرهاب الناس وجعلهم يحسبون الف حساب للسلطة الحاكمة قبل إبداء أي نوع من المعارضة. فقد كان عبد الملك بن مروان نفسه خطيبا مفوّها وكذلك ولاته في الأمصار ولاسيما واليه على العراق الحجاج بن يوسف الثقفي (ت 95هـ). فكما يكتب قدامى المؤرخين أنه كان يعد واحدا من أبلغ الحكام خطابة في التاريخ العرب والمسلمين عموما؛ له بعض الخطب التي

تعتبر قمة في البلاغة وحسن الديباجة. ويكفي أن أذكر هنا أن الخطبة الأولى للحجاج التي ألقاها من على منبر المسجد الجامع في الكوفة عندما قدم إليها في سنة 75 هجرية (694م)؛ التي عرفت في التاريخ الإسلامي بـ(الخطبة البتراء)،[1] لقد كانت إعلامية نفسية أدخلت الرهبة والخوف من السلطة في نفوس الناس إلى أبعد الحدود.

كان الحجاج قد اعتلى المنبر متلثما، وظل جالسا دون كلام لبعض الوقت حتى أن أوشك بعض الجلوس أن يحصبوه: أي يرمونه بالحصى الصغار،[2] فعندئذ أماط اللثام وبدأ في إلقاء خطبته المشهورة التي أنشد في أولها:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفوني

ثم قال من جملة ما قال: (.... **أما والله إني لأحمل الشر محمله وإني لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها واني لصاحبها... وإني لأنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى....إني والله يا أهل العراق والشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق أن أمير المؤمنين عبد الملك نشر كنانته ثم عجم عيدانها فوجدني أمرّها عودا وأصلبها مكسرا فوجهني إليكم....**).[3]

بعد هذه الخطبة عامل الحجاج أهل العراق بمنتهى القسوة والصرامة والحزم فاستتبت الأمور للأمويين في العراق طيلة ما تبقى من خلافة عبد الملك

---

(1) عرفت هذه الخطبة عند المؤرخين بالبتراء لأن الحجاج (41-95 هـ/ 661-713م) لم يبدأ خطبته كالمعتاد بالحمد والثناء على الله جلّ شأنه وعلى النبي محمد (ﷺ).

(2) كانت بيوت الصلاة في المساجد تفرش بالحصى قبل أن يفكر المسلمون بالاستعانة بالحصر والبسط لإبعاد أذى الأرض الصلبة أو الرطبة عن المصلين أثناء إدائهم لفريضة الصلاة أو عند سماعه خطباء المسجد.

(3) الطبري، محمد بن جرير. (ت310 هـ)، طبعة بيروت، 1997، ص547

بن مروان ثم في عهد خلافة الوليد بن عبد الملك الذي أعقبه على الرغم من الثورات والانتفاضات الخطيرة ضد الحكم الأموي والتي استطاع الحجاج أن يقضي عليها جميعا.

ولا نريد الكلام كثيرا عن أهمية الخطابة في العصر العباسي وما تلاه من عصور غير أن المؤرخين ذكروا أن المنصور كان من المشهود لهم بالقدرة الفائقة على الخطابة وإقناع المستمعين له بما يريد. فقد كان خطيبا فصيحا بليغا ومفوّها خليقا للأمارة كما ذكروا. اتهمه وشهروا عليه بالبخل والتقتير؛ غير أن واقع الأمر أن أبا جعفر المنصور كان حريصا على مال المسلمين لا يبعثره على الشعراء والندماء والجواري كما فعل معظم خلفاء الأمويين وخلفاء بني العباس بما فيهم الخليفة العباسي الأول عبد الله أبو العباس السفاح.[1] لقد عدّ المستشرق المعروف كارل بروكلمان أن أبا جعفر المنصور كان واحدا من أعظم ثلاثة خلفاء أنجبهم الإسلام في كافة العهود. أما الآخران فهما أبو بكر الصديق وعبد الملك بن مروان؛ إن هؤلاء الثلاثة هم الذين أرسوا الخلافة والدولة الإسلامية على قواعدها الثابتة الأركان على ما يراه بروكلمان.

ومع كل ذلك فإن الجماهير لا تميل إلى خطب رجال الدولة كثيرا: أو على الأقل لا تستسيغها وإنما تسمعها أما كارهة أو أن ليس أمامها إلاّ سماع خطيب

---

(1) حتى أن ذكر بخصوص السفاح أن واحدا من ندماءه ذكر له يوما انه في مجلس أنس له أنه قد سمع بألف الف درهم غير أنه لم يشاهد هذا المبلغ المهول من المال قط. فأمر الخلفية خازنه بإحضار هذا المبلغ ليشاهده نديمه وبعد ان شاهد ذلك الكم الهائل من الدراهم أمر له بها فنقلت الدراهم إلى دار ذلك النديم ومن الواضح أن في هذه الرواية شيء غير قليل من المبالغة والتهويل، وفي الأرجح أنها من وضع خصوم العباسيين.

في الجامع عند صلاة الجمعة فقط بسبب أنها جزء لا يتجزأ من الصلاة. في حين أنها تجد المتعة كل المتعة في سماع الخطب غير الرسمية والمواعظ والأقاصيص التي يقصها عليهم الوعّاظ والقصاصون في الشوارع والدروب فيلتفون حولهم أما وقوفا أو جلوسا على جانبي الطريق يستمعون اليه بآذان صاغية مصدقين كل ما يقوله لهم.[1]

وفي العصر الأموي وكذلك في العصر العباسي كان مثل هذا النوع من الرجال يجمعون الناس من حولهم في الطرق وحتى في المساجد من غير أن تكون لهم صفة رسمية فيقص على المتجمهرين حوله الاحاديث والأخبار المأثورة وغير ذلك. إن الصيغة الدينية لأحاديثهم هي التي كانت تميّزهم عن القصاصين والإخباريين غير الدينيين الذين كانوا يجمعون الناس إليهم في الطرق وقرب المساجد وفي الأسواق ليسلوهم بالنوادر والمضاحك فيلقي اليهم المتجمهرون حولهم ببعض النقود.[2] كان هؤلاء القصاصون يقومون مقام الصحف الهزلية في أيامنا هذه.

---

(1) إن هذه الخطب والمواعظ غير الرسمية تذكرنا بما هو عليه في الوقت الحاضر بمدينة لندن البريطانية، حيث يتجمهر الناس في أيام الأحاد في حلقات حول الخطباء في حديقة (هايد بارك) الشهيرة؛ فنجد في زاوية منها رجل يروي للناس حسنات الدين المسيحي وآخر يروى المثل العليا في الدين الإسلامي وبفضل الصحابة والخلفاء الراشدين، وثالث يقص عليهم القصص التوراتية ورابع يوضح للملتفين حوله سوء السياسة البريطانية في معالجة الأمور أو في فضل حزب السياسي معين على الأحزاب الأخرى؛ وآخر يلقي أو يسرد على الناس النكات والقصص المسلية فيضحكون لها أو يستمتعون بسماعها وغير ذلك من أمور كثيرة يهم الناس سماعها.

(2) المسعودي، مروج الذهب، 8/ 161

وحتى تأجيج الطائفية أو استغلالها كان يتم ذلك في بعض الأحيان عن طريق هؤلاء القصّاصين عن غير قصد وإنما الغرض كان الكسب المادي ليس غير. من ذلك على سبيل المثال أن اثنين من هؤلاء كانوا يحضرون بعض الأسواق في وقت معيّن من السنة؛ يقص للناس؛ يقف واحد منهم على جانب من السوق فضائل الإمام علي بن أبي طالب (ﷺ) ويقف الثاني في الجانب الآخر من السوق يقص للناس فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه؛ وعند حلول الظلام يتقاسمان فيما بينهما النقود التي تلقى اليهم بالتساوي.[1]

وقد كتب بعض المؤرخين في العصر العباسي المتأخر أن بعض هؤلاء الخطباء الدجالين في ذلك العصر كان من يدهن وجهه بالصفرة تشبها بالنساك الصائمين وآخرون يتخذون المواد التي تسيل دموعهم متى أرادوا (مثل عصارة البصل على سبيل المثال)، ومنهم من كان يسقط نفسه على الأرض أو يضرب رأسه من شدة الانفعال ليخدع بذلك المتجمهرين حوله ليحصل على أكبر مقدار من النقود.

ومن البديهي أن يستغل أعظم استغلال خصوم الدولة التفاف الناس حول هؤلاء الخطباء غير الرسميين وتصديقهم كل ما يقولون، فيندسّ بينهم من يقوم بالدعوة لبعض الثوار بتأجيج صدور الناس ضد الدولة بإبراز سياتها أو مثالبها، فقد كان الناس كما ذكرت يصدقون كل ما يقوله القاصون وبذلك كان لهم تأثيرا قويا على الجماهير. فقد جاء في المدونات التاريخية أن الدعاة العباسيين ودعاة آل البيت قد استفادوا فائدة عظيمة من التفاف الجماهير هؤلاء الخطباء

(1) الثعالبي، عبد الملك النيسابوري، (ت429 هـ)، لطائف المعارف، 3/ 182-183

غير الرسميين فدسوا بينهم الكثير من الوعاظ الذين كانوا يدعون إلى واحد لم يذكر اسمه اطلقوا عليه سم (الرضا من آل محمد) ليكسبوا رضا وقبول الجمهور المتعاطف مع العلويين. كما حدث ذلك في خراسان وغيرها من الأقاليم لصالح الدعوة العباسية؛ وهكذا فعل الفاطميون في المغرب الأقصى ثم في مصر فحققوا نجاحا منقطع النظير.

ولهذا السبب صار هناك ديوان في القاهرة في ظل حكم الخلافة الفاطمية على رأسه رجل يعينه الخليفة يعرف بـ(داعي الدعاة) وهو الذي يقابله في يومنا هذا منصب (وزير الإعلام)؛ إن منصبه هذا يعد من أرفع المناصب في العصر الفاطمي حيث كان يبث أو يرسل دعاته إلى مختلف المدن والأقاليم القريبة والبعيدة من أجل الترويج للمذهب الفاطمي.

وذكر أيضا أن الأمير (تيمور لنك) مؤسس الدولة التيمورية كان يقف عند بدء دعوته في الأسواق في مدينة سمرقند من بلاد ما وراء النهر خطيبا وكان خطيبا مفوّها قادرا على تأجيج عقول ونفوس الناس الذين يستمعون اليه ضد الدولة القائمة لتخليها أو إهمالها النظر في معاناة الطبقة الفقيرة من الناس والعمل على تجويعهم وتعذيبهم في سبيل استخراج ما عندهم من مال يسير لصرفها في ملذاتهم أو على إعاشة الشلة المنتفعة التي تحيط بهم ليس غير. وقد كسب بذلك مؤازرة الجماهير وتأييدها لدعوته.

ولهذا السبب نجد أن الدولة كثيرا ما كانت تتخذ إجراءات مشددة ضد هؤلاء الخطباء غير الرسميين ففي سنة 279 هجرية (891م) في أول عهد خلافة المعتضد بالله أمر عن طريق المنادين في مدينة بغداد أن لا يقعد في الطرق ولا في

المساجد قاص أو منجم. وجدد الأمر في عهد الخليفة نفسه في سنة 284هجرية (896م).[1] غير أن مثل ذلك الإجراءات كان لها تأثير وقتي، فغالبا ما كان القصاصون والخطباء غير الرسميين يعودون بعد حين إلى مزاولة ما كانوا عليه سابقا.

---

(1) الطبري، المصدر السابق، الجزء الثالث، ص2165

الفصل الرابع

النقود وسيلة مهمة من وسائل الإعلام

الفصل الرابع

النقود وسيلة مهمة من وسائل الإعلام

لابد من القول أولا أن للنقود دورا إعلاميا لا نكران فيه وبعبارة أخرى يمكن القول أن النقود وما تحمله من مأثورات وعبارات وصور كان لها دور إعلامي مباشر ومؤثر في النفوس منذ ظهورها الأول مرة في بلاد ليديا في القرن السابع قبل الميلاد ولغاية يومنا هذا. ولم يخف ذلك على أولي الأمر في جميع العهود وعند جميع الشعوب وعلى مر العصور. وعلى ذلك فإن العبارات الدعائية والإعلامية التي تحملها تنتشر عادة بين الناس بسهولة بالغة ويسر عظيم ولاسيما الدراهم الفضية والفلوس النحاسية الأكثر تداولا بين جميع فئات المجتمع.

إن النقود ولاسيما الإعلامية منها كانت تلعب على الدوام الدور نفسه الذي تلعبه وسائل الإعلام الحديثة؛ إنها حقيقة لم تغب أبدا عن ذهن السلطات الحاكمة على مر العصور؛ ولذلك كثيرا ما كان أولو الأمر ينقشون عبارات إعلامية لا علاقة لها بالمعلومات التي لابد من إدراجها على النقود كي تقبل في التداول من قبل العامة والخاصة؛ إنها عبارات يعتقد أولو الأمر أنها تترك أثرا معينا مطلوبا عند الجمهور المتلقي أما تحببا أو تخويفا أي يراد أن يشم منها الناس شيئا من التهديد والوعيد.

ولم يختلف حكام العرب عن غيرهم بهذا الشأن فقد أدركوا أهمية النقود في الإعلام قبل ظهور الإسلام بقرون طويلة، من ذلك على سبيل المثال أن استغل ملوك الأنباط، النقود التي كانوا يسكونها في الإعلام على نحو أفضل مما فعلته الرومان وقبلهم اليونانيون الذين اكتفوا بنقش صورة الملك واسمه وتاريخ

السك ومكانه على الوجه الأول من النقد وصورة الآلهة المعبود عندهم على الوجه الثاني.[1] في حين أن بعض ملوكهم أضافوا إلى نقوشها الأساس عبارات إعلامية رائعة حقا لم تتكرر عند غير الأنباط يستشف منها العلاقات الحسنة وأواصر المحبة والاحترام المتبادل الذي يربط ملوك الأنباط بشعبهم ولاسيما في نقود المتأخرين منهم.[2] فعلى سبيل المثال نجد أن مالك الأول (47-30 ق. م.) اكتفى من باب التواضع تثبيت عبارة (**مالك ملك الأنباط**) على نقوده ليس غير، وأن الحارث الرابع (9 ق. م.-40م) الذي بلغت دولة الأنباط في عهده أعظم ازدهار لها والذي عاصر السيد المسيح عليه السلام قد نقش على نقوده عبارة: (**الملك الذي أحبه شعبه**). أما الملك رب أيل الثاني (75-101م) فقد ثبّت على

---

(1) أن الرأي السائد في الوقت الحاضر أن الأنباط قبائل عربية رعويّة غير مستقرة نزحت من قلب شبه جزيرة العرب أو من جنوبها لتستقر في الأقسام الشمالية منها خلال الحقبة الزمنية المحصورة بين القرنين السادس والخامس قبل الميلاد بعد أن أخضعوا أو أزاحوا الأدوميين الذين كانوا يستوطنون تلك البلاد إلى (النقب) الأراضي شبه الصحراوية الواقعة في جنوب فلسطين. ثم أسسوا دولة قوية في شمال غرب شبه جزيرة العرب والأردن وجنوب سوريا استمرت مزدهرة نحو ثلاثة قرون .

(Gluek, N., Nabataean Syria and Nabataean Trans Jordan, JPOS, vol.18, 1938, pp.1- 6)

(2) يمكن أن نتلمس هذه الحقيقة بسهولة على النقود وكذلك في المخلفات الأثرية الأخرى التي تركها لنا العرب الأنباط في شمال غرب شبه جزيرة العرب والأردن وجنوب سوريا حيث كانوا قد أقاموا دولة قوية لهم هناك طوال فترة زمنية وصلت إلى نحو ثلاثة قرون وذلك بدأ بأوائل القرن الثاني قبل الميلاد، والتي بلغت أعظم اتساع لها وغاية قوتها في عهد ملكهم الخامس الحارث الثالث (84-62 ق.م.) وأعظم استقرار لها وغنى وثروة كان في عهد ملكهم السابع الحارث الرابع (9 ق.م.-40م) الذي عاصر السيد المسيح عليه السلام.

دراهمه الفضية وكذلك على فلوسه النحاسية عبارة: (**الملك الذي يحب شعبه**)، أو: (**رب أيل الذي يحي وينقذ شعبه**)، **أو (الملك الرحيم بشعبه)**.[1]

وأدرك الخلفاء الأوائل أيضا الأهمية البالغة للنقود في مجال الإعلام فحرصوا أن تحمل نقودهم عبارات إشهارية خاصة لاسيما ما يتعلق منها بالأسس أو المبادئ الرئيسة للدين الإسلامي الحنيف على أن يكون موقعها في مكان ظاهر من النقد وليس محشورا بين الرسوم أو بين النصوص المدونة وبغير العربية؛ فاختاروا لها مكانا في الفراغ الحاصل بين الطوق أو المدار والحافة الخارجية للنقد.

لقد كانت هذه العبارات أو المأثورات سواء كانت مؤلفة من كلمة واحدة أو أكثر هي الأعم ظهورا على النقود التي تم سكّها في عهد الخلفاء الراشدين، مثل: (**بسم الله**) (**شكل8**)، **أو** (**محمد**) **أو** (**بسم الله.... محمد**) **أو** (**بسم الله.... ربي**) (شكل9). ومن المأثورات الأخرى التي ظهرت على نقود العصر الراشدي؛ (**باسمك اللهم**) **أو** (**ربي الله**). ومن المؤكد أن في تلك المأثورات التي ثبّتت على النقود في ظل الخلفاء الأوائل التي فيها إشهار واضح للدين الإسلامي الحنيف؛ وربما دعوة غير المباشرة لسكان الأقاليم المحررة أو المفتوحة للدخول فيه.

---

(1) إحسان عباس، تاريخ الأنباط، ص219



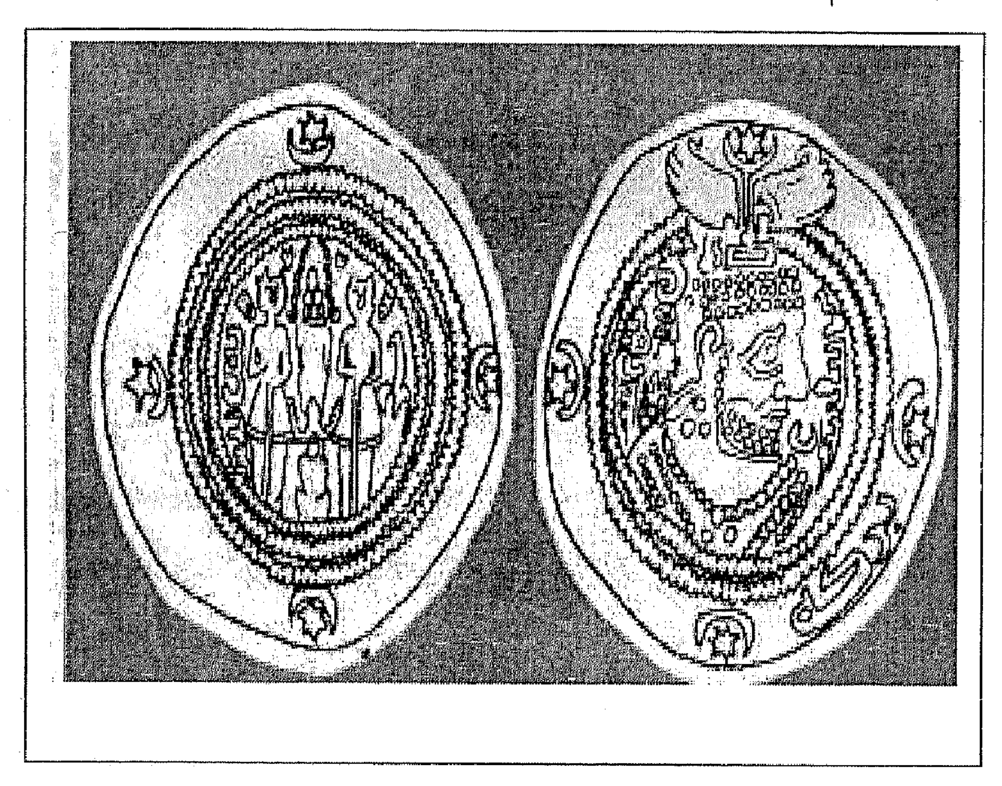
(شكل8)

درهم من عهد عثمان (رض) محفوظ في المتحف الوطني بدمشق

عن: عفيف بهنسي وديمتري برامكي

وبدأت الدراهم الفضية تحمل إلى جانب تلك المأثورة أو بدونها عبارات دعائية إعلامية قصيرة أخرى مثل (بركة) التي صارت تنقش أيضا خارج المدار قريبا من حافة النقدين المساس بالرسوم والعبارات التقليدية القديمة الذي يحملها الدرهم (شكل 10). وفي عهد الأمام علي كرم الله وجهه نلاحظ ظهور عبارة إعلاميه جديدة تماما لم تكن مألوفة في المأثورات الإسلامية. إنها عبارة: (ولي الله)؛ التي ظهرت على بعض الدراهم المضروبة في مدينة (الري) سنة 37 هجرية، في أيام ولاية يزيد بن قيس الشيباني الذي كان واليا من قبل

الأمام علي (ﷺ) على مدينتي (الري) و(أصفهان) وما بينهما.[1] ومـن الواضـح أن تثبيت تلك العبارة كان لغـرض إعلامـي حيـث أراد أن يظهـر للمـلأ أحقيـة الأمام بخلافة رسول الله عليه الصلاة والسلام. وليس من المستبعد أن مثـل هـذه العبارة قد جاءت على نقود أخرى ضربت في عهد خلافة الأمام علـي كـرّم الله وجهه غير أنها لم تصل إلينا.



(شكل 10)

تخطيط لدرهم من عهد خلافة عثمان (رض) مؤرخ من سنة 32 هجرية

محفوظ في المتحف العراقي. عن: محمد باقر الحسيني

---

(1)- Mīles, G., the Numismatic History of Ray, New York 1938, p. 6, No. 88



(شكل 11)

درهم فضي من عهد الأمام علي بن أبي طالب (ع) ضرب سنة 37 هجرية
محفوظ في المتحف العراقي

وفي الواقع أدرك أولو الأمر منذ العهد الراشدي أن لا بد من ضبط عيار النقد ووزنه لارتباط ذلك بمصالح الناس وبالأمور الشرعية، فكانوا يتشددون في ضبط العيار وتخليص الذهب والفضة من الشوائب؛ فقد أدركوا إن جودة العملة تتمثل في نقاءها من الشوائب والحفاظ عليها من الغش والتدليس؛ وفضلا عن ذلك وجدوا أن لابد من ضبط الوزن الشرعي للنقود حيث لم يكن التجار ولاسيما الكبار منهم يقبلون النقود الذهبية أو الفضية إلا بعد وزنها من قبلهم للتأكد من صحة الوزن الشرعي لها. وقد حرص وتفاخر الخلفاء والسلاطين والأمراء في تجويد عيار الدنانير والدراهم حتى عدّ ذلك منجيا لصاحبه من النار.

وهكذا يمكن القول إن الدولة الراسخة الأركان في تلك العهود كانت تهتم اهتماما خاصا بنقودها، فهي حريصة أن تتسم بجودة العيار وأن تكون وافية الوزن،[1] حفاظا على مركزها وخوفا من تلك البلبلة الاقتصادية والشائعات التي يطلقها ويروّج لها خصومها. من ذلك على سبيل المثال أن نقاوة الدينار الإسلامي منذ تعريب النقود تعريبا كاملا الذي يعرف بالإصلاح النقدي في عهد عبد الملك بن مروان لقد باتت نحو 96٪ وهي أفضل قليلا من درجة نقاوة الدينار البيزنطي solidus الذي كان في قيد التداول حتى تعريب النقود. أما الدراهم فحرصت الدولة على جعل نقاوة الفضة فيها نحو 99٪. وفي واقع الأمر أهتمت الدول الإسلامية منذ ظهورها بضبط عيار النقد ووزنه لارتباط ذلك بمصالح الناس وبالأمور الشرعية أيضا، فكان عيار الذهب والفضة خالصا بقدر ما كانت تساعدهم طرق التصفية المتاحة آنذاك؛ وكانوا يتشددون كثيرا في ضبط العيار وتخليصه ويعاقبون من يخالف ذلك بأقسى العقوبات. ولذلك حرص الخلفاء أو السلاطين المسلمون دوما ومنذ عصرهم الأول في أن تكون دور سكّ النقود تحت إشراف الخليفة نفسه أو ولي عهده أو الوزير أو قاضي القضاة على الأقل أو الولاة في الأقاليم حيث كانت تتخذ الإجراءات السريعة بهذا الشأن بما

---

(1) العيار في النقود يعني نسبة المعدن الثمين وهو الذهب أو الفضة إلى المعادن الأخرى الرخيصة الثمن مثل النحاس والقصدير. كأن يقال اليوم ذهب عيار 18؛ أي إن نسبة الذهب هنا هو 75٪. أما الوزن الشرعي للنقود فهو مثقال واحد للدينار؛ أي نحو 4,25 غرام، وإن وزن كل عشرة دراهم تعادل وزن سبعة دنانير؛ أي نحو 2,97 غم للدرهم الواحد؛ إن هذا الوزن والعيار كانا خاضعين لبعض التغييرات خلال الحقب الإسلامية المتعاقبة (محمد باقر الحسيني، النقود العربية ودورها الإعلامي والتاريخي والفني، موسوعة حضارة العراق، بغداد 1985، الجزء التاسع، ص232).

في ذلك فرض أقصى العقوبات على من يدلّس أو يتلاعب بالعيار والوزن الشرعي للدينار والدرهم.[1]

ولكل هذه الأسباب لم يكن يتم إصدار النقود ولاسيما الذهبية والفضية منها إلا تحت الإشراف المباشر للخليفة أو من ينوب عنه مثل الوزير أو قاضي القضاة؛ فعن طريق ذلك يمكن كسب ثقة الناس بالعملة المتداولة التي تصدرها الدولة ولاسيما التجار منهم ليس فقط الإقليم الذي يصدر فيه النقد بل في كافة الأقاليم القريبة والبعيدة. ومن ثم كسب الدعم الجماهيري الصحيح في تثبيت أركان الدولة. فاذا كانت الدنانير الذهبية والدراهم الفضيّة جيدة العيار؛ أي شديدة النقاوة، وافية الوزن، ما بين تستقر الأسواق وتنشط التجارة وتنخفض الأسعار، وبذلك تكون الدولة التي أصدرتها ثابتة الأركان. أما اذا كانت النقود رديئة العيار ودون الوزن الشرعي، فإن هذا يعني أن أمور الدولة متردية ومتزعزعة ويؤدي الأمر بالتالي إلى عدم الثقة بالسلطة القائمة، فترتفع الأسعار وتختفي النقود القديمة الجيدة العيار والمضبوطة الوزن.

وخير مثال على ذلك ما حدث في أواخر العصر البويهي في العراق صار البويهون يضربون نقودا في غاية السوء والرداءة؛ حتى أن ذكر بعض المؤرخين في العصر العباسي الثاني أن قيمة الدينار التي كانوا يضربونه بما في ذلك ما كان يعرف بـ(الدينار الركني) الذي كان قد أصدره في الأصل ركن الدولة أبو علي حسن البويهي (320-336هـ/ 932-948م) وظل يضرب لغاية النصف الثاني

---

(1) من ذلك ما كتبه البلاذري المتوفي في سنة 279 هجرية أن والي العراق يوسف بن عمر في أيام خلافة هشام بن عبد الملك (105-125هـ/ 724-743م) أفرط في الشدة على الطباعين وأصحاب العيار حتى أنه أمر الضرب بالسياط وقطع أيدي من يتلاعب بالوزن أو بالعيار (البلاذري، فتوح البلدان، ص450-451).

من القرن الخامس الهجري، كانت قيمته الفعلية ثلث قيمة الدينار العباسي في عهد القادر بالله (381-422هـ/ 991-1031م) والسبب في ذلك عياره المنخفض حيث أن نسبة الذهب الخالص في ذلك الدينار لم تتجاوز نصف وزنه الكلي بأي حال من الأحوال، أما النصف الآخر فكان من المعادن الرخيصة.[1] وكان ذلك من جملة الأسباب الرئيسة في انهيار حكم أسرة آل بويه ثم نهايتهم.

وعلى ذلك يمكن القول إن الدول الإسلامية كانت على دراية تامة بأهمية جودة العملة في الحفاظ على الاستقرار الاقتصادي في البلاد، ولهذا السبب كانت تحرص على زيادة مخزونها من المعادن الثمينة لتلبية حاجاتها المتزايدة إلى النقود الذهبية والفضية؛ ومن ثم كانت تعمل جاهدة في البحث عن مصادر خامات المعدنين في بلادها. ونحن نعلم من المصادر التاريخية أن الخلافة الأموية منذ عهد عبد الملك بن مروان على الأقل قد سيطرت على مصادر خامات المعادن الثمينة في الحجاز وفي شمال اليمن وفي بلاد النوبة وغربي السودان وأرمينيا وخراسان وكذلك مناجم الفضة في بلاد فارس وفي بلاد ما وراء النهر، فضلا عن وجود عروق للذهب والفضة مما يلي (سجلماسة) في المغرب الأقصى.[2]

وفي العهود التي أعقبت العصر الأموي كثيرا ما دخلت الدول الإسلامية في صدام مسلح من أجل حماية مناجم المعدنين الثمينين في تلك المنطقة. وكما هو معروف للمعنيين بالنقود كانت هناك أيضا مناجم للفضة في شرق بلاد الأناضول ولاسيما في أرمينيا وكذلك في كل من مقدونيا وصربيا والبوسنة في شرق أوربا؛ وهذا ما يفسر الحملات العسكرية التي قادها العثمانيون في اتجاه

---

(1) المصدر نفسه، 8/ 40

(2) نايف القسوس، نميّات لحاسية جديدة من مجموعة خاصة، ص71

تلك المناطق للتمكن من السيطرة على تلك البلاد لتأمين احتكار السلطة العثمانية لمنتجاتها فعملت على تطوير وتحسين أداء مناجم الذهب والفضة الواقعة ضمن أراضيها إن وجدت.

غير أن كثيراً ما كان المعدنان الثمينان يشحان ربما بسبب توقف سيطرة الدولة على موارد تلك الخامات، أو أن عروق الدهب والفضة في المناجم نفسها تصبح قليلة أو باتت صعبة الاستخراج. وكنتيجة لكل ذلك صار ما يصل من ذينك المعدنين إلى دور الضرب غير كافية لسد حاجات الدولة فتضطر إلى اتخاذ إجراءات قسرية لتوفير المال اللازم لدفع أرزاق الجند ورواتب الموظفين ولتغطية مصروفات القصر ونفقات الحروب مثل شراء السلاح والخيام وتعبأة المزيد من الجنود وغير ذلك من متطلبات الحروب الضرورية. من تلك الإجراءات فرض المزيد من الضرائب؛ وفي الغالب أن مثل تلك الإتاوات والمكوس الجديدة لم تكن تتماشى مع ما تقرّه الشريعة الإسلامية أو العرف الجاري، ومنها أيضا الاقتراض من كبار التجار لفترة زمنية محدودة. وإذا كانت جميع تلك الإجراءات لم تفي بالغرض المطلوب؛ أي لا تكفي لتغطية النفقات المطلوبة تعمد الدولة إلى اتباع وسائل أخرى لسداد عجزها المالي، منها اتخاذ إجراءات قسرية أخرى مثل تخفيض قيمة عملتها بإنقاص وزنها أو تخفيض عيارها أو بكليهما معا.

وربما أهم وأعظم تخفيض تعرضت له النقود قبل نهاية الخلافة العباسية كان في في أواخر أيام الخلافة الفاطمية في مصر ثم عهد الدولة الأيوبية؛ وتحديدا في أيام سلطنة الناصر صلاح الدين الأيوبي حيث أن عددا كبير من دنانيره التي وصلت إلينا يقل نقاوتها عن 90٪. وكذلك خفضت نسبة الفضة في الكثير من دراهمه حتى أن أطلق عليها اسم (الدراهم السود) وقد سحبت من التداول في عهد خلفائه ولاسيما في عهد الملك الكامل حيث بلغت درجة نقاوة بعض

الدنانير التي ضربها 100٪ تقريبا ولم تقل عن 93 ٪.[1] ومن المؤكد أن السبب في ذلك التخفيض يرجع إلى حاجة صلاح الدين إلى المزيد من الأموال لتجهيز الجيوش وبناء التحصينات وشراء المواد اللازمة لذلك من التجار وذلك لمحاربة الصليبيين وغيرهم من المناوئين لحكومته.

ومن الأزمات المالية الخطيرة التي تعرضت لها الدولة العثمانية على سبيل المثال التي تسببت في تخفيض قيمة العملة العثمانية الحروب التي خاضتها الدولة ضد الدول الأوربية في القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر. ففي سنة 1585 ميلادية خفض قيمة (الأقجة) الفضية بنسبة لم تشهدها الدولة من قبل؛ فانخفض وزن (الأقجة) الفضية، وهي العملة الرئيسة في البلاد، من 1,75 إلى 750, غم، وخفض المحتوى الفضي فيها بنسبة 44٪ مما تسبب في ثورات الجنود الانكشارية الرافضين لتخفيض قيمة تلك العملة الذين كانوا يتقاضون رواتبهم بها؛[2] ومما ترتب على ذلك التخفيض أيضا وعلى المدى القريب اختفاء (الأقجة) الفضية من الأسواق.[3]

وفي واقع الأمر أن مثل تلك التخفيضات في عيار النقود أو وزنها لم تكن تمر أبدا بهدوء أو سلام؛ فعندما يلاحظ الناس بعض الخلل في عيار النقود أو وزنها، ولاسيما إذا ما وجدوا أيضا بعض السلبيات في الجوانب الخدمية أو الاقتصادية التي تقوم بها أو تشرف عليها الدولة تقوم الفئات المعارضة والناقمة

---

(1) فؤاد الشميري، المسكوكات الأيوبية بالمتحف العراقي، بغداد 2003، ص117

(2) شوكت باموك، التاريخ المالي للدولة العثمانية، بيروت 2005، ص89-118

(3) وفي واقع الأمر بدا تخفيض العملة في الدولة العثمانية في عهد السلطان محمد الفاتح (1451-1481م) نتيجة لحروبه الكثيرة والتي كان منها فتح القسطنطينية في سنة 1454 ميلادية (شوكت باموك، المصدر السابق، ص95).

تـرويج مختلـف أنـواع الإشـاعات والأقاويـل الضـارة بالدولـة وبسـمعتها عنـد الجماهير؛ وهذا ما حدث فعلا في إيران في أواخر العصر الساساني حيـث باتـت نسبة المعدن الرخيص (النحاس) في الدراهم الساسانية مرتفعة أكثـر مـن المعتـاد ولاسـيما خـلال وبعـد الحـروب الطاحنـة الـتي وقعـت بـين الدولـة الساسـانية والبيزنطيـة في عهـد كسـرى الثـاني (595–628م) والإمبراطـورين البيـزنطيين المتعاقبين فوكاس Phocas (602–610م) وهرقل Heraclius (610–641م)، فبـدأ التطبيل والتزمير وترويج مختلف أنواع الإشاعات ضد السلطة القائمـة؛ ممـا أدى إلى زعزعة ثقة الجمهور الإيراني بالدولة وسهّل بالتالي على القـوات الإسـلامية فتح الأقاليم والمدن التابعة للساسانيين الواحدة تلو الأخرى.

من تلك النقود الإعلاميـة المسيئة إلى المسـلمين فلسـا نحاسـيا كـان قـد تمّ إصداره على الطـراز البيزنطـي في سـنة 15 أو 16 هجريـة (636–637م) يحمـل اسم (طبرية) كمدينة للضرب؛ ونحن نعلم أن بعض دور الضرب في بلاد الشـام وفلسـطين اسـتمرت في سـك النقـود النحاسـية المسـاعدة بعـد الفـتح العربـي الإسلامي ولكنها باتت تحمـل بعـض التـواريخ وحتـى القليـل مـن الشـعارات الإسلامية.[1]

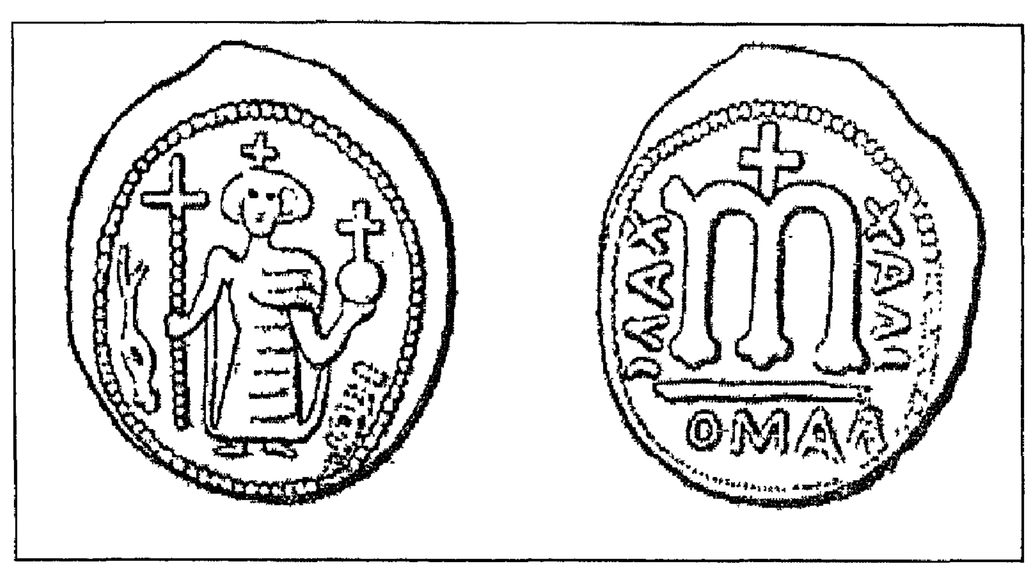
نقش على ذلك الفلس باليونانية اسم (عمر) وهو في الأرجح الخليفة عمر بن الخطاب (ﷺ) وكذلك يحمل اسم خالد أبو سليمان ومـن المعـروف أن كنيـة خالد بن الوليد هي (أبو سليمان)؛ بالإضافة إلى ذلك نلاحظ وجود اسم الجلالة

---

(1) نشر هذا الفلس المستشرق الفرنسـي سولسـي Saulsie في أواسـط القـرن التاسـع عشـر محفوظ في الوقت الحاضر ضمن مجموعة خاصة بمدينة يينا Jenna.

(الله) بالخط العربي ما يزال ظاهرا جزء منها خارج طوق الوجه الأول للفلس (شكل12).[1]

إن هذه القراءة متفق على صحتها على نحو شبه إجماعي؛ ليس هذا فقط بل أن الاتفاق عام بين المختصين في النقود الإسلامية أن هذا النقد لم يكن من إصدارات العرب المسلمين. ومن بين هؤلاء الأساتذة العالم والمؤرخ الأب أنستانس ماري الكرملي الذي كتب أن الذين أمروا بضرب ذلك الفلس هم أعداء العرب والمسلمين؛ إذ ليس من المستبعد أن بعض تلك النقود الذي



(شكل12)

تخطيط لفلس مضروب على الطراز البيزنطي يحمل اسم عمر. مجموعة خاصة في هولندا

عن: محمد باقر الحسيني

أخذ العرب المسلمون بضربها بدأ بسة 15 أو 16 هجرية كانت قد وقعت بأيدي البيزنطيين وقرأوا ما عليها من المأثورات الإسلامية، وخاصة أن العبارات التي تنقش عليها آنذاك كانت باليونانية شأنها في هذا شأن النقود البيزنطية نفسها

(1) عبد الرحمن فهمي، صنج السكة في الإسلام، القاهرة، 1957، ص17.

مـع إضـافة في بعـض الأحيـان عبـارات أو كلمـات قليلـة بالعربيـة. فاسـتغل البيزنطيون ذلك فضربوا نقودا على الشاكلة نفسها ولكنها تحتوي إلى جانب ذلك على عبارات أو كلمات فيها إساءة بالغة للعرب والمسلمين؛[1] منهـا هـذا النقـد الذي كان الغرض من إصداره أيقاع الوحشة والفرقة بين أولي الأمـر في المدينـة المنوّرة والقادة العسكريين المسلمين على جبهات القتال؛ وبكلمة أخـرى لإيقـاع الفتنة أو على الأقل الوحشة بين عمر بن الخطـاب وقائـد الجيش الإسـلامي في بلاد الشام خالد بن الوليد الذي كان رسول الله قد لقّبه بـ(سيف الإسلام).[2]

ومن الواضح أن ليس من المعقول أن ينصرف خالد بن الوليـد إلى أعمـال ثانوية فيأمر المسؤولين عن دور الضرب في المدن المحررة أن يضعوا اسمـه وكنيتـه على النقود ولاسيما في تلك الفترة الزمنية العصيبة الـتي كـان في مطـاوي سـنتي 15-16 الهجريتين يقارع البيزنطيين في بلاد الشـام في حـرب ضـروس لا هـوادة فيها؛ حيث وقعت فيهما أخطر المعارك المصيرية وأشدها ضراوة وكان خالد يقود الجيوش الإسلامية في تلك المعارك بمقدرة وكفاءة عاليـة جـدا فـأراد البيزنطيـون على ما يبدو التخلص منه على أي نحو وبأي طريقة. وقد كتـب الأب الكرملـي أن ليس من المستبعد أن إصدار ذلك النقد قد ساعد الخليفة عمر (ﷺ) على اتخاذ

---

(1) عدا النقود البيزنطية التي كانت تضـرب في الإسـكندرية والمغـرب الأقصـى فقـد كانـت تحمل عبارتها باللاتينية.

(2) نعم لم تكن هناك حاجة ملحّة في ذلك الوقت إلى النقود فبيـوت المـال الإسـلامية كانـت مليئة بالدنانير الذهبية والدراهم الفضية والكثير منها بأيدي الناس سواء كان ذلك في شبه جزيرة العرب أو في الأقاليم المفتوحة غير أن الحاجة دائما موجـودة إلى النقـود النحاسـية المساعدة لتمشيه الأعمال التجارية الصغيرة مثـل شـراء الخبـز أو الخضـراوات ومـا شـابة ذلك.

قراره بعزل خالد عن قيادة الجيش في بلاد الشام وتعيين الصحابي أبا عبيدة بن الجراح بدلا عنه.[1]

فإذا صح ما ذهب اليه الأب الكرملي فإن هذا يعني أنه قد تحقق للبيزنطيين ما أردوا من وراء إصدار مثل تلك الفلوس المسيئة إلى الإسلام والمسلمين. وهنا قد يتساءل القارئ الكريم فيما إذا كان قد تحقق للبيزنطيين أدنى نفع أو فائدة من وراء إصدار مثل تلك النقود الإعلامية الشديدة المكر والدهاء؟ كان جوابه هو النفي؛ صحيح أن عمر قد عزل خالدا عن قيادة الجيوش الإسلامية في بلاد الشام لأسباب ذكرها المؤرخون المسلمون غير أن القائد الجديد لم يكن أبدا بأقل كفاءة من خالد بن الوليد من حيث الحنكة أو المهارة في قيادة الجيش ولا أقل منه شجاعة واستبسالا في القتال في خوض المعارك المصيرية؛ فقد ظلت الانتصارات العربية الإسلامية وهزائم الجيش البيزنطي تتابع حتى تم تحرير جميع بلاد الشام وفلسطين والأردن ومنطقة الفرات الأعلى وكذلك مصر من الاحتلال البيزنطي في فترة زمنية قياسية؛ وليس في ذلك أدنى غرابة فقد جاء في القرآن الكريم (**لقد مكروا والله خير الماكرين**).

وبين أيدينا نقد إعلامي مبكر آخر غير أنه قد ضرب هذه المرة في مصر وفي السنوات الأولى من فتحها ودخول الجيش العربي الإسلامي إليها بقيادة عمرو بن العاص في سنة 22 هجرية (643م) في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ التي كان الغرض من ضربه إعلاما معاكسا للنقد السابق الذكر. إنه فلس غير مؤرخ من ضرب مدينة الإسكندرية ربما يعود إلى سنة 23 هجرية أو السنة التي تليها؛ إن الغرابة في هذا الفلس أنه يظهر على نحو واضح الدعوة إلى الألفة

---

(1) الأب انستانس ماري الكرملي، النقود العربية، القاهرة، 1936، ص91.

والعيش سويا بسلام ومحبة بين المسيحيين والمسلمين من دون وجود نقوش كتابية إضافية على النقد تشير إلى ذلك.



(شكل13)

فلس على الطراز بيزنطي مضروب في العهد الراشدي

عن: الدكتور عبد الرحمن فهمي

يظهر هذا الفلس صورة الإمبراطور البيزنطي على رأسه التاج المضلع ولكن بدلا من أن يعلوه الصليب المعتاد نجد بدلا عن ذلك هلال يحتضن صليبا صغيرا مما يرجح أن الأمر بسك تلك النقود كان غرضه إعلاميا ليظهر للمسيحيين والمسلمين على حد سواء التسامح والعيش سويا بسلام ووئام في ظل الحكم الإسلامي الجديد لمصر،[1] فقد كان (الهلال) يرمز على الدوام للإسلام و(الصليب) للمسيحيين (شكل13).[2]

---

(1) هناك بعض المختصين في النقود من العرب من لا يتفق مع هذه الطروحات.

(2) عبد الرحمن فهمي، تحف نادرة في المسكوكات والأوزان والأختام الإسلامية، مجلة المجمع العلمي المصري، المجلد 53، سنة 1971–1972، ص16–18.

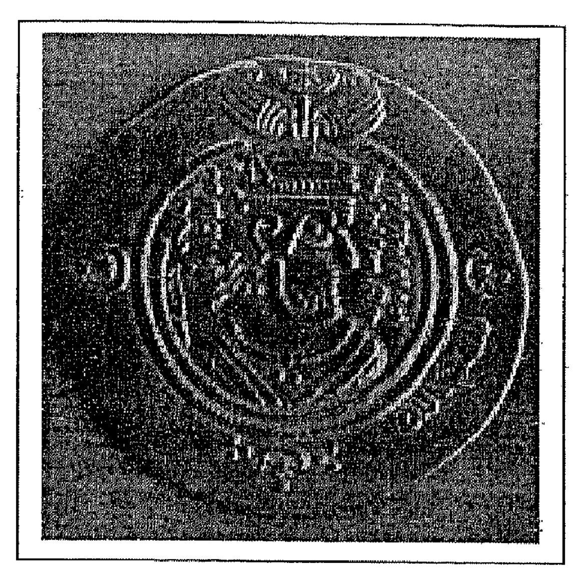
وإذا تركنا هذه النقود المضروبة على الطراز البيزنطي وانتقلنا إلى ما ضربه المسلمون على الطراز الساساني نلاحظ أن العبارات التي أضافها العرب المسلمون إلى نقوش النقود في العهد الراشدي بالخط العربي هي بعض المأثورات الإسلامية الشائعة بين المسلمين مثل(الحمد لله)، [1] أو (محمد رسول الله) أو (لا اله إلا الله وحده).

واستمر الأمر على هذا النحو في العصر الأموي الأول كله تقريبا حيث وصلت إلينا نقود تحمل نوعا جديدا من الإعلام الخاص أيضا؛ ففي مطلع العصر الأموي أيضا نلاحظ أن معاوية بن أبي سفيان كان قد ضرب نقودا على الطراز الساساني منذ الأشهر الأولى على توليه منصب الخلافة، منها درهم مؤرخ بسنة 41 هجرية وصل إلينا نقش عليه ليس اسمه فحسب بل أيضا لقب (أمير المؤمنين)؛ كان الغرض من سكّها على ما يبدو هو الإعلان على نحو رسمي وعام أنه بات الخليفة الشرعي للبلاد (شكل14). ليس هذا فقط بل أفاد المقريزي أن معاوية قد ضرب دنانيرا عليها صورته متقلّدا سيفا،[2] إلاأن أي نموذج من تلك النقود التي أشار إليها المقريزي لم يصل إلينا.

---

(1) لابد من القول أولا أن العرب لم تسكّ نقودا على عهد رسول الله (ﷺ)وإنما كانت تستعين آنذاك بالنقود الأجنبية وهي الدنانير البيزنطية والدراهم الساسانية والقليل من النقود الحميرية اليمنية التي كانت في قيد التداول والتي كانت تصل إلى المدن والقبائل في شبه جزيرة العرب عن طريق التجارة.

(2) المقريزي، تقي الدين احمد بن علي، (ت845هـ)، شذور العقود في ذكر النقود، النجف، 1967، ص95.




(شكل14)

درهم معاوية بن أبي سفيان المضروب في سنة 41 هجرية

عن: عفيف بهنسي وديمتري برامكي

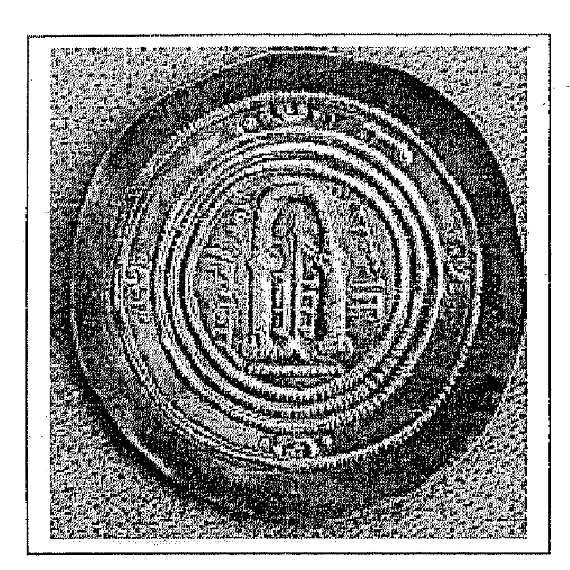
ومن النقود الإعلامية المهمة التي وصلت إلينا والتي تعود إلى العصر الأموي المبكر أو الوسيط درهم فضي غير مؤرخ ربما يعود إلى أيام خلافة عبد الملك بن مروان (شكل 15)،[1] يحمل على وجهه الأول في الفراغ الواقع خارج النطاق أو الطوق المأثورات التالية: **بسم الله... لا إله إلا الله وحده... محمد رسول الله.** إن المأثورات الدينية الإسلامية بهذا الطول أوالإسهاب لم نعهده على غير هذا الدرهم من النقود التي تعود إلى العهد الراشدي أو السنوات الأولى من العصر الأموي.

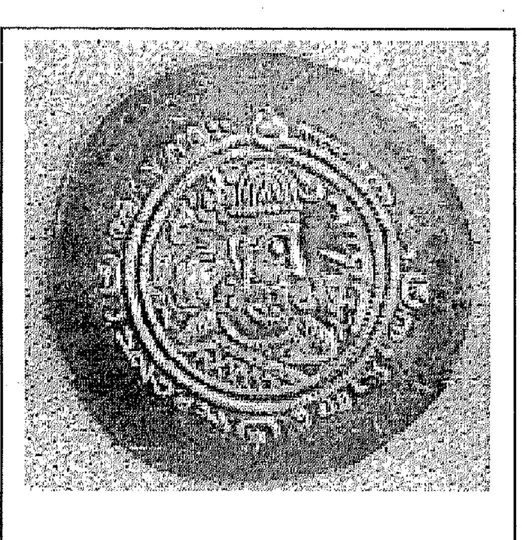
أما الوجه الثاني فقد اسقط من مركزه الرموز الخاصة بمعبد النار وحارساه

---

(1) وصل إلينا من هذا النوع من الدراهم النادر جدا نسختان فقط الأول محفوظ ضمن مجموعة المسكوكات الأموية والثاني ضمن مجموعة متحف دمشق.

وما شابه ذلك نجده عادة على النقود الساسانية الطراز، واستعيض عنها بصورة محراب قوامه عقد نصف دائري.





(شكل15)

درهم إعلامي يعود إلى العصر الأموي محفوظ في متحف دمشق الوطني.

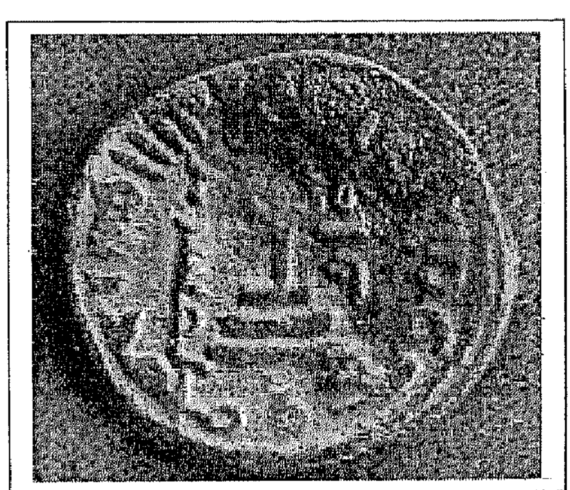
عن: عفيف بهنسي وديمتري برامكي، المسكوكات الإسلامية

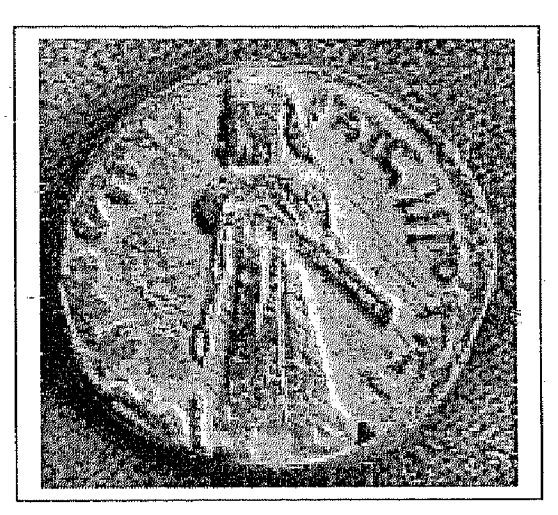
يرتكز على عمودين حلزونيين، تشغل خارجه ضمن أطواق الدرهم الثلاث على جهته اليمنى لقب: (أمير المؤمنين)، على الجهة الثانية عبارة: (خلفةالله). أما باطن المحراب فقد شغل بعبارة: (نصير الله)؛ يلاحظ هنا أن هذه العبارة ذات الكلمتين قد كتبت كل كلمة منها على جانب رمح ممتد بينهما. إنه إعلام وتبشير بالنصر؛ والملاحظ هنا أن علما صغيرا يتدلى من الرمح الذي كان يعرف بـ(العنزة) عند العرب. إنه يرمز بلا شك إلى كونه راية الإسلام.[1] ومما يرجح ذلك أن تلك المعارك المرتبطة بالفتوحات الإسلامية الكبيرة في شرق العالم

(1) George Miles،Mihrab and A'naza: a study in early Islamic Iconography،in; *Archaeoloca Orientalia،New York،1952 ،p. 156-161*

الإسلامي في السنة التي ضرب فيها هذا الدرهم النادر بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلي الذي وصل بفتوحاته حتى حدود الصين، وأن محمد بن القاسم الثقفي قد واصل الفتوحات في الجنوب الشرقي حتى اجتاح بعض أجزاء الهند الشمالية الغربية.

أما بخصوص النقود التي نجد عليها صورة الخليفة متقلدا سيفا المارة الذكر، فمن المؤكد أن مثل تلك النقود قد وصلت إلينا من عهد عبد الملك بن مروان (65-86 هـ/ 685-705م)؛ الذي نقش صورته على الوجه الأول لبعض نقوده النحاسية والفضية وكذلك على بعض دنانيره الذهبية وهو يتقلّد سيفا مستقيما يتميّز بعرض مبالغ به. أما النقوش الكتابية التي تحيط بصورة الخليفة فتقرأ: (عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين)؛ وعلى الوجه الثاني الشهادة الإسلامية: **(لا اله إلا الله وحده محمد رسول الله)** (شكل 16).





(شكل16)

فلس من ضرب قنسرين. المتحف الوطني السوري بدمشق

عن: عفيف بهنسي وديمتري برامكي

إن تاريخ جميع ما تمّ ضربه من هذا النوع النقود ينحصر ما بين سنتي 74-77 هجرية (694-697م)؛ أي قبل التعريب الكامل للنقود الإسلامية

بفترة زمنية وجيزة.[1] وإن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو السبب الذي حمل عبد الملك على ضرب تلك النقود التي تحمل صورته مع أن تصوير الكائنات الحية مكروها إن لم يكن محرما في الإسلام مع العلم إن عيد الملك كان نفسه من التابعين وواحدا من فقهاء المدينة المعدودين قبل أن يتولى منصب الخلافة![2] فكما هو معروف أن النصف الأول من حكم عبد الملك يعدّ فترة زمنية مضطربة جدا؛ الدولة فيها مجزأة وفي حالة يرثى لها من عدم الاستقرار، فلم يكن قد بقي بأيدي الأمويين من الأقاليم الإسلامية سوى بلاد الشام. ومع ذلك استطاع بحنكته السياسية وبعزيمة التي لا تعرف الرحمة وبالقوة العسكرية التي كانت قد تيسّرت له أن ينجح في إعادة توحيد الأقاليم المنفصلة ويقضي على معارضيه الواحد تلو الآخر باستثناء الخوارج.

هل أن الغرض كان إعلاميا؟ أي لإرهاب أو تخويف خصومه أو هؤلاء الذين قد تسوّلهم نفسهم على الثورة أو إعلان العصيان على الدولة أو من يزمع منهم أن يعترض طريقه أو سياسته منهم؟ وهل لذلك السبب نجده يمسك بقبض السيف العريض الذي يتمنطق به في صوره الممثلة على معظم نقوده ومن جميع

---

(1) والسبب في ذلك أن التعريب الكامل قد طال أو شمل جميع ما تم سكه من النقود الإسلامية بدأ بالنصف الثاني من سنة 77 هجرية (697م) واسقط بذلك ما عليها من كلمات ورموز لا تمت إلى الإسلام بصلة وكذلك تم حذف الصور الخاصة بالملوك بما في ذلك صورة عبد الملك بن مروان نفسه اللهم باستثناء بعض ما ضرب منها في بعض المدن أو الأقاليم الإيرانية مثل أذربيجان على سبيل المثال ظلت الفلوس والدراهم تضرب على الطراز الساساني حتى أوائل القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي..

(2) يعني قدامى المؤرخين بالتابعين أن هؤلاء العلماء الذين تتلمذوا على يد واحد من صحابة رسول الله (ﷺ).

الفئات؟ وهل أن الشيء الذي يتدلى من ذراعه الأيمن الذي لاحظه معظم المختصين بالنقود الإسلامية وحاروا في أمره أو في تفسيره،[1] يرتبط على نحو مباشر بهذا النوع من الإعلام الخاص بالتهديد والوعيد (شكل16)؟[2] ومما يرجح أن تلك النقود قد ضربت حقا لغرض إعلامي إضافة إلى تمشية أمور الرعية المعيشية اليومية حيث أفادت المصادر التاريخية القديمة المتيسرة أن عبد

---

(1) كتب الدكتور جون ووكر أن ليس من المستبعد أن يكون حبلا قصيرا أو سفيفة شريطية تتدلى من النطاق girdle المشدود حول وسط الخليفة. واقترح آخرون أنه ربما يكون منديلا يتدلى من ذراع الخليفة اليمين أو من النطاق الذي يلف حول وسطه. أو أن يكون أحد طرفي (التكة) التي كانت تشد بها السروال؛ ومن المعروف أن المسلمين من باب التأنق والعناية بالمظهر الخارجي كانوا يهتمون اهتماما خاصة بالتكة التي كثيرا ما كانت تنسج بالحرير الخالص وبالألوان المختلفة (p.Miles)، op. cit. p.218. واقترح أيضا أن ذلك الشيء ربما هو سوط يتفرع في نهايته إلى ذؤابتينأو ثلاثة، وكما هو معروف أنعمر بن الخطاب رضي الله عنهكان يحمل (الدرة) عند تجواله في الأسواق والتيفسّر معناها الجوهري (ت 393هـ) صاحب أقدم معجم عربي بأنها الشيء: (التي يضرب بها) من دون زيادة أو نقصان.

(2) من بين هؤلاء المختصين الذين لم يرضوا بجميع تلك الاقتراحات كان الدكتور جورج مايلز George Miles فجميع تلك التفسيرات والاقتراحات غير مقنعة له بما في ذلك السوط إذ لم يرد عند قدامى المؤرخين والأخباريين العرب أن من عادة الخلفاء المسلمين حمل السوط أو استخدامه بأنفسهم باستثناء عمر الفاروق الذي كان يحمل عند خروجه للأسواق ما كان يعرف بـ(الدرّة) التي فسّر معناها أصحاب المعاجم بأنها الشيء الذي يضرب بها مثل السوط أو العصا. وعلى ذلك فهو لا يستطيع أن يؤكد ماهيّة ذلك الشيء الذي يتدلى من ساعد الخليفة الأيمن، مع أنه دائم الحضور كجزء مكمل لقيافة الخليفة عبد الملك بن مروان في الغالبية العظمى من هذا الضرب من النقود الذي مثّل بطرق وبأشكال مختلفة (Miles، op. cit، p. 225).

الملك بن مروان كان قد هدّد رؤساء القبائل عند زيارته للكوفة في سنة 71 هجرية (692م) بعد اندحار مصعب بن الزبير وقتله في معركة كبرى في العراق،[1] قال لهم بوضوح تام أنه سوف بضرب بضرب عنق من يعترض خلافته وأحقيّة الأمويين في الخلافة؛[2] ويلاحظ إن الخليفة في معظم النقود يحمل أو يتدلى من ساعده الأيمن واحدا من جملة لوازم ترتبط على ما يبدو بالتهديد والوعيد (شكل17).[3] وعلى ذلك ليس من المستبعد أن الشيء الذي يتدلى من ساعده ليمين ربما هو واحد من جملة اللوازم التي ترتبط كلها بالتهديد والوعيد. منها (الجامعة) التي ذكرها في خطبته تلك التيهدد بها المعارضين لسياسته ولخلافته ولأسرة بني أميه على نحو عام وهو الحبل الذي كان يغلّ بها المجرمين والتي وصفها الجوهري في معجمه بأنها: "**الغل؛ لأنها تجمع اليدين إلى العنق**".[4]

---

(1) الطبري، التاريخ، 6/ 162-164

(2) ليس هذا فقط بل أن من جملة ما أوصى به ولي عهده الوليد بن عبد الملك وهو على فراش الموت: (**يا وليد اتق الله فيما أخلفك فيه.... ادع الناس إذا مت إلى البيعة؛ فمن قال برأسه هكذا فقل بسيفك هكذا..**.) (المصدر نفسه، ص141)

(3) من خطبه في المدينة المنورة عند زيارته لها في موسم حج سنة 73 هجرية (694م): .... **إلا وإني لا أداهن هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم... تكلفوننا أعمال المهاجرين الأولين ولا تعملون من أعمالهم....وهذا حكم السيف بيننا وبينكم..... الا وإنا نحتمل كل شيء إلا وثوبا على منبر أو نصب راية.... إلا وإن (الجامعة) التي جعلتها في عنق عمرو بن سعيد عندي،**

(3) **والله لا يفعل أحد فعله إلا جعلتها في عنقه ثم لا تخرج نفسه إلا صعدا...**".فوات الوفيات، 2/ 404

(4) الجوهري، إسماعيل بن حماد، (ت392 هـ)، الصحاح، القاهرة 1956، 3/ 1199



(شكل17)

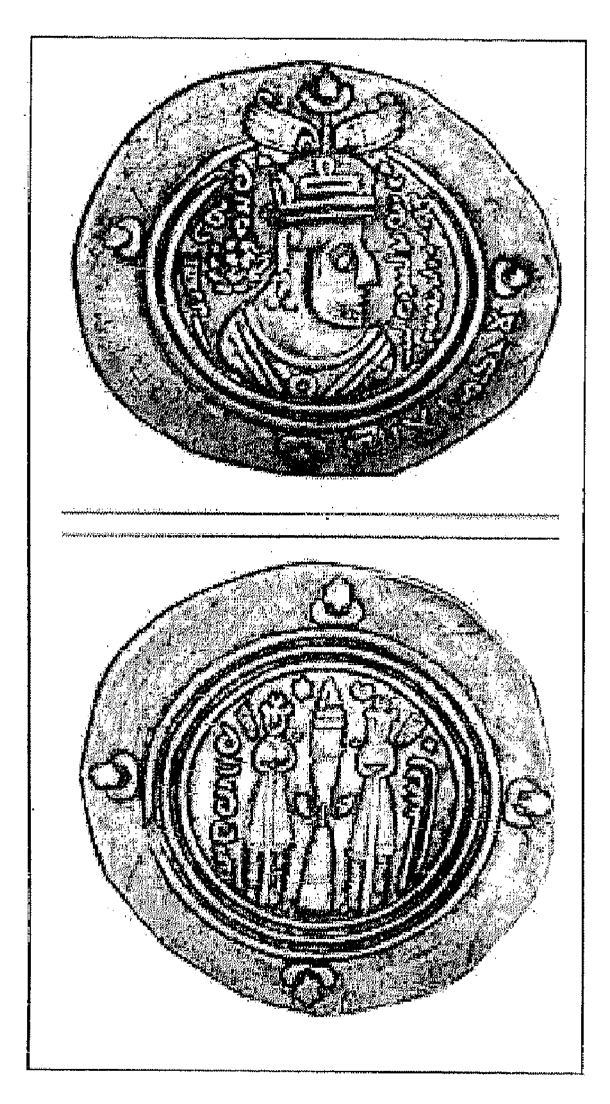
دينار خاص بعبد الملك بن مروان مؤرخ من سنة 76 هجرية. المتحف البريطاني

وإذا تركنا نقود عبد الملك الإعلامية وشأنها يمكن القول أن الخوارج كانت أخطر الفئات التي ظلّت ثائرة طوال العصر الأموي تقريبا؛ فقد باتت تناصب الأمويين العداء الشديد منذ أوائل الستينات من القرن الأول الهجري في عهد خلافة يزيد بن معاوية وظلت على ذلك النحو حتى بعد القضاء على ثورة عبد الله بن الزبير في الحجاز والعراق. فقد عرف عن الخوارج الإستماتة في القتال وطلب الشهادة وعدم الخوف من الموت.

ومن البديهي أن يستغل الخوارج النقود التي باتوا يضربونها في المناطق التي كانوا يسيطرون عليها شأنهم في هذا شأن غيرهم من الثوار، فظهر شعارهم المشهور: **(لا حكم إلا لله)** لأول مرة على النقود التي ضربها **(قطري بن الفجاءة)** (شكل18). وكما هو معروف أن هذا الشعار قد اقتبس من الآيتين

الكريمتين: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فؤلائك هم الكافرون. إلا لا حكم إلا الله ولا طاعة لمن عدا الله).

كان هذا الثائر واحدا من ألمع رؤساء الخوارج الأزارقة ومن أشجعهم، وكان أيضا شاعرا



(شكل18)

درهم خاص بالثائر الخارجي قطري بن الفجاءة.-مؤرخ من سنة 75 هجرية

عن: نأيف القسوس وخطيبا لامفوّها. لقد دوّخ الولاة

الأمويين في العراق طوال ثلاث عشرة سنة يقاتل ويهزّم الجيوش الأموية جيشا بعد جيش حتى قيل فيه انه (**الطامة الكبرى**) وصاعقة من صواعق الحرب.[1] وهو قائل الأبيات المشهورة التي منها:

أقول لها وقد طارت شعاعا   من الأبطال ويحك لا تراعي

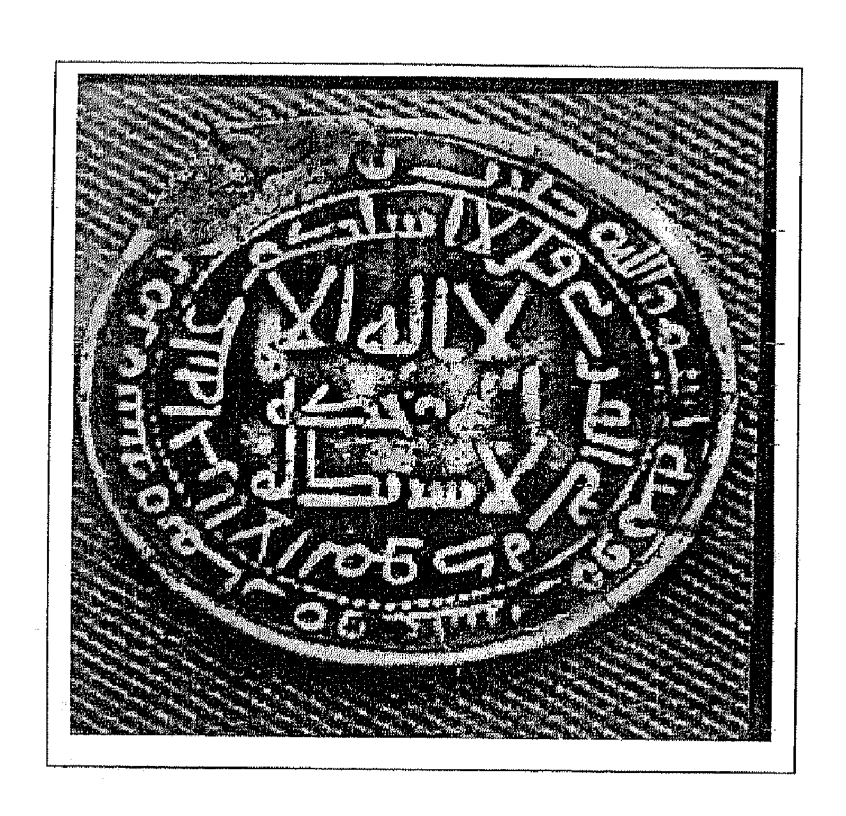
وإلى جانب شعار الخوارج الذي نقش على دراهمه نجد لقب الخلافة (**أمير المؤمنين**) الذي كان قد أضفاه عليه أصحابه.

وفي العقود الأخيرة من العصر الأموي عادت الأمور إلى الفوضى والاضطراب لاسيما عندما ظهر العباسيون على المسرح السياسي الذين استغلوا انتمائهم إلى أسرة رسول الله (ﷺ) فضربوا نقودا فضيّة بدأ بسنة 128 هجرية (746م) تحمل أية قرآنية كريمة توضح أو تشير على نحو غير مباشر إلى ذلك الانتماء هي: (**قل لا أسئلكم عليه أجرا إلا المودة في القربى**) (**شكل19**).[2]

---

(1) توفى قطري بن الفجاءة في سنة 78 هجرية (697م) عندما كبت به فرسه وهو على ظهرها يقاتل في ساحة الوغى الجيش الأموي، فدقّ عنقه فمات. وتنفّس بذلك الأمويون الصعداء فقد خدمتهم كبوة فرسه خدمة عظيمة.

(2) الآية الكريمة تقرأ كاملة على هذا النحو: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾. سورة الشورى، الآية 23.



(شكل19)

درهم ضربه الثوار العباسيين في مدينة مرو في سنة 128 هجري. المتحف البريطاني

وعندما اشتدّ أزار الدعوة العباسية وتفاقمت في أواخر عهد يزيد بن عبد الملك (101-105هـ/ 720-724م) وطيلة سنوات خلافة هشام بن عبد الملك (105-125 هـ/ 724-743م)، أراد الخليفة الأموي الإشهار أو إعلام أو إفهام الرأي العام أي جماهير المسلمين أن الأسرة الأموية هي أيضا أسرة عريقة من قريش طيّبة الأصل والمنبت، فضرب دنانير عليها عبارة: **(ضرب بالحجاز معدن أمير المؤمنين)**.[1] وكان الاعتقاد في بادئ الأمر أنه يشير إلى موقع مناجم الذهب في الحجاز التي كانت تعرف بـ(معدن بني سليم) الواقعة بين مكة والمدينة، ثم

(1) خالف بذلك القاعدة التي لا تذكر فيها على الدنانير مكان الضرب إذ من المعروف أن ما كان يضرب من دنانير كانت في دار الضرب بدمشق حصرا.

ظهر فلس عليه عبارة (ضرب بالمدينة معدن أمير المؤمنين) فتأكد المختصون بالنقود أن المقصود هنا هو ليس الذهب وإنما أريد بها إعلام الناس أن الخليفة الأموي هو من قريش ومن العرب الأقحاح.[1] وقد كتب الدكتور نايف القسوس المختص بالنقود الأموية بخصوص هذه الإصدارات النقدية قوله أنه: **يمكننا أن نستنتج إنها نقود دعائية إعلامية تشير وتؤكد على طيب أصل الخليفة ونبل نسبه... وقد أضيفت كلمة (المدينة) في حال المسكوكات النحاسية لغايات إعلامية أيضا؛ فالفلوس كان الشعب يتداولها يوميا لقضاء حاجاته، في حين أن الذهب كان للاكتناز ويستخدم للصفقات التجارية الكبيرة.**[2]

وإذا انتقلنا إلى العصر العباسي يمكن القول إن السنوات الأولى من ذلك العهد بعد القضاء على حكم الأسرة الأموية قد مرت بسلام دون مشاكل تتطلب من الدولة الاستفادة من وسائل الإعلام المتيسرة في التغطية بما في ذلك المعلومات الإعلامية التي كانت تثبّت على النقود. غير أن الأمور أخذت تتعقد في عهد ثاني الخلفاء العباسيين أبي جعفر المنصور حيث قام العلويون بثورات متتابعة، ثم تداخلت معها مشكلة أبي مسلم الخرساني والطريقة التي اتبعها في التخلص منه، فضلا عن الثورات التي وقعت في إيران وبلاد الشام وغيرها. كل تلك الحركات والثورات قد أخمدها المنصور بحزم وقوة لم يجد معها أنه كان بحاجة إلى الإعلام لمساعدته في ذلك.

ومع ذلك أن مشكلة واحدة وهي خاصة بالأسرة العباسية نفسها قد

---

(1) سمير شما، المدينة معدن أمير المؤمنين، مجلة المسكوكات، العدد 7، سنة 1976، ص106-107

(2) جورج نايف القسوس، نميّات نحاسية أموية جديدة في مجموعة خاصة، عمان، 2004، ص118-119

أرّقت مضجع المنصور وهو موضوع تنحية عيسى بن موسى الذي كان الخليفة السابق السفاح قد عهد اليه بالخلافة بعد المنصور. ومن الواضح أن تنحية ولي العهد لم يكن بالأمر الهيّن؛ ولاسيما أن السفاح كان قد أخذ البيعة له من الولاة وقادة الجيش ومعظم أفراد الأسرة العباسية المهمين؛ غير أن المنصورقد تمكن في خاتمة المطاف من أقناع عيسى بن موسى بالتنحي عن ولاية العهد لصالح ولده محمد المهدي.

فكما ذكرت في مقدمة هذا الكتاب أن الإشهار هو نشر الخبر: أي إظهار ما يريد المرء إظهاره أو إعلام الآخرين عنه أوما يهم الآخرين الاطلاع عليه مهما كان نوع الخبر؛ فمن البديهي أن الخلفاء العباسيين قد أدركوا تلك الحقيقة، فبين أيدينا نقودا أراد بها الخلفاء العباسيين إعلام الناس بأحداث يهم الدولة إطلاع الرأي العام عليها. من ذلك على سبيل المثال أن أبا جعفر المنصور (136-158هـ/ 754-775م) عندما نقل ولاية العهد من عيسى بن موسى إلى ولده محمد المهدي أراد إعلام الناس بذلك وأن يضع حدا للأقاويل والإشاعات بشأن ولاية العهد. وتوكيدا لذلك ضرب نقودا لها صفة إعلامية إشهارية مهمة جدا ثبّت عليها اسم المهدي مع لقب (ولي العهد) وذلك إشعارا للناس أجمعين بذلك الحدث المهم الذي يمكن اعتباره أول نقود إعلامية تضرب في العصر العباسي. وفي واقع الأمر كان إصدار مثل تلك النقود التي تحمل اسم ولي العهد الأولى في نوعها في الإسلام..

ومن البديهي أن العصر العباسي الطويل لا يمكن أن يكون غفلا من الثورات والانتفاضات، ومن ثم لا يخلوا من النقود التي كان الثوار يسكّونها من أجل الإعلام أو الدعاية لثورتهم، وكذلك ما كانت الدولة تسكّه أو ما تفعله من أجل تفنيد حجج الثوار وما يدعون إليه.

ومن أخطر تلك الثورات وأعنفها وأطولها زمنا كانت (ثورة الزنج) في جنوب العراق؛[1] لقد حاول زعيمها الذي عرف في المصادر التاريخية الإسلامية بـ(الخبيث) أو صاحب الزنج أن يظهر للناس أنه كان يدافع عن حقوق الفئات المظلومة أو المضطهدة لاسيما فئة العبيد منهم.[2] ومن البديهي أن يضرب (صاحب الزنج) نقودا يعلن عن طريقها المبادئ الأساس لثورته والتي كان يبعث بعضها إلى المدن والأقاليم القريبة والبعيدة من أجل الإعلام والدعاية له وكسب المزيد من الأنصار ليقفوا إلى جنبه وليقاتلوا ويقارعوا السلطة العباسية في بغداد وسامراء. لقد حرص ذلك الثائر أن يحافظ في كتاباته التي كان يثبتها على ما يصدر من النقود على النصوص الأساسية الإسلامية؛ مثل بعض أجزاء من الآيات القرآنية المختارة مثل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛[3] وأيضا الآية الكريمة: ﴿وَمَن لَّمۡ

---

(1) إنها الثورة التي دامت زهاء خمسة عشر عاما وراح ضحيتها عشرات الألوف من الناس وتعرضت كبرى مدن جنوب العراق إلى النهب والحرق ولاسيما مدينة البصرة. بدأت ثورة الزنج في سنة 255 وانتهت بمقتله في سنة270 هجرية (868-883م).

(2) لقد دعا صاحب الزنج وهو المدعو علي بن محمد إلى تحرير العبيد، واستطاع أن يستميل قلوب الكثير منهم فتركوا أسيادهم في القرى والمدن. وقد لقيت دعوته أيضا قبولا حسنا في إقليمي (هجر) و(البحرين) فترك الكثير من العبيد والمستضعفين في الأرض أسيادهم والتحقوا به في جنوب العراق فعظم شأنه وقويت شوكته. وقد شيّد صاحب الزنج الذي تسمى بـ(المهدي) مدينة بين البصرة والأبلّة سماها (المختارة)؛ وعندما كان يخطب من فوق منبر مدينته الجديدة يعيد إلى أذهانهم ما كانوا يلقونه من ظلم وعنت وفي الوقت نفسه يمنيهم بالأماني العظيمة بإطلاق حرياتهم واستمتاعهم بالأموال التي يغنموها في حروبهم.

(3) سورة التوبة، الآية رقم 9

يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾، [1] وغيرها من الآيات الكريمة بما في ذلك الآيات التي استند عليها الخوارج في دعواهم.

وفي الواقع أن نقود الثوار في العصر العباسي الطويل كانت كثيرة ولا أريد أن أشير إلى أكثر مما أشرت إليه خشية الإطالة التي قد تدخل الملل والسأم إلى نفوس القراء الأكارم. غير إلى جانب ذلك ضرب العباسيون نقودا إعلامية بمناسيات أحداث بهيجة؛ منها نقودا ضربت بمناسبة ختان الأمير المعتز بالله ابن الخليفة المتوكل على الله-(232-247هـ/ 847-861م) التي تمت في واحد من قصور الخلافة في مدينة سامراء سنة 235هجرية (849م). فقد ورد في كتب التاريخ أن عشرات الألوف من النقود الإعلامية الفضية الخفيفة الوزن قد تمّ إصدارها بتلك المناسبة السعيدة ونثرت على الناس ولاسيما المحتفلين منهم بتلك المناسبة.

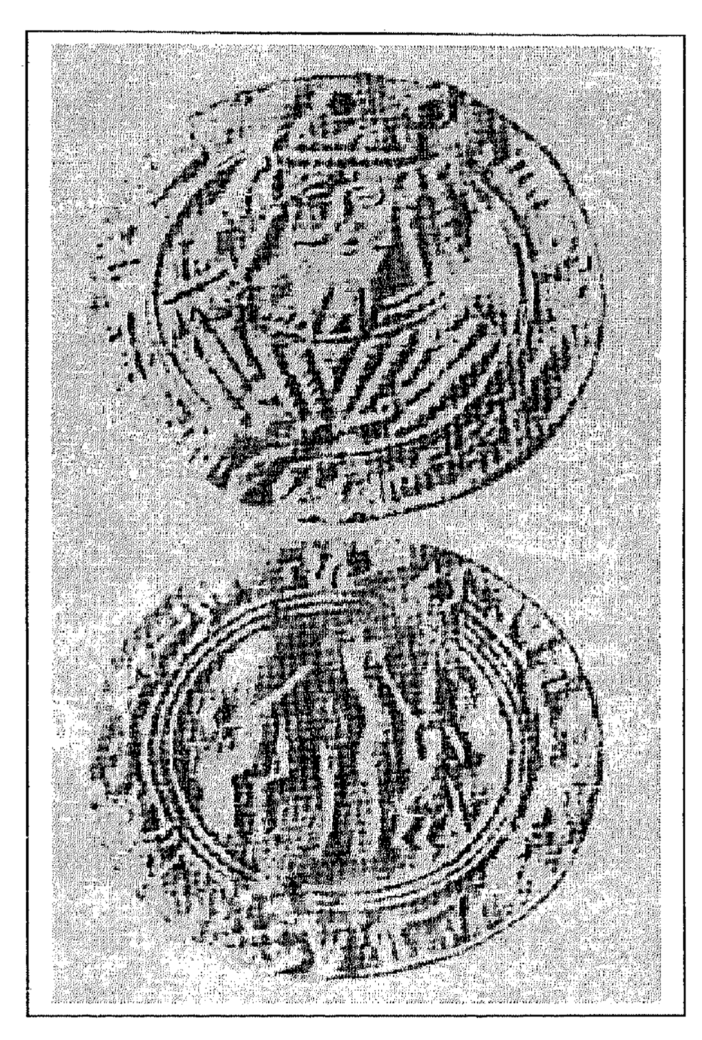
ومن المناسبات البهيجة الأخرى في عهد المتوكل على الله أيضا انتصار الجيش العباسي على ثوار (البجّة) أو (البجاة) من بلاد (النوبة) في الجزء الجنوبي من مصر وشمال بلاد السودان. وليس من المستبعد أن الجمل الذي يقوده رجل يحمل رمحا والمنقوش على درهم علي بابا نفسه الذي عدّ على ما يبدو رمزا لهزيمة (البجاة) في أفريقيا الوسطى يحمل الدرهم على الوجه الأول صورة نصفيّة للخليفة في كامل زينته،[2] تعلو الصورة اسمه بالخط الكوفي المتطوّر. ويبدو أن

---

(1) سورة المائدة، الآية رقم 45

(2) تعلوا رأس الخليفة في هذا النقد قلنسوة فوق منديل أو كوفية معلّمة يبدو إنها من الحرير، يحيط بالقلنسوة من جهتها السفلية سلك منضود باللآلئ أو ربما بنوع آخر من الجواهر.-وهناك فوق كتفيه وحول صدره بردة رسول الله (ﷺ) الشهيرة التي أفادت المصادر التاريخية أن العباسيين-قد ورثوها من أسلافهم الأمويين في سنة 750 ميلادية.

ذلك الحدث المهم قد خلّد بإصدار نقود إعلامية وصل إلينا منها درهم فضي فريد من عصر المتوكل محفوظ في الوقت الحاضر في المتحف النمسوي في فينا (شكل20)؛[1] تمّ إصدار هو توزيعه على الناس في الأرجح ابتهاجا بما حققه الجيش العباسي من انتصار كبير على الثوار (البجاة).

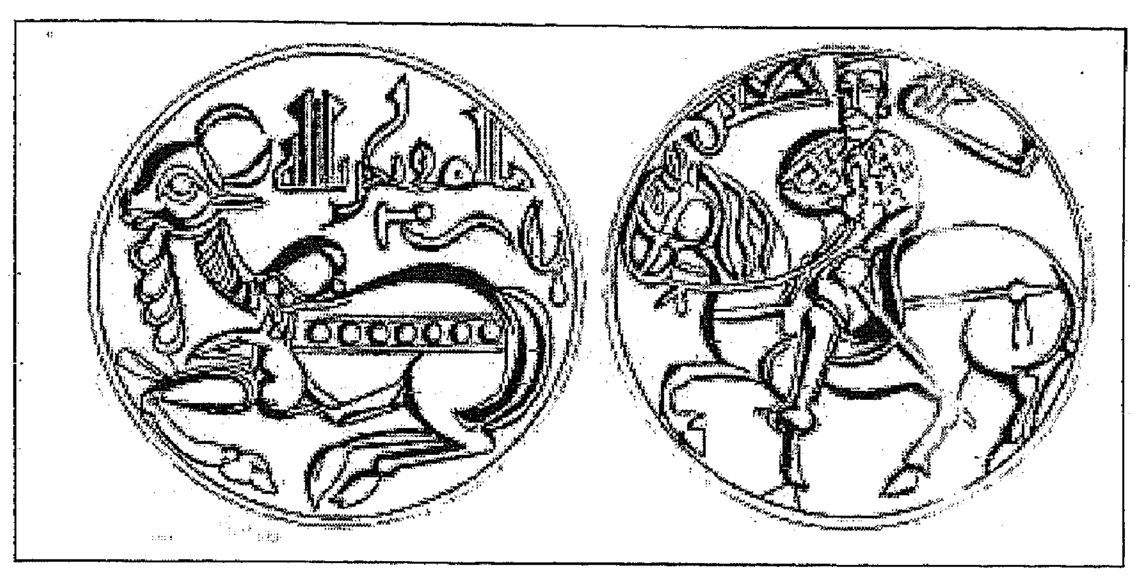


(شكل20)

درهم الصلة الخاص بالمتوكل على الله المحفوظ في المتحف النمسوي

(1) السيوطي، المصدر السابق، ص348

وفي أيام خلافة المقتدر بالله (295-320هـ/ 908-932م) كثرت الفتن والحروب الداخلية والانقلابات العسكرية، فقد كان عهده الطويل نسبيا مضطربا حقا تميّز بالقلاقل وعدم الاستقرار. ربما من أخطر الأحداث وأهمها التي وقعت خلال سنين خلافته التي بلغت خمس وعشرين عاما الإطاحة به مرتين؛ كانت الأولى في سنة 301 هجرية (901م) حيث تمّ تنصيب ابن عمه الشاعر المعروف عبد الله بن المعتزخليفة على البلاد بدلا عنه. غير أن خلافة ابن المعتز لم تدم لأكثر من يوم واحد أعيد بعدها المقتدر إلى كرسي الخلافة باحتفال عظيم؛ وكانت المرة الثانية في سنة 317 هجرية (916م) حيث نصّب بدلا عنه القاهر بالله الذي لم تدم خلافته سوى بضع ساعات أعيد بعدها المقتدر بالله إلى دست الخلافة. كل تلك الأحداث على ما يبدو قد دفعت بالمقتدر إلى إصدار العديد من النقود الإعلامية الخاصة بتلك المناسبة وبغيرها من المناسبات الهامة لتطمين العامة من أبناء الشعب من جهة ولإظهار قوته وثباته وضعف خصومه السياسيين-من جهة أخرى.



(شكل21)

درهم مناسبات غير مؤرخ خاص بالخليفة العباسي المقتدر بالله محفوظ في المتحف العراقي

عن: محمد باقر الحسيني[1]

ومن الإصدارات النقدية من هذا النوع التي وصلت إلينا درهمان فضيّان نادران واحد منهما محفوظ في المتحف العراقي، منقوش على وجهه الأول عبارة (لله جعفر) تعلو صورة الخليفة المقتدر بالله الذي يعتلي صهوة جواده بكبرياء وشموخ، معتمرا بعمامة خفيفة ومتقلدا سيفا مستقيما وعلى كتفيه بردة رسول الله (ﷺ)؛[2] في الأرجح هي البردة نفسها التي كان قد اشتراها معاوية بن أبي سفيان من ورثة الشاعر المخضرم كعب بن زهير والتي توارثها بعده الخلفاء الأمويين كانت مع الخليفة الأموي الأخير عندما قتل عند مدينة (أبوصير في

---

(1) محمد باقر الحسيني، دور بغداد في سك نقودها الإعلامية والتاريخية والفنية في العصر العباسي، ضمن كتاب: بغداد مدينة السلام، جامعة بغداد، 1990، شكل 4

(2) إنها البردة التي وهبها رسول الله (ﷺ) إلى الشاعر المخضرم كعب بن زهير بعد فتح مكة. وكان ورثته بعد نحو خمسين عاما قد باعوها إلى معاوية بن أبي سفيان بخمسين الف درهم.

مصر في شمال العراق سنة 132 هجرية (750م)؛[1] ثم انتقلت فيما بعد إلى خلفاء بني العباس فتوارثوها وباتوا يضعونها على أكتافهم في المناسبات الإعلامية المهمة، وظل الأمر على ذلك النحو حتى نهاية العصر العباسي في سنة 656 هجرية (1258م).[2] ولم نعد بعد ذلك التاريخ نسمع شيئا عن تلك البردة.

أما الوجه الثاني من المسكوكة فعليه صورة وعل بارك ربما يرمز إلى خصومه الأذلاء. وقد نقش فوق صورة الوعل عبارة (المقتدر بالله). إن واحدا من هذه الدراهم الإعلامية محفوظ في المتحف البريطاني وآخر في المتحف العراقي (شكل21).[3] ومن الواضح أن هذا الدرهم الفضي قد سكّ تخليدا لبعض المناسبات المهمة مثل القضاء على حركة خصومة لتنحيته عن سدة الخلافة

---

(1) كتب الجاحظ أن مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين عندما هرب إلى مصر بعد اندحاره في (معركة الزاب) ضد العباسيين فهرب إلى مصر. وعندما شعر أن الجيش العباسي قد حاصره قرب المدينة الساحلية المصرية (ابو صير) دفع بالبردة وبقضيب رسول الله إلى خادم له ليدفنها في الرمال في المنطقة؛ وقد فعل ذلك . وعندما وقع الخادم أسيرا بيد العباسيين قال: **(إن قتلتموني ضاع ميراث النبي (ص). فأمنوه على أن يسلم لهم البردة والقضيب؛ ففعل)** (الجاحظ، البيان والتبيين، 3/ 78).

(2) كانت البردة على كتفي المقتدر بالله خلال المعركة الخاسرة التي خاضها جيش الخلافة ضد مؤنس الخادم الخارج عن الطاعة وقتل خلالها في سنة 320 هجرية (819م)، حيث قتل وحزّ رأسه وسلبت ما عليه منملابس ودفن في الموضع الذي قتل فيه خارج مدينة بغداد (السيوطي، المصدر السابق، ص249).

(3) ضمن مجموعة الحاج عبد الله شكر الصراف.

وفشلها. ومهما يكن من أمر المناسبة التي ضرب النقد الإعلامي من أجلها فإن لها بلا ريب تأثير إيجابي في نفوس الجمهور.

ومن المؤكد أن في العراق ولاسيما في بغداد كان الكثير من خصوم المقتدر بالله الذين لم يرتضوه إلا مرغمين، أو على الأرجح لم يقبلوا بطريقته في معالجة الأمور المالية وبسياساته الداخلية والخارجية كما جاء ذلك في بطون معظم كتب التاريخ التي تناولت تاريخ العصر العباسي أو سير الخلفاء العباسيين. وعلى ما يبدو أن خصومه كانوا هنا محقّين في ذلك فقد عرف عن المقتدر الله الإسراف وتبذير أموال الدولة؛ كان يوزع مافي بيت مال المسلمين بلا حساب وبلا ضبط ولا ربط كهبات سخيّة لا مبرر لها على بطانته والمقربين منه مثل الشعراءوالندماء والمغنين والموسيقيين ومحظياته من الجواري.[1] وعندما قتل كانت خزانة الدولة شبه خاوية.[2]

---

(1) كان في بلاط المقتدر بالله عدد ليس بالقليل من الموسيقيين والمغنين؛ كان من جملتهم (جحظة البرمكي) و(إبراهيم بن عباس) و(ابن زرزور) و(وصيف الزامر)، وكانت (ظلفة) من مغنياته المفضلات (عادل الهاشمي، الموسيقى والغناء، حضارة العراق، الجزء التاسع، ص560)

(2) كتب السيوطي بهذا الشأن: **كان (المقتدر بالله) مؤثرا الشهوات والشراب مبذرا للمال، وكانت النساء قد غلبن عليه، فأخرج عليهن جميع جواهر الخلافة ونفائسها وأعطى بعض حظاياه الدرة اليتيمة ووزنها ثلاثة مثاقيل. وأعطى زيدان القهرمانة سبحة جوهر لم ير مثلها واتلف أموالا كثيرة** .... إلى آخر القول (السيوطي، المصدر السابق، ص249).





الوجه الأول　　　　　　الوجه الثاني

(شكل22)

درهم فضي إعلامي باسم الخليفة المقتدر بالله محفوظ في المتحف البريطاني

عن محمد باقر الحسيني(1)

ولهذه الأسباب وصلت إلينا نقود إعلامية من تلك الحقبة الزمنية تسيء إلى الخليفة المقتدر. إنها نقود فضيّة جيدة العيار سكّها في الأرجح خصوم المقتدر بالله؛ على وجهها الأول صورته وهو يجلس متربعا على دست أو تخت منخفض، معتمّا بعمامة لطيفة ومرتديا الملابس المزركشة الخاصة بالمنادمة وهو يحمل بيده اليمنى كأس شراب؛ يبدو وكأنه في حالة سكر شديد. لقد وصل إلينا عدد من هذه النقود الإعلامية المسيئة إلى سمعة الخليفة المقتدر بالله شخصيًا وهي محفوظة في الوقت الحاضر في المتحف البريطاني بلندن (شكل22).

ومن الواضح أن تلك الدراهم التشهيرية لم يتم ضربها في دور الضرب الرسمية التي كانت دوما تحت رقابة حكومية صارمة ومشدّدة، وإنما تمّ سكها في

(1) محمد باقر الحسيني، المصدر السابق، شكل3

الأرجح في بعض دور الضرب السرية بعيدا عن الرقابة الحكومية أقيمت خصيصا لمثل تلك الأغراض.

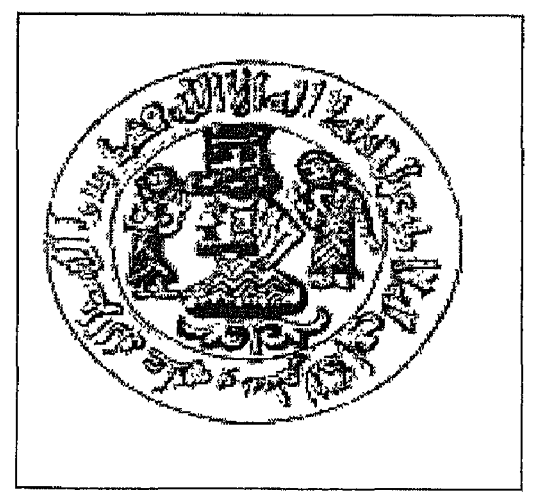
وفي سبيل ترويج هذه النقود الإعلامية وأن تقبل في التداول سكّت ليس فقط من الفضة النقية شبه الخالصة المقبولة من قبل التجار بل بالوزن الشرعي للدراهم المعمول بها من التي تصدرها الدولة نفسها. ليس هذا فقط بل أنها تحمل أيضا الشارات والمأثورات الإسلامية نفسها التي تحملها النقود الاعتيادية التي كانت آنذاك في قيد التداول. وغالبا بل دائما كانت الدولة تصادر مثل تلك النقود الإعلامية المسيئة للخلافة أو الدولة وتعاقب من يمتلكها أو يتعامل بها. ولهذا السبب نلاحظ أنها نادرة الوجود في المتاحف اليوم حيث أن أغلبها قد كسر وأعيد سكّها وفقا للمعايير والنقوش على الدنانير والدراهم أو التي كانت تضربها الدولة التي كانت في قيد التداول في ذلك الوقت، وقد نكون محظوظين أن نعثر بطريق الصدفة على نسخة واحدة من بعضها.[1]

استمرت الفئات غير الراضية عن سياسة الخلفاء العباسيين المتعاقبين في إصدار النقود الإعلامية المسيئة للخلفاء في العاصمة بغداد أو في حواضر الأقاليم الإسلامية الأخرى لاسيما في عهد الخلفاء الضعاف منهم، وعلى نحو خاص في العهود العصيبة التي كان فيها التسلط الأجنبي على أشده في العراق؛ مثل الفترتين الزمنيتين التي خضع فيهما الخلفاء العباسيين على التعاقب إلى تسلط الأمراء البويهيين الفرس ثم سلاطين السلاجقة الأتراك. فمن الفترة الأولى صدر في العراق عدد من النقود الإعلامية السلبية المسيئة للسلطة أصدرها خصوم الدولة العباسية والتي فيها إساءة بالغة للخلفاء العباسيين لاسيما للخليفة الطائع

---

(1) محمد باقر الحسيني، المصدر السابق، ص233

لله (363-381هـ/ 974-991م): الخليفة الذي كان البويهيون قد أجلسوه على تخت الخلافة بعد أن تنازل له والده المطيع لله (334-363هـ/ 946-974م) عن الخلافة لإصابته بالفالج وعدم قدرته على النطق.





الوجه الأول   الوجه الثاني

(شكل23)

درهم إعلامي يحمل اسم الخليفة العباسي الطائع لله.

ضرب بمدينة السلام بغداد، محفوظ في المتحف البريطاني

عن: محمد باقر الحسيني[1]

من تلك الدراهم الإعلامية درهم فضي محفوظ في المتحف البريطاني صادر في بغداد سنة 365 هجرية (975م)، يظهر مركز الوجه الأول ضمن دائرة صورة الخليفة الطائع لله (363-381هـ/ 974-991م) يجلس متربعا وعلى رأسه تاج مقرنص، وهو يمسك بيده اليمنى بكأس في الأرجح فيها شيء من الخمر، يقف على جانبيه ساقيان أو نديمان. يحيط بالمشهد شريط كتابي يتضمن العبارات

(1) محمد باقر الحسيني، المصدر السابق، شكل (5)

التالية: **(لا اله إلا الله محمد رسول الله (ﷺ). الطائع لله. الأمير عز الدولة)**. وكما هو معروف للمختصين بالتاريخ الإسلامي أن عز الدولة بختيار (356-367هـ/ 967-977م) كان ثاني الأمراء البويهيين في العراق (شكل23)؛ وكما يرى القدامى من المؤرخين أنه كان واحدا من أسوء الأمراء البويهيين الذين تبوؤا مركز السلطنة في العراق. أما الوجه الثاني للدرهم فيحمل صورة رجل متربعا على وسادة يعزف على العود، يحيط به شريط كتابي بالخط الكوفي يقرأ: **(لا اله إلا الله وحده لاشريك له. ضرب بمدينة السلام سنة خمس وستين وثلاثمائة)**.

أما بخصوص النقود الإعلامية التي أشرف على إصدارها الوزراء والولاة وكبار رجال الجيش المتنفذين عبر العصور الإسلامية المتلاحقة فكانت كثيرة جدا ولاسيما في دوب الضرب البعيدة عن العاصمة. لقد ثبّت بعضهم عليها اسمه المجرد ولاسيما في العصر الأموي المبكر والوسيط ربما كان أولهم الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق من قبل عبد الملك بن مروان ثم الوليد بن عبد الملك الذي لم يزد على نقش اسمه (الحجاج بن يوسف) حتى وفاته وهو واليا على العراق وإيران في سنة 95 هجرية (714م).

غير أن هناك استثناء واحد هو في درهم محفوظ في المتحف العراقي مؤرخ في سنة 83 هجرية ضربه يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الذي كان والده المهلب قد عيّنه حاكما على كرمان في جنوب إيران في عهد عبد الملك بن مروان؛ فقد نقش خارج طوق درهم له محفوظ في المتحف العراقي عبارة: **(قوة يزيد بالله)**.[1] ويبدو أن الحجاج بن يوسف والي العراق قد اعتبر أن في سك ذلك الدرهم

---

(1) وداد القزاز، الشعار "قوة يزيد بالله" على درهم إسلامي. في المتحف العراقي، مجلة المسكوكات، العدد7، 1976، ص103-105.

الإعلامي تحديا سافرا للخلافة الأموية وقد طلب من الخليفة في دمشق عزله. وقد تمّ عزله وحبسه بعد بضع سنوات.[1]

غير أن الأمر تغيّر قليلا في أواخر القرن الأول الهجري ولغاية نهاية العصر الأموي حيث أخذ ولاة بني أمية يضيفون لقب (الأمير) إلى أسمائهم على الفلوس التي كانوا مخوّلين بضربها في مراكز ولاياتهم.[2]

وربما أن أقدم نقد أعلامي من العصر العباسي من هذا النوع وصل إلينا الدينار هو الذي ضربه وزير المأمون الفضل بن سهل الذي يحمل لقبه في اسفل مركز الوجه وهو **(ذو الرئاستين)** أي رئاسة السيف والقلم دون أن يذكر اسم الخليفة الشرعي أو أي من القابه.[3] كان ظهور تلك النقود بدأ بسنة 196 هجرية (811م) وهي السنة التي منح فيه المأمون هذا اللقب لوزيرة الفضل بن سهل واستمر ظهور تلك النقود طيلة امتداد عمل الفضل بن سهل كوزير للمأمون وحتى مقتلة غيلة في سنة 202 هجرية (817 م). وقد يبدو غريبا أيضا أن الحسن

---

(1) غير أن يزيد بن المهلب تمكن من الهرب إلى الشام. ولما أفضت الخلافة إلى سليمان بن عبد الملك (96-99 هـ/ 715-717م) عيّنه واليا على البصرة، وقد ظل في منصبه حتى أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز (99-101هـ/ 717-720م) الذي أمر بعزله وحبسه في حلب في شمال سوريا. غير أنه تمكن من الهرب وإعلان الثورة على الأمويين، غير أن ثورته لم تنجح وقتل في سنة 102 هجرية (721م) في خلافة يزيد بن عبد الملك (101-105 هـ/ 720-724م).

(2) منهم على سبيل المثال من ولاة الموصل الأمير يحي بن يحيي الغساني (99-101هـ/ 717-719م) والأمير الحر بن يوسف (108-109هـ/ 731-732م) والأمير الوليد بن تليد (114-121هـ/ 732-739م).

(3) كان المأمون قد منحه ذلك اللقب في إيران قبل قدومه إلى بغداد، ومن المعروف أن الفضل بن سهل مجوسيا ثم اسلم على يد المأمون في سنة 196 هجرية.

بن سهل وهو أخو الفضل بن سهل الذي تولى ولاية العراق عندما كان المأمون ما يزال في بعض المدن الإيرانية ضرب الكثير من النقود عليها اسمه ولقب أخية الوزير (ذو الرئاستين) دون أن يذكر فيها اسم والقاب الخليفة المأمون.[1]

ليس هذا فقط بل حتى النقود التي ضربت في أصفهان وعليها اسم ولي عهد المأمون الإمام علي الرضا (ع) ورد فيه لقب الوزير (ذو الرئاستين) ولم يرد فيها اسم الخليفة؛[2] وليس من المستبعد أبدا أن عملية اغتياله كانت قد دبّرت بسبب تماديه في تحدي الخليفة الشرعي ولاسيما ما يتعلق الأمر بسك مثل تلك النقود الإعلامية الاستفزازية.

ولعبت المرأة دورا بارزا في الإعلام على النقود أيضا. فكما هو معروف أن للمرأة على الدوام مكانة مرموقة عند العرب أو عند الأقوام السامية عموما منذ العصور الواغلة في القدم، حيث كانت المرأة على الدوام تتمتع باستقلال ذاتي وأن وضعها رغم أنه لا يساوي وضع الرجل إلا أنها كانت أفضل بكثير من وضع نظيراتها في المراكز الحضارية الأخرى مثل بلاد اليونان والرومان.[3] أما مركز المرأة عند العرب فكان لها حتى في العصور السابقة على الإسلام مكانة مرموقة ومحترمة؛ فكثيرا ما كان الرجال الذين كسبوا الشهرة يتباهون بأمهاتهم العربيات الأصيلات. ليس هذا فقط بل غالبا ما كانت الكاهنة والعرافة في شبه

---

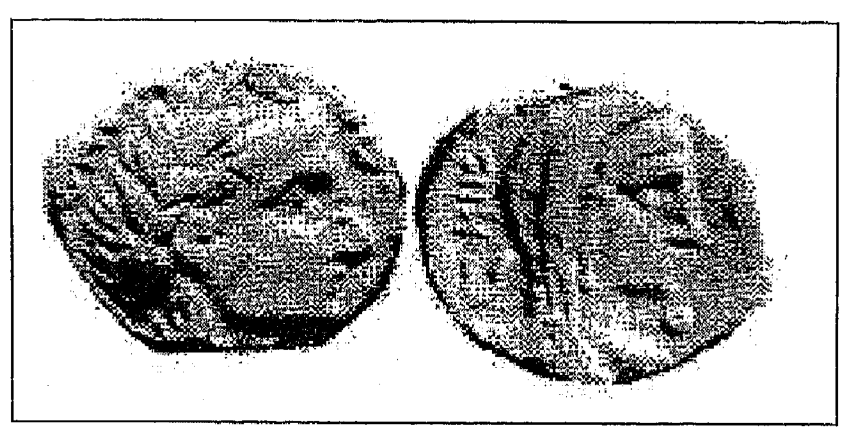
(1) لم يقتصر إصدار النقود التي عليها اسم ولقب الفضل بن سهل بل كان إلى جانبها نقودا عليها اسم المأمون والقابه في النقود الخاصة بالتداول الاعتيادي.

(2) حسين علي محفوظ، دراسات في المسكوكات الإسلامية، مجلة المسكوكات، العدد7، سنة1976، ص111

(3) ثلما ستيان عقراوي، المرأة؛ دورها ومكانتها في حضارة وادي الرافين، بغداد 1978، ص5

جزيرة العرب في العصر الجاهلي تعهد إلى النساء أكثر مما تعهد إلى الرجال الذين غالبا ما كانوا يأخذون بما يطرحنه من أفكار وتكهنات.[1]

ليس هذا فقط بل نجد صورالزوجات الملوك وأسماءهم ممثلة على النقود عند الشعبين العربيين النبطي والتدمري قبل الإسلام، منها على سبيل المثال لا الحصر النقود التي كان يضربها الملك النبطي الحارث الرابع (9 ق.م.-40م) الذي نجد أن صورته على الوجه الأول للنقد بينما نجد صورة زوجته الملكة خالدة على الوجه الثاني للنقد (شكل24). وعلى كثير من النقود النبطية الأخرى نجد صورة الملك مع صورة زوجته على وجه واحد من النقد (شكل25).



(شكل24)-

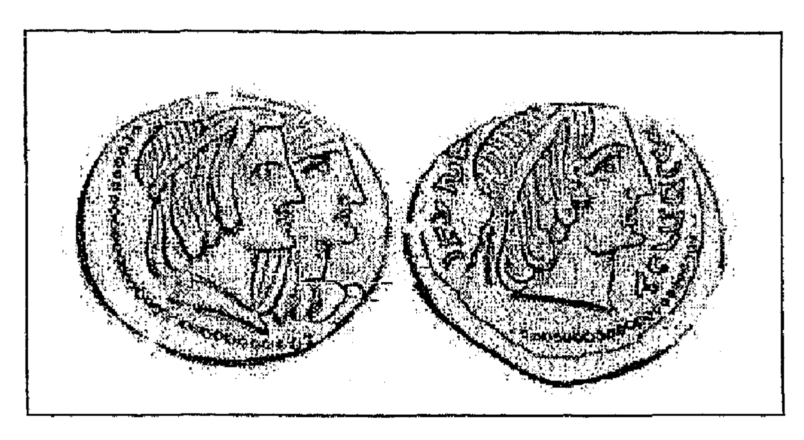
نقد فضي للملك النبطي الحارث الرابع يحمل صورته وصورة زوجته خالدة

عن: N. Gluek

---

(1) ربما من أكثرهن شهرة في أفكارهن الصائبة وبعد النظر في العصر الجاهلي امرأة تعرف بحذام حتى قيل فيها:

إذا قالت حذام فصدقوها فنعم القول ما قالت حذام



(شكل25)

نقد فضي للملك عبادة الثالث (30-9 ق.م.).

الأول منفرداً والثاني مع صورة زوجته

ليس هذا فقط بل قد نجد صورة الملك النبطي إلى جنب صورة والدته. ومثال على ذلك نجده بين نقود الملك رب أيل الثاني (75-101م) الذي نجد صورته على الوجه الأول والدته (شقيلة) على الوجه الثاني خلال الفترة التي كانت فيها وصية عليه. أما الملكة الزباء ملكة تدمر فإن معظم النقود التدمرية التي ضربت في عهدها تحمل صورتها.

أما في العهود الإسلامية فكان للكثير من النساء شهرة عظيمة في مختلف مناحي الحياة؛ منهن المتصوفات مثل رابعة العدوية، والشاعرات مثل الخنساء، ومنهن ما لها علاقة مباشرة بالسياسة مثل الخيزران زوجة الخليفة المهدي (158-169هـ/ 775-785م) وأم الخليفتين موسى الهادي وهارون الرشيد التي كانت من ربات السياسة والنفوذ والسلطان في بغداد.[1]

---

(1) لما صارت الخلافة إلى الهادي استبدت بالأمور حتى شاركته في شؤون الدولة، فكانت تريد أن تغلب على أمره كما غلبت على أمر المهدي؛ غير أن الهادي استطاع أن يقف في طريقها ويقلل من نفوذها (المسعودي، مروج الذهب، 3/ 236-237).

ومع نفوذ الخيزران العظيم لم يرد لها ذكر على النقود، وأن أول إشارة صريحة للنساء على النقود في العصر الإسلامي نجدها على تلك التي أمرت بضربها السيدة زبيدة التي كانت من أكثر النساء حبا بالإعلام.[1] إنها ليست فقط من الحرائر بل هاشمية بكل ما للكلمة من معنى؛ فهي ابنة جعفر بن الخليفة العباسي الثاني أبي جعفر المنصور (136-158هـ/ 754-775م) وزوجة خامس خلفاء بني العباس هارون الرشيد (170-193هـ/ 786-809 م) وابنة عمه وأم الخليفة محمد الأمين؛[2] إنها الهاشمية الوحيدة التي ولدت خليفة حيث أن أمهات جميع الخلفاء العباسيين الآخرين كنّ من الجواري.[3]

لقد وصلت إلينا من النقود الإعلامية التي تخص تلك السيدة نحو خمسة وعشرين دراهما يتراوح تاريخ إصدارها ما بين سنتي 183-189هجرية (799-805م)؛ غير أن اسمها الصريح لم يرد على أي من تلك الدراهم بل الذي ورد هو كنيتها؛ جاء في بعضها كنيتها المعروفة بها وهي **(أم جعفر)** أو **(أم ولي العهد)** أو **(أم الخليفة)**.

وفي الأرجح أن السيدة زبيدة كانت تسر جدا عندما كانت تخاطب من قبل الشعراء والناس عموما بـ(أم ولي العهد) عندما كانت كذلك؛ ولاسيما في

---

(1) اسمها الحقيقي (أمة العزيز) وتكنى بـ(أم جعفر).

(2) كانت سيدة جليلة فاضلة معروفة بالخير والإفضال على أهل العلم والأدب وعلى الفقراء والمحتاجين، ولها آثار كثيرة في طرق الحج ولاسيما طريق الحج العراقي الذي يعرف حتى يومنا هذا بـ(درب زبيدة). إضافة إلى كل ذلك كانت من ذوات العقل الراجح والرأي السديد والفصاحة والبلاغة، أمها من الحرائر العربيات الأصيلات أيضا؛ توفيت في بغداد سنة 216 هجرية (831م).

(3) واجدة مجيد الاطرقجي، المرأة في أدب العصر العباسي، بغداد 1981، ص409-410

السنوات الأولى من تسمية ولدها محمد الأمين وليا للعهد من قبل زوجها هارون الرشيد.[1]

وبخصوص الأقوام المتسلطة على الأجزاء المهمة في الأقاليم العربية والإسلامية استغلت النقود التي أصدروها في الإعلام؛ منها تلك التي أصدرها الصليبيون في بلاد الشام وفلسطين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين. ومثال على ذلك النقود التي ضربها الملك الفرنسي لويس التاسع في مدينة (عكا) الفلسطينية في أواسط القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي؛ من بينها دينار ذهبي مؤرخ من سنة 1250 ميلادية.[2] تضم نصوصه عبارة:

ليجسد المسيح: الأب والابن وروح القدس.

وكذلك:

نفتخر بصليب ربنا يسوع المسيح
الذي به سلامتنا وحياتنا وقيامتنا.
وبه خلاصنا وعافيتنا.

---

(1) ومما قد يؤكد أن تلك الكنية كانت المحببة إليها في تلك الفترة الزمنية من عمرها ورودها في قصائد بعض المادحين لها من الشعراء. من الأمثلة على ذلك ما ذكر من أنه عندما كانت السيدة زبيدة في طريقها إلى الديار الحجازية لإداء مناسك الحج لقيها في بعض الطريق الشاعر نصيب الأصغر الذي ترجل عن فرسه وأنشدها قصيدة كان من جملة أبياتها:

سيستبشر البيت الحرام وزمزم	بـ(أم ولي العهد) زين المواسم
ويعلم من وافى المحصّب أنها	ستحمل ثقل الغرم عن كل غارم
بنو هاشم زين البرية كلها	و(أم ولي العهد) زين لهاشم

(2) من ضرب مدينة عكا الفلسطينية ومحفوظ في متحف طوب قابي سراي في استانبول

ومن الواضح أنه أريد من تلك العبارات التأثير في نفوس العرب ولاسيما أن نصوصه ليست بالفرنسية أو باللاتينية أو اليونانية بل باللغة العربية الفصحى ليفهم الكلام كل من يقع في أيديهم هذا الدينار من العرب والمسلمين.[1]

ونحن نعلم من المصادر التاريخية المتيسرة أيضا أن الصليبيين حاولوا جاهدين التأثير الديني على سكان المدن من العرب المسلمين سواء كان ذلك في فلسطين أو في بلاد الشام أو في شمال بلاد الرافدين؛[2] ومع ذلك لم يذكر المؤلفون الذين كتبوا في تاريخ تلك الحقبة الزمنية أن بعض المسلمين من العرب قد تركوا دينهم واعتنقوا النصرانية.

وفي العهود التي أعقبت سقوط حكم الأسرة العباسية على يد التتار المغول في سنة 656 هجرية (1258م) صارت النقود أقل جودة حيث تدنى على نحو ملحوظ العيار في العملتين الذهبية والفضية؛ مما سبب اضطرابا في معاملات البيع والشراء ومن ثم حدوث بلبلة اقتصادية شديدة ولاسيما في العراق وإيران؛ وربما لهذا السبب صارت النقود في ظل التسلط التتري تحمل عبارات يشم منها رائحة التهديد والوعيد مثل لقب (**مالك رقاب الأمم**) الذي أضفاه هولاكو على ملك المغول الأعلى المقيم في أواسط آسيا.

ومن أغرب النقود الإعلامية التي ضربها الأوربيون دينار يحتفظ به المتحف

---

(1) Ibarahim Artuk ،Isami Sikkler Katalogue ،Istanbul1971 ،, pp. 219-220

(2) كانت في بلاد العرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين أربعة ممالك صغيرة صليبية مسيحية. الأولى هي (مملكة بيت المقدس) في فلسطين والثانية هي أمارة (أنطاكيا) الواقعة على رأس البحر الأبيض المتوسط، والثالثة أمارة مدينتي طرابلس وبيروت وما بينهما في لبنان؛ أما الرابعة فهي أمارة مدينة الرها والمناطق المحيطة بها في شمال بلاد الرافدين (موقع مدينة أورفا الحالية).

البريطاني جاء من دولة بعيدة تماما عن البلدان العربية ولا علاقة ظاهرة لها بالعالم الإسلامي أو بالدول الإسلامية. لقد جاء هذا النقد تحديدا من إنجلترا من عهد الملك أوفا (773-796م) ملك دولة الأنجلو- سكسون Saxon –Anglo في وسط وجنوب الجزيرة البريطانية الذي وافق حكمه السنوات الأخيرة من عهد خلافة أبي جعفر المنصور وطيلة عهدي محمد المهدي وموسى الهادي والسنوات العشر الأولى من خلافة هارون الرشيد (170-193هـ/ 786-809م). كان الملك أوفا مسيطرا تماما على معظم القسم الجنوبي من إنجلترا التي كانت في ذلك العصر غير موحّدة؛ مقسمة إلى ما يشبه دويلات المدن أو الأقاليم الصغيرة.[1]

وإذا أمعنا النظر في وجهي دينار (أوفا) نجد أنه قد ضرب على الطراز الإسلامي الخالص

وليس فيه ما يمت بصلة إلى ملك إنجلترا سوى اسمه المثبت بين اسطر مركز الوجه الأول للدينار وبالحروف اللاتينية على نحو مقلوب أي على نحو معاكس للكتابات العربية التي هي كلها بالحروف العربية الخالصة (شكل26). ومما هو لافت للنظر حقا ليس فقط أن الملك أوفا قد حافظ على كل ما يمت بصلة إلى شعائر الدين الإسلامي الحنيف على وجهي الدينار بل أن التاريخ المثبت على أحد وجهي النقد بالتاريخ الهجري وليس بالميلادي كما يجب أن يكون في مثل هذه الحالة. ولذلك قد يتبادر إلى متفحص هذا النقد الفريد أنه لم يفعل أكثر من أن أضاف اسمه ولقبه بالحروف واللغة اللاتينية Offa Rex وحشره عن طريق الضرب بين اسطر نصوص وجه الدينار الأول على نحو

(1) من تلك الدويلات الإنجليزية: دويلة كنت Kent ودويلة ويسكس Wessex ودويلة شرق انجليا East Anglia وأخرى تعرف بغرب أنجليا West Anglia وغيرها من الممالك الصغيرة.

مقلوب؛ غير أن الأمر ليس كذلك لأسباب فنية كثيرة ربما من أهمها كثرة الأخطاء الإملائية والنحوية في نصوصه.[1]



(شكل26)

دينار الملك الأنجلو- سكسوناًوفا المؤرخ من سنة 157 هجرية

المتحف البريطاني

وإلان السؤال الذي يطرح نفسه هنا ما هو الغرض من إصدار هذا الدينار؟ ليس من المستبعد أن يكون سببا إعلاميا، ربما ليرسل مع هدايا عينية أخرى إلى بغداد لكسب عطف ومؤازرة الخليفة العباسي في أمور لا علم لنا بها حيث لم يشر المؤرخون الأوربيون إلى مثل هذا الحدث ولا أي من المؤرخين في العصر العباسي. ونحن نعلم من المصادر الأوربية أن شارلمان ملك فرنسا كان قد تبادل السفراء والهدايا مع الخليفة هارون الرشيد بعد عهد أوفا بثلاث عقود فقط وأن المؤرخين المسلمين في العصر العباسي لم يشيروا إطلاقا إلى تبادل مثل تلك

---

(1) Milwright, Marcus, An Introduction to Islamic Archaeology, Edinburgh, 2010Fig. 3:3, p. 107

السفارات وإنما علمنا عنها من المصادر الأوربية فقط. ليس هذا فقط بل أن بعض الهدايا التي كان قد أرسلها الرشيد مع سفيره إلى فرنسا محفوظة اليوم في متحف اللوفر أو في بعض متاحف أوربا الأخرى.

وقبل أن أنهي هذا الفصل أرى من المفيد أن أذكر أن دور الضرب الحكومية قد تستغل أحيانا في إصدار نقودا ضارة جدا بالسلطان أو الوالي تصدر دون معرفة ذلك السلطان أو الوالي يقوم بضربها متولي أمر دار الضرب الغرض منها الإساءة البالغة إلى صاحب الشأن في البلاد. من هذا النوع من النقود كان فلسا قاتلا سكّة بعض خصوص أحد ولاة العثمانيين على بغداد؛ وهو سعيد باشا (1228-1232هـ/ 1813-1816م) الذي كان قد تولى أمر ولاية بغداد في الربع الأول من القرن التاسع عشر. لقد حيكت حول هذا الوالي الكثير من الدسائس والمؤامرات. كانت أكثرها خطورة تلك التي شارك فيها مدير المال في بغداد والمشرف على دار الضرب فيها المدعو (عزرا) الذي على ما يبدو لم يكن على وفاق مع والي بغداد الوزير محمد سعيد باشا،[1] فساعد في إصدار نقد نحاسي مؤرخا في سنة 1231 (1815م) نقش على وجهه الأول عبارة:

سعيد باشا

(1) هكذا جاء اسمه أيضا عند الدكتور مصطفى جواد (مصطفى جواد وأحمد سوسة، دليل خارطة بغداد المفصل، بغداد 1958، ص293)، غير أن اسمه ورد على هذا النحو: (الوزير محمد سعيد باشا) في وقفية بخصوص (جامع قمرية) في بغداد يعود تاريخها إلى شهر صفر من سنة 1230 هجرية (1814م) (عماد عبد السلام رؤوف، معالم بغداد في القرون المتأخرة، بغداد 2000م، ص161).

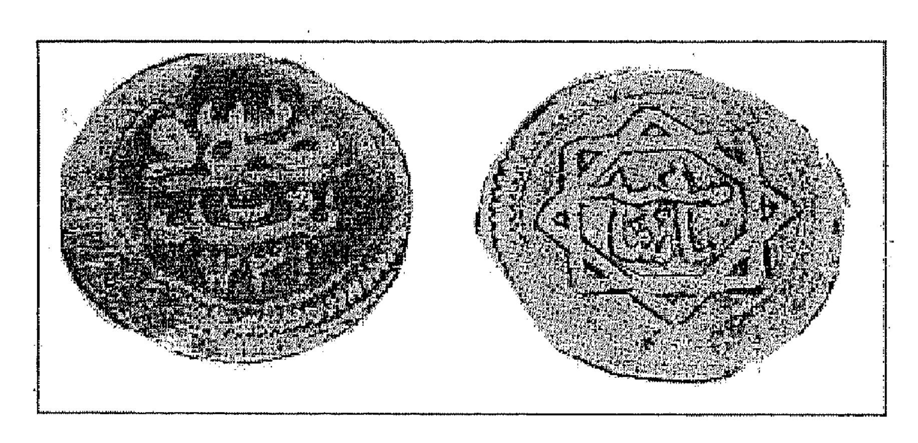
وعلى وجهه الثاني:

ضرب في بغداد

1231

دون ذكر لاسم السلطان العثماني والقابه في استانبول (شكل27).

وعندما اطلع الوالي سعيد باشا على تلك المسكوكات التي كانت غفلا من الصفتين الشرعية والرسمية ثارت ثائرته وسحب ذلك الفلس من التداول. غير أن مدير المال (عزرة) أو المتآمرين الآخرين كانوا قد بعثوا ببعض من تلك الفلوس إلى العاصمة العثمانية في استانبول حيث اطّلع عليها الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) الذي عرضها بدوره على السلطان محمود الثاني (1223-1255هـ/ 1808-1839م) الذي أصدر حالا أمرا سلطانيا (فرمانا) بعزل محمد سعيد باشا عن ولاية بغداد وتعيين بدلا عنه داود باشا الذي كان آنذاك واليا على كركوك؛ غير أن محمد سعيد باشا رفض الانصياع لأمر السلطان محمود الثاني وأعلن تمرده والمجابهة العسكرية ضد الدولة العثمانية التي انتهت باندحار عساكره وبقتله في سنة 1232 هجرية (1816م). لقد عرف فلس سعيد باشا بعد ذلك الحدث بين الناس بالفلس القاتل أو الفلس المشؤوم.



(شكل 27)

الفلس المضروب باسم سعيد باشا المحفوظ في المتحف العراقي

الفصل الخامس

الإعلام الشخصي للخلفاء والملوك والسلاطين

الفصل الخامس

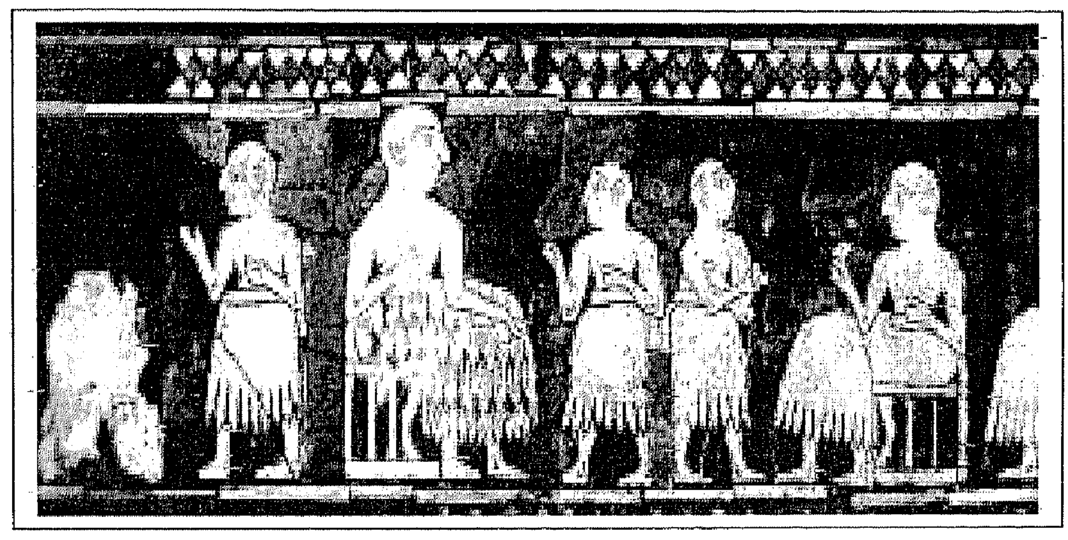
الإعلام الشخصي للخلفاء والملوك والسلاطين

كان الناس في العصور الواغلة في القدم ينظرون إلى ملوكهم ليس فقط نظرة إعجاب شديد بل نظرة تقديس بالغ؛ إنهم كانوا يرون أن سلطات الملوك مستمدة من الآلهة على نحو مباشر وأنهم يمثلون تلك الآلهة على الأرض. ليس هذا فقط بل أن المصريين في العهود الفرعونية الطويلة كانوا يعتقدون منذ عصر المملكة القديمة ولغاية نهاية عصر الإمبراطورية الأخيرة على الأقل أن الملوك الفراعنة كانوا نصف آلهة فلم يكن من الجائزالاعتراض على قراراتهم أو مراجعتهم فيها ولا مزاحمتهم أو معارضتهم بأي شيء؛ وأنهم بعد وفاتهم يخضعون لبعض الاختبارات اليسيرة ينالون بعد اجتيازها بنجاح مرتبة الألوهية الخالدة وينضمون إلى بقية الآلهة في السماء.

أما في بلاد الرافدين فإن اقدم الإشارات التاريخية والأثرية إلى سلطات الملوك نجدها في رقم الطين التي تعود إلى العصر السومري التي ترجع إلى الربع الأخير من الألف الثالث قبل الميلاد. وخير مثال على ذلك ما جاء في ملحمة (كالكامش) السومرية. إنها تصور لنا بوضوح تام أن صاحب مدينة (الوركاء) الملك (كالكامش) لم يكن فبما كان يعتقد مواطنيه من أنه كان يمثل الآلهة على الأرض بل أراد أن يعمل ما في وسعه ليكون بمصاف الآلهة نفسها أوأن يكون واحدا منهم، أوعلى الأقل أن يحظى بالخلود الذي لم يتحقق. لقد دونت أخبار رحلته تلك في ملحمة شعرية وصلت إلينا مدوّنة على مجموعة من الرقم الطينية بالقلم المسماري وترجمت إلى عدد من اللغات الأوربية واللغة العربية.[1]

(1) طه باقر، ملحمة كالكامش، بغداد، 1980، ص55

والحق أن السومريين كثيرا ما صوروا لنا ملوكهم في رسومهم الجدارية أو في منحوتاتهم بحجم أكبر من حجم الأفراد العاديين؛ نلاحظ ذلك بوضوح في اللوح المطعم بحجر اللازورد الذي يعود إلى الفترة الزمنية المحصورة بين سنتي 2550-2400 قبل الميلاد الذي يعرف بعصر (فجر السلالات الثالث). لقد تم الكشف عن هذا اللوح خلال التنقيبات الأثرية في (أور) في جنوب العراق والمحفوظ في متحف جامعة بنسلفانيا في الولايات المتحدة الأمريكية. إن المشهد هنا يمثل في الأرجح ملك (أور) يستقبل ملكا آخر من ملوك المدن السومرية المجاورة؛ فكثيرا ما كانت تعقد أحلاف تجارية ودفاعية بين المدن السومرية في جنوب ووسط العراق (شكل28).[1]



(شكل28)

لوح مطعم بحجر اللازورد. العصر السومري. 2550-2400-قبل الميلاد.

متحف جامعة بنسلفانيا

Joan Aruz and R. Wallenfels :عن

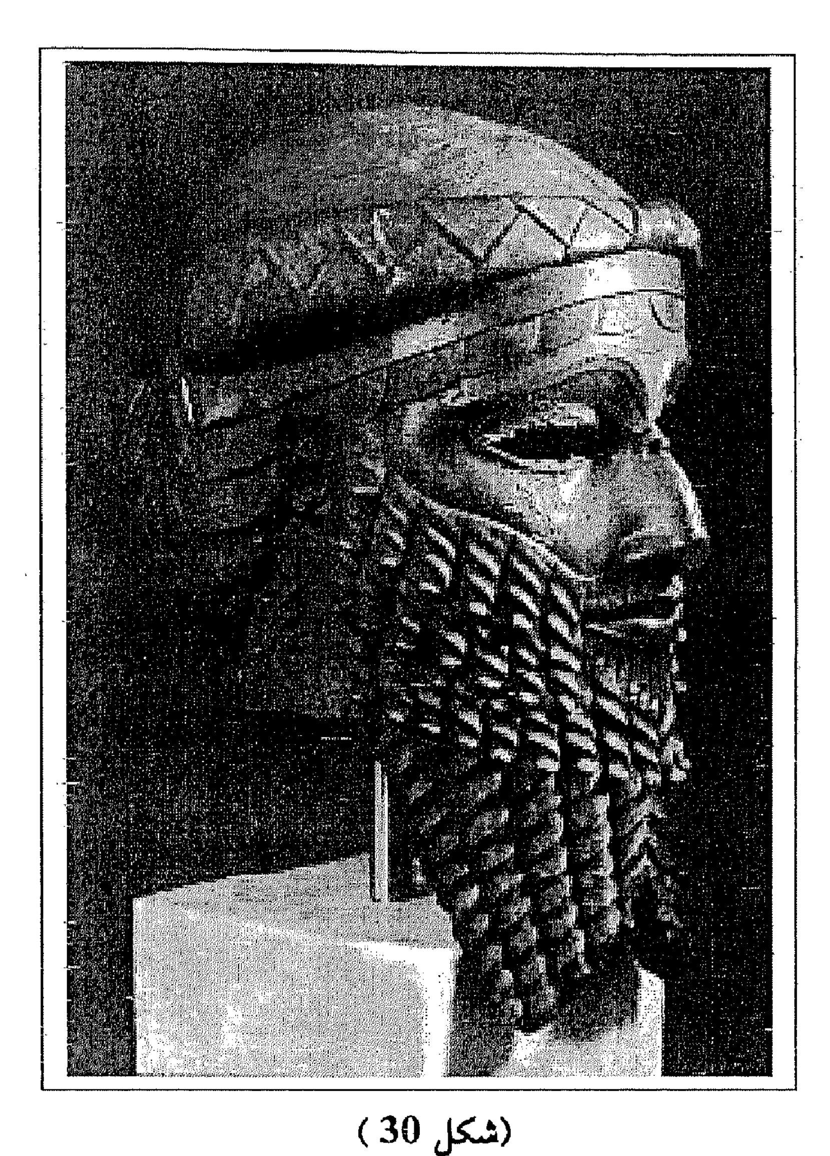
(1)Aruz, J. and Wallenfels, R., Arts of the first Cities, New Haven, 2003-p. 107, fig. 59



(شكل 29)

ختم اسطواني من عصر فجر السلالات الثالث (2550 -2250-ق.م.). متحف برلين

وكثيرا ما صوّر لنا السومريون في الفترة الزمنية الـتي تعـرف بعصـر فجـر السلالات الثالث (2550-2250 ق.م.) ملوكهم وهم يستمدون سـلطاتهم مـن واحد من آلهتهم؛ كما نلاحظ ذلك في الختم الأسطواني المحفوظ في متحف بـرلين (شكل29).

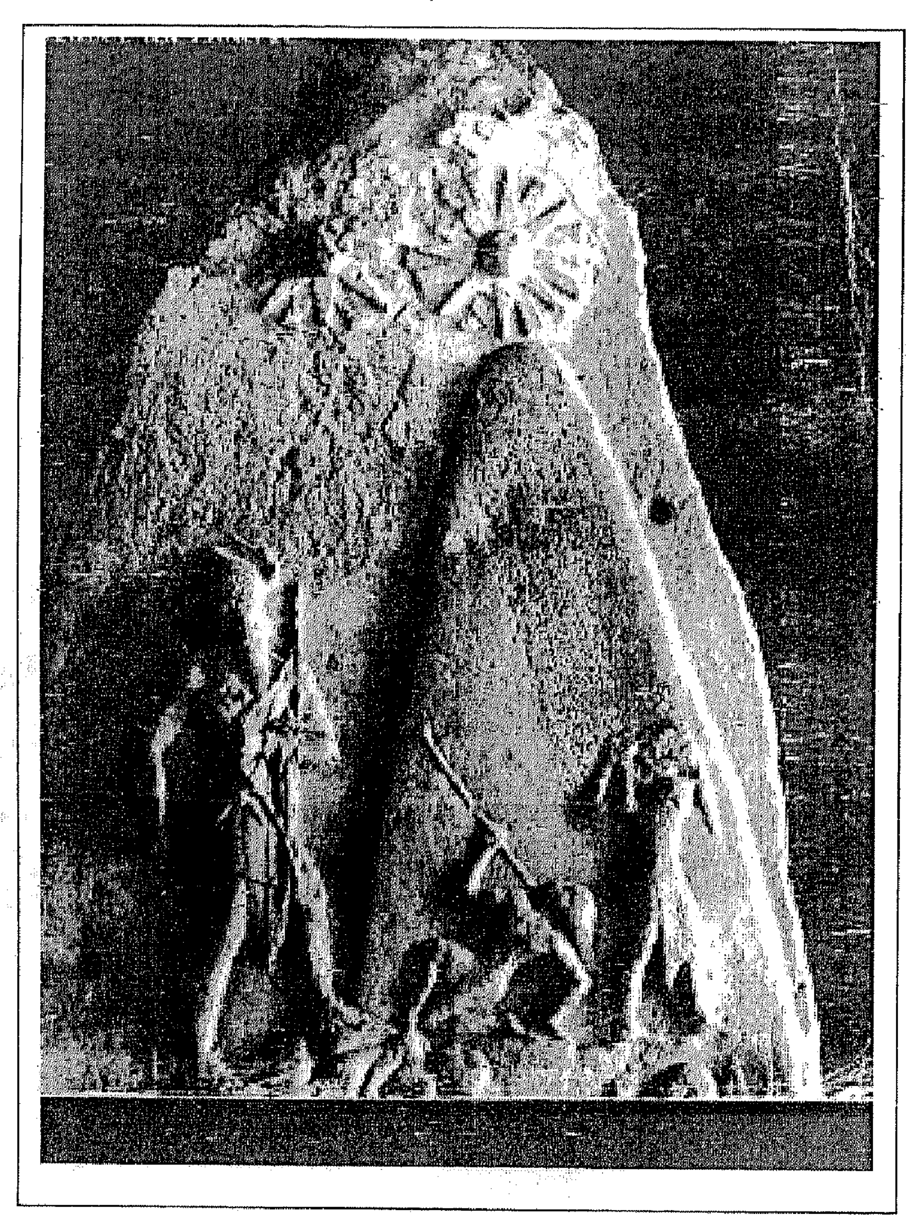


(شكل 30)

رأس من البرونز للملك نارام- سن محفوظ في المتحف العراقي

أما الأكاديين الذين اعقبوا السومريين في حكم البلاد وأسسوا دولتهم الموحدة في عهد أول ملوكهم (شروكين) الذي عرف باسم سرجون الأكادي (2371-2316 ق. م) الذي لقّب نفسه بـ(ملك سومر وأكد)،[1] وصارت

(1) لم يتمكن المنقبون حتى الوقت الحاضر تحديد موقع عاصمتهم (أكد). كانت تقع في الأرجح قرب أو عند موقع مدينة بغداد الحالية.



(شكل31)

الجزء الأعلى من مسلة الملك الأكادي-نارام- سن (2220-2184 ق.م.

متحف اللوفر بباريس

دولتهم أول إمبراطورية في العالم القديم بدأ بعهد نارام سين Naram – Sin (2220- 2184 ق.م.) حفيد سرجون الأكدي Sargon؛ الإمبراطورية الأكادية؛ فقد مثّل الأكاديون ملوكهم ليس فقط وهم يستمدّون سلطاتهم من الآلهة بل

لتظهرهم أمام شعبهم بمظهر القوة والعظمة وإعلام الآخرين ومن يريد منازلته منهم على نحو غير مباشر بقابلياتهم الفذة في دحر أعدائهم.[1] ربما من اقدم ما وصل إلينا ما يوضّح مظاهر عظمة الملوك الأكديين لوح حجري متحوت يعرف بـ(مسلة نارام سن) يرجع إلى أواسط الألف الثالث قبل الميلاد. كانت هذه المسلة معروضة على الناس في مدينة (سبار) في جنوب القسم الأوسط من العراق، الحالية والمحفوظ في الوقت الحاضر في متحف اللوفر بباريس. إن هذه المسلة تظهر الملك (نارام – سن) يقف بشموخ وكبرياء وأعداؤه أما صرعى أو يركعون أمامه بذل وخضوع. كما يلاحظ أيضا حجمه الكبير جدا إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار الجنود المحيطين به (شكل31). ومثل ذلك أيضا نلاحظه في مسلة حمورابي الشهيرة المحفوظة في متحف اللوفر بباريس.[2] المهم هنا إننا نجد في أعلى المسلّة صورة الملك البابلي حمورابي (1792–1750ق.م.) وهو يتسلم من (مردوخ) الإله الأكبر للإمبراطورية البابلية القديمة القوانين المدرجة في مسلّته تلك (شكل32).

---

(1) لقد امتد سلطان هذه الدولة ليشمل جميع بلاد الرافدين وأجزاء من إيران شرقا وحتى البحر الأبيض المتوسط غربا، ثم ضموا بعد ذلك أجزاء من بلاد الأناضول شمالا وأجزاء من شبه جزيرة العربية في الجنوب. وقد شهد عهدهم في الأرجح دخول نبي الله موسى عليه السلام بمعية القبائل العبرانية الاثني عشر إلى الجزء الجنوبي من فلسطين (Aruz)، J.، Op. Cit.، p. 189

(2) لقد تم الكشف عن مسلة حمورابي خلال التنقيبات الأثرية الفرنسية ليس في مدينة بابل كما يجب أن تكون بل في خرائب مدينة (سوسة) في جنوب شرق إيران.



(شكل 32)

الجزء الأعلى من مسلة حمورابي تظهر الملك وهو يستمد القوانين من الإله مردوخ. الربع الأول من اللف الثاني قبل الميلاد. متحف اللوفر بباريس



(شكل33)

صورة للملك الأشوري سرجون الثاني يقف باحترام أمام الاله أشور يستلم منه شارات الملوكية منه

وفي عدد من المنحوتات التي وصلت إلينا من العهود القديمة صورا لملوك العراق القديم وهم يستمدون سلطاتهم الدستورية من الآلهة على نحو مباشر؛ ومن البديهي أن ينصرف ذلك أيضا إلى الملوك في العصر الآشوري، فكثيرا تظهر المنحوتات الآشورية ملوكهم واقفين بخشوع وإجلال أمام الاله أشور وهم يستلمون منه التفويض الخاص بحكم البلاد وما شابه ذلك من أوامر إلاهيّة. من ذلك على سبيل المثال صورة جدارية بالألوان fresco كشفت عنها معاول

التنقيب في القصر الملكي في خرائب مدينة دور شراكين (خرسباد) Khorsabad في شمال بلاد الرافدين؛ تظهر الملك الأشوري سرجون الثاني(721-705 ق.م.) وهو يناول الملك سرجون الثاني شارتي الملك وهما القضيب والحلقة الملكية. يلاحظ هنا أن الملك الأشوري الذي يرتدي زيا متميّزا فاخرا وقلنسوة مرتفعة أصغر قليلا من قلنسوة الإله أشور الذي يقف على دكة مرتفعة قليلا عن مستوى الأرض (شكل33).

أما عن ملوك العرب قبل الإسلام فإذا أخذنا على سبيل المثال ملوك دولة الأنباط: الدولة التي ظلّت قائمة وراسخة نحو ثلاثة قرون وذلك في الحقبة الزمنية الواقعة بين أواسط القرن الثاني قبل الميلاد وأوائل القرن الثاني الميلادي، نجد أن بعض ملوكهم ولاسيما المتأخرين منهم كثيرا ما كانوا يتوددون إلى شعبهم بطرق إعلامية وأساليب مختلفة. ففي الوقت الذي اكتفى فيه الملك مالك الأول (47-30 ق. م.) بتثبيت عبارة (**مالك ملك الأنباط**) على نقوده، نجد أن حفيده الحارث الرابع (9 ق. م.-40 م) الذي عاصر السيد المسيح عليه السلام قد نقش على نقوده وعلى الكثير من التماثيل والنصب الرخامية عبارة: (**الملك الذي يحب شعبه**)، أو(**الملك الرحيم بشعبه**)؛ وهذا الأسلوب في التودد إلى الرعية اتبعه عدد من ملوك الأنباط الآخرين.

أما في العصر الإسلامي الأول فقد اختلف الخلفاء الراشدين الأربعة عن ملوك الدول المجاورة المعاصرة لهم أو ملوك الدول الغابرة، حيث لم يكن عندهم أي مظهر من مظاهر التفخيم والتعظيم ولا أي ضرب من ضروب الإعلام الشخصي. من ذلك على سبيل المثال أن الخليفة الأول أبا بكر الصديق رضي الله كان يتسمى فقط بـ(خليفة رسول الله) ليس غير، فقد كفته تلك العبارة القصيرة الرائعة شرفا له. وقد أفادتنا المصادر التاريخية أنه مع ذلك ظل يعمل

لبعض الوقت كتاجر للأقمشة في سوق المدينة المنوّرة قبل أن يقرر له صحابة رسول الله رزقا ثابتا متواضعا لينصرف إلى شؤون المسلمين على نحو كامل.

أما عن ثاني الخلفاء الراشدين عمر الفاروق (ﷺ) فقد تسمى في بادئ الأمر بـ(خليفة خليفة رسول الله). ثم غيّر ذلك اللقب بعد حين، فتلقّب أو لنقل صار يخاطب بـ(أمير المؤمنين). وظل اللقب الجديد ملازما للخلفاء المسلمين عبر العصور المتعاقبة وأينما كانوا حتى أوائل القرن العشرين على الأقل عندما أعلن كمال أتاتورك النهاية الرسمية للخلافة العثمانية.[1]

إن هذا يعني أن هؤلاء الخلفاء العظام ومن جاء بعدهم من ملوك الإسلام وسلاطينهم كانوا يريدون أن يوضّحوا للملأ أن سلطاتهم مستمدة من سلطة رسول الله (ﷺ). ولم يتخل أي منهم عن هذه الصفة أو هذا اللقب حتى أوائل القرن العشرين كما ذكرت. وكان عمر بن الخطاب قد أضاف إلى اسمه لقب (عبد الله) تواضعا إلى الله جلّ شأنه، وقد صارت تلك الإضافة سنّة متبعة لمن جاء بعده من الخلفاء فما برحوا يضيفون (عبد الله) إلى اسمهم الأول ثم يعقبونه بلقب (أمير المؤمنين) حتى نهاية العصر العباسي على الأقل. أما لقب (الفاروق) فقد أضفاه على عمر بن الخطاب المؤرخون المتأخرون في العصر العباسي لأنه: "فرّق بين الحق والباطل." ولم يعرف أي خليفة أو أي ملك أو سلطان باستثناء عمر بن الخطاب رضي لله عنه بهذا اللقب في جميع العهود الإسلامية المتعاقبة وحتى يومنا هذا.

لقد عرف الخلفاء الأربعة الأوائل بالتقشف والتواضع وعدم التنابز

(1) ونحن نعلم أن أسامة بن لادن الذي كان رئيسا لما يعرف اليوم بـ(القاعدة)، كان قد تلقّب بـ(أمير المؤمنين) حتى مقتله على يد الجيش الأمريكي في شهور سنة 2011. وليس من المستبعد إن خليفته قد تلقّب أيضا بأمير المؤمنين.

بالألقاب والبعد عن مظاهر الإعلام الشخصي. والحق أن الاتجاه العام والأساس عند الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم كان رفع راية الإسلام عاليا وتعظيم نبيهم محمد (ﷺ). وكما لاحظنا في فصل سابق أن في الوقت الذي حافظ فيه الخلفاء الراشدين على الأشكال والصيغ الخاصة بالنقود كما كانت عليه في العهود السابقة على الإسلام أضافوا إلى نقوشها عبارات خاصة بشعائر الدين الإسلامي الحنيف مثل (بسم الله) و(ربي الله)، (باسمك اللهم)، (بسم الله ربي)، (الله)، (محمد)، فضلا عن بعض الكلمات الدعائية مثل (بركة)، أو كلمة تفيد معنى صلاحية النقد للتداول مثل (جيد)أو (واف).

وفي عهد ثاني خلفاء بني العباس تلقب الخليفة بلقب جديدلأول مرة في تاريخ الخلفاء المسلمين فيه صفة من المحبة إلى المسلمين عموما، وكان اتخاذ هذا اللقب أول عمل يقوم به الخليفة بعد البيعة له كخليفة للمسلمين أو كولي للعهد. فقد تلقب أبو جعفر عبد الله بن محمدبـ(المنصور)،[1] وابنه محمد وهو الخليفة التالي بـ(المهدي) عندما اختاره أبوه وليا للعهد، ثم لقّب موسى بـ(الهادي)، وبعده هارون بـ(الرشيد)، تلاه محمدبـ(الأمين) ثم عبد الله بـ(المأمون)؛ ثم أضيف إلى اللقب اسم الجلالة بدأ بعهد الخليفة الذي أعقب المأمون وهو (المعتصم بالله)؛ واستمر الأمر على هذا النحو حتى نهاية العصر العباسي في سنة656 هجرية (1258م)، فكان آخر الخلفاء العباسيين (المستعصم بالله).

ومن البديهي أن المتأخرين من الخلفاء العباسيين لم يكتفوا بهذا اللقب فأضافوا جملة القاب جديدة؛ مثل (المجاهد) و(المرابط) و(قاتل الكفرة والمشركين)

---

(1) اسمه الكامل عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب

أو (ناشر العدل في العالمين) وغير ذلك من مثل هذه الألقاب. أما الفاطميين في مصر فقد كان الخلفاء يبدؤون أسماءهم بـ(الأمام) ثم اللقب مثل (المعز بالله) و(الحاكم بأمر الله) وغيرها يختمون أسماءهم وألقابهم بـ(صلوات الله عليه وعلى آبائه المعصومين الطاهرين).

وبخصوص الوزراء فقد اضفى عليهم الخلفاء بعض الألقاب منذ عصر المأمون. وصار التقليد المتبع إن الألقاب تصبح جزءا لا يتجزأ من اسم صاحبه. فقد كان اسم الوزير والقابه يكتب في الكتب الرسمية وغيرها. فمن أولى الألقاب التي أضفيت على الوزراء كان اللقب الذي منحه المأمون لوزيره الفضل بن سهل؛ إنه لقب (ذو الرئاستين)؛ أي رئاسة السيف والقلم. وعلى العموم كانت القاب الوزراء بسيطة نسبيا في العصر العباسي خلافا لما صار عليه الأمر في العصر الفاطمي في مصر. فقد أضفى الخلفاء الفاطميين الألقاب الرنانة على وزرائهم بدءا بأيام خلافة العزيز بالله ثم تلاه ابنة الحاكم بأمر الله فأكثر منها.

وفي العصر الفاطمي الأول كانت الألقاب التي تتخذ مثل (الوزير الأجل) أو (تاج المعالي) أو (أمين الدولة) وما شابه ذلك. ثم زيد في ذلك فصارت القاب بعض الوزراء (شمس الملك) أو (خليل أمير المؤمنين). ثم زادت وتطوّرت فصارت نعوتا طويلة ومركّبة على نحو لافت في العصر الفاطمي الأخير مثل: (**الوزير الأحب المكين سيد الوزراء وتاج الأصفياء سيف الإسلام وناصر الأمام**) وغير ذلك من الألقاب الطنّانة الرنّانة. أما الحسن بن علي اليازوري وزير المستنصر الفاطمي الذي كان في الأصل (**داعي الدعاة**) أي بوظيفة مشابهة لمنصب وزير الإعلام في الوقت الحاضر صار لقبه عندما عيّن وزيرا: (**الوزير الأجل الأوحد المكين سيد الوزراء تاج الأصفياء قاضي القضاة وداعي الدعاة علم المجد خالصة أمير المؤمنين**).[1] حتى انتهى الأمر بأن الألقاب

---

(1) المصدر نفسه، ص65-67

لم تعـد تـدل علـى مـدى نفـوذ أصـحابها بقـدر مـا تـدل علـى ضـعف الدولـة وانهيارها.[1] وصارت القاب الوزراء سواء كان ذلك في العصر العباسي أو عند الفاطميين تقرأ مع اسم الوزير عند صدور المرسوم بذلك في المساجد وربما مـن فوق المآذن أيضا ليسمعها جميع الناس.

أما الأمراء وسلاطين الأقاليم الـذين كـانوا يرتبطـون ولـو ارتباطـا واهيـا بالخلافة العباسية في بغداد فغالبا ما كان يضفي عليهم الخليفة القاب خاصة مثل: (سيف أمير المؤمنين) أو (نصير أمير المؤمنين) أو (يمين أمير المـؤمنين) ومـا شـابه ذلك من كنى والقاب؛ أو أنهم في بعض الأحيان يمنحـون أنفسـهم حـق اختيـار ألقاب فخمة خاصة.

ليس هذا فقط بل يذكر أن عددا ليس بالقليل من هؤلاء الأمـراء يشـترون مثل تلك الألقاب من الخليفة بالكثير مـن الأمـوال، فكـانوا بـدأ بـالقرن الرابـع الهجري/ العاشر الميلادي يدفعون إلى الخلفـاء أو وزرائهـم مبـالغ كـبيرة وهـدايا عينية كثيرة سواء كـان ذلـك في بغـداد أو في القـاهرة؛ أي في ظـل العباسـيين أو الفاطميين في سبيل الحصول على بعض الألقاب المميزة التي تكـون حصـرا لهـم دون غيرهم من أصحاب المراكز العالية.

والحق أن الأمراء وأصحاب المناصب العالية كان معظمهـم يتهالـك علـى الألقاب الرفيعة تهالكا شديدا. وكانوا في بادي الأمر يلقّبون بالقاب منسـوبة إلى الدولة مثل (سيف الدولة) و(ولي الدولة) و(عماد الدولة) و(ركن الدولة) ونحو ذلك. ثم تضاعفت الألقاب فزيد على سـبيل المثـال في لقـب أحمـد بـن بويـه في

(1) محمد حمدي المناوي، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، القاهرة 1970، ص65

النصف الثاني من القرن الرابع فصار يلقّب بـ(ركن الدولة وغياث الأمة)؛ ثم أضيف له لقبا ثالثا هو (**تاج الدولة**).

ولكن لم يكن من بين تلك الألقاب المبكرة لقب (السلطان) وهي كلمة عربية أصيلة تعني السلطة العليا أو الحجة الدامغة أو الحجة والبرهان؛ بهذا المعنى وردت اللفظة في القرآن الكريم.[1] والسلطان عند العرب هو اسم لأعظم الرتب؛ خاص بالملوك،[2] ولا يعلو عليها إلا لقب الخليفة. ظهر اسم السلطان على أوراق البردي منذ القرن لأول الهجري فيقال: خراج السلطان وبيت مال السلطان،[3] ولم يصبح لقبا إلا بعد تغلب ملوك الطوائف في المشرق الإسلامي تميزا لهم عن الولاة التابعين للدولة. وإن أول نقش ثبّت عليه لقب السلطان يعود إلى الغزنويين حيث ورد لقب (السلطان الأعظم) ضمن النقش التذكاري للبرج الخاص بمحمود الغزنوي (388-421 هـ/ 998-1030م) مؤرخ من سنة 421 هجرية (1030م)؛[4] غير أن هذا اللقب لم يرد على الوثائق الرسمية للغزنويين

(1) قال الله جلّ شأنه في محكم كتابه؛ **"وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين"** (الذريات: 38)؛ وقد فسّر المفسرون السلطان المبين هنا بالحجة الواضحة (تفسير الجلالين، ص522).

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، 5/ 447

(3) حسن الباشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، ص323

(4) عرفوا بهذا الاسم نسبة إلى عاصمة ملكهم (غزنه) التي تقع خرائبها اليوم قرب مدينة كابل عاصمة أفغانستان؛ وقد دام حكمهم نحو 230 عاما ابتداء من سنة 351 هجرية (1186م) ولهم الفضل في إدخال الدين الإسلامي إلى شبه القارة الهندية، حيث تبعت لحكمهم بإقليمي البنغال وكشمير وجز كبير مما يعرف اليوم بباكستان (ستانلي لين بول، طبقات سلاطين الإسلام، ص264-266).

ولاسيما النقود التي ثبّت على البعض متها (الأمير) وعلى البعض الآخر (الملك). وعلى ذلك يرى غالبية المعنيين بالألقاب الإسلامية أن السلاجقة كانوا السباقين في استخدام هذا اللقب؛ حيث تحدد بمدلوله كحاكم أعظم في عهد السلاجقة.[1] وقد أضفى الفاطميون اللقب على وزرائهم وأمراء جيوشهم.[2] واستخدم اللقب أيضا في العصر الأيوبي، وقد نقش على نقود صلاح الدين الأيوبي مع القاب أخرى على هذا النحو: (سلطان الإسلام والمسلمين).

كما أن لقب (الملك) الذي يعني الزعيم الأعظم؛ أي صاحب السلطة العليا في البلاد فقد استخدم عند العرب منذ عصر مبكر جدا؛ ظهر لأول مرة في اليمن وعند العرب في شمال شبه جزيرة العرب حيث ظهر في شاهد قبر الملك اللخمي أمرؤ القيس بن عمرو المؤرخ من سنة 328 ميلادية على هذا النحو: (ملك العرب كلهم).

أما عن تخويف الجماهير من الحاكم أو السلطان فهو أمر بات واضحا منذ العصر الأموي ولاسيما في عهد خلافة عبد الملك بن مروان. غير أن هذا الأمر بات أكثر وضوحا وبلورة في العصر العباسي الأول عندما أخذ خلفاء بني العباس يظهرون للناس أنهم من آل البيت وأن سلطتهم مستمدة من سلطة النبي

---

(1) كتب ستانلي لين بول أن في سنة 429 هجرية (1037م) قرأ إمام جامع مرو الخطبة باسم (جغرل بيك) السلجوقي معطيا له لقب (سلطان السلاطين)، كما جرى لأخيه (طغرلبيك) في مدينة نيسابور مثل ذلك (ستانلي لين بول-طبقات سلاطين الإسلام، ص141-142).

(2) من ذلك على سبيل المثال أن الخليفة الفاطمي العاضد عندما أختار القائد الأيوبي شيركوه وزيرا منحه لقب الملك المنصور أمير الجيوش (ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص40).

محمد عليه الصلاة والسلام المفوّضة له من الباري جلّ شأنه. يظهر هذا الاتجاه الجديد بجلاء في بعض خطب أبي جعفر المتصور؛منها في خطبته على حجيج بيت الله من فوق منبر (عرفة) أنه قال: (**أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه أسوسكم بتوفيقه ورشده وخازنه على فيئه أقسمه بإرادته وأعطيه بإذنه..... واسألوا الله أن يوفقني للصواب ويسددني للرشاد ويلهمني الرأفة بكم وبالإحسان إليكم.... فإنه سميع مجيب**).[1]

وإذا تركنا هذه الألقاب جانبا يمكن القول غير أن الخلفاء كذلك الملوك والسلاطين كانوا يعلنون للناس أوعلى الأقل أنهم يريدونهم أن يعلموا على نحو أو بآخر أنهم يسوسونهم بالعدل والرحمة، وأنهم يخشون الله تماما وأنهم فقراء إلى رحمته ومغفرته، يلتمسون منه جلّ شأنه أن يمدهم بالقوة والعزيمة ليرفعوا راية الإسلام عاليا. وربما خير مثال على ذلك ما نقشه السلطان نور الدين محمود بن زنكي (541-569 هـ/ 1146-1173م) على المنبر الخشبي الرائع والفائق الزخرفة الذي فرغ من صنعه في مدينة حلب في سنة 564 هجرية (1168م) الذي استغرق عمله بضع سنوات وذلك ليودع في المسجد الأقصى ببيت المقدس.

يقرأ النقش التذكاري الذي يلف في شريط كتابي بخط الثلث حول الجزء العلوي من ذلك المنبر المصنوع بعناية فائقة من خشب الأرز على هذا النحو: (**بسم الله الرحمن الرحيم. أمر بعمله العبد الفقير إلى رحمته الذاكر لنعمته المجاهد في سبيله المرابط لأعداء دينه الملك العادل نور الدين ذكر الإسلام والمسلمين منصف المظلومين من الظالمين أبو القاسم محمود بن زنكي ناصر أمير المؤمنين. أعز الله أنصاره وأدام اقتداره وأعلى مناره ونشر في الخافقين ألويته وأعلامه**

---

(1) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص170

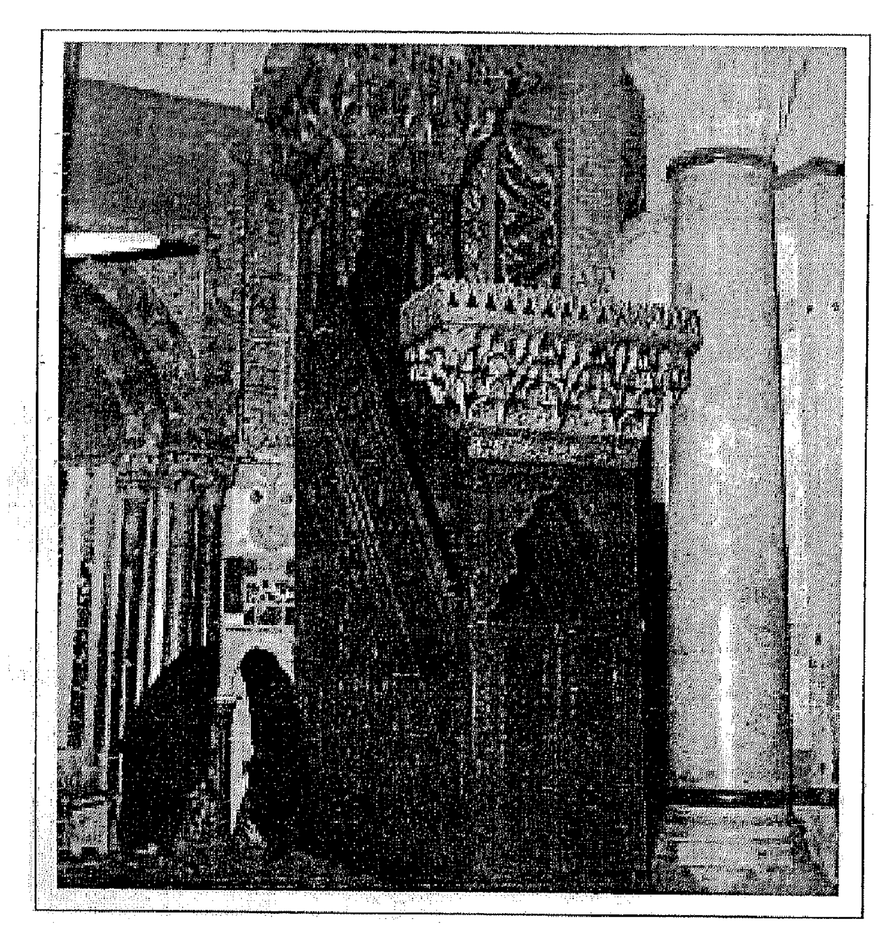
وأعلا بناء دولته وأذل كفار نعمته وفتح وعلى يديه وأقره بالنصر.... وارحمنا برحمتك يا رب العالمين وذلك في سنة أربع وستين وخمسمائة). وبعد فرغ من عمله أودع المنبر في جامع القلعة في مدينة حلب نحو عشرين عاما وذلك لغاية إعادة مدينة القدس إلى حضيرة الإسلام في سنة 583 هجرية (1187م). لقد ظل المنبر في مكانه المعتاد في بيت الصلاة جنب المحراب لغاية سنة 1969 عندما امتدت إلى المسجد الأقصى يد اليهود وأحرقوه مع جزء كبير من المصلى من المسجد في سنة 1969 ميلادية (شكل34).[1]

ومع أن ليست جميع الألقاب التي كان يحملها أو يتلقب بها السلاطين وملوك الطوائف كانت ألقابا رسمية أضفاها عليهم الخلفاء العباسيين في بغداد أومن قبل الخلفاء الفاطميين في مصر؛ بل أن بعضها، إن لم يكن معظمها، كانوا هم يضفونها على أنفسهم. فعلى سبيل المثال نحن نعلم أن الظاهر بيبرس عندما صار سلطانا على مصر وبلاد الشام في سنة 625 هجرية (1228م) تلقّب بـ(القاهر) ثم نبذ هذا اللقب بعد بضع سنوات ليتلقب بـ(الظاهر). كما أننا لسنا متأكدين من أن جميع الألقاب الرنانة التي تلقب بها السلاطين الأتابكة أو ملوك وسلاطين بني أيوب في بلاد الشام ومصر هي تلك التي منحها لهم الخلفاء؛ غير أننا نعلم يقينا أن آخر الخلفاء الفاطميين بمصر العاضد أبو محمد عبد الله (555-567هـ/ 1160-1171م) قد منح صلاح الدين لقب (الناصر) الذي ظل محتفظا به بعد نهايةعهد الخلافة الفاطمية وحتى وفاته في سنة 589 هجرية (1191م).

---

(1) يقال أن الشخص الذي ارتكب تلك الجريمة النكراء يهودي إسرائيلي من أصل أسترالي.

غير أن من المؤكد أن الناصر صلاح الدين الأيوبي الذي صار سلطانا على مصر وبلاد الشام لم يكتف بذلك اللقب ولاسيما بعد انتصاراته الباهرة والمتلاحقة على الغزاة الصليبيين بل أضيفت إليه ألقابا جديدة؛ حتى أن اسمه الأصلي وهو (يوسف) لم يعد يذكر في كثير من الأحيان في النقوش التذكارية كما نلاحظ ذلك في النقش التذكاري الذي رتّبت كلماته بخط الثلث في بحور أو أشرطة قصيرة متتابعة تحيط برقبة قبة المسجد الأقصى من الداخل بعدما أجرى على المسجد الشريف في سنة 586 هجرية (1190م) بعض أعمال الصيانة بما في ذلك تذهيب القبة 587 هجرية(1191م). لقد جاء في هذا النقش التذكاري: **(أمر بتجديد تذهيب هذه القبة الشريفة مولانا السلطان الملك الناصر العادل صلاح الدين بن أيوب تغمّده الله برحمته سنة ست وثمانين وخمسمائة)**. ويلاحظ في هذا النقش أن العبارات التي تخص السلطان صلاح الدين ليست كثيرة (شكل35)؛ ربما يعود السبب في ذلك أن النقش قد كتب بعد وفاة السلطان صلاح الدين الذي كان قد التحق بباريه في سنة 589 هجرية (1193م) (شكل34).

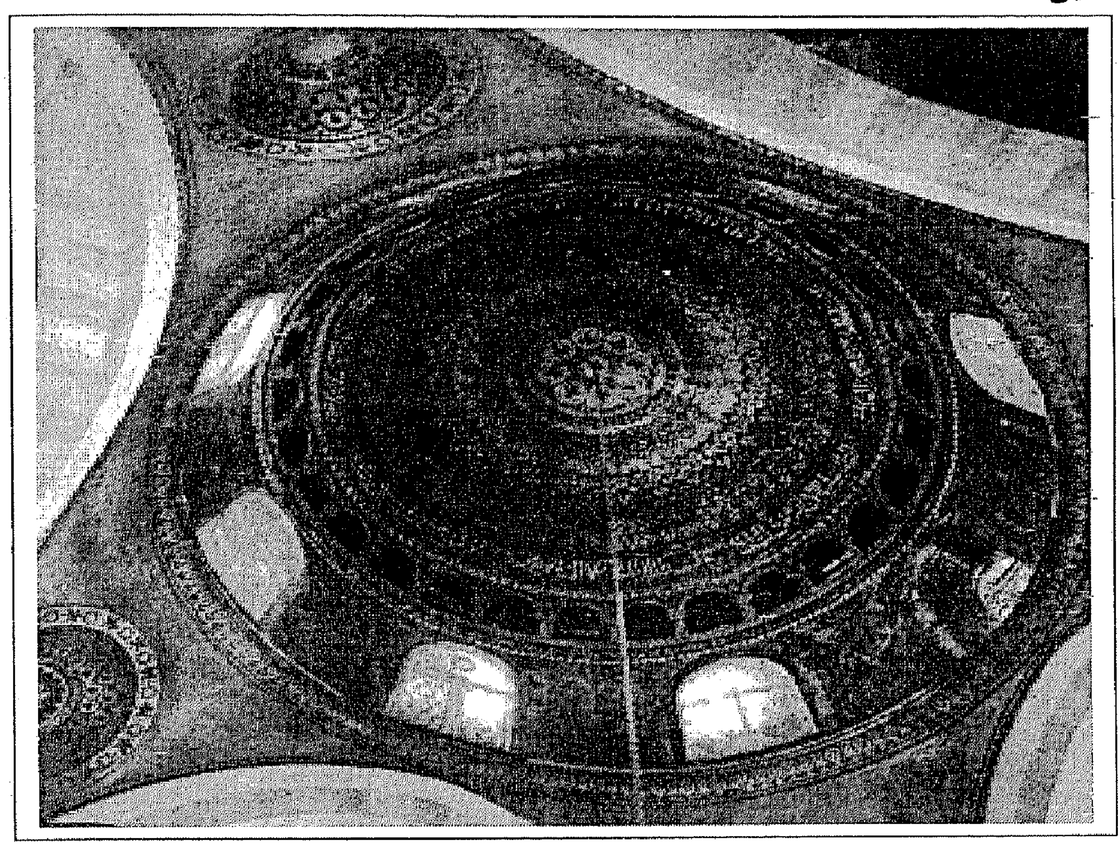


(شكل34)

منبر المسجد الأقصى الذي أمر بصناعته السلطان نور الدين محمود في سنة 564 هجرية وأحرقه اليهود في سنة 1969. تصوير: Alistair Dunca

وفي العقود التي تلت وفاة صلاح الدين الأيوبي ازداد الإقبال على الألقاب الطنانة الرنانة عند السلاطين الأيوبيين قد تفاقمت أو ازدادت عند السلاطين الأيوبيين الذين أعقبوا صلاح الدين. من الأمثلة على ذلك نجده ضمن النقوش التذكارية ضمن المسجد الأقصى نفسه ثبته السلطان عيسى بن السلطان الملك العادل (615-624 هـ/1218-1227م) قد ثبّت القابه في موضع آخر من المسجد الأقصى نفسه عند إعادته بناء بعض أجزائه المتضررّة على النحو التالي: (الملك المعظم العالم العادل المؤيد المنصور المظفر المجاهد المثاغر

المرابط شرف الدنيا والدين أبو العزائم عيسى بن السلطان الملك العادل سيف الدين ....).[1]



(شكل35)

باطن قبة المسجد الأقصى في القدس تظهر النقش التذكاري الذي ثبّته السلطان صلاح الدين الأيوب

تصوير: Alistair Duncan

ومن المؤكد أن الإقبال على استخدام الألقاب بالنسبة للملوك والسلاطين والأمراء المسلمين قد ازداد على نحو كبير في العصر العباسي الأخير وما تبع ذلك من عهود. ليس هذا فقط بل نجد أن سلاطين الدولة العثمانية قد أضافوا

(1) Hamilton ،H. ،the Aqsa Mosque restorations ،London ،1948 ،p. 55

إلى أنفسهم ألقابا جديدة بطرق ملتوية؛ من ذلك القاب السلاطين العثمانيين؛ من تلك الألقاب (أمير المؤمنين)، فنحن تعلم أن عددا يسيرا من أمراء البيت العباسي قد تمكنوا من الفرار من بغداد عند اجتياح التتار المغول لها في سنة 656 هجرية (1258م)، كان واحدا منهم أحمد أبو القاسم بن الخليفة محمد الظاهر بأمر الله الذي هرب إلى بادية الشام وعلم بوجوده الظاهر بيبرس (658-676هـ/ 1260-1277م) سلطان المماليك في مصر والشام فاستقدمه إلى القاهرة حيث بويع له بالخلافة في احتفال رسمي مهيب بعد أن تأكد من صحة نسبه قاضي القضاة في ولقّب بالمستنصر بالله في سنة 659 هجرية (1261م). وظل الخلفاء العباسيين يتعاقبون في المنفى كخلفاء رسميين غير أنه لم يكن لهم من الأمر إلا لقب الخلافة والدعاء لهم من على المنابر قبل الدعاء للسلطان وكذلك نقشت السكة باسمهم؛ وكان مجموع عددهم الكلي ثماني عشرة خليفة كان آخرهم محمد المتوكل على الله الثالث، الذي تذكر المصادر التركية العثمانية أنه تنازل عن الخلافة وألقابها للسلطان العثماني سليم الأول (918-926هـ/ 1512-1520م) عند احتلاله لمصر في سنة 1517 ميلادية.

وقد يبدو غريبا أن المصادر العربية التاريخية تسكت تماما عن موضوع تنازل المتوكل على الله الثالث عن الخلافة عن طيب خاطر للسلطان سليم الأول، فليست هناك أية إشارة تؤكد ذلك في كتب التاريخ مثل (تاريخ ابن أياس) و(تاريخ ابن زنبل)؛ لمؤرخين عاصرا الحدث ولم يذكرا حتى تلميحا إلى مثل ذلك التنازل. ومع ذلك ليس هناك ما يدعو إلى مثل ذلك التنازل إطلاقا

ولاسيما أن السلطان العثماني لم يكن فقط من آل البيت بل ليس عربيا أصلا ولا يحسن حتى التكلم بتلك اللغة أو يكن لهم أدنى مودة.[1]

وإن كل ما كتبه ابن أياس (ت930م) أن السلطان العثماني سليم الأول قرّبه في بادئ الأمر ليحصل على رضا الناس في مصر ثم عدل عن ذلك فساقه إلى استانبول وحبسه هناك واتخذ هو لقب الخلافة والإمامة.[2] واستمر الأمر على هذا النحو في عهد ولده فصار لقب الخلافة بعدة ذلك تحصيل حاصل بالنسبة للسلاطين العثمانيين؛ فنجد أن السلطان سليمان القانوني (926-974هـ/ 1520-1574م) الذي أعقب السلطان سليم الأول في الحكم قد اتخذ لقب (خليفة رسول الله) و(حائز الإمامة العظمى ووارث الخلافة الكبرى)،[3] واستمر الأمر على ذلك النحو حتى نهاية العصر العثماني في الربع الأول من القرن العشرين.

---

(1) طه باقر وعبد العزيز حميد، طرق البحث العلمي في التاريخ والآثار، بغداد 1980، ص110

(2) إنه محمد بن أحمد بين أياس كان من الأمراء المماليك، كان من تلاميذ جلال الدين السيوطي، من أهم كتبه ما يعرف بتاريخ ابن أياس المسمى (بدائع الزهور في وقائع الدهور) في عدة أجزاء (الزركلي، 6/ 5).

(3) حسن عثمان، منهج البحث التاريخي، القاهرة 1964، ص176

الفصل السادس

الإعلام عن طريق اللباس

الفصل السادس

الإعلام عن طريق اللباس

تعد الملابس الخارجية وسيلة مهمة من وسائل الإعلام ليس في العالم العربي فحسب بل في جميع أنحاء العالم القديم وربما الحديث أيضا. فالملابس وسيلة إشهارية صامتة للتعريف بالشخص الذي يرتديها؛ فالقضاة ورجال الدين يرتدون لباسا خاصا بهم، كذلك كان يفعل رجال الشرطة وأفراد الجيش؛ وفي واقع الأمر كان رجال الجيش يرتدون زيّا مميزا خاصا منذ العصر السومري على الأقل؛ أي منذ نحو أواسط الألف الرابع قبل الميلاد يرتدون زيا خاصا يختلف عما كان يتزيا به عامة الناس. وظل الأمر على هذا النحو حتى يومنا هذا. فمن المعروف أن الجندي البريطاني كان يرتدي حتى أواسط القرن التاسع عشر سترة حمراء بأزرار معدنية لماعة مميزة حتى أن عرفوا بين الناس في ذلك الزمن بـ(أصحاب الستر الحمراء)، وكذلك كان يفعل الفرنسيون؛ فقد تميّز جنودهم وضباطهم بسترهم الزرقاء اللون.

أما الملوك فقد كانوا يختلفون عن الآخرين على نحو عام في العصور القديمة والوسيطة وحتى يومنا هذا بجملة أمور بما في ذلك في الملبس بما فيهم ملوك العرب الذي كانوا في العصر السابق على الإسلام يتميزون بجملة أمور؛ منها بلون العمائم أو القلانس التي يعتمرون بها والتي لا يجوز لغيرهم أن يعتمر بمثلها؛ وكذلك بالتيجان التي يضعونها على رؤوسهم إن كانت هناك تيجان حتى أن عرف بعضهم في العصر الجاهلي بأصحاب التيجان، مع أن التاج كلمة معرّبة دخيلة على اللغة العربية فارسية الأصل. ومع ذلك أن التاج اسم ومعنى

قد ورد في أقدم النقوش العربية التي وصلت إلينا؛ لقد ورد بوضوح تام ضمن نقوش شاهد قبر الملك اللخمي أمرؤ القيس بن عمرو ثاني ملوك اللخميين أو المناذرة في العراق الذي كان قد توفى في منطقة حوران -في غرب بادية الشام ودفن هناك في شهر كانون الأول من سنة 328 ميلادية.[1]

وهناك عدد من رجالات العرب وصفوا أيضا بأصحاب التيجان في العصر السابق على الإسلام؛ ولكن هل أن ملوك العرب كانوا الأوائل في الاستعانة بالتيجان كعلامة مميزة للملك؟ من المؤكد أن الأمر لم يكن كذلك، ويبدو أن ملوك العرب قد تعلموا الاستعانة بالتيجان من الفرس الساسانيين، فقد كان لكل واحد من الملوك تاجا مميزا من الذهب المرصّع بالجوهر يختلف عن تيجان من سبقه من الملوك الساسانيين.

ومن الواضح أن للتيجان فائدة عظيمة بخصوص الإشهارأو الإعلام، ولم يكن مثل هذا الأمر خافيا على القدامى من العلماء العرب؛ فهذا الجاحظ على سبيل المثال يربط بين تيجان الملوك والإعلام؛ لقد كتب: (**لغرض التهويل وضعت ملوك العجم على رؤوسها التيجان وجلست على الأسرة ... وهل يملأ عيون الأعداء ويرعب قلوب المخالفين ويحشو صدور العوام إفراط التعظيم إلا**

---

(1) أكتشف شاهد القبر هذا الفرنسي رينيه دوسو Rene Dausaud في موقع يعرف بـ(النمارة) في الطرف الغربي من بادية الشام. كتب النقش بالقلم النبطي المتأخر وبلغة عربية سليمة على قطعة مستطيلة مهندمة من الرخام محفوظة في الوقت في متحف اللوفر بباريس. جاء في النقش ما ترجمته إلى عربيتنا الفصحى: (**هذا قبر أمرؤ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي حاز التاج وصار ملكا على قبيلتي أسد ونزار وكذلك على قبيلة معد...إلى آخره**).

تعظيم شأن السلطان، والزيادة في الإقرار ودوائهم في التهويل عليهم. وهل تصلحهم إلا إخافتك إياهم؟ وهل ينقادون لما فيه الحظ لهم ويسلمون بالطاعة التي فيها صلاح أمورهم إلا بتدبير يجمع المهابة والمحبة؟).[1] فهل هناك إعلام ا للملوك أكثر وضوحاً من هذا الذي يذكره الجاحظ؟

غير أن الأمر لم يعد كذلك في ظل الإسلام قد تغيّرت الأمور تماما فليس للخلفاء تيجانا؛ ليس هذا فقط بل لم يكن رسول الله (ﷺ) وهو القدوة التي اهتدى به المسلمون يتميز عن غيره من الصحابة في المأكل أو في الملبس. وكذلك كان الأمر مع الخلفاء الاربعة الأوائل الذين أعقبوه، لقد ساروا على خطاه، فلمْ يتميّزوا عن سائر المسلمين بشيء إن لم يكونوا أكثر تواضعاً وأشظف عَيْشاً وأخشن ملبساً منهم، حتى ليذكر أن أحدهم كان «**يلبس الثوب من الكرباس الغليظ، وفي رجله نعلان من ليف وكذلك حمائل سيفه، ويمشي في الاسواق كبقية الرعية**».[2]

ويروي أن أبا بكر الصديق (ﷺ) (11-13هـ/ 632-634م) كان أزهد الناس وأشدّهم تواضعاً في لباسه فلم يكن يرتدي وهو خليفة «**إلا الشّملة والعباءة**».[3] وكان في بعض الأحيان يجمع طرفي عباءته في صدره فيخلّها بخال من عود أو حديدة كي لا تسقط.[4] ويروي المسعودي أنه قدم عليه زعماء العرب وأشرافهم وملوك اليمن وهو خليفة وعليهم التّيجان والثياب المُثقلة

---

(1) الجاحظ؛ البيان والتبين، الجزء الثالث، ص107

(2) ابن طباطبا، محمد بن علي، الفخري في الاداب السلطانية، القاهرة، ص37.

(3) اليعقوبي، مشاكلة الناس لزماتهم، 10.

(4) المسعودي، مروج الذهب، 2/ 205.

بالذهب: «**فلما شاهدوا ما عليه من اللباس والزهد ... ذهبوا مذهبه ونزعوا ما كان عليهم**».[1][2]

أما عن ثاني الخلفاء الراشدين عمر بن الخطّاب (ﷺ) (13-23هـ/ 634-643م) فكان هو الآخر متواضعاً خشن الملبس إذ لبس الجُبة الصوف وتشمل مثل سلفه بالعباءة. كما رويَ أنّه شوهد يخطب وعليه قميص فيه اثنتا عشرة رقعة.

ويَذْكُر أنس ابن مالك أنّه شاهد عمر (ﷺ)وهو خليفة وقد رقّع رداءه من الجهة الخلفية الواقعة بين كتفيه برقاع ثلاث بعضها فوق بعض ويروي عن ولاته في الأمصار أنهم تشبّهوا به فلبسوا غلاظ الثياب. من هؤلاء أبو عُبَيْدة بن الجَرَّاح عامله على الشام الذي كان يقتصر في لباسه على المنسوجات الصوفية الخشنة، كذلك سلمان الفارسي الذي كان يلبس الصوف ويركب الحمار. أما عامله سعيد بن عامر فقد كان لا يخرج يوماً واحداً في الشهر إلى الناس وذلك ليغتسل فيه ويغسل ثم يجفف القميص الوحيد الذي كان يمتلكه.

وبالنسبة للخليفة الرابع الأمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه (35-40هـ/ 655-660هـ) فلم يختلف عن الخليفتين الأولّين في الزهد والتواضع سواء في مأكله أو في ملبسه. فقد شوهد وهو يرتدي القمصان والأزر المرقعة والأكسية غير المتجانسة وما شابه ذلك من أمور. ويذكر المسعودي أن علي بن أبي طالب (ﷺ) لم يلبس في أيام خلافته ثوباً جديداً ولا اقتنى ضيعه ولا ربعا». وتوفى ولم يترك سوى سبعمائة درهم.

---

(1) ابن الجوزي، صفوة الصفوة، 1/ 349.

(2) المسعودي، المصدر السابق، 2/ 305.

وما أن انتهى العصر الراشدي وانتقلت الخلافة إلى بني أمية حتى تغيّرت الأمور، فأقبل الخلفاء باستثناء القليل منهم على الترف بجميع أشكاله فلبسوا الحرير بأنواعه وأقبلوا منذ عصر سليمان بن عبد الملك (96-99هـ/ 714-717م) على الوشي من الثياب إقبالا عظيماً، وإن كان هذا لا يعني أنهم لم يعرفوا مثل تلك الثياب قبل عهد خلافة سليمان بن عبد الملك. ليس هذا فقط بل كثيرا ما كان أفراد الشعب أو المترفين منهم يتخذون من الخلفاء الأمويين قدوة لهم فيقلدونهم ليس فقط في ملبسهم بل حتى في الألوان التي كان الخلفاء يفضلونها على غيرها، فقد ذكر على سبيل المثال أن الخليفة هشام بن عبد الملك كان يرتدي في مجالسه العامة الملابس المنسوجة من الخز؛ والخز هو النسيج الذي يدخل فيه الحرير والقطن، فسلك الناس في أيامه مذهبه في ذلك.

ومع كل هذا الترف لم يتغيّر الأمر كثيرا في العصر الأموي فلم نقرأ في كتب التاريخ أن أي من الخلفاء من كان يرتدي ثيابا مميزة تختلف عما كان يرتديه الآخرون وإن كان ذلك لم يمنع من أن بعض خلفاء بني أمية كانوا يفضلون ألوانا وأنواعا معينة من الملابس، غير أن ذلك لا يعني أن أفراد الشعب قد منعوا أو حتى تحرجوا من الاستعانة بمثل تلك الملابس أو تلك الألوان.

ومن غربلة النصوص التاريخية يمكننا القول أن (الجبة) كانت لباساً رئيسا للخلفاء الأمويين في الشتاء. كما إن والرداء والإزار كان لباس الصيف الأساس عندهم؛ وبالإضافة إلى هذين الملبسين لبس الأمويون القميص باختلاف أنواعها التي كانوا يعطرونها بمختلف أنواع العطور؛ أما في الشتاء فقد لبسوا المبطنات والملابس المحوة الثقيلة عند الخروج.

ومع ذلك يمكننا القول أن خلفاء بني أمية على نحو عام لم يميزوا أنفسهم عن غيرهم في اللباس اللهم إلا ما يتعلق الأمر بنفاستها وكثرتها؛ حتى ليروي أن

أبا حمزة- الخارجي عندما دخل المدينة خطب في أهلها يذمُّ يزيد الثالث ويصفه بأنه كان: «**يأكل الحرام ويلبس الحرام ويلبس بردتين قد حيكتا له وقومتا على أهلها بألف دينار**»[1].

ويبدو ممّا ورد في النصوص التاريخية أن خلفاء بني العباس قد فاقوا أسلافهم الأمويين في الإكثار من الثياب الفاخرة وربما حدث ذلك على نحو تدريجي. ففي الوقت الذي خلف فيه أبو العباس السفاح بعد وفاته تسع جباب وخمسة سراويل وأربعة طيالسه وثلاثة مطارف خز، نجد أنه وجد في خزائن الثياب عند وفاة الرشيد في سنة 193 هجرية (808م) إلاف قطع الملابس المنوّعة والنفيسة.[2]

لقد كان من جرّاء إقبال الخلفاء على اقتناء اللباس وكثرتها أن أصبح لخزانة الملابس موظف خاص يُدعى (صاحب الكسوة) تنحصر مهمته في إخراج وتسجيل كل ما يَرد إلى قصور الخلافة من اللباس.

ومع كل ذلك لم يكن للخلفاء في بادئ الأمر ثياب تتميز بشيء ما عن ملابس الموسرين من الناس، شأنهم في هذا شأن أسلافهم الخلفاء الأمويين. ليس هذا فقط بل نستنتج مما بين أيدينا من نصوص أن بعض الأوائل من الخلفاء العباسيين كانوا ميّالين أن يشاركهم المقربون منهم في ارتداء ملابس مشابه لما كانوا يرتدون، ومن البديهي أن يكون لباس الرأس الرئيس عندهم هي العمامة.

---

(1) المصدر السابق، 2/ 106.

(2) يكتب القاضي الرشيد أنه وجد في خزائن الخلافة لما خلف الأمين من جملة ما وجدوا: أربعة إلاف جبة خز مبطنة بسمور وفتك وسائر الوبر وعشرة إلاف عمامة وعشرة إلاف خفتان والف سروال من الثياب وخمسة إلاف منديل (القاضي الرشيد والذخائر والتحف، ص214-215).

أما عن العمائم فقد لبسها العرب واختصوا بها قبل الإسلام وفي العصور الإسلامية المتعاقبة. ومن هنا جاء القول المشهور: (**العمائم تيجان العرب**) الذي نسبه بعضهم للنبي (ﷺ) وبعضهم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه. أي أن العمائم للعرب بمنزلة التيجان للملوك. ويبدو أن العرب لم يستخدموا جميعا قبل الإسلام العمائم وإنما لبسها رؤساؤهم فقط، بينما كان أفرادهم في البوادي يسيرون مكشوفي الرؤوس أو يضعون على رؤوسهم الكوفية أو القلانس ولذلك إذا جعلوا أحدهم رئيسا لهم البسوه عمامة حمراء.

ومع ذلك فقد كان لخلفاء بني أمية رغبة صادقة في الحفاظ على الأصالة العربية فظلّوا يلبسون العمائم ويعلقون السُّيوف على العواتق؛ إنهما عادتان عربيّتان قديمتان في الملبس، حتى ليُروى عن الأحنف بن قيس وهو سيد من سادات العرب المُخَضْرمين قوله: «**لا تزال العرب عرباً ما لبست العمائم وتقلدت السُّيوف**».[1]

وقد كان للعمائم أو نوعها أثرا واضحا في الإعلام الشخصي. حتى أن عرف بعض رؤساء القبائل الكبرى في شبه جزيرة العرب بـ(**صاحب العمامة**) ولا ندري إن كان ذلك يعني أنهم كانوا يعتمرون بنوع معين من العمائم لم يكن يحق للآخرين من أفراد القبيلة استخدام مثلها أو قد يقتصر الأمر على لون العمامة فقط؟ فقد ذكر على سبيل المثال أن واحدا من أشراف قريش هو سعيد بن ابن العاص بن أمية الذي كان يعرف بـ(ذو العمامة) كان لا يعتم أحد بمكة بعمامة لونها مشابه للون عمامته إعظاما أو إجلالا له.

ومن هؤلاء كان أبو جعفر المنصور الذي مال إلى لبس القلانس الطوال ثم

---

(1) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص100.

عمل على فرض لبسها على أفراد حاشيته والمقربين له وكذلك موظفي الدولة. حيث ورد في المصادر التاريخية أن أبا جعفر المنصور قد أمر في سنة 153 هجرية (770م) يلبس القلانس الطوال و(الدراريع) مكتوب عليها بين كتفي الرجل (فسيكفيكم الله). حتى ليذكر أن الشاعر أبا دُلامه قد هزأ بها وشبهها بالدنان، وقال في ذلك:

وكنا نرجى من الأمام زيادة فجاد بطول زيادة في القلانس
تراها على هام الرجال كأنها دنان يهود جلل بالبرانس[1]

لم يصل إلينا أينص في المصادر التاريخية أوالأدبيةأو في المخلفات الأثرية ما يمكن أن نستدل منها أن بعض الخلفاء العباسيين أو غيرهم من كان يعتمر منهم بمثل تلك القلانس الطوال. ليس هذا فقط بل ليست هناك إشارة تاريخية أو عن طريق المخلفات الأثرية أن أي من الوزراء أوأي فرد من علية القوم كان يعتمر بواحدة منها. المنصور كان قد أمر بعد ذلك بتغيير تلك القلانس الطوال. ومع ذلك فيبدو أن الأمر لم يتغير لفترة زمنية طويلة فد أفاد الجاحظ بأن الخلفاء كانوا يتخذون: (العمائم على القلانس، وإن كانت القلانس مكشوفة زادوا في طولها

---

(1) الأغاني، 9/ 164، إنها ضرب من القلانس الضخمة سميت بالدنية (الدنية) لكونها شبيه شبيه بالدنان (جرار كبيرة منفوخة) كانت تستخدم لخزن الماء أو الزيت. وقد ذكر أن قلانس القضاة في العصر العباسي كان طولها نحو شبرين أو أكثر تتخذ من الورق المقوى وتلف على قصب وتغشى بالسواد. وقد أصبحت الدنية وكأنها جزء لا ينفصل عن القاضي نفسه حتى بات يضرب بها المثل في الأمور التي لا تجوز «**مثل قاضي بلا دنية**» (ميخائيل عواد، دنية القاضي في العصر العباسي، الرسالة 1942، العدد 486، ص979-981).

وحدّة رؤوسها حتى تكون فوق قلانس جميع الأمة...).[1] فقد ظلت بعض فئات المجمع ولاسيما بعض كبار الموظفين مثل القضاة الذين كانوا حتى أواسط القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي على الأقل يعتمرون بالقلانس الطوال. فقد كتب الجاحظ بهذا الشأن: **(كان القضاة يتخذون القلانس الطوال في حمارة القيظ...).**[2]

وقد ذكر المؤرخون أن المعتز بالله ( ) كان قد أمر بتصغير القلانس: "**فجعل عرضها ثلاثة أشبار أو نحو ذلك، وصغّر القلانس وكانت قبل ذلك طوالا كأقباع القضاة**" كما أنه: "**أحدث لبس الأكمام الواسعة، ولم يكن يعهد ذلك....**".[3]

ومع ذلك لم تصل إلينا صورا توضيحية في مخطوط معزز بالرسوم التوضيحية لأي من خلفاء بني العباس أو كبار موظفي الدولة يعتمر بواحدة من القلانس الطوال سوى ما كشفت عنه التنقيبات الأثرية في مدينة سامراء في أواسط الستينات من القرن لعشرين عن صورة تنشر هنا لأول مرة نفّذت عن طريق الخربشة أو التحزيز البسيط على جدار بعض قاعات واحد من القصور قرب موقع الجامع الكبير في سامراء (جامع الملوية) يعود إلى القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي؛ تمثل المصوّر رجلا يرتدي قباء طويلا ويحمل بيديه معا كأسا. ويلاحظ هنا أن الرجل يعتمر بقلنسوة طويلة تذكرنا بالقلانس الطوال التي كان قد أمر بارتدائها أبو جعفر المنصور وظلت في قيد الاستعمال التاريخ

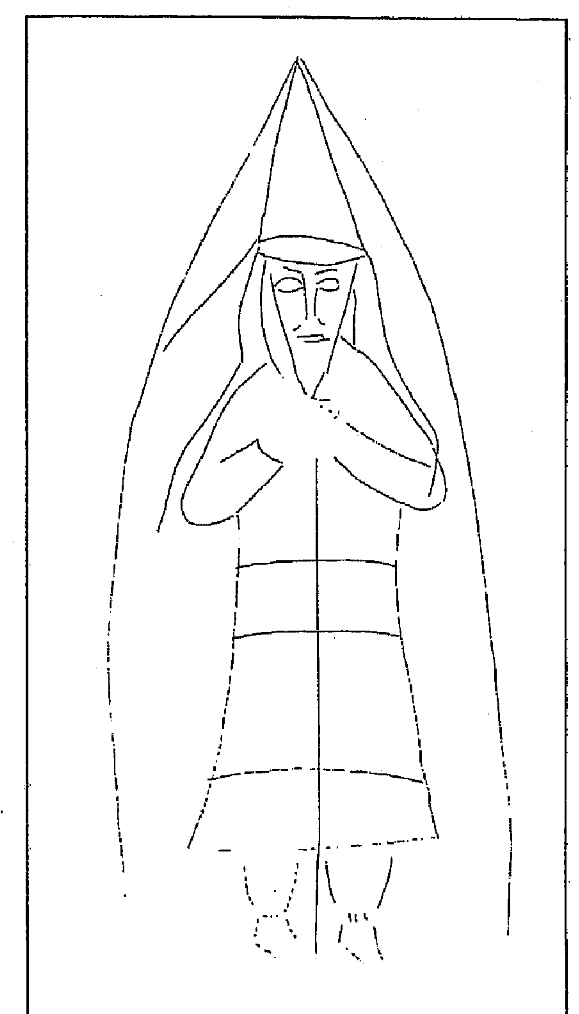
---

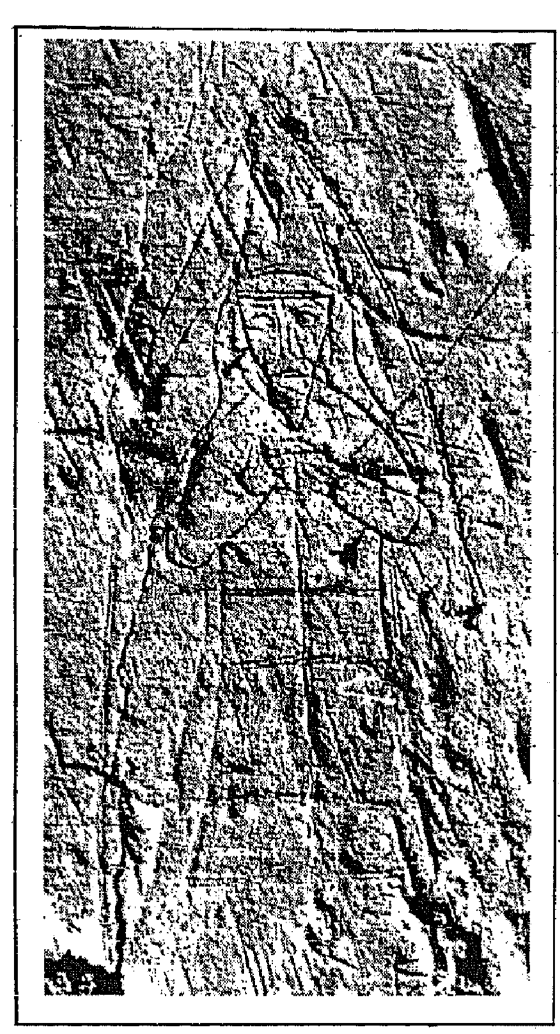
(1) الجاحظ، المصدر السابق، الجزء الثالث، ص109

(2) المصدر نفسه، وكذلك الجزء والصفحة.

(3) المسعودي، مروج الذهب، 4/ 180

الذي أمر فيه الخليفة المستعين بالله الرسمي لكبار موظفي الدولة يبدو لي كأن المصوّرة تمثل واحدا من الحجاب أو موظفا كبيرا في دار الخلافة أو ربما الحاجب أو الموظف المسؤول عن تقديم الشراب للخليفة (شكل36).[1]





(شكل36)

صورة لرجل وجد محززا على جدار قاعة من قاعات قصر في سامراء القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. تصوير وتخطيط الباحث

---

(1) الثعالبي، ثمار القلوب، ص192.

ويبد أن القلانس الطوال باتت لباسا للرأس شائعة جدا في القرن الثالث الهجري حيث وجد المنقبون خلال التنقيبات الأثرية في موقع مدينة سامراء عددا من الرسومات المائية في غاية الأهمية بخصوص الفلانس الطوال المدببة الرأس؛ فمن تلك الرسومات واحدة بالألوان المائية عليها صورة رجل ملتح واقف يبدو أنه أسقفا مسيحيا أو ربما رئيس أساقفة بكامل قيافته بدلالة أنه يرتدي قميصا يصل في الطول إلى منصف الساقين مزينا بمجموعة كبيرة من الصلبان الصغيرة اليونانية الطراز وضعت ضمن حشوات دائرية متجاورة، تعلوه بردة ربما من الصوف، أما لباس الرأس فقلنسوة طويلة مدببة.

ومع ذلك ليس بين أيدينا من الدلائل الأثرية الموثوقة بخصوص ملابس الرأس الخاصة بالخلفاء العباسيين فيما يعرف بعصر سامراء؛ أي طوال القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي سوى ما نجده على بعض نقود الصلة التي سكّت في المناسبات الخاصة. منها الدرهم الفضي الفريد الخاص بالخليفة المتوكل على الله المحفوظ في المتحف النمسوي في مدينة فينا التي مرت الإشارة إليها في الفصل الخاص بالنقود. يلاحظ في صورة المتوكل على الله المنقوشة على أحد وجهي النقد الفضي أنه يعتمر بقلنسوة دائرية لا ندري من أي مادة صنعت؛ محددة بسلك منضود باللؤلؤ الكبار تتدلى من جانبيها ومن جهتها الخلفية ما يشبه كوفية من الحرير المعلّم (شكل37).

ومما يؤكد أن القلانس الدائرية، أو لنقل نصف الكروية، كانت هي النوع الشائع أو السائد عند الخلفاء وكبار رجال الدولة ما كتبه الطبري بخصوص ثورة بابك الخرمي ومن القلانس أيضا ما هو مصنوع من الفراء الثمين أو محدّدة به، وخاصة من فراء السّمور، وهو نوع من أنواع الثعالب النادرة الصغيرة الحجم

الذي يعيش في المناطق الثلجية في شمال أوربا أو في شمال سيبيريا.[1] ولا شك أن قلانس السمور والتي كانت غالبيتها تصنع وجلدتها إلى الخارج وفراؤها الناعم يكون من جهتها الداخلية، ولو أن بعضها كانت تطوق من الخارج بشريط من الفراء الظاهر والتي عُرفت قديماً بالقلانس المحددة؛ فقد أفادنا المؤرخون أن من عادة الخلفاء العباسيين في عهدهم الوسيط أن يعتمروا بقلانس محدّدة بفراء. وقد أفادنا الرحالة أحمد بن جبير.[2] أن من تلك القلانس واحدة شاهدها على رأس الخليفة الناصر لدين الله (576–622هـ/ 1180–1225م) عند زيارته لبغداد في سنة 590 هجرية (1194م) حيث كان الخليفة بتنزه صاعدا في زورق بدجلة **«وعلى رأسه قلنسوة مذهبة مطوقة بوبر أسود من الأوبار الغالية المتخذة للباس الملوك...»** [3]

---

(1) يقول فيه الزبيدي أنه «حيوان برّي يشبه ابن عرس لكنه أكبر منه لونه أحمر مائل إلى السواد. ومنه ما يكون أسودا لمّاعاً. يتخذ من جلده فراء ثمينا (الزبيدي، تاج العروس، طبعة الكويت، باب الراء فصل السين)».

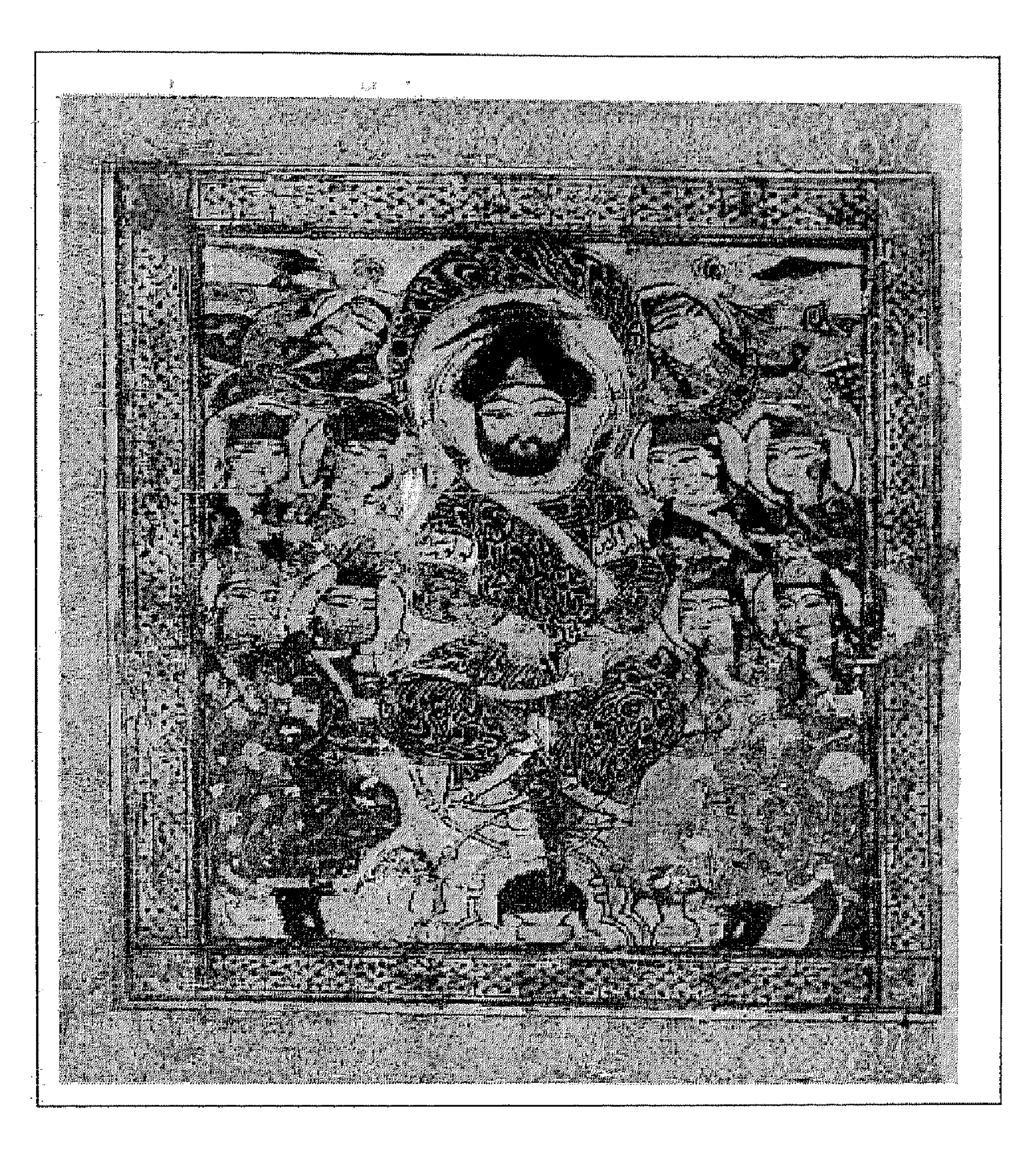
(2) المسعودي، مروج الذهب، 4/ 255.

(3) ابن جبير، الرحلة، ص228.



(شكل37)

صورة للخليفة المتوكل على الله منقولة بتصرف من على درهم صلة خاص به محفوظ في المتحف النمسوي في فينا



(شكل38)

صورة في الأرجح للخليفة العباسي الناصر لدين الله. هي غرة كتاب (الأغاني).

والواقع أن هناك مصورة في غرة نسخ بعض أجزاءواحدة من مخطوطات كتاب (الأغاني) من نسخة محفوظة في استانبول مؤرخة من سنة 1217 ميلادية

لأبي فرج الأصفهاني مستنسخة في سنة 614 هجرية (1217م) محفوظة في بعض مكتبات استانبول صورة لواحد من الخلفاء أو السلاطين يتماشى تماما مع سنوات خلافة الناصر لدين الله؛ ليس هذا فقط بل ينطبق عليه أيضا وصف ابن جبير لما كان يعتمر به هذا الخليفة عندما شاهده صاعدا في زورق بدجلة (شكل38).

لقد كان خلفاء بني العباس يضعون على أكتافهم في المناسبات الخاصة بردة رسول الله التي كانوا قد ورثوها عن الأمويين: وأخذوا يضعونها على كتفهم في المناسبات الرسمية الخاصة منها أن في سنة 320 هجرية (932م) ذكر أن الخليفة المقتدر بالله عندما خرج لقتال مؤنس الذي ثار أو أعلن عصيانه على الخليفة كانت على كتفيه بردة رسول الله (ﷺ) وهو متقلدا سيف رسول الله وبيده القضيب.[1] ثم وردت إشارة أخرى لها في أحداث سنة 363 هجرية (974م) فعندما أعتزل أو تنازل الخليفة العباسي المطيع لله عن الخلافة لولده الطائع لله (363–381هـ/ م 974–991م) عندما أصيب بالفالج وثقل لسانه؛ فقد ذكر: "ركب الطائع لله يوم بويع له وعليه البردة...."[2] وذكرت أيضا وبوضح تام في أحداث سنة 495 هجرية (1101م) حيث شوهد الخليفة المستظهر بالله (487–512هـ/ 1094–1118م) عند استقباله لبعض أمراء السلاجقة؛ "وكان على كتف المستظهر البردة المحمدية وفي يده القضيب...."[3] وورد ذكرها أيضا في أحداث سنة 515 هجرية أنها كانت على كتف الخليفة المسترشد بالله (512–

(1) ابن الجوزي، عبد الرحمن، المنتظم في تاريخ الملوك، 1/ 43

(2) الهمداني، محمد بن عبد الملك، (ت521 هـ)، تكملة تاريخ الطبري، القاهرة 1982، ص432

(3) ابن الجوزي، 9/ 130

529هـ/ 1118-1135م) لـدا استقباله للسلطان محمود وأخيه سنجر ولـدي السلطان ملك شاه السلجوقي.[1]

وربما آخر ما ذكر بشأنها ما كتبه بنيامين التطيلي عند زيارته لبغداد نحو سنة 562 هجرية (1166م) أن على ما يبدو قد ذكر له، وهو في بغداد، أن الخليفة المستنجد بالله (555-566 هـ/ 1160-1170م) كان يخرج على الناس الذين كانوا يتجمهرون على ما يبدو، في باحة دار الخلافة مرة واحدة في السنة عند عودة الحجيج من الديار الحجازية فيطل عليهم الخليفة من شرفة في القصر: **"فيرخي طرف بردته من شرفة القصر فيقبل الحجّاج على لثمها بكل خشوع. ومن ثم ينادي بهم الحاجب: اذهبوا بأمان الله فإن سيدنا أمير المؤمنين يقرؤ عليكم السلام؛ فينصرف الناس فرحين بتلك التحية."**[2] ومن الواضح أن الخلفاء العباسيون ظلوا يستعينون بتلك البردة حتى نهاية عهدهم في سنة 656 هجرية (1258م).

أما عن أنواع الملابس فأن الخلفاء العباسيين غالبا ما كانوا يرتدون عند جلوسهم على دست الخلافة قباء أو جبة أوأي نوع آخر من الأردية الخاصة بالخلفاء؛ فقد ذكر على سبيل المثال أن أبا جعفر المنصور كان كثيرا ما يرتدي في مجلسه الرسمي قباء فوق قميص. وكتب بنيامين التطيلي فيما كتب بخصوص الخليفة المستنجد بالله يخرج إلى المسجد الجامع في عيد الفطر:[3] **(في حتشد الناس**

---

(1) المصدر نفسه، 9/ 225

(2) بنيامين التطيلي، (ت نحو سنة 569 هـ)، رحلة بنيامين، ترجمة عزرا حداد، بغداد 1945، ص132

(3) كتب المترجم لرحلة بنيامين بخصوص الخليفة المستنجد بالله ما يلي: (إن ما يرويه بنيامين عن الخليفة المستنجد بالله من صفات يدل على ما كان له من مقام سام في قلوب يهود =

من أقاصي البلاد للإحتفاء بمشاهدته. ويمتطي الخليفة عند خروجه جوادا مطهّما وهو مرتد بردته المقصّبة بفضة وذهب وتوّج الرّأس بقلنسوة مرصعة بالأحجار الكريمة التي لا يعد لها ثمن. وفوق القلنسوة قطعة قماش سوداء اللون، فيها ما يشير إلى التواضع، وفيها موعظة للناس بأن هذه الأبهة كلها سيغشاها السواد عند انقضاء الأجل).[1]

أما عن الألوان على الرغم من الاحاديث الشريفة التي رويت عن رسول الله التي يفهم منها أن البياض يدل على الطهارة والتي تشجع المسلمين على الاستعانة بها، من تلك الاحاديث ما روي عن النبي (ﷺ) قوله: (**البسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم، وكفنوا بها موتاكم**).[2] ويروى أيضا على لسان عدد من الصحابة أن الثياب البيض هي على الدوام لباس الملائكة.[3]

وظل البياض هو اللون المفضّل عند العرب لفترة زمنية طويلة؛ فكانت رآيات بني أمية بيضاء؛ وتشير المصادر التاريخية أيضا أن العلويين قد اتخذوا أيضا من اللون الأبيض ولاسيما في عمائمهم شعارا لهم حيث عرفوا بـ(المبيّضة).[4] وهذا أيضا كان شعار الفاطميين في مصر وهم أيضا من العلويين، فقد كانوا

بغداد. ويحدثنا التاريخ عن هذا الخليفة أنه كان من خيرة الخلفاء؛ أزال المكوس والمظالم وكان شديدا على أهل العبث والفساد، وإنه حلّ المقاطعات وأعادها إلى الخراج، وأنه كان حليما عادلا ثاقب الرأي حازما، له إلمام تام بعلم الفلك وغيرها من العلوم والفنون، فكانت أيامه كلها أفراحا. (المصدر السابق، ص132، حاشية 2).

(1) المصدر السابق، ص133

(2) ابن حنبل، أحمد، المستد، الحديث رقم 2219

(3) ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 156

(4) تاريخ الطبري، 8/ 194

يرتدون العمائم البيض وأن الجباب التي كان يرتديها أئمة المساجد في مصر في العصر الفاطمي كان البياض. غير أن الأمر كان مختلفا بالنسبة لشعار الشيعة الأمامية الاثني عشرية؛ فقد ذكر أن الخليفة العباسي عبد الله المأمون (198-218هـ/ 813-833م) عندما عمد إلى التقرب من العلويين في أول خلافته عقد ولاية العهد إلى علي بن موسى الرضا (ﷺ) تزيا بالخضرة شعار العلويين في ستة 201 هجرية (825م). وبعد وفاة ولي العهد الإمام علي الرضا عليه السلام خلع الخضرة وعاد إلى لبس السواد شعار العباسيين.

على أن تكون سوداء اللون لاسيما العمامة حيث اعتبر اللون الأسود شعار العباسيين منذ عهد المهدي الذي انتقلت اليه الخلافة في سنة 158 هجرية (776م)، ومن المؤكد أن رآياتهم كانت سودا. ربما الذي حمل العباسيين اعتبار اللون الأسود شعارا لهم أن الرآيات التي رفعوها في المعارك التي خاضوها ضد الأمويين عند بدء الثورة العباسية كانت سوداء. وليس من المستبعد أن اتخاذهم الرايات السود كان لإظهار حزنهم على زعيم الحركة العباسية الأول إبراهيم بن محمد ين عبدالله بن العباس الذي كان مقيما في (الحميمة) في جنوب بلاد الشام فضرب الخليفة الأموي الأخير مروان بن محمد عنقه في سنة 132 هجرية (750م).

وبخصوص السواد أيضا يذكر أن الوزراء في العصر العباسي وإن كان لباسهم متميزا غير أن ذلك لم يمنع من أنهم كانوا يرتدون السواد شعار العباسيين؛ وكذلك كان يفعل كبار موظفي الدولة بما فيهم القضاة الذين كانوا يرتدون السواد عند جلوسهم في مجلس القضاء. ليس هذا فقط بل حتى الأساتذة كانوا يرتدون السواد عند جلوسهم للتدريس في بغداد وفي المدن والأقاليم التابعة للخلافة العباسية. ومن الغريب حقا ما أفادنا به الرحالة ابن بطوطة الذي جاء

إلى بغداد بعد نهاية العصر العباسي بنحو قرن واحد من الزمن، فعندما زار المدرسة المستنصرية الواقعة عند نهاية سوق الثلاثاء في الجانب الشرقي المطلّة على نهر دجلة، لاحظ أن المدرسين كانوا يجلسون على كراسي مرتفعة وعليهم السكينة والوقار معتمين بعمائم سوداء ولابسين ثياب السوادأيضا.[1] فيبدو أن لباس السواد ظل اللون المفضل عند رجال الدين والعلماء لفترة زمنية طويلة بعد نهاية العصر العباسي.

غير أن ذلك لم يمنع من أن يكون لكل طبقة من الناس لباسهم المتميّز في العصر العباسي أو في العصر الفاطمي في مصر المتداخل مع العصر العباسي، ويبدو أن العباسيين قد تعلموا ذلك من الفرس في العصر الساساني حيث كتب المؤرخون المسلمون أن في العصر الساساني كان الملوك يرتدون ملابس خاصة لا يجوز إطلاقا لغيرهم أن يرتدي ما يشابهها. ليس هذا فقط بل أن طوال فترة الحكم الساساني التي بلغت نحو أربعة قرون كان كل واحد من ملوكهم الذين تعاقبوا على العرش في العصر الساساني كان يصاغ لكل واحد منهم تاجا من الذهب الخالص المطعّم بالأحجار الكريمة مغايرا في شكله لتاج سلفه الملك السابق.[2] غير أن لم يصل إلينا أي من تلك التيجان؛ ولكن الذي نعلمه من الرسوم التي صلت إلينا لبعض هؤلاء الملوك وكذلك من صورهم الممثلة على

---

(1) ابن بطوطة، الرحلة، 3/ 109

(2) لقد كانت بعض تلك التيجان ثقيلة جدا لا يقوى الملك على حمله على رأسه. فهناك اليوم في السقف الذي يعلو وسط أيوان المدائن الذي ما يزال قائما قرب بغداد موقع حلقة كانت تتدلى منها سلسلة من الذهب يربطبها تاج الملك الثقيل عند جلوسه على العرش لتخفف من ثقل التاج على رأس الملك. يذكر أن تلك الحلقة قد ظلت في مكانها حتى الفيضان الكبير الذي ضرب العراق في أواخر القرن التاسع عشر.

النقود أنه لم يكن اثنان من هؤلاء الملوك من يضع على رأسه تاجا مشابها لتاج أي واحد من الملوك الساسانيين السابقين له.

ليس هذا فقط بل كانت هناك قوانين خاصة فيما يتعلق باللباس. فكان أهل كل طبقة من الناس يرتدون لباسا خاصا لا يلبسها أحد من غير تلك الطبقة؛ فإذا وصل الرجل إلى الملك عرف عن طريق ما يرتديه من لباس صناعته والطبقة التي هو منها أو التي ينتمي إليها.[1]

لقد كان كبار موظفي الدولة وكذلك صغارهم في العصر العباسي يتميزون بألبستهم الخاصة؛ فكان الكتاب يلبسون الدراريع، وهي ثياب مشقوقة الوسط؛ أي مفتوحة من جهتها الأمامية؛ ثم صار القباء لباسا رسميا لرجال الدولة منذ مطلع القرن العاشر الميلادي لا يدخل دار الخلافة أوإلى المقصورة الخاصة في المساجد الجامعة بغير القباء الأسود بما فيهم القادة العسكريين. ثم صار القباء لباسا رسميا لرجال الدولة منذ مطلع القرن العاشر الميلادي فلا يجوز لأي من كبار الموظفين وصغارهم الدخول إلى دواوين الدولة دون قباء. أما العلماء ورجال الدين عموما فكانوا يلبسون الطيالس (جمع طيلسان). ثم تغيرت الأمور في القرن الحادي عشر الميلادي فكان لا يلبس القباء والسواد سوى خطباء الجوامع والمؤذنين.[2]

وفي النصف الثاني من العصر العباسي يبدو أن تخصيص كل طبقة من الموظفين بلباس خاص معيّن وهو النظام الذي صار متبعا في المدن التي كانت تابعة للخلافة العباسية وقد تعلمها منهم الفاطميين في مصر.

---

(1) الجهشياري، ابن عبدوس، الوزراء والكتاب، ص3

(2) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، 1/ 15

الفصل السابع

الإعلام عن طريق الشواخص العمارية

الفصل السابع

الإعلام عن طريق الشواخص العمارية:

إن العمارة كانت وما تزال وسيلة مهمة من وسائل الإعلام ليس عند العرب فحسب بل عند جميع الشعوب وفي جميع أنحاء العالم المتحضر. فاذا أراد الملوك القدماء إظهار عظمة الدولة أو أردوا إشعار أو إفهام الجماهير بقوتهم الشخصية وثبات مركزهم عمدوا أو اتجهوا إلى العمارة، ولكن ليس إلى بناء القصور فإن لمثل هذا النوع من العمارة أثر سلبي يسيء اليهم شخصيا وغالبا ما يتخذه خصومهم وسيلة أو منفذا يهاجمونهم منها متهمين إياهم بتبذير أموال الدولة أو بعثرة ما في بيت مال المسلمين على منافعهم وملذاتهم الشخصية تاركين الرعيّة للنكد وللهم والفقر الذي لا يرحم. وإن كان هذا لا يعني أنهم امتنعوا عن تشييد القصور الفارهة ولاسيما عندما تكون الأمور مستتبة تماما في البلاد.

والإعلام قد يكون عن طريق بناء القلاع وإقامة الأسوار المنيعة التي ببنائها يشعر الناس بالأمان والحماية من الاعتداءات الخارجية وإن كان خصوم السلطة يعدون أن إقامة مثل تلك الإنشاءات العسكرية هي لحمايتهم هم وتعزيز نظامهم وفرض سيطرتهم أكثر من إضفاء الحماية الحقيقية لشعوبهم. وربما لهذا السبب نجد أن الاتجاه العام عند الملوك والسلاطين الانصراف إلى إقامة العمارات ذات النفع العام مثل المستشفيات (المارستانات) والمدارس والحمامات والخانات لإيواء المسافرين على الطرق الخارجية الرئيسة؛ أو أن ينصرفوا نحو تشييد العمارات الدينية مثل المساجد والتكايا والزوايا، أو إقامة القباب والمشاهد فوق

قبور الأولياء من السلف الصالح الذين يكنّ لهم غالبية المسلمين كل الاحترام والتبجيل.[1]

وهذا ما حدث في عهد قسطنطين الأول (324-347م)أول إمبراطور روماني يعتنق المسيحية؛ فقد عمل هو ووالدته القديسة هيلانة على تشييد عدد ليس بالقليل من الكنائس الكبرى والبيع الصغيرة في سوريا وفلسطين. فقد أراد الإمبراطور قسطنطين الأول أن يظهر للجماهيرفي الأقاليم المشرقية عظمة الدين المسيحي؛ وقد يعزى السبب في ذلك أن أغلب الناس في ذلك الزمن كانوا على الوثنية، فظن أن تشييد الكنائس الفارهة المنمّقة والمزخرفة سوف يؤثر في الناس نفسيا للدخول في المسيحية فشيّد عددا ليس بالقليل من الكنائس الفارهة في (بيت لحم) و(بيت المقدس) حيث ولد السيد المسيح عليه السلام في الأولى وصلب في الثانية، وشيّد أيضا كنائس في دمشق وفي العاصمة الجديدة القسطنطينية. وقد سار على خطاه بقية الأباطرة البيزنطيين فأقاموا الكنائس الكبيرة في القسطنطينية وفي سوريا وفلسطين أيضا.

ومن البديهي أن الغرض من بناء تلك الكنائس الجديدة الرائعة البناء في ذلك العصر هو لتكون منافسة من الناحية الإعلامية للمعابد الوثنية الفارهة التي كانت الإمبراطورية الرومانية الوثنية تنفق على إقامتها وزخرفتها بالغالي والنفيس؛ إنها العمارات التي كانت ترتبط ارتباطا وثيقا بالآلهة التي تقدّرها وتخشى بأسها الجماهير وتعتبر نفسها في حمايتها أو أن البشر قد خلقوا من أجل خدمة الآلهة وتقديم القرابين والنذور لها في أعيادها الخاصة أو في غيرها من

(1) ولاشك أن تلك المشاهد لم تكن مثل الأهرامات التي هي قبور ضخمة الغرض من إقامتها حماية أجساد الملوك الفراعنة في مصر من عبث اللصوص ليس غير ولو أنها قد عدّت من عجائب الدنيا السبعة في العالم القديم.

المناسبات الدينية العامة. وهكذا كان يفعل الملوك في العصور الواغلة في القدم في الشرق الأوسط وفي غيرها من الأقاليم يساعدهم في ذلك الكهنة أو القوّامون على تلك المعابد.

من الواضح أيضا أن من وراء بناء الكنائس الفارهة كان غرضا إعلاميا محدّدا هو كسب المزيد من الناس في الدخول إلى المسيحية ونبذ الديانات الوثنية، فكما هو معروف أن المسيحيين في النصف الأول من القرن الرابع الميلادي لم يشكلوا سوى جزء يسيرا من مجموع عدد السكان في عموم الإمبراطورية الرومانية حيث لم يتجاوز عددهم أكثر من خمس العدد الكلي للسكان.

وازداد الإقبال على بناء الكنائس في عموم الإمبراطورية الرومانية عندما أعلن رسميّا في سنة 380 ميلاديةفي عهد الإمبراطور ثيودوسيوس (379-395م) الذي أعلن رسميا إن دين الدولة هو المسيحية فهدّم الكثير من المعابد الوثنية، إن لم يكن جميعها، وأقيمت الكنائس الرائعة البناء بدلا عنها ولاسيما في القسطنطينية؛ ورفعت القباب الفارهة فوق أضرحة القديسين المسيحيين ولاسيما في فلسطين وفي بلاد الشام والشمال الأفريقي.

وبهذا الخصوص أيضا؛ أي في سبيل كسب المزيد من الناس للدخول في النصرانية يكتب الإخباريون العرب أن القائد العسكري الحبشي أبرهة أن أقام بمدينة صنعاء في الحبشة كنيسة عرفت بـ(القليس)، قال عنها أهل الأخبار من العرب أنها كانت عجيبة في عظمتها وضخامتها وزخرفتها من جهتيها الخارجية والداخلية؛ حتى أن أبرهة كتب إلى النجاشي ملك الحبشة حسب احدى الروايات قوله: **"إني قد بنيت لك بصنعاء بيتا لم تبن العرب ولا العجم مثله"**.[1]

---

(1) الأزرقي، 1/ 82.

وحسب رواية أخرى قوله: **إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم تبن العرب ولا العجم مثله.**[1] أو: "**إني قد بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها لملك قبلك.**"[2] وذكر الإخباريون العرب أنه أقامها بحجارة قصر بلقيس بمأرب، قلعت ثم تم نقلها إلى صنعاء حيث أقيمت بجانب قصر غمدان.

لقد بنى الأحباش (القليس) بناء ضخما عاليا وجعلوا جدرانها من طبقات من حجر ذي ألوان مختلفة، لون كل طبقة يختلف عن الطبقة التي تحتها أو فوقها؛ وزينوا الجدران بأفاريز من الرخام والخشب المنقوش، وجعلوا الرخام ناتئا عن البناء، وجعلوا فوق الرخام حجارة سوداء تليها حجارة بيضاء؛ إلى آخر وصف تلك الكنيسة كما جاء ذلك في المصادر العربية القديمة. لقد جاء ذلك الوصف حيا نابضا بالحياة ينطبق على الكنائس الفخمة التي أقيمت في ذلك العصر في القسطنطينية أو في القدس أو دمشق.[3]

وكما هو معروف أن (أبرهة) قد حاول في سنة571 ميلادية أن يغزو مكة المكرمة. ولم يكن الغرض منه على ما يبدو تحقيق مكاسب اقتصادية بسبب فقر المنطقة اللهم باستثناء أن مكة كانت تقع على الطريف التجاري البري الذي يربط اليمن ببلاد الشام والعراق قبل الإسلام، بل أن الغرض الأساس من تلك الغزوةتهديم الكعبة المشرفة ومن ثم تحطيم نفسية العرب ومعنوياتهم لعلمه أن معظم القبائل العربية بما في ذلك قبائل اليمن كانت تحج إلى مكة. وعلى ذلك فأن في تخريب الكعبة، إن حصل، كان سيعد نصرا إعلاميا كبيرا له وللأحباش

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، 2/ 169

(2) ابن هشام، 1/ 43

(3) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 3/ 500-501

عموما وحرب نفسية شديدة الأثر على العرب أجمعين.[1] لقد أصيب مشروع أبرهة الرامي إلى احتلال مكة وهدم الكعبة بإخفاق ذريع، فأبرهة هذا هو (صاحب الفيل) الذي قصد بفيله وجنده هدم الكعبة وإكراه الناس على الحج إلى (القليس).

وقد كتب أبو حنيفة الدينوري المتوفى في سنة 282 هجرية (895م)، سببا طريفا لتلك الغزوة قد تبدو خيالية أو مفتعلة هو أن أبرهة: "**بنى بصنعاء بيعة لم ير الناس مثلها، وأذن فيجميع أرض اليمن أن تحجّها فاستعظمت العرب ذلك، فدخل رجل من أهل تهامة ليلا فأحدث فيها؛ فلما أصبح القوم نظروا إلى السوأة السّواء في الكنيسة؛ فقال أبرهة: من تظنونه فعل هذا؟ قالوا: لم يفعل هذا إلا بعض من غضب للبيت الذي بمكة لما أمرت بحج هذه البيعة ، فغضب عند**

(1) لقد عرفت السنة التي سار فيها الجيش الحبشي بقيادة أبرهة نحو مكة نحو سنة 592 ميلادية؛ السنة التي ولد فيها سيد المرسلين. لقد عرفت تلك السنة عند أهل الأخبار من العرب بـ(عام الفيل)؛ فقد ذكر الدينوري أن أبرهة كتب بذلك إلى النجاشي في الحبشة: "فبعث إليه بفيل كالجبل الراسي..." فصحبه في غزوته تلك التي ورد ذكرها في القرآن الكريم. قال الله جلّ شأنه في محكم كتابه: (**ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل. ألم يجعل كيدهم في تضليل. فأرسل عليهم طيرا أبابيل.**
ترميهم بحجارة من سجين. فجعلهم كعصف مأكول).يفهم من الآية الكريمة المحملة (ابرهة) كانت قد فشلت فشلا ذريعا. لقد تعرّض أبرهة لغضب الله جل شأنه فتشتت الجيش شذرمذر. وكان زعماء العرب من قريش في مكة آنذاك عبد المطلب بن هاشم جد النبي محمد (ﷺ) من بني هاشم وأمية بن حرب بن عبد مناف من بني أمية وغيرهما من كبار رجال قريش.

ذاك غضبا شديدا، وتجهّز للمسير إلى مكة ليهدم الكعبة... فسار إلى مكة؛ فكان من أمره ما كان."[1]

ومما زاد في أمر إقبال الملوك والأمراء الأوربيين على بناء العمارات الدينية الفارهة في أوربا في العصور الوسطى هو درايتهم بأن ثقة الجماهير بملوكهم من جهة برجال الدين من جهة أخرى بدأت أو أخذت في التزعزع بعد فشلهم الذريع المتواصل في الحروب الصليبية التي قادتها الكنيسة آنذاك أو بتحريض منها ضد العرب والمسلمين في الشرق الأوسط؛ تلك الحروب التي ظل أوارها مشتعلا نحو قرنين من الزمن بدأ بأواخر القرن الحادي عشر ولم تنتهي إلا بأواخر القرن الثالث عشر الميلادي، وشاركت فيها معظم الدول الأوربية بجيوشها بما في ذلك إنكلترا وفرنسا وألمانيا والنمسا والسويد. ومما ساعد على الزيادة في زعزعة ثقة الجماهير الأوربية بالكنيسة أن تلك الحروب التي قتل فيها عشرات الألوف من خيرة شباب أوربا الذين تطوّعوا لحرب المسلمين قد انتهت أخيرا بعد فشل الحملة الصليبية الأخيرة بطرد الأوربيين الصليبيين شر طرده من الأراضي المقدسة ومن بلاد الشام عموما.

لقد كان لتلك الحملات العسكرية أو الحروب الدينية المتواصلة والطويلة الأمد وغير الناجحة رد فعل عنيف عند الجماهير الغفيرة على ما يبدو في مختلف الأقاليم الأوربية بعد كل واحدة من تلك الحملات الأربعة. ولم يقتصر امتعاض الجماهير على حكومات تلك الدول وحدها بل شمل أيضا رجال الذين ولاسيما الكاثوليك منهم وعلى رأسهم البابا. لقد اتهمت الجماهير رجال الدين هؤلاء بأنهم لم يحرّضوا ويشجّعوا ويباركوا ملوك أوربا فحسب بل جمعوا الأموال

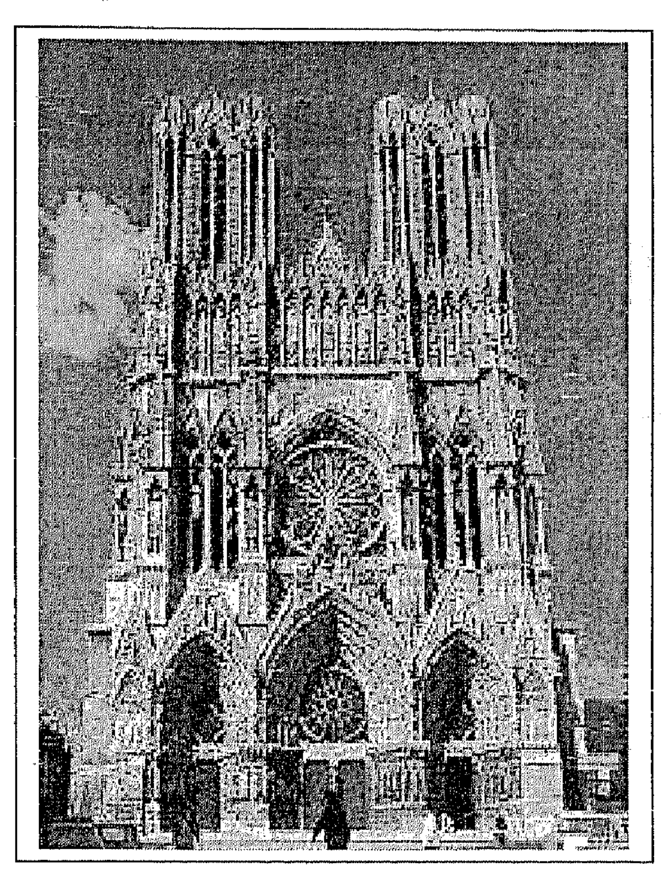
(1) أبو حنيفة الدينوري، الأخبار الطوال، ص63

الطائلة من الناس لمساعدة ملوك أوربا في تمويل تلك الحملات العسكرية الكبيرة لمحاربة العرب والمسلمين لأسباب تافهة.

وكنتيجة للفشل في تلك الحملات العسكرية الكبرى أراد الباباوات والبطارقة وكبار رجال الكنيسة أعادة الهيبة والاعتبار لهم عند الجماهير فأقاموا صرح كاتدرائيات الفخمة والعظيمة في بعض كبريات المدن الأوربية المكتظة بالسكان. أن الغرض من إقامة تلك الكاتدرائيات لم يكن لمجرد أن ينبهر الناس بها بل لتشعرهم بقوة الدين المسيحي وبعظمة السيد المسيح عليه السلام؛ أي للإشهار أوالإعلام الديني ليس غير؛ بل أن الغرض الأساس هو التأثير الإيجابي على نفسيات الشعوب في أوربا بعدم زعزعة ثقتهم بالبابوية وبالمذهب الكاثوليكي عموما ومن ثم إعادة الثقة مجددا بملوك أوربا الذين كانوا يستمدون سلطاتهم من البابا في روما؛ وكما هو معروف أن غالبية السكان في الأقاليم الأوربية كانوا في ذلك الزمن من الكاثوليك.

لقد كانت تلك الكاتدرائيات مهولة من حيث دقّة التصميم وعظمة البناء وروعة الزخرفة التي صرفوا عليها واردات دولهم لسنوات طويلة حيث استغرق بناء بعضها وإنجاز زخارفها زهاء سبعين عاما؛ أي أن بناء تلك الكاتدرائيات قد تطلب زمن جيلين أو ثلاثة أجيال من البشر وطوال حكم ملكين أوثلاثة من الملوك الأوربيين على التعاقب. من تلك الكنائس الكبرى كانت كاتدرائية سالسبري Salisbury (1220–1270م) وكاتدرائية روتردام Notre-Dame في باريس (1163–1200م) وكاتدرائية رايمز the Cathedral of Reims في فرنسا (1225–1295م) (شكل39)، وكذلك كاتدرائية كانتربري Canterbury في إنجلترا. وربما من أهم تلك المباني العملاقة كاتدرائية مدينة كولونيا في ألمانيا التي بدأ بتشييدها في سنة 1248 ميلادية وذلك لتضم رفات المجوس الثلاثة الذين

تنبؤوا بميلاد المسيح والذين نقل رفاتهم من القدس خلال الحروب الصليبية في سنة 1164 ميلادية. تعد هذه الكاتدرائية أشهر الصروح المعمارية والدينية في ألمانيا (شكل40). لقد أقيمت جميع تلك الكاتدرائيات المهولة البناء في الفترة الزمنية المحصورة بين النصف الثاني من القرن الثاني عشر وأواخر القرن الثالث عشر الميلادي في حقبة زمنية تعرف بعصر الطراز القوطي Gothic Style.[1]

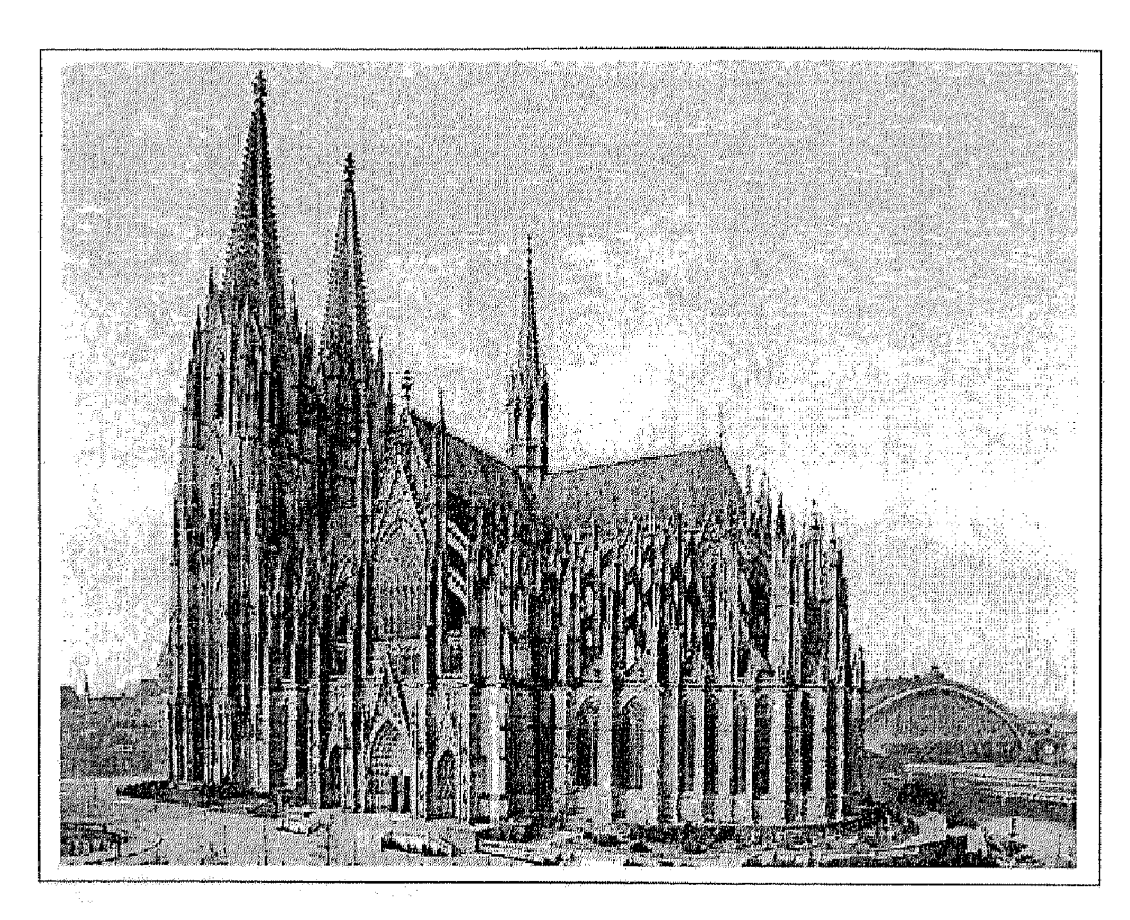


(شكل39)

واجهة كاتدرائية رايمز في فرنسا المشيدة بين سنتي 1225-1295

---

(1) Jansen ،H.W. ،A History of Art ،London ،1974 ،pp. 237-239



(شكل40)

كاتدرائية مدينة كولونيا في ألمانياكما تبدو في يومنا هذا

الأوربية كانوا أميين لا يقرأون ولا يكتبون في تلك الحقبة الزمنية التي تعرف بالعصور المظلمة. ولذلك تمكن البابا وكبار رجال الدين المسيحيين من إقناع أولي الأمر في الدول الكبيرة في أوربا على إقامة تلك الكاتدرائيات.

ومع ذلك يبدو أن تلك العمارات الدينية الفخمة لم تنفع البابوية كثيرا في إعادة الثقة بها في أوربا على نحو كلي، فقد حدثت انقسامات دينية كبرى ظهر على إثرها المصلح الديني الراهب الألماني (مارتن لوثر Martin Luther (1483-1546م) الذي ثار على البابا والمذهب الكاثوليكي عموما فأوجدما يعرف بالبروتستانتية بشكلها المحدد الواضح في أوائل القرن السادس عشر

ولاسيما في ألمانيا وشرق أوربا، فضلا عن انفصال الكنيسة البريطانية لاحقا عن البابوية في عهد الملك هنري الثامن Henry VIII (1491-1547م) وغير ذلك من الأمور الخاصة بالمسيحية في القارة الأوربية عموما.

أما في الأقاليم الإسلامية فإن الإشهارأو الإعلام أو إظهار عظمة الدين الإسلامي عن طريق مثل هذه الوسائل كان ضعيفا في العصر الراشدي حيث لم تكن هناك حاجة على ما يبدو إلى مثل ذلك. فكما هو معروف إن مسجد رسول الله في المدينة المنوّرة كان في غاية البساطة من الناحية المعمارية عند تشييده، فلم يزد عن أربعة جدر شيّدت من اللبن والحجارة يعلو جزء من فضاء المسجد سقيفة من جريد النخل فوقها طبقة رقيقة من الطين؛ أما أرضية المسجد فغير مبلطة. ولا يمكن أن نعتبر زيادة عمر بن الخطاب (ﷺ) في مسجد الرسول وإن صاحب ذلك شيء من التحسين في العناصر المعمارية؛ ولا حتى التجديدات التي خضع لها المسجد النبوي الشريف في عهد الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان (ﷺ) نوع من الإشهار، وإن استعين بالبناء بخشب الساج وبالأعمدة الرخامية المنقوشة. وكذلك كان الأمر بالنسبة للمساجد التي شيّدت في المدن التي مصّرت في العصر الراشدي مثل الكوفة والبصرة في العراق ثم مسجد الفسطاط في مصر وفي غيرها من الأمصار.

والحق أن الاستعانة بالوسائل المعمارية والزخرفية كان قليلا إن لم يكن نادرا في العصر الإسلامي المبكر إذ يمكن القول أن اتجاه المسلمين كان منصرفا نحو نشر الدعوة بين غير المسلمين وكسبهم في الدخولإلى الدين الإسلامي الحنيف ولكن ليس عن طريق مثل تلك الوسائل بل عن طريق قوة الحجة وروعة الكلمة الصادقة والدعوة إلى الخير والفضيلة والمعاملة الحسنة لأهل الذمة بمختلف فئاتهم. ليس هذا فقط بل أن عظمة الإسلام كانت تظهر لسكان البلدان المفتوحة على نحو غير مباشر مثل الإستماتة في القتال وطلب الشهادة في سبيل

الله؛ إنها كانت بلا شك أعظم الوسائل في الإعلام وأجلّها عند الناس في العصر الإسلامي المبكر.

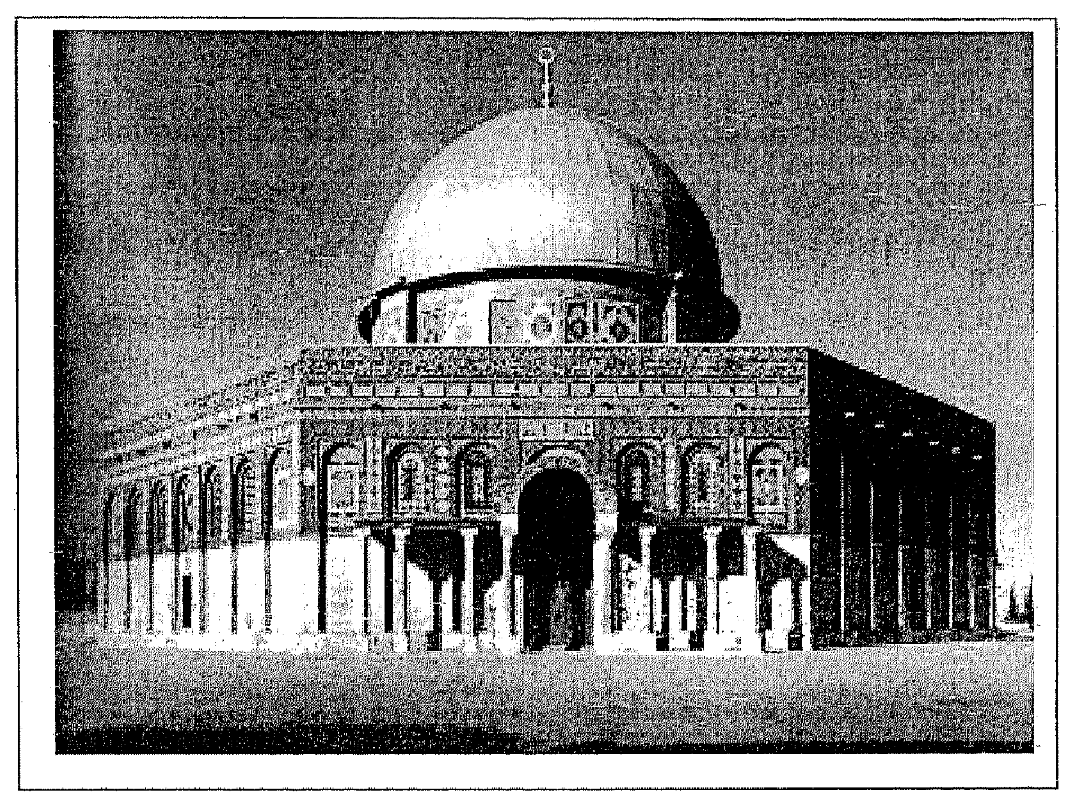
غير ان الأمر على ما يبدو بات مختلفا تماما في العصر الأموي ولاسيما في أيام خلافة عبد الملك بن مروان ثم في عهد الوليد بن عبد الملك (88-96هـ/ 705-715م). فقد لاحظ أولو الأمر بل انتبهوا إلى عظمة العمارات القائمة ولاسيما الكنائس والمشاهد المسيحية في بلاد الشام وفلسطين ومصر؛ في حين أن المساجد الإسلامية كانت بسيطة البناء جدا. لقد كان الأمرمسجدا الكوفة والبصرة في غاية البساطة فلا حجارة مصقولة مهندمة ولا تنميق ولا زخرفة فيهما من أي نوع كان؛[1] فلم يكن الهدف من بناء هذين المسجدين الجامعين عند تشييدهما غير جمع المصلين في مكان واحد خمس مرات في اليوم.

ففي سبيل إظهار عظمة الإسلام شيّد عبد الملك مسجد قبة الصخرة في بيت المقدس؛ إن هذا الصرح العظيم يعدّ ليس فقط اقدم العمارات التاريخية الإسلامية التي ما تزال شاخصة وفي قيد الاستعمال حتى يومنا هذا، بل أن البناء عند معظم مؤرخي الفنون الإسلامية له مكانة تفوق سائر العمارات الإسلامية سواء في الجمال والفخامة والرونق من الناحية المعمارية من حيث البساطة في التصميم وتناسق الأجزاء والدقّة في التصميم، أو في إبداع الزخرفة

---

(1) لقد شيّد مسجد البصرة في سنة 14 هجرية (636م) من قبل الصحابي عتبة بن غزوان أول والي على البصرة، اختطّ على قطعة ارض مستوية أحيطت بسور من القصب، بني بعد ذلك باللبن والطين. أماعن السجد الجامع في الكوفة فقد بني سنة 17 هجرية (639م)على قطعةارض مربعة الشكل يحيط بها خندق عوضا عن الجدران، وكان بيت الصلاة فيه يقوم على أساطين منالرخام جلبها المسلمون من قصر قديم قرب الحيرة
Creswell ،K.A.C. ،A Short Account of Early Muslim Architecture, Beirum 1968, (pp. 2 8- 29)

(شكل41).[1] ومع كل ذلك فإن تصميم قبة الصخرة ذات الشكل المثمن لم يظهر ثانية في العمائر الإسلامية الدينية؛ فظل هذا الصرح الشامخ فريدا في عمارته؛ والسبب في ذلك أن التصميم كان ملائما كل الملائمة ليحيط بالصخرة التي لها شيء من القدسية والاحترام عند المسلمين وكذلك عند اليهود والمسيحيين على حد سواء.[2]



(شكل41)

قبة الصخرة في بيت المقدس شيّدها عبد الملك بن مروان في سنة 72 هجرية

---

(1) من الواضح أن الغرض من تشييد هذا المسجد الجامع لم يكن لأغراض إعلامية وإنما ليكون المسجد الجامع الرئيس في بيت المقدس فقد شيّد في الموضع نفسه الذي أقيم فيه أول مسجد جامع في المدينة على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(2) زكي محمد حسن، فنون الإسلام، القاهرة، 1948، ص39-40

إن هذا الصرح الإسلامي الرائع في كل شيء، قد شيّد في الأساس على ما يبدو لأغراض إعلامية صرفة؛ فبالإضافة إلى ما كتبه بعض المؤرخين المسلمين من أن عبد الملك بن مروان أقام صرحه ليحمل الناس على الطواف حوله عوضا عن الكعبة المشرفة، كما سبق أن ذكرت، أنه قول إعلامي فيه إساءة بالغة إلى الأمويين على نحو عام ولعبد الملك بن مروان على نحو خاص أنتشر في العصر العباسي الأول وضعه أو عمل على ترويجه خصوص بني أمية. إنه ادعاء يرفضه العقل تماما. إلا أن بعض قدامى المؤرخين كتبوا أن سبب البناء كان إعلاميا ولكن من نوع آخر؛ لقد ذكروا أن الناس في العصر الأموي كانت تنبهر من عظم بناء الكنائس في المدن الكبرى في بلاد الشام وفي فلسطين ولاسيما كنيسة القيامة في بيت المقدس الصرح العظيم المشيد من الرخام المصقول والمهندم والمكسي من الداخل بروائع الرسوم عن طريق الفسيفساء الزجاجية والحجرية بمختلف الألوان، حيث كان رجال الدين من المسيحيين يدخلون في عقول الجماهير في وبلاد الشام وفلسطين حيث كانت المسيحية منتشرة، أن الإنسان غير قادر على بناء مثل تلك الكنائس الرائعة الجليلة البناء إلا بأمر أو بإرادة إلاهية لرفع رأية المسيحية عاليا.

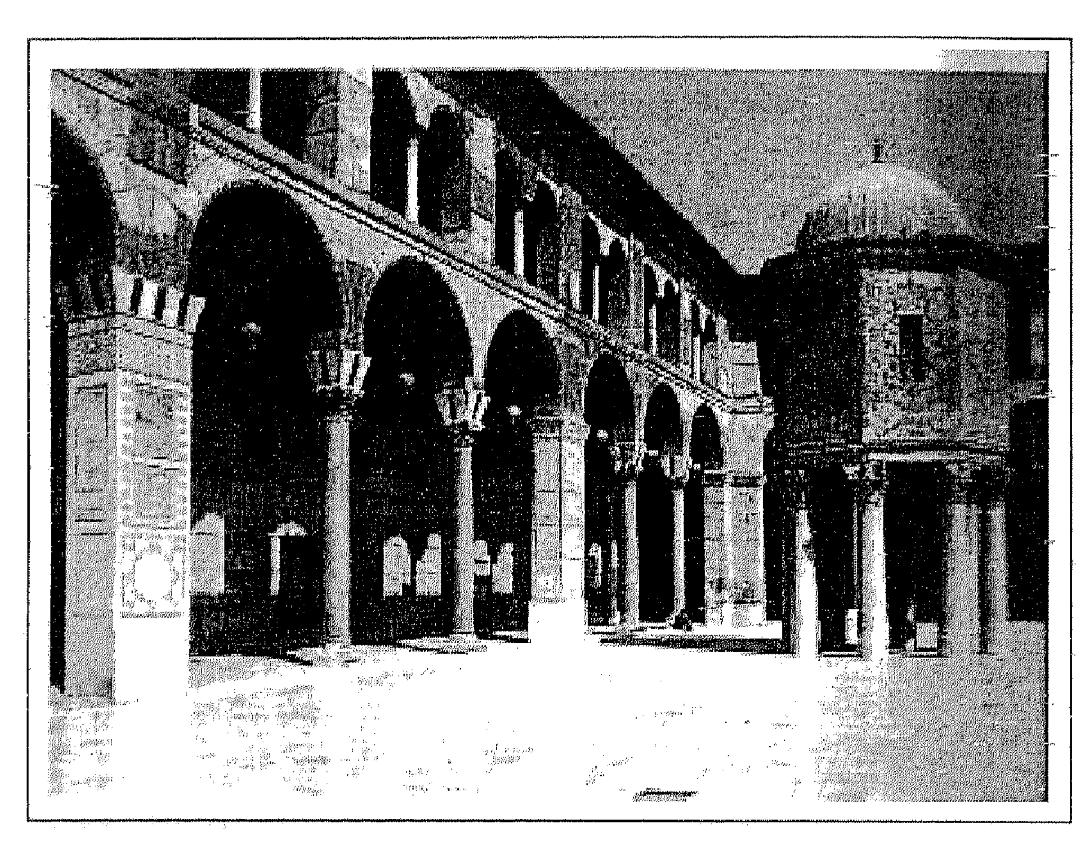
اعقب ذلك بقليل قيام عبد الملك بن مروان بتشييد المسجد الأقصى في الحرم الشريف ببيت المقدس أيضا. فلا علم لنا على نحو مؤكد كيف كان شكل المسجد في عهد عبد الملك؛ فمن المعروف أن المسجد الأقصى قد تهدم أكثر من مرة بسبب الزلازل العنيفة التي تعرضت لها مدينة القدس. ليس هذا فقط بل أن بناءه قد خضع إلى الكثير من التعديل والتجديد والإضافات عبر العهود المتعاقبة.

ويبدو أن الوليد بن عبد الملك قد سار على خطا والده في تشييد العمارات الدينة الرائعة البناء والزخرفة. لقد شيد في دمشق الجامع الأموي الشهير الذي ما

يزال قائما وفي قيد الاستعمال وعلى نحو متواصل منذ تشييده في سنة 88 هجرية (706م) وحتى يومنا هذا.

إن هذا الصرح العظيم يعد واحدا من أروع المساجد الجامعة التي شيّدها المسلمون في عموم العالمين العربي والإسلامي؛ ليس فقط بسبب روعة البناء والتصميم بل أيضا بسبب روائع الفسيفساء التي تزين أقسامه الداخلية وكذلك واجهاته المطلة على الصحن. إن فسيفساء الجامع الأموي في دمشق يعدّه مؤرخو الفنون من أروع الزخارف الفسيفسائية التي وصلت إلينا منذ القرن الأول الميلادي وطوال القرون الوسطى (شكل42).[1]

(1) Creswell ،K. A .C, Early Muslim Architecture ،London ،1938 ،Vol. I. p. 211.



(شكل42)

منظر لجزء داخلي من عمارة الجامع الأموي في دمشق الذي يعود تاريخه إلى نحو سنة 88 هجرية

ليس هذا فقط بل أراد الأمويون أن يظهرو الجماهير الناس أن المسلمين قادرين على إقامة مثل تلك العمارات التاريخية الجليلة القدر، فالدولة الإسلامية قادرة أيضا على بناء المساجد الجامعة الضخمة التي لا تقل في روعتها وزخرفتها عن الكنائس المسيحية فشيّدوا أولا مسجد قبة الصخرة في بيت المقدس ثم الجامع الأموي في دمشق وغيرها من العمائر المتميزة لإظهار عظمة الدين الإسلامي الحنيف. ولم يكتف المسلمون بذلك فابتدعوا وحدات أو عناصر

عمارية جديدة لم يكن معروف مثلها في الكنائس المسيحية أو عند اليهود أو في المعابد الوثنية القديمة؛[1] فابتدعوا بناء (المآذن) والحقوها بالمساجد.

نعم .... إن الغرض الأساس من بناء المآذن كان لإيصال صوت المؤذن إلى ابعد نقطة ممكنة داخل المدن للإعلام أو للإعلان عن أن الصلاة قد حان وقتها؛ ثم لم تلبث أن صارت المآذن منذ ذلك الزمن وحتى وقتنا هذا عنصرا معماريا إعلاميا مهما ورمزا من رموز الإسلام، فلا نجد مسجدا يشيّد في أي مدينة إسلامية إلا وتقام لصقه أو ضمن حدوده مئذنة واحدة أو أكثر على الرغم من أنها باتت في أيامنا هذه معدومة الفائدة وظيفيا بسبب أن مكبرات الصوت الكهربائية بات تقوم بإيصال صوت المؤذن إلى الناس في كل مكان وعلى نحو أفضل من السابق. وهكذا يمكن القول أن الغرض من إقامة المآذن لم يكن فقط أيصال صوت المؤذن إلى الناس بل أن لها أيضا وظيفة إعلامية مهمة. وكما هو معروف كان رسول الله (ﷺ) يأمر الصحابي بلال الحبشي (ﷺ) بالأذان من فوق سطح بيت مرتفع قريبا أو ملاصقا للمسجد في المدينة المنوّرة؛ غير أنه لم يأمر بتشييد مئذنة.

لقد كانت المآذن تشيّد في بداية أمرها في شكل برج يكون ملحقا بالمسجد متأثرين بذلك ببعض أبراج الكنائس التي كانت منتشرة في بلاد الشام ولاسيما في مدينة دمشق. وقد كان أول ظهور للمآذن في العمارة الإسلامية عندما أمر الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان عامله على مصر عتبة بن غزوان بتشييد مئذنة

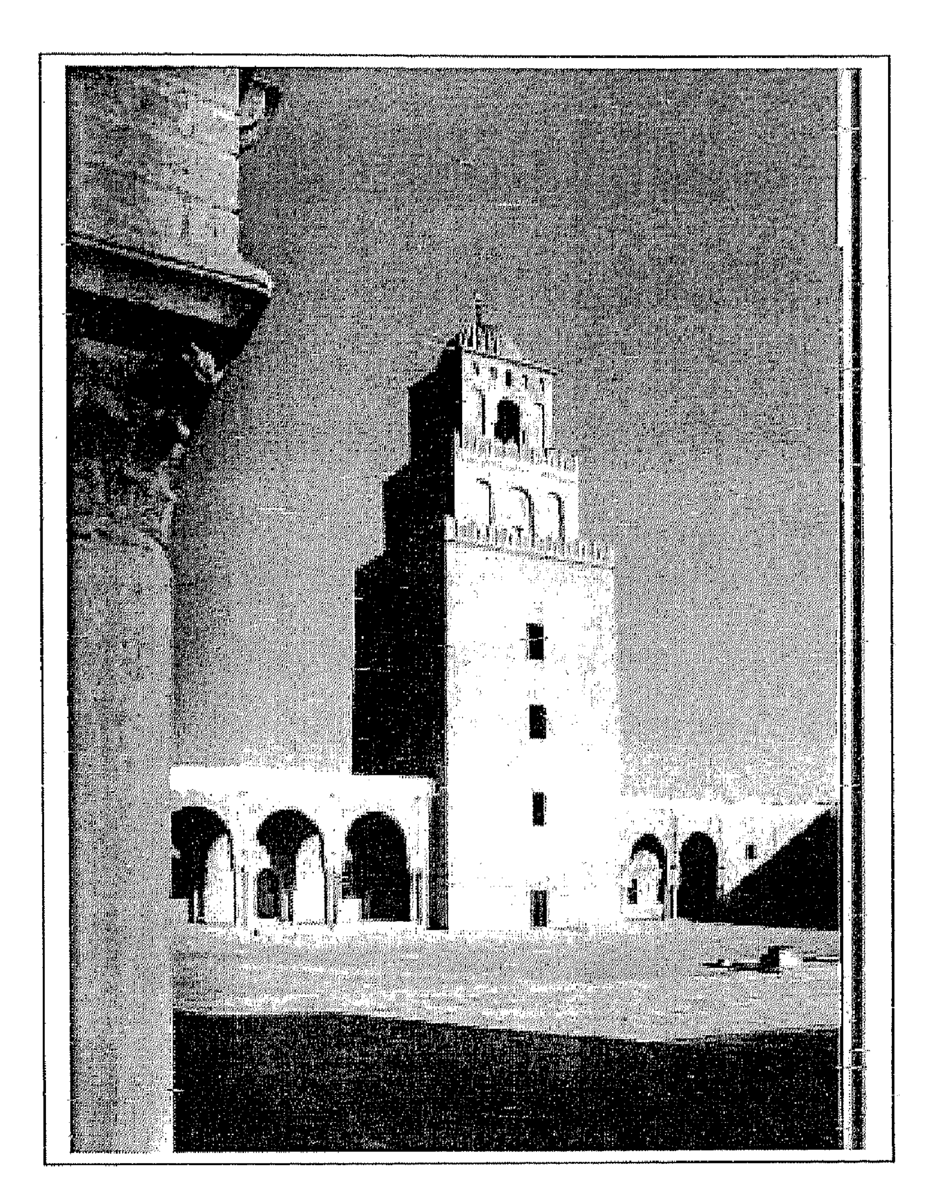
---

(1) كانت هناك وما تزال أبراج صغيرة تلحق بالكنائس يثبت في أعلاها ناقوسا كبيرا يدق به أحد الرجال العاملين في الكنيسة عندما يراد الإعلان عن حدث معيّن مثل الدعوة إلى صلاة يوم إلا حد أو الإعلان عن بعض الأعياد أو تنصيب ملك جديد للبلاد وما شابهة ذلك من الأحداث.

واحدة أو أكثر عندما جدّد بناء مسجد عمرو بن العاص في الفسطاط في سنة 50 هجرية (650م)؛ المسجد الذي لم يعد له وجود في الوقت الحاضر؛ ثم لم تلبث المآذن أن انتشرت في عموم العالم الإسلامي.

وتعد مئذنة جامع (سيدي عقبة) في القيروان التي أقيمت لصق الزاوية المسجد الشمالية الغربية للمسجد في عهد خلافة هشام بن عبد الملك (105-125هـ/ 724-743م) نحو سنة 105 هجرية (724م) أقدم مئذنة ما تزال قائمة في العالم الإسلامي اليوم.[1] أن أي شخص يلقي نظرة فاحصة على هذه المئذنة الضخمة المكوّنة من ثلاثة مكعّبات بنائية متراكبة يدرك تماما أن الغرض من إقامتها كان إعلاميا قبل أن يكون الهدف منها أيصال صوت المؤذن إلى كافة أرجاء مدينة القيروان التي كانت مدينة صغيرة في ذلك العهد شيّدها المسلمون لتكون معسكرا لجنودهم عند الفتوحات (شكل43).

(1) أقيم هذا المسجد الجامع في المدينة التي مصّرها القائد العسكري عقبة بن غزوان في سنة50 هجرية (650م)، بعد قيامه بتحرير لمعظم ما كان قد تبقى بيد البيزنطيين من المغرب الأقصى. ثم هدّم وأعيد بنائه في عهد عبد الملك بن مروان في سنة 76 هجرية (675م)، ثم وسّع في أول عهد هشامبن عبد الملك في سنة 705 هجرية وأضيفت إلى البناء مئذنته الحالية مع أن جزؤهاالأعلى ربما يعود إلى القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.



(شكل43)

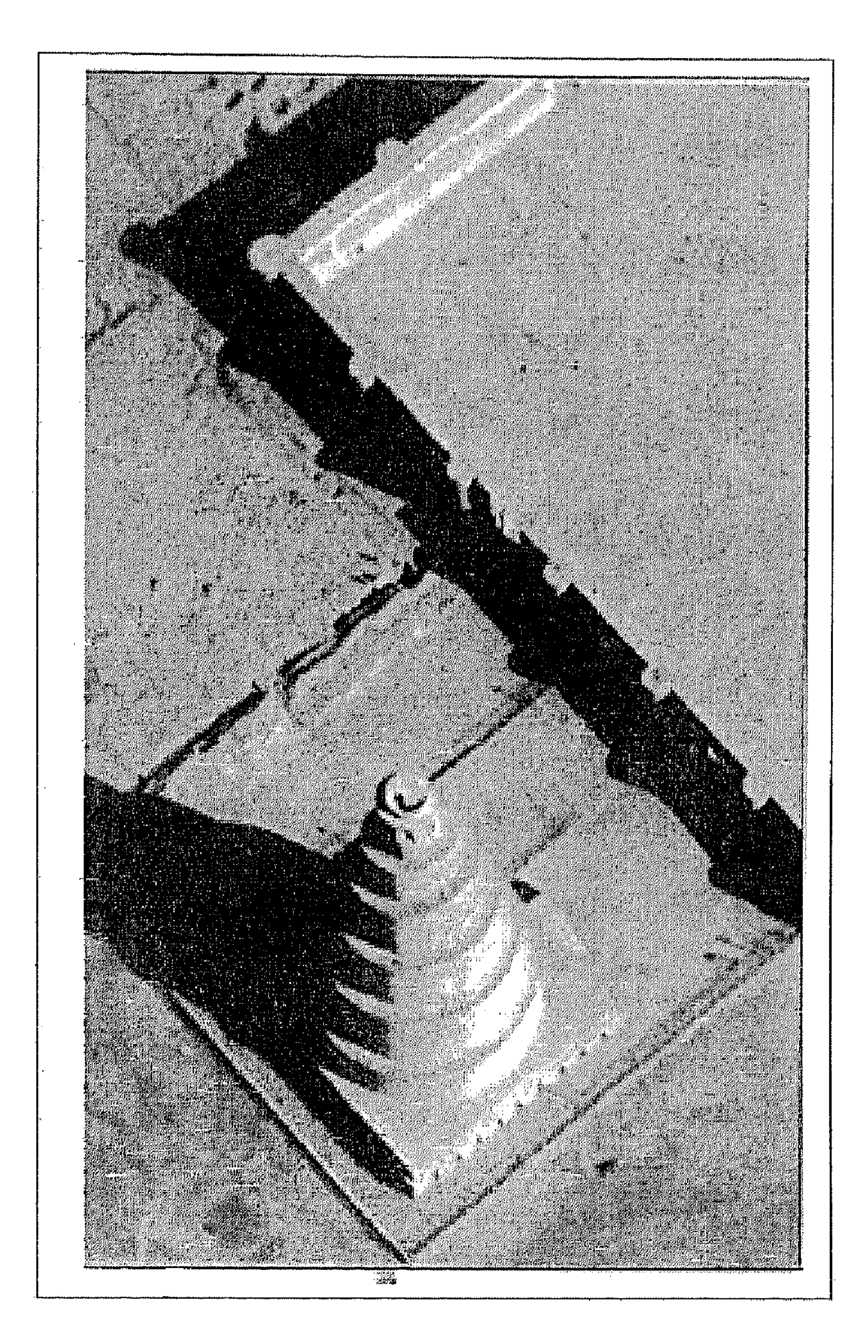
مئذنة جامع (سيدي عقبة) بالقيروان من عهد هشام بن عبد الملك

شيّدت لحو سنة 105 هجرية (724م)

وإذا تركنا المغرب الأقصى وشأنه وانتقلنا إلى الأقاليم المشرقية لابد من أن ينبهر المشاهد من شكل وضخامة المئذنتين اللتين أقيمتا في مدينة سامراء في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. إن كل واحدة من تلك المئذنتين قد التحقت بواحد من المسجدين الجامعين الكبيرين اللذين أقام صرحهما الخليفة المتوكل

علـى الله (232–247هـ/ 847–861م)؛ الأول في سـامراء شـيّد نحـو سـنة 235 هجرية (850م)؛ والثاني في مدينة (المتوكليّة) التي تبعد نحو عشرين كيلـومترا إلى الشمال من سامراء الحالية شيّد نحو سنة 245 هجرية (860م).

إن المئذنتين متشـابهتان مـن حيـث التصـميم والمـواد الداخلـة في بنائهمـا فكلاهما حلزونيتي الطراز؛ غير أن المئذنة الأولى أكبر من الثانية وكـذلك الجـامع الكبير في سامراء الذي تبلغ مساحته الداخلية نحو ثلاثة وثلاثين ألفا من الأمتـار المربعة باستثناء الزيادات التي ضاعفت مساحته؛ المسجد الجامع الـذي كـان يعـد حتى أواخر القرن العشرين أكبر مسجد جامع إسلامي في العالم (شكل44).



(شكل44)

صورة لمئذنة الجامع الكبير في سامراء مع جزء يسير من الجدار الشمالي للجامع.
النصف الأول من القرن التاسع الميلادي. تصوير الهيئة العامة للآثار والتراث العراقية

إنّ هذه المئذنة الحلزونية الطراز تلف خمسة لفات عكس سير عقارب الساعة لتنتهي بقمة أو راس صغير؛ ترتفع المئذنة عن الأرض المحيطة بـاثنين

وخمسين مترا وتقوم على قاعدة مربعة مساحتها 2500 مترا مربعا (شكل45)؛[1] تبتعد بنحو خمسين مترا من منتصف الجدار الشمالي للجامع.

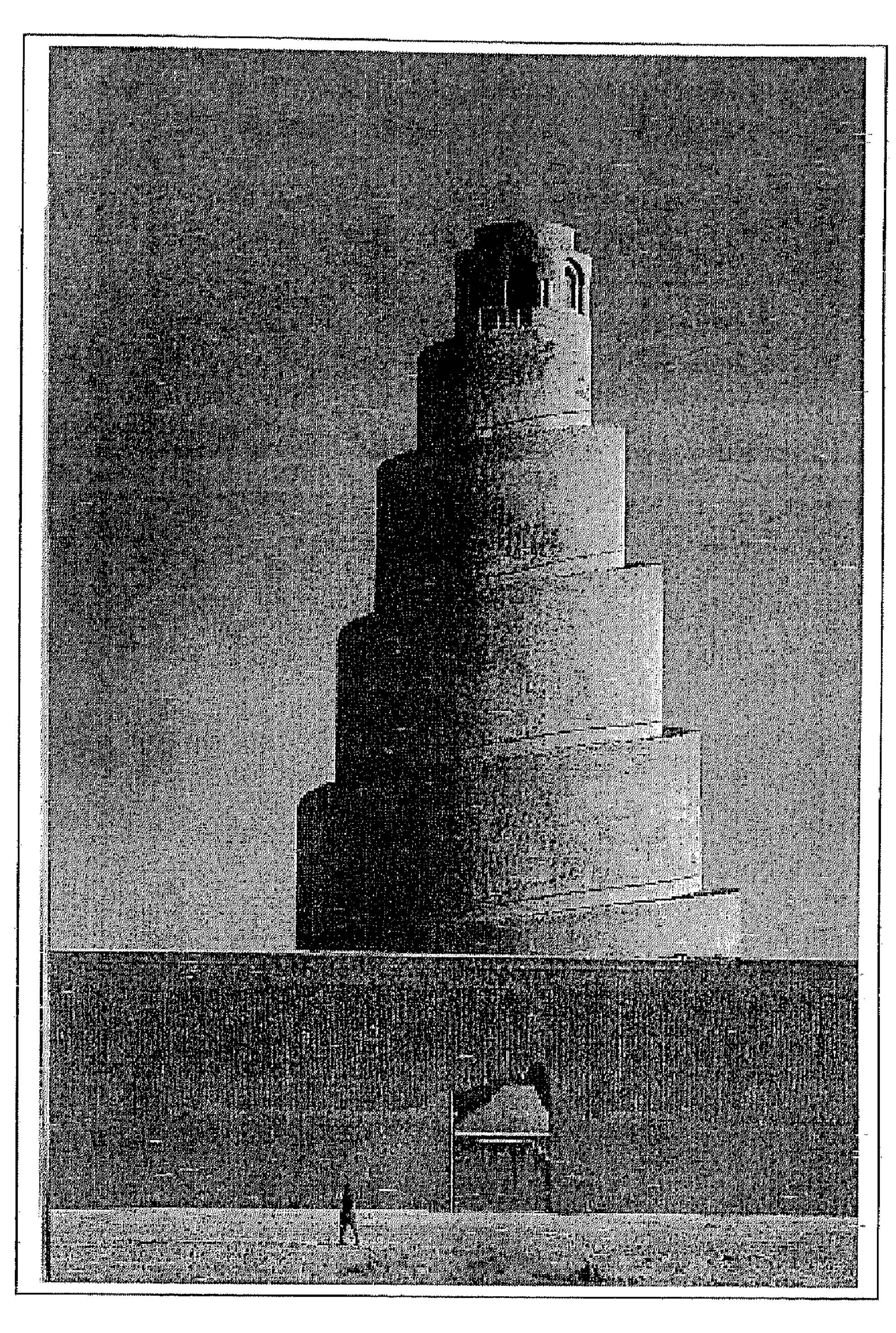
أما المئذنة الثانية الملحقة بالمسجد الجامع الثاني الخاص بمدينة (المتوكليّة) الواقعة على بعد نحو عشرين كيلومترا إلى الشمال من سامراء الحالية؛ فهي الحلزونية أيضا إلا أنها أصغر قليلا من المئذنة الأولى؛ إنها تلف ثلاث لفّات عكس عقرب الساعة.

ومن الواضح أن الغرض الأساس من بناء هاتين المئذنتين كان مزدوجا؛ فإلى جانب إلاذان والدعوة إلى الصلاة لأبعد مدى ممكن، أراد المتوكل على الله أن يبهر ليس أصحاب الديانات الأخرى كما كان عليه الأمر في العصر الأموي ولكن بل عموم الناس في سامراء وربما في غيرها من المدن والإقليم إشهارا بعظمة وقوة الخلافة العباسية أمام الخصوم المعترضين على السلطة العباسية ولاسيما أبناء عمومتهم العلويين الذين كانوا يخرجون عليهم ويعلنون الثورة من أونه لأخرى. هذا من جهة ومن جهة أخرى أراد الخليفة من الناحية الإعلامية أيضا إظهار قوته الشخصية وسيطرته على مجريات الأمور.

ومهما يكن من أمر ذلك فقد ظلت المآذن تتخذ كوسيلة إعلامية مهمة تدل على عظمة الدولة وقوتها حتى بعد انتهاء العهد العباسي في العراق. ليس هذا فقط بل يشمل ذلك أيضا الأقاليم التي لا تنضوي تحت مظلة تلك الأسرة البعيدة عن العراق وبلاد الشام، وخير مثال على ذلك المآذن المهولة التي شيدها بعض سلاطين دلهي في شبه القارة الهندية والتي لا تتماشى من حيث الضخامة حتى مع المساجد التي شيّدت من أجلها.

---

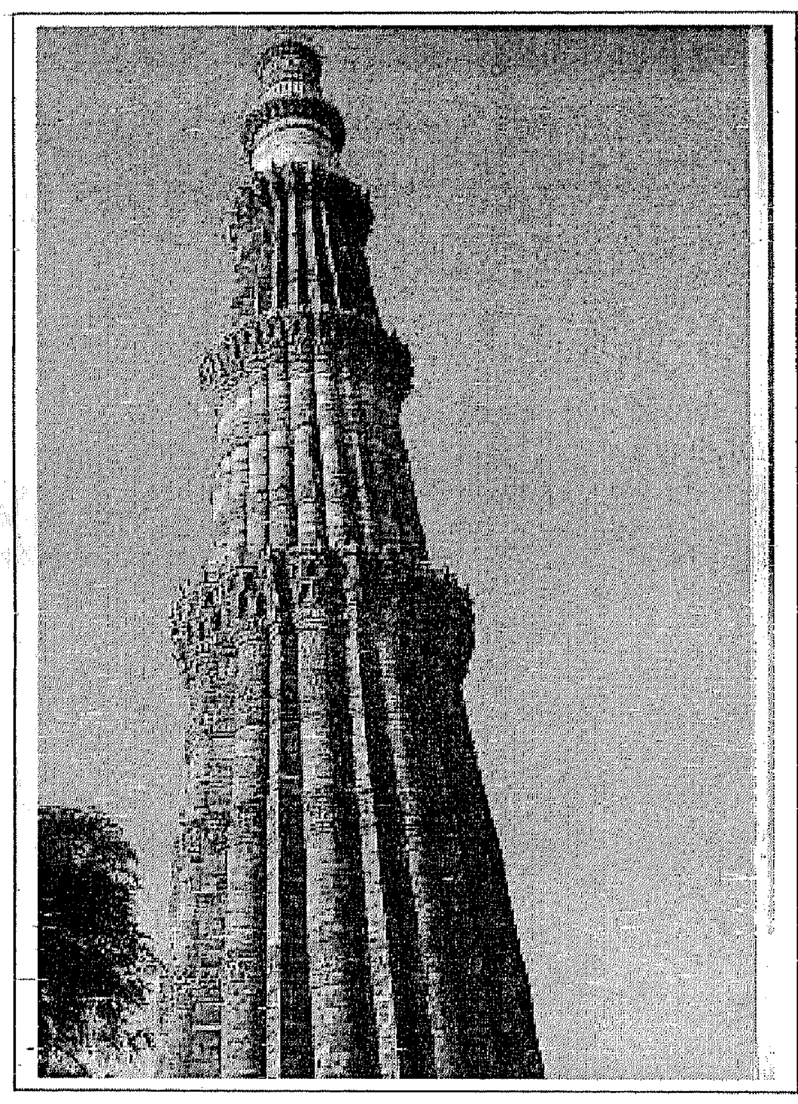
(1) ولهذا السبب باتت المئذنة تعرف بين الناس في الوقت الحاضر بـ(الملوية).



(شكل45)

مئذنة الجامع الكبير غي سامراء. شيّدها المتوكل على الله
في أواسط القرن التاسع الميلادي

وخير مثال على ذلك المئذنة التي أقامها في مدينة دلهي السلطان **قطب الدين أيبك** (602-607هـ/ 1206-1210م) لصق جامع (**قوة الإسلام**) التي لم ينجز بناءها إلا في عهد ولده **التمش شمس الدين الأول** (607-633 هـ/ 1210-1235م). إن المئذنة قائمة حتى يومنا هذا وفي حالة ممتازة من الحفظ والتي تعرف بين الناس باسم (قطب منار) نسبة للسلطان قطب الدين أيبك.



(شكل46)

الجزء العلوي من مئذنة (قطب منار) في دلهي تعود إلى أوائل القرن الثالث عشر الميلادي

إن مئذنة (**قطب منار**) تعد واحدة من أفخر وأفخم وأغرب المآذن التي شيّدت في ظل الإسلام على الإطلاق. يبلغ ارتفاعها اثنان وسبعين مترا ونصف، وعرض قاعدها أربعة عشر مترا. تتكون المئذنة من عدة طبقات؛ طبقاتها الثلاث السفلية من الحجر الاحمر، أما الطبقات العليا فمن الرخام الأبيض، وتكسو واجهاتها المضلّعة بحور من الشرائط الكتابية بقلم الثلث فضلا عن أشرطة من سائر الزخارف المعمارية الإسلامية (شكل46).

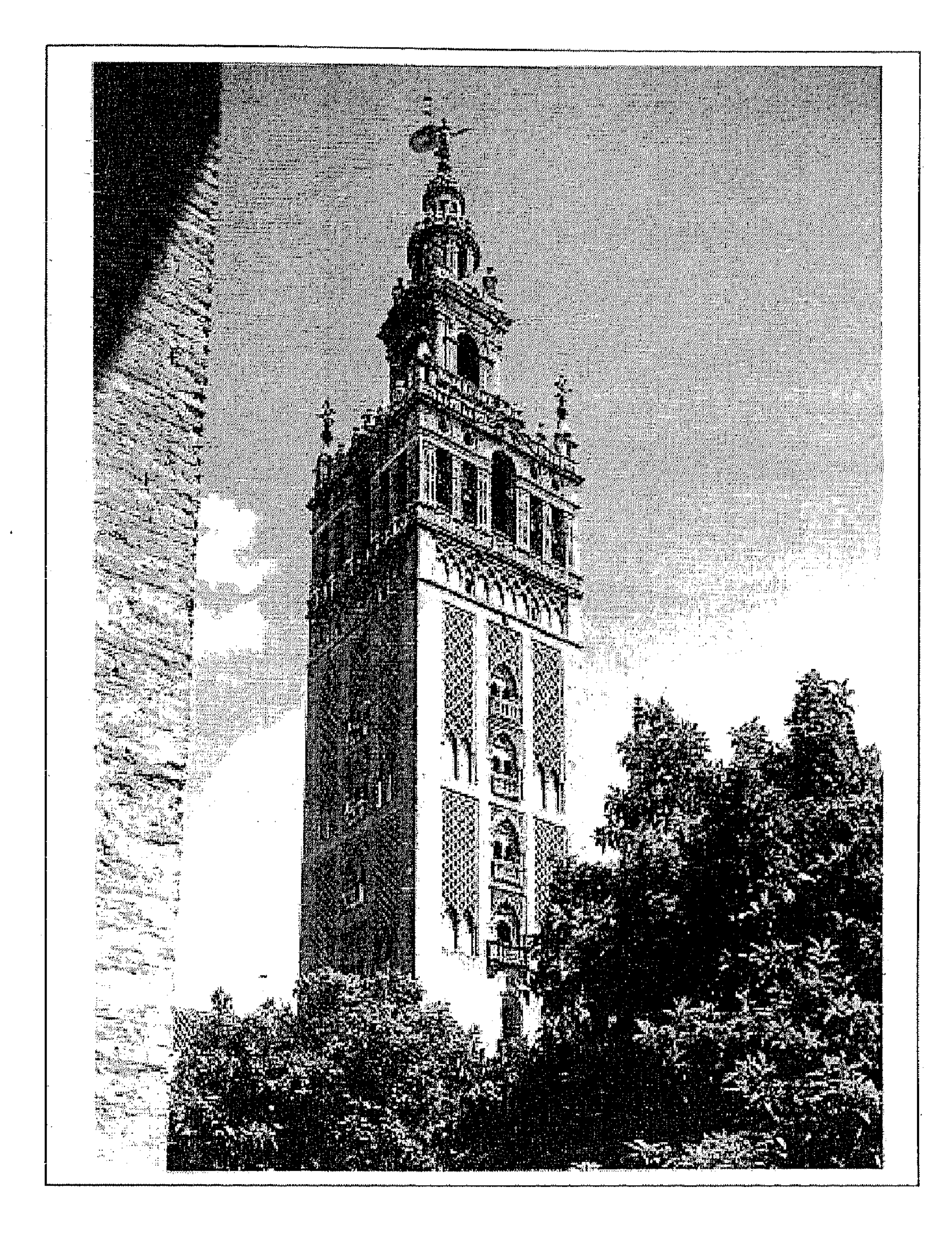
ولا غرابة في أن يشيّد مثل هذا الصرح الإسلامي الفاخر في الهند حيث كان ولا يزال الهندوس غير المسلمين يشكلون في تلك المدينة أغلبية السكان؛ وعلى ذلك فليس من المستغرب أن يقوم السلاطين المسلمين في عمل أي شيء ليبهروا به السكان في سبيل تشجيعهم على اعتناق الدين الإسلامي الحنيف؛ وعلى ذلك لم تقتصر الطرق التي اتبعت للوصول إلى ذلك الهدف بالإقناع الشخصي والأغراء بل أردوا أيضا أن يستغلوا المشاهدة والنظر كوسيلة من وسائل الإعلام في سبيل نشر الدين الإسلامي الحنيف في تلك البقاع من العالم التي كانت ولا تزال الغالبية العظمى من السكان أميين.

ولم يختلف الأمر كثيرا في إسبانيا فالمسلمين بما فيهم العرب لم يكونوا ليشكلوا في أوج ازدهار الحضارة العربية هناك إلا جزءا يقل عن الربع بالنسبة إلى عموم سكان شبه القارة الإسبانية. وحتى في بلاد الأندلس نفسها فإن نسبة المسيحين كانت عالية جدا، كانوا يشكلون فيها أيضا أكثرية السكان. وبما أن الدين الإسلامي دينا تبشيريا فمن البديهي والحالة هذه أن يعمد أولو الأمرمن المسلمين في بلاد الأندلس إلى مختلف الوسائل الإعلامية والإشهارية المتاحة لهم في سبيل إقناع المسيحيين من سكان البلاد أو على الأقل شريحة كبيرة منهم إلى الدخول في الدين الإسلامي.

لقد بدأ اهتمام العرب المسلمين بالتأثير على السكان الأصليين من المسيحيين ومحاولة اجتذابهم للدخول في الدين الإسلامي. ومن الواضح أن الاهتمام بجذب السكان إلى الدين الإسلامي قد بدأت مع الفتح الأول؛ أي منذ أيام موسى بن نصير (ت 761م) وطارق بن زياد (738م)؛ ويبدو أن الدعوة إلى الإسلام قد بلغت درجة عالية من التقدم بعد دخول عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) (138- ض72هـ/ 756-788م) إلى بلاد الأندلس ليعيدوا فيها الحكم إلى الأسرة الأموية، وازدادت قوة الأمويين فيها لاسيما بعد أن أعلن عبد الرحمن الثالث (300-350 هـ/ 912-961م) سادس أمراء تلك الأسرة خليفة أو أميرا للمؤمنين في تلك البلاد.

وكانت بلاد الأندلس قد بلغت أوج عظمتها في عهد عبد الرحمن الناصر ولاسيما العاصمة (قرطبة) فأعيد في عهد خلافته تشييد جامع قرطبة الذي يعد اليوم واحدا من أعظم المساجد الإسلامية في عموم العالم الإسلامي ومن أعظم المعالم الأثرية في إسبانيا؛ وقد كان هذا المسجد الجامع علما من أعلام العمارة الإسلامية في عموم بلاد الأندلس. لقد فاق من حيث البناء والعناصر الزخرفية المعمارية كافة الكنائس المسيحية في عموم بلاد الأندلس على نحو خاص وفي عموم إسبانيا على وجه عام. ليس هذا فقط بل شيّد عاصمة جديدة ليست بعيدة عن قرطبة سميت بمدينة (الزهراء) صرف الناصر على بنائها مبالغ مهولة من المال.

ومن البديهي أن يولي الأندلسيون اهتماما بالغا بالمآذن لاسيما أنه لم يكن في العمارة المسيحية ما يماثلها حيث أن أبراج النواقيس في الكنائس تعد شيئا بسيطا جدا إذا ما قورنت بالمآذن الأندلسية. وقد ترك لنا العرب الأندلسيون العديد من المآذن الرائعة. ومن أعظم الأمثلة

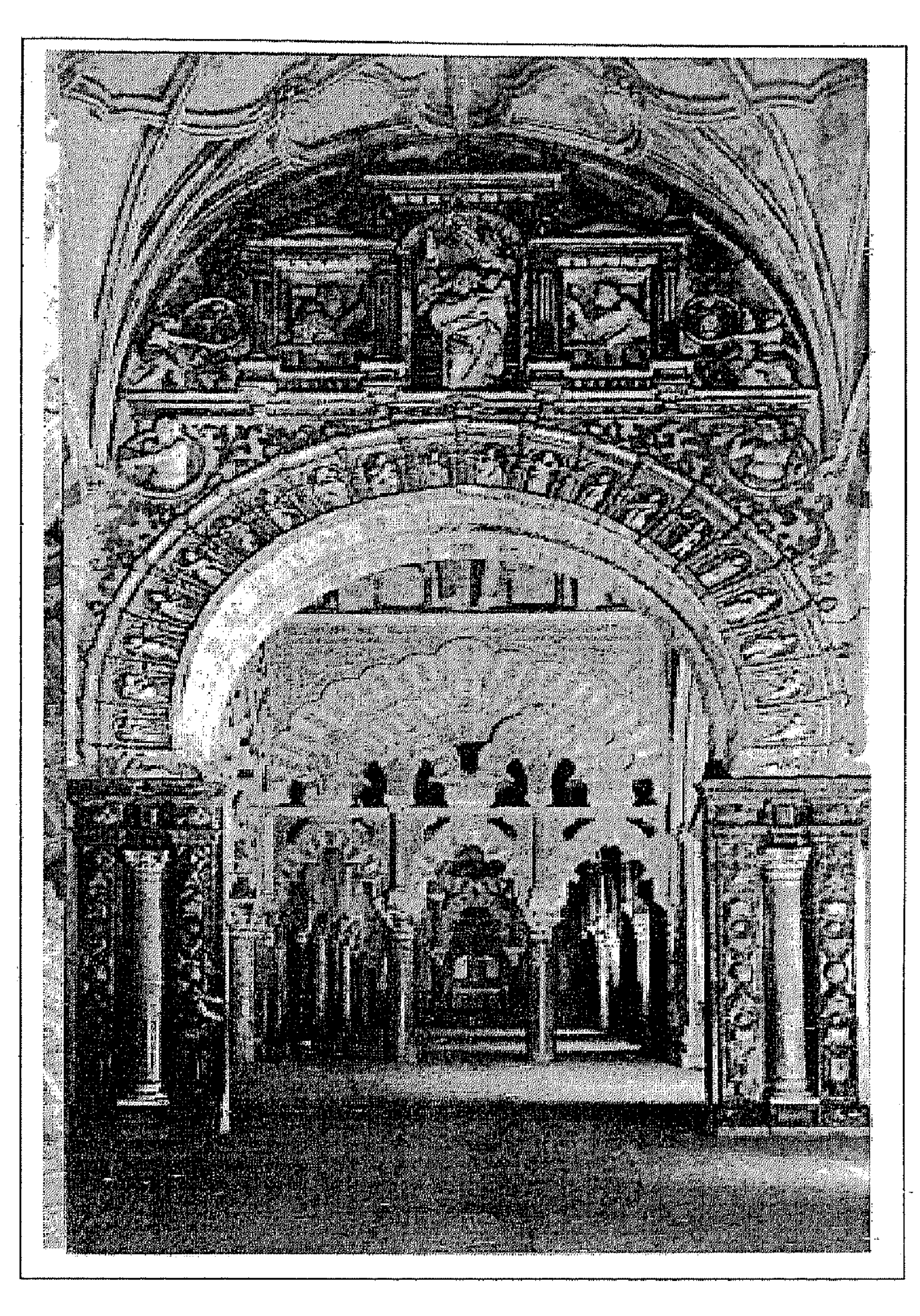


(شكل47)

مئذنة الجامع الكبير في مدينة أشبيليا التي تعرف في الوقت الحاضر بـ(الجيرالدا)

على المآذن الأندلسية المتميزة مأذنتان. الأولى هي مئذنة المسجد الجامع في مدينة (أشبيليا) التي شيّدت مع الجامع في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. ومن حسن الحظ أن الإسبان بعد احتلالهم لأشبيليا في القرن الرابع عشر الميلادي لم يخربوا هذا الصرح العربي الشامخ ولا المئذنة بل حولوا المسجد الجامع إلى كاتدرائية وجعلوا من مئذنته البرج الرئيس لتلك الكنيسة، وقد عرفت منذ ذلك الزمن بـ(الجيرالد) la Geraldo (شكل47).

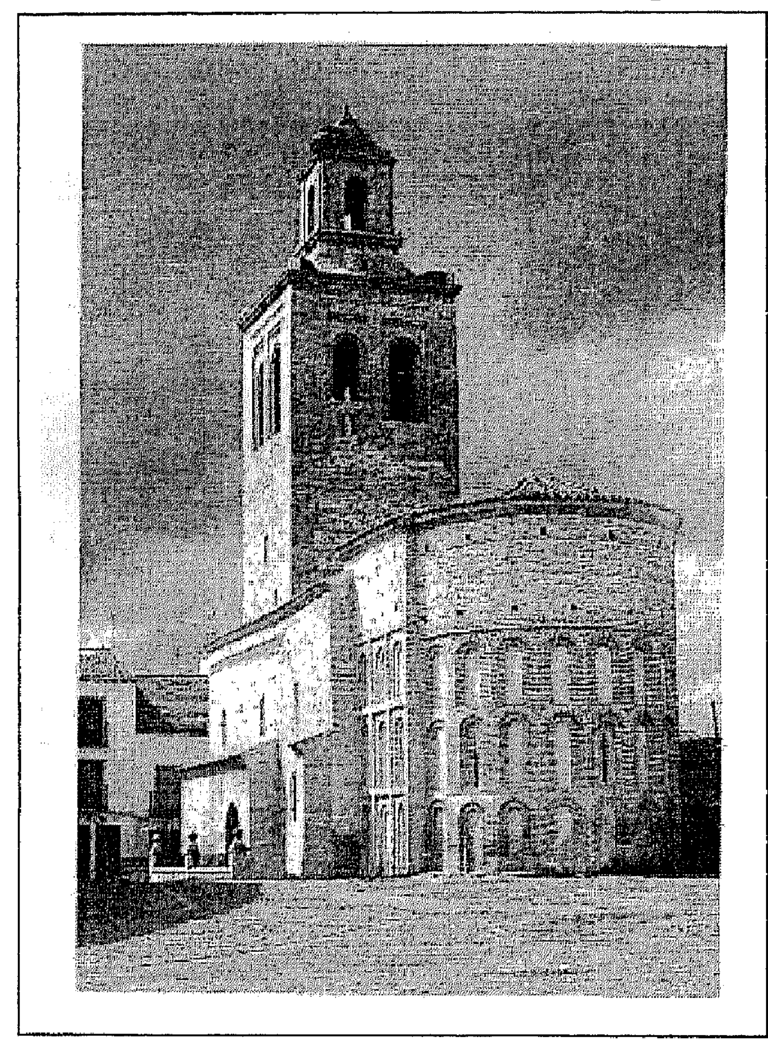
وكان الإسبان قد قاموا بتقليد الكثير من التصاميم الخاصة بالأقسام الداخلية للقصور والمساجد التي كانت مقامة في المدن الأندلسية ولاسيما في مدينة قرطبة بعد أن استرجعها الإسبان في القرن الرابع عشر الميلادي. ليس هذا فقط بل يلاحظ أن عددا ليس بالقليل من الكنائس قد شيّدت على غرار المساجد الإسلامية، مثل كنيسة ليوسرنا ريو Luvernario في قرطبة التي أقيم صرحها في القرن الرابع عشر (شكل48).



(شكل48)

الأقسام الداخلية من كنيسة ليوسرناريو في قرطبة تعود إلى القرن الخامس عشر

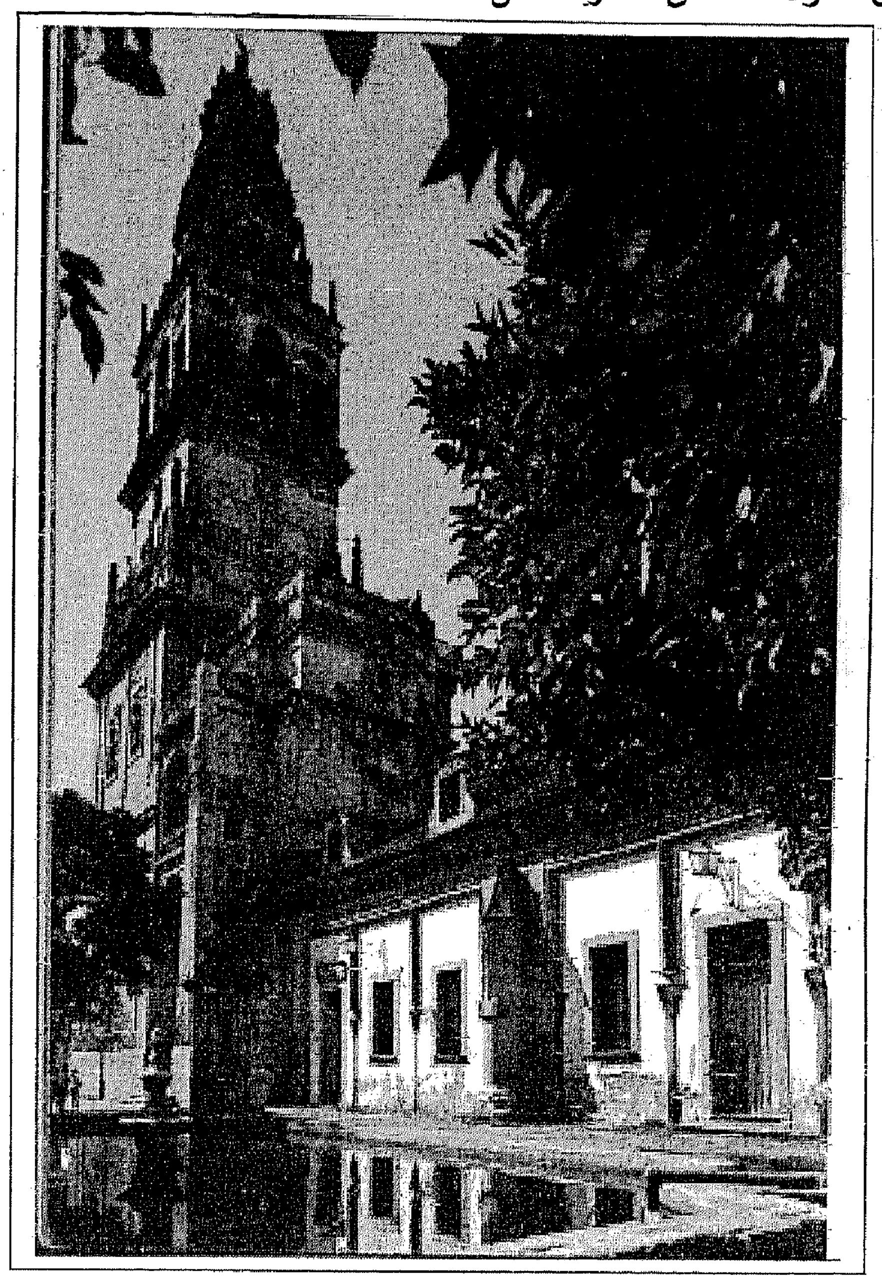
ومهما يكن من تلك المباني فمما لاشك فيه أن أعدادا كبيرة من الإسبان قد دخلوا في الدين الإسلامي الحنيف؛ ولكن حال انتهاء الحكم العربي الإسلامي في بلاد الأندلس اجبر معظم هؤلاء على العودة إلى المسيحية مجددا بالإضافة إلى إجبار الكثير جدا من العرب المسلمين الأندلسيين بالتنصر وترك الإسلام ولم يكن بيد هؤلاء أدنى حيلة ومحاكم التفتيش كان قائمة والمحارق بالنار المستعرة كانت جاهزة.



شكل(49)

كنيسة سانتا-ماريا في الريفالدو شيّدت في القرن الخامس عشر

ومن الأمثلة على هذه الأبراج الخاصة بالكنائس التي قلدت فيها المآذن الأندلسية برج كنيسة سانتا ماريا في مدينة الريفالدو في وسط إسبانيا التي يعود بناؤها إلى القرن الخامس عشر (شكل49).

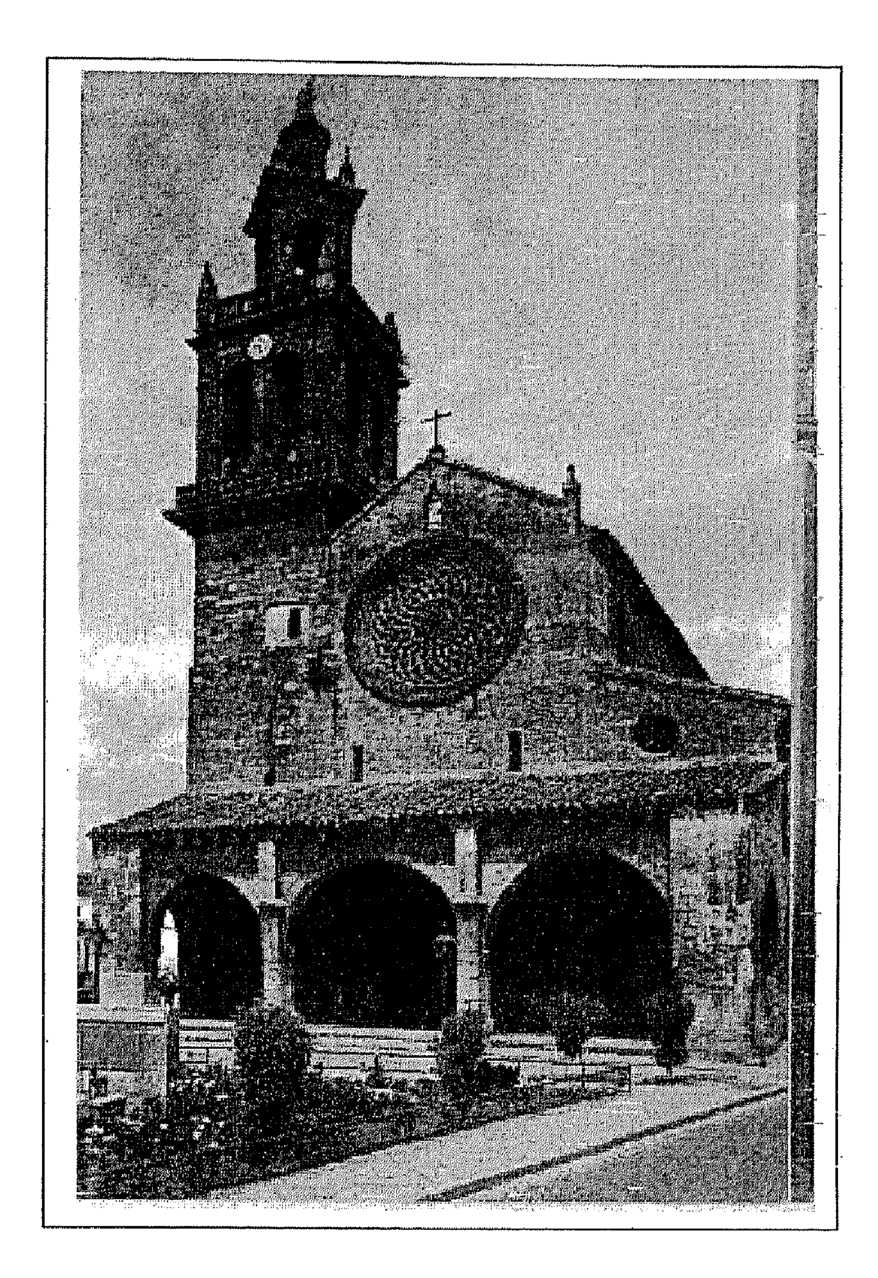


(شكل50)

برج كاتدرائية مدينة قرطبة تعود إلى القرن الرابع عشر

وكذلك برج كاتدرائية مدينة قرطبة التي أقامها الإسبان بعد إعادة احتلال المدينة من قبلهم في القرن الرابع عشر (شكل50). وكذلك إقامة برج كنيسة سانت لورنزو في المدينة نفسها على النمط الإسلامي الخالص (شكل54).

ومع ذلك فقد كان إعجاب الإسبان شديدا بالمآذن الإسلامية ولاشك أنهم قد أدركوا أهميتها الإعلامية وأثرها في نفوس الجماهير سواء كانوا من المسلمين أو من أصحاب الديانات الأخرى فعملوا جاهدين في تقليدها فقاموا بتشييد أبراجا مماثلة لها والحقوها بكنائس. ليس هذا فقط بل الذين قاموا ببنائها لهم هم من العرب المدجنين الذي ظلوا في بلاد الأندلس بعد مغادرة آخر السلاطين العرب محمد الخامس إلى الشمال الأفريقي.

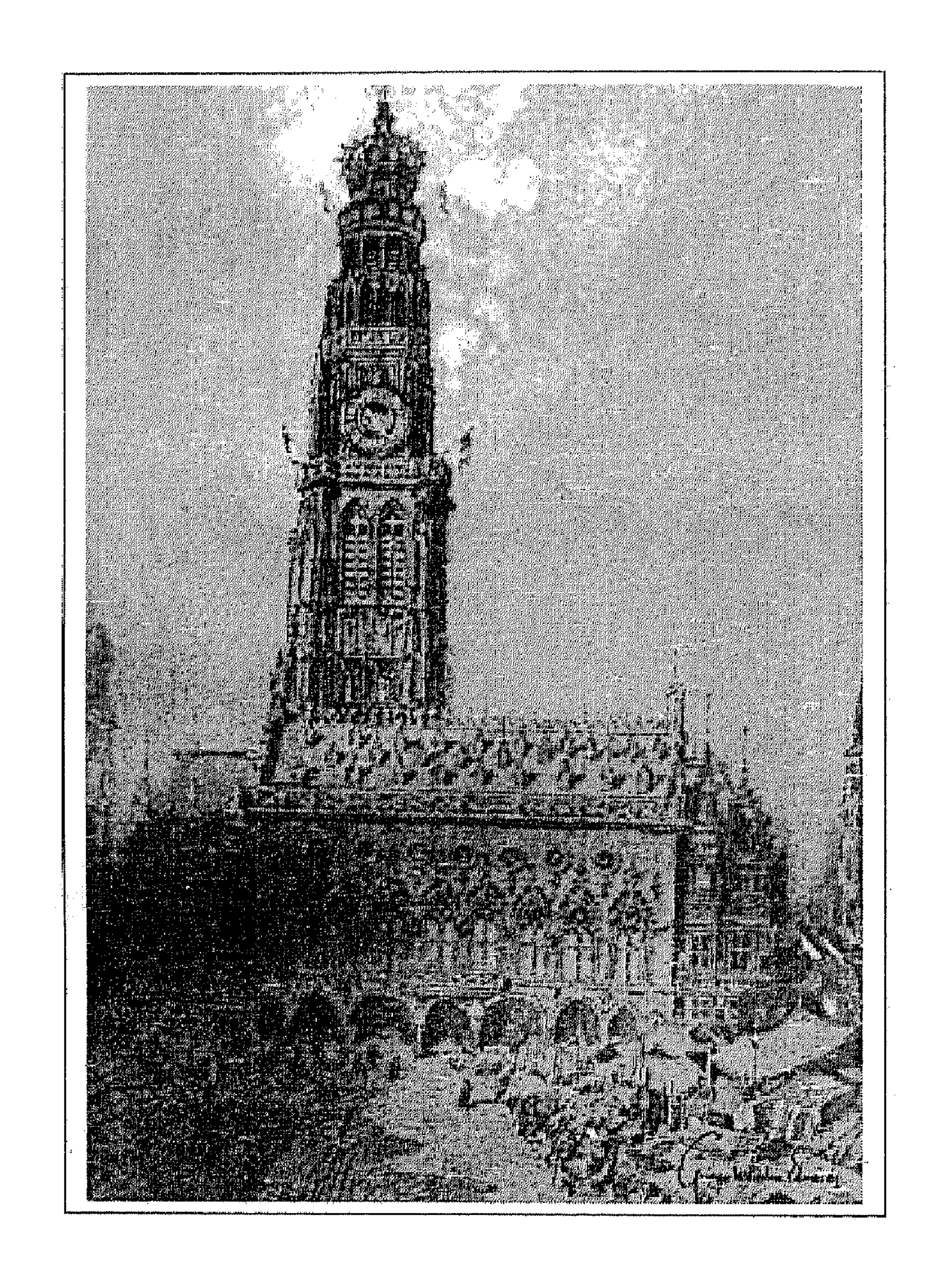


(شكل-51)

واجهة كنيسة سانت لورنزو في قرطبة مع برج الأجراس التابع لها

القرن الخامس عشر

ولم يقتصر أمر تقليد المآذن الإعلامية على بلاد الأندلس بل انتقل ذلك بسرعة إلى عدد من المدن الأوربية الأخرى وعلى نحو خاص في إيطاليا وفرنسا. من الأمثلة على ذلك في فرنسا.

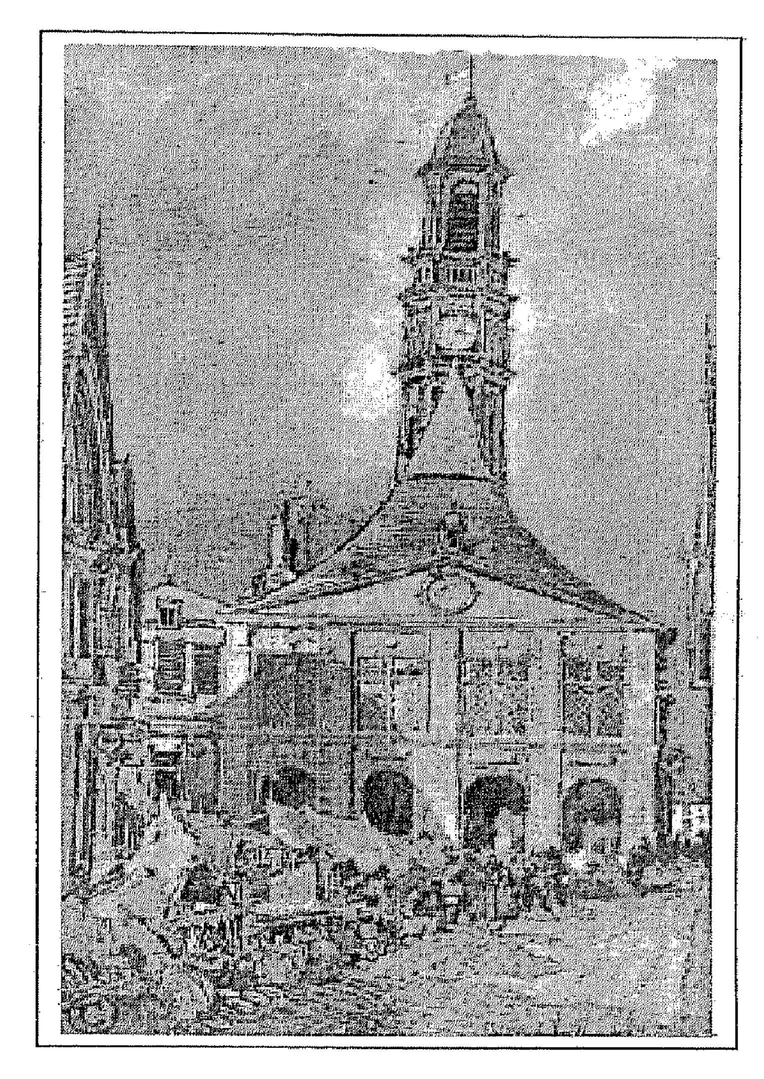


(شكل52-)

برج دار البلدية بمدينة آراس في وسط فرنسا يعود إلى القرن الرابع عشر

عن: G. W. Edwards

نجده ممثلا في برج دار البلدية بمدينة (أراس) Arras في وسط فرنسا الـذي لم يعد له وجود في الوقت الحاضر (شكل52).[1]



(شكل53)

برج كنيسة (سانت جين) المشيّدة في القرن السادس عشر

عن: **G. W. Edwards**

---

(1) Edwards, George W., Vanished Halls and Cathedrals of France, London, 1917, p. 18

وكذلك كنيسة (سانت جين) في مدينة بيرون Peronne الواقعة على ضفة نهر السوم Somme في شمال فرنسا التي تعود إلى القرن السادس عشر. لقد نسف هذا البرج والكنيسة وكذلك أوتيل دي فيل de Ville القديم الذي يتقدّم الكنيسة وهو من مباني القرن السادس عشر الذي وردت الكثير من الإشارات إلية في عهد النبلاء قبل الثورة الفرنسية في سنة 1789 ميلادية، كان الجيش الألماني قد نسفه بالديناميت في سنة 1917 عند انسحابهم من الأراضي الفرنسية قبيل نهاية الحرب العالمية الأولى، فلم يعد للكنيسة أو البرج القديم وجود في الوقت الحاضر (شكل 53).

الفصل الثامن

الإعلام عن طريق الاستعراض والمهرجانات الجماهيرية

الفصل الثامن

الإعلام عن طريق الاستعراض والمهرجانات الجماهيرية

من البديهي أن لا يقتصر الإعلام الخاص بالدولة على المظاهر المعمارية وإنما كانت الدول تستغل جميع الوسائل الإعلامية المتاحة لها في سبيل تحقيق ما تريد إيصاله إلى الرعية من معلومات تهمها اطلاعهم عليها. فإذا أرادت السلطة على سبيل المثال أن تكسب رضا جماهير الناس ولاسيما العامة منهم تعمد إلى رفع الضرائب جزئيا أو تخفيض المكوس أو إلغاءها لاسيما غير الشرعية منها. وكذلك تهتم اهتماما خاصا بكري الأنهار أو رصف الطرق أو صيانة الجوامع وما شابه ذلك من أمور. أما إذا أرادت أن تظهر للناس عظمة الدولة وقوتها فهي تحرص أن يكون الإعلام موجها على نحو مغاير في الأسلوب. وربما أن من أهم تلك الوسائل أو الطرق التي كانت تتبعاها في سبيل الوصول إلى ذلك الهدف ولاسيما في العصر العباسي والفاطمي في مصر إقامة المهرجانات والمشاهدة المباشرة، أو عن طريق الاستعراضات العسكرية ببعض المناسبات الخاصة.

من تلك الاستعراضات والمهرجانات المهمة الميكرة تلك التي أقيمت في حاضرة الخلافة العباسية سامراء في أواسط القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. لقد أفادنا المؤرخون انه عندما تمكن الجيش العباسي بقيادة القائد العسكري (الافشين) القضاء على ثورة المدعو (بابك الخرّمي) في أيام خلافة المعتصم بالله (218-227هـ/ 833-842م): الثورة التي استمر أوارها مشتعلا زهاء خمس عشرة سنة وراح ضحيتها نحو مئة الف إنسان. لقد جيء بهذا المارق عن الإسلام أسيرا إلى سامراء في سنة 222هجرية (837م)؛ أدخل إليها من جهتها الجنوبية في احتفال إعلامي عظيم ومهيب؛ وكان قد أجبر على ارتداء

أفضل الملابس ذات الألوان الزاهية والمزركشة وعلى رأسه طرطور أحمر اللون؛ وأركب على ظهر فيل عظيم المظهر وفي غاية الزينة أيضا. وكان الناس قد اصطفّوا منذ الساعات الأولى من صباح ذلك اليوم المشهود على جانبي الشارع الأعظم الذي كان يمتدّ عدة كيلومترات من جنوب سامراء إلى شمالها للتمتع بمشاهدة ذلك الاستعراض الإعلامي النادر الحدوث ومشاهدة الرجل الذي دوّخ الخلافة العباسية وهم يهلّلون ويكبّرون.

لقد كتب الطبري بهذا الشأن: "... **فلما صار الافشين إلى سامراء أنزله** (أي بابك الخرمي) **في قصره في المطيرة،**[1] **واصطف الناس على جانبي الشارع الأعظم من باب العامة** (دار الخلافة) **إلى المطيرة؛ وأراد المعتصم أن يشهّر به ويريه الناس .... فوجد ان لا شيء أشهر من الفيل؛ فأمر بتهيئة الفيل، وأمر به** (أي بالخرّمي) **فجعل في قباء ديباج وقلنسوة سمّور مدوّرة** (أي المصنوعة من جلود الثعالب الثلجيّة النادرة) **فشاهده الناس.... على تلك الصورة..**".[2] كان ذلك بلا ريب نصرا إعلاميا عظيما للمتوكل على الله على نحو خاص وللخلافة العباسية على نحو عام.

وقد سبق أن ذكرت في الفصل الخاص بالنقود أن المتوكل على الله قد ضرب نقودا إعلامية ترتبط ارتباطا مباشرا بانتصار الجيش العباسي على ثوار (البجاة) في جنوب مصر والذين هددوا بثورتهم تلك وصول خامات الذهب من المناجم هناك إلى دور الضرب في مصر وغيرها من المدن الإسلامية. وكان المقاتلة من (البجاة)، كما كتب الطبري يستعينون بالجمال الأفريقية في حروبهم

(1) كان موقع (المطيرة) في القسم الجنوبي من مدينة سامراء الخربة حاليا.

(2) الطبري، المصدر السابق الطبعة الثالثة، 1992، 5/ 28

في الكر والفر وبأيديهم الحراب ذات النصال الطويلة.[1] وبعد حروب مريرة وطويلة حقّق الجيش العباسي انتصارا كبيرا عليهم انتهت بعقد اتفاق أو معاهدة صلح بين ملكهم أو رئيسهم المدعو (علي بابا)-وقائد الجيش العباسي.[2] كان من بنودهاأن يقدم (علي بابا) بنفسه إلى سامراء لتقديم فروض الطاعة-والولاء للخليفة المتوكل على الله. وقد احضر إلى هناك في سنة 241 هجرية (855م)، وادخل إلى دار الخلافة بمظاهر احتفالية وإعلامية عظيمة وهو على ظهر جمل فاره من نوع الجمال التي كان يستعين بها (البجاة) في حروبهم والناس مصطفين على جانبي الشارع الأعظم الذي يفضي إلى دار الخلافة ويبلغ طوله زهاء ستة كيلومترات وذلك للتمتّع بمشاهدة ذلك المشهد البهيج.

ولم يكن هذا الحدث والذي قبله الوحيدين من نوعهما في العصر العباسي ففي سنة 283 هجرية في أيام خلافة المعتضد بالله (279-289 هـ/) تمكن الجيش العباسي بقيادة الحسين بن يدران من دحر الثائر الخارجي هارون الشاري وجيء به أسيرا مقيّدا،[3] فأدخل إلى بغداد وقد: **أركب على فيلا وعليه دراعة ديباج وعلى رأسه برنس خز طويل، وخلفه أخوه على جمل فالج وهو ذو السنامين وعليه دراعة ديباج وبرنس خز....**". وتقاطر الناس من كل حدب وصوب لمشاهدة ذلك الموكب المثير للانتباه؛ غير أن ذلك المهرجان انتهى مأساويا حيث: "**تكاثف الناس في منصرفهم من الجانب الشرقي إلى الجانب الغربي، فانخسف بهم كرسي الجسر الأعلى وسقط على زورق مملوء ناسا، فغرق**

---

(1) الطبري، المصدر السابق، 5/ 104

(2) ناهض عبد الرزاق دفتر، رأي جديد لمسكوكة الصلة للخليفة العباسي المتوكل على الله، مجلة المسكوكات، العدد7. ص 100-103

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 6/ 81

في هذا اليوم نحو ألف نفس ممن عرف دون من لم يعرف، واستخرج الناس من دجلة بالكلاليب وبالغاصة، فارتفع الضجيج وكثر الصراخ من الجانبين جميعا....»[1]

ويرد ذكر الفيل مرة أخرى في استعراض للقوة في عهد الخليفة العباسي المكتفي بالله سنة 291 هجرية (905م) عندما انهزم جيش القرامطة هزيمة منكرة أمام الجيش العباسي في شمال بلاد الرافدين فقتل منهم عددا عظيما وأسر من رجالهم بشر كثير، وقبض على زعمائهم الرئيسيين وعلى رأسهم قائدهم الأعلى ورأسهم المدبّر الذي يعرف بـ(صاحب الشامة) زعيم القرامطة وأحد قادتهم القساة ورأسهم المدبر الذي كان يذبح المسلمين كما تذبح النعاج. لقد أدخل صاحب الشامة إلى بغداد وهو جالس على كرسي من الخشب ارتفاعه نحو متر ونصف المتر موضوع فوق ظهر فيل على، وسار بين يديه أسرى القرامطة الكبار الآخرين مقيدين على ظهور الجمال وعليهم دراريع وبرانس من الحرير وسيقوا جميعا إلى دكة ارتفاعها نحو خمسة أمتار؛ فقد كان الخليفة المكتفي بالله قد عزم أن يشهره حتى يراه الناس جميعا حيث تمّ قتلهم ثم صلبهم. وقد حدث مثل هذا الإعلام في مصر الفاطمية أكثر من مرة.[2]

غير أن مثل تلك المهرجانات الخاصة بالانتصار على الأعداء لم تكن دائما تنجز عن طريق المسيرات في الشوارع بل كان بعضها يتم بطرق أخرى. من ذلك على سبيل المثال ما أفادنا به بعض قدامى المؤرخين أن انتصر السلطان البويهي معز الدولة (320-356هـ/ 932-967م) على بعض الثوار في سنة 345 هجرية

---

(1) المسعودي، مروج الذهب، 4/ 255

(2) عريب بن سعد القرطبي، صلة تاريخ الطبري، القاهرة 1982، ص12-13

(956م) انحدر في دجلة بمدينة بغداد في قارب ملكي وخلفه أسرى الثوار في قوارب مكشوفة ليراهم الناس الذي تجمهروا على طول ضفتي دجلة متمتعين بمشاهدة ذلك المشهد النادر وهم يدعون للسلطان ويلعنون الثوار.[1]

ومما لا شك فيه أن هذا النوع من الاستعراضات والمهرجانات الإعلامية في العصر العباسي لم تقتصر على استقبال المجرمين والخارجين على القانون الذين وقعوا في أسر الدولة؛ فقد تكون من نوع آخر. منها ما يذكره لنا قدامى المؤرخين أن الخليفة المستظهر بالله (487-512 هـ/ 1094-1118م) عندما بدأ في تشييد سور بغداد الكبير الذي يلف حول المدينة بجانبيها الغربي والشرقي في شهور سنة 488 هجرية (1095م) أذن للناس في التفرج والتبرع بالعمل أي المشاركة في البناء. وكان سرور الناس بتلك المشاركة المجانية في العمل عظيما؛ والسبب في ذلك أنهم كانوا على دراية تامة أن السور العالي المتين البناء يمكن أن يحمي المدينة ليس فقط من خطر الأعداء بل أيضا من خطر الفيضانات العارمة ومن ثم من خطر الغرق؛ وقد أثبت التاريخ صحة ذلك.[2]

---

(1) آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ص398

(2) نعم... لقد كان لبغداد المدورة سور مزدوج عظيم البناء أقامه أبو جعفر المنصور حول المدينة المدورة، وأن سوريها وبواباتها الأربع قد ظلت حيّة نابضة بالحياة أمدا طويلا بعد تشييدها. وعلى الرغم من اتساع المدية العظيم حتى صارت المدينة المدورة محلة واحدة من مجال مدينة بغداد في العصر العباسي الثاني، غير أنه ظلت لها قيمة تراثية عظيمة فلم يطب للبغداديين هدم السورين بدليل أنه عندما شرع المعتضد بالله (279-289 هـ/ 892-902م) في هدم السورين حول الديتة المدورة هبّ البغداديون غضبا، فسار الهاشميون إلى الخليفة فقالوا: "يا أمير المؤمنين، فخرنا وذكرنا ومآثرنا؛ فأمر بقطع الهدم، وصرف حفظة =

ونحن نعلم من المصادر التاريخية أنه كانت هناك منافسات وبعض الضغائن بين سكان بعض المحال والمحال الأخرى في بغداد، ونحن نعلم أيضا أنه صار لكثير من محال بغداد وأحيائها سور خاص بها. ليس هذا فقط بل كان في بغداد في أواخر القرن الخامس الهجري عشرة أحياء سكنية كبرى كلها مسورة غير أن تلك الأسوار ليست أسوارا دفاعية بل جدرا عازلة ليس غير.[1]

فمن البديهي والحالة هذه أن تستغل إعلاميا مشاركة محال وأحياء بغداد الكبرى في بناء السور، غير أن الإعلام هنا لا علاقة له بالدولة بل بالجماهير الغفيرة من سكان تلك الأحياء السكنية.[2] ويكفي هنا أن أستشهد بما كتبه ابن الجوزي المتوفى في سنة 597 هجرية (1200م) في وصف تلك الاحتفالات الجماهيرية: "... **وحمل أهل المحال السلاح والأعلام والبوقات والطبول ومعهم**

= **كانوا عليهم وكلين... وتركه وشأنه وخلى بينه وبين الناس.**" (التنوخي، نشوار المحاضرة، 1/ 146).

(1) عبد العزيز حميد صالح؛ التحصينات الدفاعية في بغداد الشرقة، موسوعة الجيش والسلاح، بغداد 1988، 3/ 369-370.

(2) لم ينجز من السور إلا قليلا ثم توقف العمل في إقامته في عهد خلافة المستظهر بالله لأسباب خارجة عن إرادة الدولة؛ فبد وفاة هذا الخليفة قرر الخليفة التالي وهو أبنه المسترشد بالله (512-529 هـ/ 1118-1135م) عزم على إنجاز ما بدأ به والده فقرر في سنة 517 هـ/ 1123م في المضي قدما في بناء السور حول الجانب الشرقي من بغداد، فأمر بجباية العقار ما فعل والده فحصل من المال ما يكفي لبناء السور؛ غير أن الناس جنحوا وجزعوا لقلة ما في أيديهم فأعاد المسترشد بالله أموالهم وأنفق على بناء السور من أمواله الخاصة؛ وأذن للناس في التفرج والمشاركة في العمل فخرجوا على تلك الحال التي كانت في أيام أبيه. وهكذا تم بناء السور العظيم لبغداد (مصطفى جواد وآخرون، بغداد عرض تاريخي مصوّر، نقابة المهندسين العراقية، بغداد 1961، ص51-52).

المعاول والسبلات (الزنبيل) وأنواع الملاهي والزمور والحكايات والخيالات (التماثيل المصنوعة من الخرق وما شابه ذلك)، فعمل أهل باب المراتب (من محال بغداد الشرقية) من البواري المقيّرة على صورة الفيل وتحه قوم يسيرون به، وعملوا زرافة كذلك، وأتى أهل قصر عيسى بسميرية كبيرة (زورق نهري) فيها الملاحون يجذفون وهي تجري على هاذور (نوع من أنواع العربات)، وأتى أهل سوق يحي بناعورة تدور معهم في الأسواق، وعمل أهل سوق المدرسة قلعة خشب تسير على عجل وفيها غلمان يضربون بقسي البندق والنشاب (إنها قصبة جوفاء يدخل فيها حجارة صغيرة صلدة تنفخ من طرفها الثاني بقوة فتنطلق منها بسرعة فتصيب الطائر وما يشبه ذلك، ومنها جاءت كلمة البندقية الحالية)، وأخرج قوم بئر على عجل وفيها حائك ينسج، وكذلك السقلاطون (محلة من محال بغداد اشتهرت بنوع من النسيج الرقيق الذي يعرف بالسقلاطون)، وكذلك الخبازون جاءوا بتنور وتحته ما يسيره والخباز يخبز ويرمي الخبز إلى الناس.[1]

ومن الأحداث أو المناسبات التي كانت تعدّها الخلافة العباسية في غاية الأهمية من الناحية الإعلامية استقبال سفراء الدول البعيدة والقريبة لاسيما موفدي الدول الكبرى. من تلك المناسبات كان استقبال سفير الإمبراطورية البيزنطية والوفد المرافق له في العاصمة بغداد أيام خلافة المقتدر بالله (295-320هـ/ 908-932م). لقد شرع الوزير وموظفو ديوان الوزارة المسؤولين في اتخاذ الاستعدادات اللازمة والعظيمة لتلك الزيارة المهمة أو ذلك الاستقبال

(1) ابن الجوزي، 9/ 85

القليل الحدوث؛ كان منها تزيين شوارع العاصمة التي كـان مـن المخطـط لـه أن يجتاز بها الموكب الرسمي لرسول دولة الروم (السفير البيزنطي) ومرافقيه.

وقد طلب من وجهـاء مدينـة بغـداد ومـن التجـار وأصـحاب الحوانيـت وغيرهم ممن يعمل في الأسواق إبداء المسـاعدة اللازمـة في إظهـار عظمـة بغـداد بتلك المناسبة الإعلامية الهامة؛ كان منهـا تـزيين المبـاني العامـة والعنايـة الفائقـة بتجميل الأسواق التجارية الكبرى التي تقع في قلب المدينة حيث أعتـبر التجـوّل فيها من ضمن البرنامج المعدة مسبقا لتلـك الزيـارة، وأمـر الـوزير المحتسـب أو مسؤولي النظافة في المدينة الأشراف شخصيا على تنظيف وتجميل عموم شوارع مدينة بغداد الرئيسة بجانبيها الغربي والشرقي بما تيسر لهم من لوازم الزينات.

ومن البديهي أن ينال المقر الرسمي الرئيسي للدولة في بغداد والذي يعرف بدار الخلافة النصيب الأوفـى مـن العنايـة والاهتمـام بتلـك المناسـبة.[1] وعنـد استقبال الخليفة المقتدر بالله للسفير البيزنطي جعلت القصور الـتي يضـمها ذلـك المجمّع المعماري في أبهى صورها وزينتها؛ حتـى ليـذكر أن السـفير ومرافقيـه قـد انبهروا تماما من عظمة تلك القصور وترتيبها والطرق والوسائل التي كانت متّبعة في نظام حراستها. لقد صارت ممرات وقاعات ومجالس تلك القصـور في صـورة تفوق الوصف من العناية لاسيما ما يتعلق الأمر بروعة وفخامـة الريـاش فيهـا. حتى أن الخطيـب البغـدادي المتـوفى في سـنة 463 هجريـة (1074م) قـد كتـب بخصوص تلك المناسبة ما يلي: "... **عندما وصل السفير إلى دار الخلافة كانت قد علّقت في قصور المقتدر بالله من ستور الديباج المصوّرة والخيل والجمال والسباع**

---

(1) وكان موقعه على الضفة الشرقية من نهر دجلة إلى الجنوب قليلا مما كـان يعـرف بسـوق الثلاثاء جنوب المدرسة المستنصرية القائمة حاليا. (مصـطفى جـواد واحمـد سوسـة، دليـل خارطة بغداد قديما وحديثا، بغداد، 1955، ص322

ثمانية وثلاثين ألف ستر، منها ستور الديباج المذهّبة اثنا عشر الف وخمس مائة ستر، وعدد البسط الثمينة في الممرات والصحون التي وطئ عليها رسل ملك الروم من عند باب العامة لغاية مجلس المقتدر بالله اثنان وعشرين ألف قطعة...."
إلى آخر الكلام .[1]

ولابد من القول هنا أن الكثير من مثل تلك السفارات كانت قد وصلت إلى بغداد غير أن المؤرخين لم يشيروا إليها في كتبهم منها السفارات التي تبودلت بين الخلافة العباسية وملك فرنسا شارلمان Charlemagne (151- 199هـ/ 768- 814م) الذي يعد أعظم ملوك أوربا في القرون الوسطى والذي عاصر من الخلفاء العباسيين كل من أبي جعفر المنصور والمهدي والهادي وهارون الرشيد والأمين والسنوات الثلاث الأولى من عهد المأمون؛ والتي لولا أن إشارات واضحة إلى تلك السفارة قد وردت عند المؤرخين الأوربيين لما علمنا عنها شيئا؛ وغيرها من الأحداث الإعلامية الهامة بمثل تلك المناسبات التي تجاهلها تماما المؤرخون المسلمون، ولا علم لنا عن السبب الذي دفع بالمؤرخين العرب والمسلمين عموما إلى السكوت عن تلك السفارة! هل يعود السبب في ذلك إلى أن ملك الفرنج كان معاديا تماما للخلافة الأموية في الأندلس؟ وكما هو معروف أن الناس في العراق وفي غيره من الأقاليم العربية كانوا يكنّون المودة والاحترام لها، ولذلك فقد حسبت السلطة حسابا لمشاعر الجماهير العربية فتم التعتيم تماما على تلك السفارة! غير أن من المؤكد أن الرشيد قد بعث بسفارة إلى شارلمان حيث يذكر المؤرخون الأوربيون أن من جملة تلك الهدايا التي بعث بها الرشيد إلى ملك الفرنج ساعة مائية انبهروا بها وصار لها صيت في التاريخ، وهناك بعض

---

(1) الخطيب البغدادي، احمد بن علي، (ت 400 هـ)، تاريخ بغداد، القاهرة 1931، 1/ 102

تلك الهدايا ما تزال محفوظة في بعض متاحف أوربا. ليس هذا فقط بل أن هناك لوحة زينية رسمها أحد كبار الرسامين الأوربيين يدعى يوليوس لوركيد Julius Lurked في سنة 1848 تمثلت استقبال هارون الرشيد لسفارة شارلمان إلى بغداد في أواخر القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي (شكل54).



(شكل54)

لوحة زيتية أوربية رسمها الفنان جوليوس كوركيد في سنة 1848 تمثل استقبال الخليفة هارون الرشيد لسفارة شارلمان في بغداد

أما عن الإعلام عن طريق المهرجانات غير الحكومية أي الذي لا علاقة له بالدولة إلا من جانب واحد وهو إشعارها أن الرعية تقوم عن طيب خاطر في تنفيذ ما كانوا قد كلفوا به على نحو غير رسمي أو إجباري والذي به بتنفيذه فائدة عظيمة لها أو يرتبط إنجازه بإضفاء الحماية لها، أضرب مثلا واحدا على مثل تلك الأعمال الإعلامية حصل في بغداد في عهد الخليفة العباسي المستظهر.

اكتفي بهذا المقدار من الاستعراضات والمهرجانات الإعلامية في العصر العباسي على الصعيدين الرسمي الخاص بالدولة والشعبي الخاص بجماهير الناس. ومن المؤكد أن الفاطميين في مصر قد استعانوا أيضا بمثل تلك المهرجانات التي تظهر عظمة الدولة الفاطمية وكذلك في العصور التي أعقبت العصرين العباسي والفاطمي المتداخلين في الزمن مثل العصر العثماني على سبيل المثال فلا أريد الدخول في تفاصيلها خشية الإطالة.

الفصل التاسع

طمس المقومات الحضارية

الفصل التاسع

طمس المقومات الحضارية

آ- في العصور القديمة:

لم يكن أمر محاولات طمس المقومات الحضارية للشعوب جديدا بالنسبة إلى الحضارات التي طوّرها البشر وجاهدوا في سبيل إقامتها ودعم ركائزها وتثبيتها بما فيهم العرب المسلمين في القرون الوسطى؛ فقد كانت مثل تلك الأحداث التخريبية العظام للحضارات معروفة تماما في العالم المتحضر القديم والوسيط وقبل بزوغ نور الإسلام في النصف الأول من القرن السابع الميلادي.

وربما أن اجتياح القبائل الأكدية ذات الأصول السامية لوسط وجنوب العراق في النصف الثاني من الاف الثالث قبل الميلاد يعد أكبر وأهم اجتياح من نوعه في العالم القديم، الذي كان من نتيجته المباشرة القضاء تباعا على ما تعرف بدويلات المدن السومرية في بلاد الرافدين،[1] وقيام أول إمبراطورية في العالم.

---

(1) إن أول من أطلق مصطلح (الساميّة) على هذه المجموعة من البشر عالم ألماني اسمه شلوتزر chloezer في عام 1781 وذلك اعتمادا على شجرة أنساب الأمم الواردة في التوراة والتي ترجع أنساب الأمم كلها إلى أبناء نوح الثلاثة وهم سام وحام ويافت (التوراة، سفر التكوين، الإصحاح العاشر 21-31).

ومن الواضح أنها فرضية لا تستند إلى حقيقة تاريخية باستثناء ما جاء في التوراة الذي عانى الكثير من التحوير والتحريف ولذلك فهو ليس تاريخا معتمدا. وهناك اتجاه اليوم على استبدال هذه اللفظة بلفظة أخرى هي الأقوام (الجزرية)، والسبب في ذلك أن غالبية هذه الشعوب قد نزحت أصلا من شبه جزيرة العرب (طه باقر، من تراثنا اللغوي القديم، بغداد، ص17).

فعلى الرغم من قلة تحضر تلك القبائل البدوية الأكدية وأنها قياسا إلى الشعب السومري أصحاب أقدم حضارة راقية في العالم القديم، وأنهم أناس متسلطون أخذوا السلطة بقوة السلاح، غير أننا لا يمكن أبدا أن نعتبرهم مدمرين للحضارة السومرية بل اتخذوا من حضارة هؤلاء القوم الحجر الأساس في تكوين دولتهم وحضارتهم التي كسبت بمرور الزمن ليس فقط الاحترام الكامل بل أيضا شيئا من القدسية عندهم.

ومن المؤكد أن الاجتياح الأكدي لوسط وجنوب بلاد الرافدين للعراق لم يكن الهدف منه طمس الحضارة السومرية فلم يتعرضوا للسومريين بالقتل أوالتشريد وأن المقومات الأساسية للحضارة السومرية، لم تتعرض للأذى فلم تهدم المعابد أو تخرب المباني العامة إطلاقا؛ ليس هذا فقط بل أن الفاتحين الأكديين اعترفوا بفضل السومريين وإنجازاتهم الحضارية الرائدة حتى أنهم أطلقوا على دولتهم الجديدة اسم (سومر وأكد)؛ ولاحظ هنا أن كلمة (سومر) تسبق كلمة (أكد). وعلى ذلك يمكن القول أن الأكديين كانوا يعدون أنفسهم مكملين للحضارة السومرية وهو ما لا يبتعد عن الحقيقة. وهكذا يمكن القول أن الأكديين قد حافظوا على نحو أو بآخر على المقومات الأساس للحضارية السومرية وتعلموا منهم الشيء الكثير.

غير أن الأمور لم تستمر وفق ما كان يريده الأكديون فلم تستمر إمبراطوريتهم سوى 141 عاما (2371–2230 ق.م.) غير أن السومريين فما لبثوا أن عادوا عاد بعدها السومريون إلى حكم البلاد حيث لم يرضخوا طويلا للأكديين فعادوا إلى استلام مقاليد الأمور ليأسسوا ما يعرف بدولة أور الثالثة وكانت أكبر مدنها (أور) في القسم الجنوبي من العراق.

وإذا كان أول اجتياح للمراكز الحضارية في العراق وربما في العالم لا يمكننا

اعتباره طمسا للحضارة وكذلك عودة السومريين إلى السلطة لا يعد أيضا إيذاء للحياة العامة في بلاد الرافدين فإن من المؤكد أو أول محاولة لطمس المقومات الحضارية في بلاد الرافدين لم تكن على أيدي الأكديين أو السومريين، بل يد جنس آخر من البشر لا يمّتون إلى الجنس السامي بصلة؛ إنهم العيلاميون الذين كانوا يتخذون من جنوب غرب إيران موطنا لهم. لقد هاجم هؤلاء القوم مراكز الحضارة في العراق؛[1] فانقضوا على المدن السومرية تباعا ثم اجتاحوا العاصمة مدينة (أور) مركز الحضارة السومرية المشع وأكبر مدينة في الشرق الأوسطور بما في العالم آنذاك.

إن ذلك الاكتساح الواسع النطاق الذي وقع تحديدا في سنة 2004 قبل الميلاد قد أتى على كل شيء تقريبا فلم يبقوا في مدينة (أور) على شيء؛ فدمروا الأسوار والمعابد والمباني العامة والخاصة وتركوا غالبية سكانها أكواما مكدّسة من الجثث الهامدة ملقاة في الشوارع والدروب والساحات العامة؛ ليس هذا فقط بل التهمت النيران أيضا الدور السكنية والمخازن والأسواق واقتادوا الملك السومري الأخير أبي- سن (2028-2004 ق.م.) أسيرا مقيدا ومهانا إلى (سوسة) عاصمة العيلاميين.

لقد ترك ذلك الاجتياح أثرا مريرا وبالغا في نفوس العراقيين القدماء. ومما يؤكد ذلك القصائد الشعرية الرائعة التي نظمها شعراء العصر البابلي القديم في رثاء مدينة (أور) في عهد الإمبراطورية البابلية القديمة. فالبابليون، وشأنهم في هذا شأن أسلافهم الأكديين، كانوا ينظرون إلى السومريين ليس فقط بعين الرضا

---

(1) لقد تحالف العيلاميون عند هجومهم على المدن السومرية مع القبائل السوبارتية الذين كانوا يجوبون المناطق الواقعة في وحول جبال زاجروس في شمال غرب إيران المتاخمة لبلاد ما بين النهرين.

بل بشيء من القدسية أيضا؛ لقد أدركوا تماما أن نور الحضارة التي كانوا ينعمون بها هي من معطيات الشعب السومري الذي كانوا أصحاب أقدم حضارة معروفة في العالم. لقد نظّم شعراؤهم المراثي الرائعة حفظتها لنا الرقم الطينية التي كشفت عنها الحفائر الأثرية المتتابعة في مواقع المدن البابلية بحق الشعب السومري والمدن السومرية التي كانت قد تساقطت تباعا على أيدي الغزاة القادمين من خارج البلاد.

من تلك القصائد الشعرية في رثاء الحضارة السومرية واحدة ينعي فيها مدينة (أور): " بحزن عميق قائلا.

رثاؤك مر أليم أيتها المدينة

مدينة أور التي خرّبت رثاؤها مر أليم

كم سيظل رثاؤك الأليم يحزن سيدك الباكي

الاله ننار (إله مدينة أور) الذي دمّر معبده يشارك مدينته البكاء والندب

ناحت أور وشاركت الرثاء سيدها الذي خرّبت بلاده

وفي جزء آخر من المرثية يقول الشاعر على لسان إله المدينة ننار:

جرجرت ساقي، فتحت ذراعي

وبحرقة ذرفت الدموع أمام آنو (كبير الآلهة)

وبصدق نحت أمام إنليل (إله السماء)

قلت لهما عسى مدينتي أور أن لا تدمر!

وعسى شعبها أن لا يدفع إلى الذبح

ولكن آنو لم يثلج صدري بكلمة،

بل أصدر الأوامر بهلاك أور

ومنها أيضا:

لقد آلت المدينة إلى الخراب والناس ينوحون
وجثث أهلها مثل كسر الفخار ملأت جنباتها
الجدران المتينة قد تهاوت والناس ينوحون
وفي شوارعها العريضة التي شهدت الاحتفالات اختلط الموتى،
وذابت الأجساد من تلقاء نفسها مثل الزبدة تحت الشمس
الإباءوالأمهات الذين لزموا بيوتهم التهمتهم النيران
تركت الأمهات بناتهن، والناس ينوحون
ترك الآباء أبناءهم، والناس ينوحون
وفي عنابرها المليئة بالخيرات أضرمت النار
العيلاميون والسوباريون المخربون عاملوها باحتقار
بالمعاول هدموا أور، والناس ينوحون
أحالوا المدينة إلى ركام، والناس ينوحون
إلى آخر هذه المرثية الطويلة الرائعة.[1]

بسقوط مدينة (أور) اسدل الستار على العصر السومري الأخير في حضارة بلاد الرافدين. ومن البديهي أن اجتياح العيلاميين للعراق لم يكن الأخير فقد تعرضت مراكز الحضارة في هذا الإقليم للطمس والاجتياح مرات عديدة بعد ذلك؛ ربما من أهمها هجوم الحثيين the Hittites من بلاد الأناضول، ثم

(1)-لقد انتقيت هذه الأبيات من القصيدة البابلية التي وردت في مقالة الدكتور محمد كامل روكان، سقوط أور عاصمة حكم سلالة أور الثالثة (مجلة بين النهرين، العدد 161-162، السنة 41، 2013، ص74)، ويمكن العودة إلى القصيدة أيضا والتي يبلغ عدد أبياتها 436 بيتا كتبت على 22 رقيما طينيا وصلت إلينا من عهد الملك البابلي شمسو- أيلونا (1749-1712 ق. م.). (طه باقر، مقدمة في أدب العراق القديم، بغداد 1976، ص74)

القبائل الكاشية Kassitesthe وهم أناس من الجنس الآري انحدرت إلى سهول العراق من مناطق جبال زاغروسZagros الواقعة في غرب الهضبة الإيرانية لتنهي وجود الإمبراطورية البابلية الأولى من الخارطة التي يعد حمورابي Hammurabi (1728–1686 ق. م.) صاحب القوانين المشهورة أعظم ملوكها. وقع ذلك الحدثفي أواخر القرن السابع عشر قبل الميلاد؛ حيث استمر الكاشيون يحكمون البلاد على نحو متتابع لمدة 576 سنة.

ومنها أيضا الاجتياح الثاني للعيلاميين لبلاد الرافدين، كان هذه المرة لمدينة بابل الذين قلعوا مسلة حمورابي من واحدة من ساحات مدينة بابل ونقلوها إلى بلاد عيلام؛ ثم اكتساح إلاخمينيين الذين أنهوا وجود الإمبراطورية البابلية الحديثة في سنة 539 قبل الميلاد وهدموا أسوار بابل والكثير من عماراتها المهمة؛ ثم أعقب ذلك بثلاثة قرون تقريبا هجوم اليونانيين على البلاد؛ كان ذلك تحديدافي سنة 333 قبل الميلاد بقيادة الإسكندر المقدوني، وغيرها من الاجتياحات المدمرة للمقومات الحضارية التي لا مجال للتطرق إليها في هذا الفصل.

وتعرضت مصر هي الأخرى إلى العديد من الهجمات البربرية من أقوام بعيدين كل البعد عن التحضر والمدنية الذي ترتب على بعضها احتلال البلاد؛ مثل هجوم قبائل الليبيين Libu على مصر وكذلك اجتياح قبائل الهكسوس البدوية Hyksos البلاد وإنهاء عصر المملكة الوسطى نحو سنة 1570 قبل الميلاد ومن ثم تأسيس سلالة جديدة لا علاقة لها بالفراعنة المصريين؛ السلالة التي ظلت تحكم الأجزاء الواقعة من مصر في شرق الدلتا ومصر الوسطى بما في ذلك العاصمة (منفس) حتى تمّ طردهم من الإقليم المصري الذي أعقبه قيام الأسرة الفرعونية الثامنة عشر وتأسيس الإمبراطورية المصرية الحديثة (الأخيرة).

إن العلماء المختصين بالحضارة المصرية القديمة متفقون أن إقامة الهكسوس

في مصر لم تكن هادئة بل قوبلت بالكثير من الثورات والانتفاضات من قبل الشعب المصري. ليس هذا فقط بل أن الهكسوس لم يضيفوا شيئا إلى المقومات الحضارية المصرية بل عدّت فترة مكوثهم في مصر التي بلغت زهاء مائة عام فترة سلب ونهب وتخريب.

غير أن ما حدث من طمس في مراكز الحضارة في بلاد المشرق القديم يعد شيئا تافها إذا ما قيس ذلك بما حصل في مراكز الحضارة في أوربا بدأ بسنة 410 ميلادية عندما سقطت روما بأيدي بل تحت أرجل رجال القبائل الجرمانية البربرية؛ فعندما دخل هؤلاء البرابرة تلك المدينة نهبت على مدى بضعة أيام ووضع السيف في رقاب أهلها، وهذا ما حصل في معظم مراكز الحضارة في أوربا الغربية التي اجتاحتها تلك القبائل.

وما أن استقرت الحال وأخذت الأمور بالتحسن التدريجي وبدأ العمران والرخاء يدب مرة أخرى في المدن الإيطالية، فعبّدت الطرق في روما وتمّ ترميم المسارح وأعيد بناء الكثير من المباني العامة فيها، مثل الحمامات الرومانية الشهيرة وغير ذلك حتى أن قرر الإمبراطور البيزنطي جستنيان الأول Justinian I (527–565م) الهجوم على شبه القارة الإيطالية بحجة إعادة توحيد الإمبراطورية الرومانية وطرد القبائل الجرمانية منها. غير أنه جوبه بقتال مرير جدا؛ وبعد حرب دامت نحو عشرين عاما تحقق له ما أراد، فتم احتلال روما ومعظم المدن الإيطالية؛ غير أن نتيجة تلك الحروب المريرة كانت عكس ما كان يبتغيه حيث دمرت المدن في شبه الجزيرة الإيطالية تدميرا شبه تام، وأن بقايا الإمبراطورية الرومانية من عمارات عامة قد جرى إبادتها أو خرابها؛ فتحولت روما إلى أطلال وأكوام من الأنقاض على أيدي الإمبراطورية البيزنطية التي تمكنت من القيام بما لم تستطيع القبائل البربرية القيام به من تخريب لينتهي العصر

الروماني إلى الأبد كما يكتب المؤرخون الأوربيون. ومن مآسي تلك الحروب أن انهارت التجارة الأوربية التي نمت وازدهرت في ظل الإمبراطورية الرومانية.

ومن نتائج سقوط روما مجددا أن اضطربت المدن الأوربية كثيرا ليشمل مختلف مناحي الحياة، حتى أن عرفت تلك الفترة بالعصور المظلمة التي استمرت نحو الف عام. لقد تسببت تلك الحروب والأوضاع السياسية غير المستقرة في هجرة الناس من المدن إلى الريف لتمتهن الزراعة فصار اعتماد سكان أوربا عليها في معيشتهم، ومن ثم اختفت معظم الصناعات؛ وبدأت الطبقة المتوسطة التي كان يعمل أصحابها في التجارة والصناعة تتلاشى تدريجيا؛ وصار اللوردات يمتلكون معظم الأراضي الزراعية في أوربا فصاروا يحكمون الفلاحين الذين يعملون في حقولهم؛ ليس هذا فقط بل صاروا عبيدا للأرض كما يقال. وأوشكت الآداب والفنون والعلوم أن تكون في طي النسيان.

لقد أصبح النظام الرئيس في أوربا في ذلك الزمن هو النظام الإقطاعي الذي يقوم على تقسيم الأرض إلى مناطق شاسعة يمتلكها اللوردات الأثرياء فالتجأ معظمهم إلى هؤلاء الإقطاعيين. وفي مقابل ذلك أصبح الناس يقومون بخدمتهم؛ ليس هذا فقط بل صار الفلاحون عبيدا للأرض من جملة ممتلكات اللورد ليس غير. ومع انتشار الدين المسيحي وجد الناس في الأديرة ملاذا لحمايتهم مما قوى مركز الكنيسة بجانب الحكام فاجتمعت السلطة الدينية والسلطة الدنيوية بيد الحكام ورجال الدين.[1]

وبنهاية القرن السادس الميلادي انهارت الدول والممالك الكبيرة في أوربا لتتحول إلى دويلات وممالك صغيرة متناحرة. وباتت الكنيسة الكاثوليكية القوة

(1) محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، الكويت 1988، ص299-300

الوحيدة وصاحبة أوسع نفوذ في القارة؛ ليس في الأمور الدينية فحسب بل أيضا في ميادين السياسة والفنون والعلوم المختلفة على أن لا تتناقض مع مفاهيم الكنيسة الكاثوليكية وخطوطها الحمراء التي لا يجوز تجاوزها؛ فمن كان يتجاوز ذلك كان يلعن من قبل الكنيسة ويعامل بمنتهى القسوة ويحرم التعامل معه.

فهل هناك طمس للمقومات الحضارية للدول في العالم أكثر من هذا الذي حدث في أوربا في القرنين الخامس والسادس الميلاديين!!

ب- في العالم العربي:

أما عن محاولات طمس المقومات الحضارية العربية فهي كثيرة ومنوعة؛ بعضها يسبق الإسلام. غير أن معلوماتنا عن تلك الحقب الزمنية ضئيلة أو ضبابية امتزج بها الكثير من الأخبار شبه الأسطورية أو المبالغ فيها. ومع ذلك نحن نعلم من بعض المصادر التاريخية الإسلامية المبكرة على قلّتها أو حتى ندرتها أن كان لكل عهد من العهود نوع خاص متميز منها. فعلى سبيل المثال أفادتنا بعض تلك المصادر بالقليل من الأخبار عن الحروب القاسية والمدمرة التي كانت تقع بين الإمبراطورتين البارثية ثم الساسانية في القرون الأولى التي أعقبت بزوغ المسيحية، وإن مسرح تلك الحروب كان بلاد الشام وفلسطين وبلاد ما بين النهرين، والتي منها الحروب الدامية التي وقعت بين تدمر (أذينة) والدولة الساسانية التي حاصر خلالها العاصمة الفارسية طيسفون أكثر من مرة. وعلينا أن لا ننس أيضا الحروب التي وقعت بين الملك اللخمي جذيمة الأبرش والزباء ملكة تدمر في القرن الرابع الميلادي. وأن نتذكر أيضا الحروب المدمرة بين المناذرة والغساسنة التي استمرت حتى الزمن التي بزغ فيها نور الإسلام تقريبا.

أما في الحقب الإسلامية فقد ذكرت في فصل سابق أن سبب ندرة النقود

الإعلامية الأموية في الوقت الحاضر رغم كثرتها هو، كما أفادنا بذلك الدكتور نايف جورج القسوس، أن تلك النقود لابد أن يكون: **"قد تمّ جمعها وصهرها من قبل العباسيين الذين كانوا يريدون أن يستأثروا وحدهم بحق الانتساب إلى الرسول وقبيلته ويكون لهم وحدهم حق التفاخر والتباهي بعد ان قطعوا دابر الأمويين."**[1] والواقع إن الدكتور القسوس محقا تماما فيما ذهب اليه فنحن نعلم أن العباسيين حال استلامهم مقاليد الأمور حاولوا قطع دابر الأمويين إعلاميا بمحو اسمهم أو كل أثر لهم حتى من على العمارات الثقافية والدينية الكبرى؛ منها الكتابات التذكارية التي كانت تعلوا واجهات المباني العامة الداخلية أو الخارجية التي أقاموا صرحها والتي كان من المستحيل هدمها أو إزالتها من الوجود من قبل العباسيين لأهميتها البالغة عند المسلمين وعلى نحو خاص المساجد الجامعة والمشاهد الدينيّة.

ليس هذا فقط بل يرون أن أبا سفيان بن حرب عندما حضرته الوفاة فتح عينه ووجد بني أمية يحيطون به ومن بينهم ولده الخليفة معاوية بن أبي سفيان فقال: **(تلقفوها يا بني أمية فوالله لا جنة ولا نار).**

من ذلك على سبيل المثال ما يذكرونه بعض المؤرخين في العصر العباسي قولا وضعوه على لسان واحد من أهم واشهر خلفائهم هو عبد الملك بن مروان؛ أن معاوية بن أبي سفيان كان مداهنا وان يزيد بن معاوية كان مأبونا؛ ما يذكره العباسيون من أن سليمان بن عبد الملك كان حقودا وأيضا أكولا شرها، كان بإمكانه أن يأكل وحده خروفا برمّته. وأن الوليد الثاني (1250126هـ/ 743-744م)، وهو الوليد بن يزيد حفيد عبد الملك بن مروان،

---

(1) المصدر نفسه، ص119

كان شاعرا سكّيرا ومعربدا؛ ما تذكره المصادر التاريخية الإسلامية بشأنه أنه عندما وصلت إليه الأنباء بوفاة عمّه وسلفه في الخلافة هشام بن عبد الملك ووقع عليه الاختيار بتوصية من هشام بن عبد الملك نفسه؛ لقد أنشد:[1]

طاب يومي ولذّ شرب سلافة إذ أتانا نعي من بالرصافة[2]

وأتانا البريد ينعي هشام وأتانا بخاتم للخلافة

فاصطبحنا بخمرة عانة صرفا ولهونا بقنية عزّافة

ولم يتوقف التشهير بالنسبة للوليد الثاني عند هذا الحد بل اعتبروه من المستهترين بالدين الإسلامي الحنيف إلى ابعد الحدود. من ذلك على سبيل المثال ما كتبه بعض المؤرخين في النصف الأول من العصر العباسي أنه سكر يوما ووضع المصحف الشريف هدفا له ورماه بسهم فمزّقه، ثم أنشد:

إذا قابلت ربك يوم حشر فقل يا رب مزّقني الوليد

(1) الأصفهاني، أبو الفرج، كتاب الأغاني، القاهرة 1905، الجزء السادس، ص، 105

(2) الرصافة مدينة شيّدها الأمويون على الضفة الغربية لنهر الفرات قرب مدينة (الرقة)، كان هشام بن عبد الملك يمضي فيها بعض اشهر الصيف عندما وافته منيته في خريف سنة 125 هجرية (743م).



(شكل55)

دينار من عهد الوليد الثاني مؤرخ من سنة 126 هجرية. متحف دمشق الوطني

عن: عفيف بهنسي وديمتري برامكي[1]

مع أن النقود التي ضربها الوليد الثاني شأنها شأن النقود الأموية بعد تعريبها من قبل جده عبد الملك بن مروان لم تختلف في شيء من حيث احتوائها على العبارات القرآنية المألوفة (شكل55).

ومهما يكن من أمر مثل هذا الخبر في الكتب ولاسيما في الكتب المعتبرة عند الطبقة المثقفة من الناس مثل كتاب (الأغاني) لأبي فرج الأصفهاني المتوفى في سنة 340 هجرية (951م) سوف ينتابه شعورا بالبغض والكراهية لا إلى الوليد

(1) عفيف بهنسي وديمتري برامكي، المسكوكات الإسلامية: مجموعة مختارة من صدر الإسلام، بيروت 1980، ص14.

الثاني فحسب، بل ينصرف ذلك المقت وتلك الكراهية إلى كل ما يمت بصلة إلى الحكم الأموي؛ وهذا ما كان يبتغيه العباسيون من مثل هذا النوع من الإعلام.

غير أن العباسيين لم يكونوا ليسمحوا أن تمر مثل هذه العمارات الأموية الرائعة البناء دون أن يثلبوا بهم ويحطّوا من قدرهم إن كان بإمكانهم أن يفعلوا ذلك. فها هو اليعقوبي المتوفى سنة 284 هجرية (897م) قد كتب في أسباب بناء قبة الصخرة خبرا في غاية التشهير الإعلامي السلبي والمؤذي أو المسيء لسمعة بني أمية على نحو عام ولعبد الملك بن مروان على نحو خاص، هو: **(أن عبد الملك منع أهل الشام من الحج وذلك أن عبد الله بن الزبير كان يأخذهم إذا حجّوا بالبيعة، فلما رأى عبد الملك ذلك منعهم من الخروج إلى مكة، فضجّ الناس وقالوا: تمنعنا من حج بيت الله وهو فرض علينا! فقال: هذا ابن شهاب الزهري يحدّثكم أن رسول الله قال: "لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي ومسجد بيت المقدس،" وهو يقوم لكم مقام المسجد. وهذه الصخرة التي يروى أن رسول الله وضع قدمه عليها لما صعد إلى السماء تقوم لكم مقام الكعبة. فبنى على الصخرة قبة وعلّق عليها ستور الديباج واقام لها سدنة....).**[1]

ولم يفت ذلك على الكثير من المؤرخين المحدثين فقد كتب في سنة 1948 الدكتور زكي محمد حسن رحمه الله أن هذه الرواية التي جاء بها اليعقوبي هي في الأرجح من وضع خصوم بني أمية لأن عبد الملك كان من التابعين ومن غير محتمل أن يقدم مثله على تغيير شعائر الدين بتحويل الحجيج عن الكعبة

(1) اليعقوبي، أحمد بن وضاح، كتاب البلدان، ص122

المشرّفة.[1] ومن الواضح أن ما قصده الدكتور زكي محمد حسن بخصوم بني أمية في الوقت الذي كتب به اليعقوبي تاريخه هم العباسيين وحدهم. ومن المعروف أن أول خلفاء العباسيين لم يكتف بقتل من تبقى من الأمراء الأمويين بل أمر بنبش قبورهم في دمشق وبقية المدن الشامية؛[2] ولم يتمكن من الفرار من قبضتهم سوى عبد الرحمن حفيد هشام بن عبد الملك الذي تمكن من الهرب إلى المغرب الأقصى ثم الدخول إلى بلاد الأندلس ليعيد أمجاد الأمويين فيها؛ ولذلك عرف بـ(عبد الرحمن الداخل) وبـ(صقر قريش).

ولم يكتف العباسيون بالتشهير بالخلفاء الأمويين بل شهّروا أيضا بعدد ليس بالقليل من ولاتهم في الأمصار ولاسيما الحجاج بن يوسف الثقفي الذي كان قد تولى أمارة العراق وإيران منذ أواسط عهد عبد الملك بن مروان وعهد الوليد بن عبد الملك حتى وفاته في سنة 86 هجرية. لقد التصقت بهذا الوالي تهم كثيرة منها قتل عدد من صحابة رسول الله (ﷺ) وغيرها من الأمور التي تتصف بمنتهى القسوة والوحشية. لقد ذكروا على سبيل المثال أن الحجاج سار إلى المدينة المنوّرة في سنة 74 هجرية (694م): "**وأخذ يتعنّت على أهلها ويستخف ببقايا من فيها من صحابة رسول الله (ص)، وختم في أعناقهم وأيديهم يذلّهم بذلك، كأنس** (بن مالك) **وجابر بن عبد الله وسهل بن سعيد....**" **وغيرهم.**[3]

إن هذا النوع من الإعلام السلبي يذكّرنا بما كانت تفعله الحكومة الأمريكية حتى عهد قريب من تسخير وسائل الإعلام المتاحة لها مثل فضائية أو شبكة

(1) زكي محمد حسن، المصدر السابق، ص37-38

(2) ولم يسلم من عملية النبش سوى قبر عمر بن عبد العزيز الذي كان قد دفن بـ(دير سمعان) البعيد عن دمشق.

(3) السيوطي، المصدر السابق، ص138

(CNN) والصحف الموالية للحكومة وغيرها سواء كان ذلك في الولايات المتحدة أو في الدول التي تدور في فلكها الحطّ من قيمة العرب الفلسطينيين. لقد حاولت، وما تزال تحاول على ما يبدو، إقناع الشعب الأمريكي أن (فتح) منظمة إرهابية فلسطينية هدفها الأساس قتل اليهود أو طردهم من فلسطين على الأقل، وأن الفلسطينيين على نحو عام قتلة يعرقلون مسيرة السلام. ثم صارت الولايات المتحدة الأمريكية تنعت في الوقت الحاضر منظمة (حماس) الفلسطينية بمثل تلك النعوت.[1]

ومهما يكن من أمر كل ذلك وعلى الرغم من الأعمال الإيجابية العظيمة التي تحققت للإسلام في ظل الخلافة الأموية فإن كل ذلك لم ينفعها كثيرا في ديمومتها أو في بقاء حكمها طويلا، فقد استغلّ خصوم الأسرة الأموية نقاط الضعف والمطبّات أو الأخطاء الكبيرة التي وقع فيها الخلفاء والولاة الأمويين، استغلالا إعلاميا سلبيا معاكسا. من ذلك تعصّبهم العنصري وضعف سياستهم الداخلية وسوء سياساتهم المالية لاسيما في العقود الأخيرة من حكمهم؛ فقام الدعاة العباسيون بتحريض القبائل العربية التي استوطنت في شرق العالم الإسلامي ولاسيما في إيران، وكذلك القوميات غير العربية من أهل البلاد الأصليين للقيام بالثورة المسلّحة ضد الأمويين. ومن الواضح أن للحرب النفسيّة التي شنّها العباسيون على الأمويين وللإعلام المضاد بمختلف أنواعه الأثر الأكبر في تقويض أركان الخلافة الأموية ووضع حد لها. لقد تحقّق ذلك فعلا للعباسيين بمقتل آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد (126-132هـ/ 744-750م) في المدينة الساحلية (أبو قير) بمصر سنة 132 هجرية (750م)، وإن كان هذا الخليفة

(1) سلافة فاروق الزعبي، صورة العرب في الإعلام الأمريكي، عمان 2006، ص185

يعدّ واحدا من أعظم القادة العسكريين ليس فقط في العصر الأموي بل عبر جميع العصور الإسلامية المتعاقبة.[1]

ومما لاشك فيه أن العباسيين قد أفادوا فائدة كبرى من الأخطاء الإعلامية القاتلة التي وقع فيها أسلافهم الأمويون مما جعلهم يحرصون كل الحرص على الكتمان الشديد في كثير من الأمور السياسية، أو في الحرص على عدم البوح أو الكشف أبدا عن أسماء هؤلاء الذين تمّ اضطهادهم أو قتلهم أو من قاموا بحبسهم، ولاسيما خصومهم السياسيين من العلويين أو حتى من الهاشميين. لقد استمروا في اتباع تلك السياسة حتى نهاية عهد آخر خلفائهم في أواسط القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي. لقد كانوا يفعلون ما يريدون فعله من التنكيل بخصومهم السياسيين على نحو عام بسرية تمامة دون أي ضجّة إعلامية ولا حتى إخبار المقربين من الناس منهم إلا اذا استدعت الضرورة الملحّة إلى ذلك.

فعلى سبيل المثال أن الخليفة العباسي الراضي بالله (322-329هـ/ 934-940م) بعد أن أمر بقطع يد ثم لسان الوزير أبي علي محمد بن مقلة في سنة 328 هجرية (940م) والذي توفي بعد ذلك بأيام معدودة، تمّ كل ذلك بسرية تامة دون أدنى ضجّة إعلامية. وكما هو معروف أن ابن مقلة كان اشهر من نار على علم في عالم السياسة والذي كان أيضا على درجة عالية من التربية والثقافة الرفيعة المستوى التي أهّلته ليتبوا أعلى المراكز في الدولة العباسية، حيث صار وزيرا على

---

(1) من تلك السياسات الداخلية الخاطئة استمرار فرض ضريبتي الجزية والخراج على الفرس المجوس حتى بعد اعتناقهم الدين الإسلامي، وإن كان عمر بن عبد العزيز قد ألغى ذلك القرار المجحف، غير أن القرار على ما يبدو قد أعيد إلى ما كان عليه بعد وفات ذلك الخليفة الصالح في سنة 101 هجرية.

ثلاث دفعات لثلاثة من خلفاء بني العباس. فكانت السرية قد شملت التعمية على جميع منجزاته الثقافية التي لا علاقة لها بالسياسة فلم يصل إلينا أي شيء من أعماله الخطّية مع ما عرف به من أنه كان وحيد عصره في عالم الخطاطة حيث كان يعد المهندس الأول للخط العربي المنسوب الجيد في العصر العباسي الوسيط بعد أن انتهت اليه رئاسة الخط في العراق وجميع الأقاليم المشرقية.[1]

وفي الأرجح أن السلطة العباسية في عهد الراضي بالله قد عملت جاهدة على طمس كل ما يمت بصلة إلى هذا الخطاط المبدع.[2] ليس هذا فقط بل لم يصل إلينا أي شيء من مؤلفاته وديوان شعره التي أشار إلى وجودها المؤرخون في العصر العباسي، وكذلك لم يصل إلينا أي نموذج على نحو مؤكد لما دبلجته أنامله من روائع الخط العربي المنسوب مع أنه كان مشهودا له بالبراعة المطلقة في عالم الخط العربي.

ومن الوسائل الإعلامية الأخرى التي كانت تتبع في إظهار عظمة الخلافة العباسية وثبات أركانها إصدار نقودا إعلامية فضيّة أو ذهبية تعرف بنقود أو مسكوكات (الصلة) التي كانت تضربها الدولة في المناسبات الخاصة والتي سبق أن تطرقت إلى بعضها في الفصل الخاص بالنقود. لقد كان إصدارها يتم على غرار إصدار الطوابع البريدية التي تطبع وتوزع في المناسبات الإعلامية الخاصة التي تدعو إلى إصدار مثل تلك الطوابع التذكارية في مختلف بلدان العالم اليوم.

ويستمر العباسيون في حكم معظم الأقاليم العربية والإسلامية لأكثر من خمسة قرون متتابعة؛ غير أن لم تكن جميع الأقاليم الإسلامية تابعة لهم؛ فمنذ

---

(1) ابن خلكان، شمس الدين احمد بن محمد، (ت 681 هـ)، وفيات الاعيان وأبناء الزمان، القاهرة 1948، 4/ 288

(2) شاكر محمود الجبوري، المدرسة العراقية في الخط العربي، بغداد 2001، ص202

البداية استقلت بلاد الأندلس وابتعدت عن سيطرتهم ثم استقلت مقاطعات كثيرة مبتعدة عن سيطرة الأسرة العباسية في شرق العالم الإسلامي. أما في غرب العالم الإسلامي فبالإضافة إلى بلاد الأندلس انتزعت الأقاليم المغربية تباعا من أيدي العباسيين بدأ بأقصى الأقاليم في غرب العالم الإسلامي وانتهاء بمصر ثم بلاد الشام.

من البديهي أن الفاطميين بمصر كانوا الأكثر أو الأشد خطورة على العباسيين من الأمويين في الأندلس البعيدون جدا عن مركز حكمهم. إن خطورة الفاطميين في مصر والشمال الأفريقي كله الذي صار تابعا لحكمهم، أنهم كانوا يتبعون واحدا من المذاهب الشيعية المعروفة فهم يعدّون أنفسهم من العلويين الأقرب إلى رسول الله، ومن ثمّ الأحق بالخلافة من العباسيين. ومن الواضح أنهم والعباسيين كانوا يتبادلون المقت والحقد والكراهية؛ فكانت وسائل الإعلام المتيسرة لهما تعمل بكل همّة ونشاط في إظهار الطرف الآخر عند الجمهور المتلقي في أسوء صورة وفي أبشع ما يمكن أن يكون. وقد لعب الكتبة من المؤرخين والأدباء ورجال الدين دورا كبيرا في الحرب الإعلامية تلك فقد ظلّت أبواق الإعلام تنفخ بشدة وبصوت مدوّي وشديد طوال بقاء الفاطميين في حكم مصر حتى تقوّضت أركان دولتهم نهائيا على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي في النصف الثاني من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، ولاشك أنه كان للإعلام كان دورا مهما في ذلك؛ وقد ظلت تلك الكراهية عند المؤرخين قائمة لقرون طويلة تلت تاريخ سقوط دولتهم.

ومع ذلك فإن الأيوبيين عندما أنهوا الوجود السياسي للخلافة الفاطمية أبقوا على الأنظمة الإدارية وساروا بها من حيث انتهى الفاطميون؛ غير أنهم قاموا من بداية وفاة آخر خلفائهم العاضد في سنة 567 هجرية (1171م) ليس

فقط بإعادة مصر إلى كنف الخلافة العباسية على الصعيد الرسمي على الأقل قاموا بتغيير شعار الإسماعيلية وقطعوا من الآذان (**حيوا على خير العمل**) وشرعوا في تمهيد أسباب الخطبة لبني العباس في العراق وأمروا برفع كل ما يمت بصلة للمذهب الإسماعيلي من الكتابات في الجوامع بما في ذلك أسماء الخلفاء القاطميين. وبالنسبة للنقود رفع منه ليس فقط أسماء الخلفاء الفاطميين بل أيضا جميع الشعارات الخاصة بهذا المذهب؛ مثل (**علي ولي الله**) و(**علي أفضل الوصيين ووزير خير المرسلين**)، وغيرها من الشعارات الإعلامية التي تمجد المذهب الإسماعيلي التي كانت تظهر تباعا على النقود الفاطمية والدول التي كانت تدين بولائها لهم مثل الدولة (الصليحية) التي قامت في اليمن. ومن المؤكد أن الأيوبيين لم يكتفوا إعلاميا بذلك لتغيير أفكار الناس في مصر لنبذ المذهب الإسماعيلي والقضاء على أفكاره الدينية وما يترتب على ذلك من الأمور الحياتية أو الدنيوية وبخاصة أن الخلافة الفاطمية ظلت قائمة في الشمال الأفريقي سواء كان ذلك في المغرب الأقصى أو في مصر زهاء قرنين من الزمن. ولهذا السبب فان الأيوبيون قاموا بإنشاء العديد من المدارس الدينية في القاهرة أو في غيرها من المدن المصرية لتدريس المذاهب السنية الأربعة. ومن الواضح أيضا أن الأيوبيين أو غيرهم اتبعوا مختلف الوسائل الإعلامية لمساعدتهم في الوصول إلى هدفهم هذا.

ويكفي هنا أن نلفت انتباه القارئ الكريم إلى نموذج واحد من هذا النوع من الإعلام المرير الذي كان العباسيون يشنّون على الفاطميين وعلى خلفائهم على لسان المؤرخين ورجال الدين المسلمين من أهل السنة والجماعة كما كتب واحد من أعلام التاريخ الإسلامي والفقهاء المتأخرين: (.... **في هذه السنة (سنة322هـ/ 934م) مات المهدي صاحب المغرب وكانت أيامه خمسا وعشرين**

سنة وهو جد الخلفاء المصريين الذين يسمونهم الجهلة الفاطميين. فإن المهدي هذا ادعى أنه علوي وإنما جدّه مجوسي. قال القاضي أبو بكر الباقلاني جد عبيد الله الملقب بالمهدي مجوسي دخل عبيد الله المغرب وادعى أنه علوي ولم يعرفه أحد من علماء النسب. وكان باطنيا خبيثا حريصا على إزالة ملة الإسلام، أعدم العلماء والفقهاء ليتمكن من إغواء الخلق، وجاء أولاده على أسلوبه؛ أباحوا الخمور والفروج وأشاعوا الرفض...."[1]

ومما لا شك فيه أن في هذا القول الكثير من المبالغة والتهويل. ومع ذلك فإن هذه الحرب الإعلامية وتشويه صورة أو سمعة الفاطميين عند الجمهور قد لعبت دورا كبيرا في عدم تمكن الدعاة الفاطميين من تشييع غير أقلية ضئيلة من الشعب المصري رغم أن في مصر ديوانا خاصا للدعاية الدينية للمذهب الفاطمي على رأسها (داعي الدعاة) الذي كان يعدّ وزيرا للإعلام الديني كما ذكرت ذلك سابقا. ولاشك أن قلة عدد المعتنقين للمذهب الفاطمي قد سهل من مهمة الأيوبيين عند وضعهم حدا لحكم الفاطميين لمصر.

ومن الواضح أيضا أن الذي ساعد على أيقاف انتشار المذهب الإسماعيلي على نحو عام في مصر إتلاف أو حرق معظم أو الكثير جدا من الكتب التي صنّفت في ظلّهم ولا سيما ما يتعلق الأمر بكتبهم ومصنفاتهم الدينية. ومما يؤكد ذلك أن لم تصل إلينا أي من كتبهم بمختلف أنواعها؛ والواقع ليس بين أيدينا اليوم سوى مصحف واحد كامل محفوظ في الوقت الحاضر في متحف جستر بيتي Chester Beatty في العاصمة الايرلندية دبلن مؤرخ من سنة

(1) السيوطي، المصدر السابق، ص253

428 هجرية (1037م)، وبضعة أوراق مبعثرة من مصاحف أخرى وغيرها من الكتب موزعة في عدد من المتاحف الأوربية.[1]

مع العلم أن كانت هناك مكتبات عظيمة في مصر؛ فقد ذكر أن في خزانة الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله ما يزيد على مائتي الف كتاب. ومن المؤكد أيضا أن أكثر الخلفاء الفاطميين ولعا بجمع الكتب النفيسة كالخليفة المستنصر أبو تميم (427-487 هـ/ 1035-1084م) حيث كانت خزانة الكتب في عهده تحوي على أكثر من ستمائة الف كتاب. ولم يكن الخلفاء الفاطميين الوحيدين الذين يعشقون الكتب بل أن الكثير من وزرائهم كانت لهم هواية كبيرة بجمعها والعناية بها.[2]

ليس هذا فقط بل حتى لم يبق شيء من عماراتهم الدنيوية ولا حتى أي من قبورهم. ولاشك أن الإعلام أيضا قد لعب دورا قويا ومؤثرا في القضاء على المذهب الفاطمي في مصر. ومن الواضح أن الإعلام السلبي كان من أهم من الوسائل التي استخدمها المعارضون أو المناهضون للمذهب الإسماعيلي في مصر ولاسيما من خلال الخطب من فوق أعواد المنابر في الجوامع والدعاة فضلا عن تشييد العديد من المدارس الدينية كرّست للمذاهب السنية الأربعة المعروفة التي أقام صرحها الأيوبيون في القاهرة وفي غيرها من المدن المصرية.

وقد يبدو غريبا أن الطريقة التي اتبعها الفاطميون في الترويج للمذهب الإسماعيلي في العراق تبدو مختلفة تماما، مما يدل حتما على افتقار الفاطميين للتنظيم الإعلامي الجيد. ومن الواضح أيضا أن رجال الشيعة الاثني عشرية

---

(1) Contadini, Anna, Fatimid Art, London1998. P. 10

(2) المقريزي، المواعظ والاعتبار، 1/ 409

الكبار في العراق الذين يعرفون بـ(الأمامية) أيضا، لم يكونوا يكنوا للفاطميين أدنى مودة لاختلافهم معهم في أمور-مذهبية أساسية.[1] فعندما تبعت العراق الدولة الفاطمية في مصر لمدة عام واحد فقط وذلك في الفترة المحصورة بين ستي (449- 450هـ/ 1957-1058م)؛ الزمن الذي دخل فيه القائد التركي أبو الحارث البساسيري إلى بغداد باسم الخليفة المستنصر الفاطمي (427-487هـ/ 1035-1094م) في مصر سادت الفوضى في بغداد وفي عموم المدن العراقية واتجه الناس إلى السلب والنهب كنتيجة مباشرة للطائفية في أقذر وأبشع صورها. بانهزام البساسيري أمام الجيش السلجوقي بقيادة طغرلبك وقتله في آخر سنة 450 هجرية (1048م) استتبت الأمور مجددا وقد لوحظ أن تبعية العراق للفاطميين خلال عام كامل لم يترك أثرا إيجابيا في نفوس الناس؛ ولاشك أن الإعلام المضاد للفاطميين قد لعب دورا فاعلا في توجيه الرأي العام في الاتجاه المناهض للمذهب الإسماعيلي في العراق.

من المؤكد أيضا أن في الإعلام الموجّه ضد الفاطميين في الأقاليم العربية والإسلامية كان فيه الكثير من المبالغة والتهويل، فقد عرف عن الفاطميين بالتسامح الديني وازدهار الصناعات المختلفة والتجارة في مصر، باستثناء سنوات معدودة من عهد سادس خلفائهم الحاكم بأمر الله (386-411هـ/ 996-1020م)، فلم نسمع باضطهادات عنصرية أو طائفية إلا قليلا؛ ليس هذا فقط بل حتى أن بعض الوزراء في عهد بعض خلفائهم كانوا من

(1) منها أن الفاطميين لا يقولون بتوقف الإمامة عند المهدي المنتظر عند الأمامية الاثنتي عشرية الذي لا يرون أنه أماما أصلا وان الإمامة انتقلت من موسى بن جعفر إلى ولده إسماعيل واستمرت تنتقل بعد ذلك إلى أن وصلت إلى جدهم عبيد الله.

أهل السنة والجماعة كما أن بعضهم كان على النصرانية والقليل منهم من اليهود.

ومن الوسائل الإعلامية الأخرى التي كانت تتبع في إظهار عظمة الخلافة العباسية وثبات أركانها إصدار نقودا إعلامية فضية أو ذهبية تعرف بـ(نقود الصلة) التي كانت تصدرها الدولة في المناسبات الخاصة والتي سبق أن تطرقت إلى بعضها في الفصل الخاص بالنقود. لقد كان إصدارها يتم على غرار إصدار الطوابع البريدية التي تطبع وتوزع في المناسبات الإعلامية الخاصة في مختلف بلدان العالم في زمننا هذا.

ج- الصليبيون:

ربما واحدة من أهم أعمال الطمس للحضارة العربية والإسلامية في التاريخ الوسيط هي تلك الأعمال التي قام بها الصليبيون عند اجتياحهم للأجزاء الغربية من سوريا وفلسطين التي استمرت نحو القرنين من الزمن على شكل ثمان أو تسع حملات عسكرية كبرى قادها ملوك وأمراء ورؤساء أوربا. كانت الحملة الأولى تلبية للصرخة التي أطلقها البابا أوربان الثاني Urban II (1088-1099م)؛ فقال من جملة ما قال في خطبة مشهورة له أمام أمراء ورؤساء أوربا الذين اجتمعوا في جنوب فرنسا: (.... **إن بيت المقدس تصرخ وتستغيث بكم أيها الشعب الأوربيالنبيل. إن كنيسة القيامة هي بيد العرب المسلمين التي حوّلوها إلى مسجد. ليس هذا فقط بل أنهم يعرقلون أو يمنعون الحجيج من المسيحيين من زيارة الأماكن المقدسة. يجب أن تسرعوا في السير الحثيث إلى فلسطين للدفاع عن تلك الأماكن المقدسة عند جميع المسيحيين في الأرض..**

على الجميع أن يسيروا إلى هناك الغني والفقير على حد سواء.... على الأوربيين أن يوقفوا التقاتل فيما بينهم وأن ينصرفوا بدلا عن ذلك لإنقاذ الأماكن المقدسة ولنصرة إخوانهم المسيحين... إنها حرب مقدسة بكل ما لهذه الكلمة من معنى.... إن المسيح نفسه سوف يقودهم إلى النصر المبين لأنهم يقومون بما يريد هو أن يقوم به... إن من يستشهد منكم تلك الحرب المقدسة سوف تتحول جميع سيئاته وخطاياه إلى حسنات... وإنه سوفيلتحق بربنا بيسوع المسيح...).

فهل هناك إعلام مضلل مثل هذا؟ إنه يذكرنا بالإعلام المضلل الذي كان قد تبناه جوزيف كوبلز لتضليل الشعب الألماني لما يزيد على العشر سنوات. فكما يلاحظ القارئ الكريم أن في هذه الخطبة التحريضية الكثير من المغالطات والأكاذيب فإن المسلمين لم يحوّلوا كنيسة القيامة إلى مسجد إطلاقا ولم يمنعوا أحدا من الحجيج المسيحيين الدخول إلى بيت المقدس. لقد جاء ذلك بوضوح تام فيما يعرف بـ(العهدة العمرية) وهو صك الأمان الذي كتبه عمر بن الخطاب لأهل القدس الشريف. لقد أعطاهم: أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم.... وأن لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم.... وسقيمها وبريئها وسائر منتهياته لا تسكن.... وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل وعليه مثل ما على أهل إيلياء

(القدس) من الجزية...".[1] إلى آخر عهدة الأمان هذه؛ وقد شهد عليه هذا الأمان كل من خالد بن الوليد وأبوعبيدة بن الجراح وغيرهم من قادة المسلمين.



(شكل56)

لوحة زيتية محفوظة في الفاتيكان تمثل البابا أوربان الثاني يحرض رؤساء وأمراء أوربا في سنة 1095م لاسترجاع مدينة القدس والأراضي المقدسة من أيدي العرب المسلمين

ليس هذا فقط وقد يكون من المفيد أن أذكر بهذا الصدد أن عند زيارة عمر بن الخطاب لبيت المقدس وكان برفقته البطريق سوفرونيوس Sophronius وكانا داخل كنيسة القيامة عندما حان وقت الصلاة، فخرج عمر وصلى خارج الكنيسة وقال للبطريق: (**لو صليت داخل الكنيسة لأخذها المسلمون من بعدي وقالوا هنا صلى عمر**).

وفي سبيل تحقيق ذلك الهدف بثّ البابا الدعاة إلى جميع المدن الأوربية

---

(1) الطبري، 3/ 609

الكبرى وحتى الصغيرة منها لغرض الإعلام النشط وتهيأت الأذهان من أجل تلك الحرب المقدّسة كما يراها هو ورجال الدين المسيحيين في أوربا في تلك الحقبة الزمنية (شكل56).

وكان معظم هؤلاء الدعاة من القساوسة والرهبان، وعلى رأسهم الراهب الفرنسي بيتر الناسك Peter the Hermit. الذي لم ينتظر ليصحب الحملة العسكرية الكبرى التي كان على رأسها ملوك أوربا؛ بل سار إلى بيت المقدس عن طريق القسطنطينية وهو على ظهر حماره يصحبه عشرات الألوف من الصبيان والفلاحين والمشردين. وعند دخولهم إلى بلاد الأناضول أحرقوا القرى والمدن الإسلامية الصغيرة وقتلوا الألوف من المسلمين؛ غير أنهم التقوا أخيرا بالجيش السلجوقي الذي تمكن من إفنائهم عن بكرة أبيهم ولم يسلم منهم إلا القليل. وقد تمكن بيتر الناسك من النجاة بجلده والعودة إلى فرنسا حيث توفى هناك.

لقد لعب الإعلام في التهيئة للحملة الصليبية الأولى الدور الأعظم حيث تمّ تحريك الجماهير وتأليب معظم الشعوب الأوربية ضد العرب والمسلمين عموما. كان المراد أو الهدف من تلك الحملة العسكرية الكبرى طرد العرب والمسلمين من مدينة القدس وعموم الأراضي المقدسة وإرجاعها للسيطرة المسيحية؛ فكان من نتيجة ذلك الإعلام المنظم أن شارك في الحملة الصليبية الأولى معظم ملوك وأمراء أوربا.

وقد درس المؤرخون الغربيون النجاحات التي حققتها الحملة الصليبية الأولى دون غيرها من الحملات، وأكد بعضهم إن لم يكن معظمهم، أن السر في ذلك لا يعود إلى تفوّق وشجاعة الفرسان والمقاتلين الفرنج أو إلى حسن تدريبهم كما طاب للبعض من قدامى المؤرخين الأوربيين القول، بل أفادوا أن الفرسان والمقاتلين العرب والمسلمين عموما لم يكونوا أبدا أدنى شجاعة أو أقل تدريبا أو

أصلب عودا في المنازلة والقتال، بل قد يكون العكس هو الصحيح من الناحية التقنية والاستراتيجية على الأقل؛ فالاعتماد في لباس الحرب عند العرب كان على الدروع المنسوجة التي كانوا يرتدونها فوق قمصانهم والتي قوامها أسلاك الحديد القوية الخفيفة الوزن التي تسهل لهم أيضا الحركة والمراوغة في القتال خلافا للصفائح المعدنية الثقيلة التي كان يرتديها المقاتل الصليبي التي تحدد حركة المقاتلين ومراوغتهم في المعارك سواء كانوا من المشاة أو الفرسان. ثم أن الخيول العربية كانت هي الأقوى والأسرع في الجري وكذلك الكر والفر؛ ليس هذا فقط بل أنها كانت أكثر تحملا ومطاولة وصبرا في القتال.[1]

أن السبب في الانتصارات التي حققها الصليبيون في حملتهم الأولى يعود إلى عدة أمور. أهمها أن المسلمين في أول الأمر لم يفهموا طبيعة الحركة الصليبية ولم يتبينوا غرضها الاستعماري وأن الأوربيين جاؤوا ليقيموا فظنوها مثل الحملات التي كان يشنها بين الحين والحين، ولذلك لم يهتم المسلمون المنقسمون على أنفسهم بالتكتل أمام ذلك الخطر الماحق. ليس هذا فقط بل وجد كل فريق في الوجود الصليبي فرصة مواتية للقضاء على خصمه. كما أن الخلافات الداخلية قد شغلت العباسيين وكذلك الفاطميين عن اتخاذ أي إجراء لمواجهة الصليبيين. وهكذا وجد الصليبيون الطريق مفتوحا أمامهم إلى السيطرة على معظم بلاد الشام وفلسطين.

هذا من جهة ومن جهة أخرى ساعد الصليبيون في حملتهم الأولى الاندفاع السريع في البلاد الإسلامية كثرة جموعهم حيث كان تعداد جيوشهم تبلغ نحو

(1) لقد أدرك الصليبيون بعد حملتهم الأولى المميزات العظيمة للخيول العربية فأخذوا في تزاوجها مع خيولهم الضخمة والثقيلة فحصلوا بذلك على سلالة جديدة من الخيل أفضل بكثير مما كان لديهم منها.

مليون،[1] شارك في تلك الحملة معظم ملوك أوربا وأمراءها ورؤساءها ولاسيما الفرنسيين والإنجليز والألمان وغيرهم؛ غير أن من سوء حظ العرب والمسلمين عموما أن العالم الإسلامي في تلك الحقبة الزمنية كان مفككا مقسّما إلى دويلات متفاوتة في الكبر؛ كانت أقرب إلى ما يعرف بدول الطوائف تتناحر وتتقاتل فيما بينها.[2] وقد ذكر مثل هذا القول تقريبا في سبب فشل العرب والمسلمين في التصدي بنجاح إلى الجيش الصليبي في حملته الأولى.

والحق إن الحملة الصليبية الأولى كانت من أكثر الحملات العسكرية نجاحا بالنسبة للأوربيين؛ وكما كتب هؤلاء المؤرخون الأوربيون أنه عندما استطاع الصليبيون في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي أن يحصلوا على موقع قدم لهم في العالم الإسلامي؛ تحديدا في شرق البحر الأبيض المتوسط، كان العالم الإسلامي، كما ذكرت، أوصالا مفككة بين الفاطميين من جهة وأسر الأتابكة التي كانت في تناحر وحروب مستمرة فيما بينها؛ هذا من جهة ومن جهة أخرى أن الخلافة العباسية في بغداد كانت عمليا مسلوبة الإرادة خاضعة للسلاجقة الكبار. لذلك لم يجد الصليبيون ما يحول دون زحفهم إذ لم يكن هناك من يقف في وجه تقدمهم وقفة جادة؛ فتداعت أمامهم المدن والحصون توجّهت ميمنتهم نحو أنطاكيا، وسارت ميسرتها باتجاه الفرات فاستولت على مدينة الرها Edessa (أورفا) واندفع القلب نحو بيت المقدس.[3] وكانت في ذلك الوقت تابعة للفاطميين.

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 8/ 185–189

(2)Cantor.،Norman F. ،Medieval History ،*second printing* ،USA ،1970 ،pp. 317-318

(3) تعد مدينة القدس واحدة من بين أقدم المدن في العالم وأعرقها تاريخا. مصّرها الملك =

ومن البديهي أن هدفهم الأساس، أو المعلن عنه على الأقل، كان مدينة القدس التي أدركوها في ربيع سنة 492هجرية (1099م). وبعد حصار دام أربعين يوما استطاعت القوات الصليبية اقتحام المدينة وذلك في صيف سنة 492هجرية (1099م).[1] وبهذا الاقتحام بدأت مذبحة من أبشع المذابح في تاريخ المدن، فلم ينج من العرب المسلمين إلا القليل جدا، إذ انطلق هؤلاء الهمج في شوارع بيت المقدس وإلى الدور والمساجد يقتلون كل من يصادفهم من رجال ونساء وأطفال دون تمييز؛ فالتجأ الكثير من سكانها المسلمين إلى الحرم الشريف، غير أن في اليوم التالي اقتحم الصليبيون أبواب الحرم الشريف فقتلوا في ساحته وفي داخل قبة الصخرة والمسجد الأقصى جميع الذين التجأوا إلى هناك.

ولبث الفرنج في القدس أسبوعا كاملا يقتلون فيها العرب المسلمين، ويذكر المؤرخ ابن العبري (ت685 هـ) في كتابه (تاريخ الدول) الذي كان قد نصّب في سنة 1264 ميلادية جاثليقا على جميع كنائس السريان في العراق وإيران وعموم المشرق، بأنه قتل داخل الحرم الشريف وحده ما يزيد على سبعين ألف

= الكنعاني (ملكي صادق) في القرن التاسع عشر قبل الميلاد. ويروى أن ملكي صادق هذا كان معاصر لإبراهيم الخليل عليه السلام (نسيم وهبه الخازن، من السامیين إلى العرب، بيروت 1962، ص9). وقد سمى الكنعانيون مدينة القدس باسم (يروشالم) أي مدينة السلام. وعرفت عند الآشوريين والبابليين باسم (أورشاليمو).

والقدس من المدن التي لها تاريخ حافل بالأحداث الجسام؛ فقد حوصرت في الألف الأول قبل الميلاد وحده سبع عشرة مرة وهدمت مرتين؛ وربما أن أعظم نكبة كبرى حلّت بها في العالم القديم هي عندما استولى عليها العبريون وفتكوا بأهلها في أواخر الألف الثاني قبل الميلاد.

(1) عبد الحميد زايد، القدس الخالدة، القاهرة 1974، ص214-215

نفس.[1] وكتب مؤرخ صليبي كان مرافقا للحملة أن جنودهم وخيولهم كانت تغوص حتى سيقانها في دماء المسلمين وأن الداخل إلى بيت المقدس ليجد بعد المذبحة أكواما من رؤوس النساء والأطفال والشيوخ وأكفهم وأقدامهم فضلا عن جثثهم الممزقة في جميع شوارع المدينة وساحاتها.[2] وقد ذكر القائد الصليبي الفرنسي ريموند أجيل Raymond the Agile نفسه أنه عندما أراد في اليوم التالي أن يصل إلى الحرم الشريف أخذ يتلّمس طريقه بين الجثث وأكوام الرؤوس وأكف والأقدام المقطوعة والدماء التي بلغت ركبته.[3]

ويذكر ابن القلانسي أن يهود بيت المقدس التجأوا إلى معبدهم الكبير ، غير أن تقرر إلقاء القبض عليهم بحجة أنهم ساعدوا المسلمين، فأشعلوا النار في المعبد ولقي اليهود في داخله مصرعهم مشتعلين.[4] وتذكر المصادر الأوربية والعربية على حد سواء أنه لم ينج من القتل من العرب المسلمين وكذلك من اليهود إلا القليل جدا، وقد ظلّت شوارع القدس وساحاتها مصبوغة بالدماء لفترة طويلة بعد الاحتلال الصليبي. ومن الأمور الغريبة حقا أن الأمراء الصليبيين الذين فعلوا فعلتهم الشنعاء هذه ساروا جميعا في موكب يتسم بالخشوع التام إلى كنيسة القيامة ليؤدوا صلاة الشكر فيها.

أين هذه المذابح من ذلك الأمان الذي أعطاه عمر بن الخطاب (ﷺ) لأهل بيت المقدس عندما تمّ تحريرها من الاستعمار البيزنطي؟ إلى آخر ذلك الأمان العظيم الذي شهد عليه خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف

---

(1) المصدر نفسه، ص215

(2)Hitti ،Philip. History of the Arabs ،London ،1958 ،p.639

(3) عبد الحميد زايد، المصدر السابق، ص 216

(4) المصدر السابق، ص215

والذي عرف في التاريخ بـ(العهدة العمرية). إن ذلك الأمان يعد بحق من أروع الإنجازات الإنسانية في تاريخ الحروب. ليس هذا فقط بل سمح المسلمون للجيش البيزنطي بالانسحاب بحرية تامة؛ فكان الجندي البيزنطي آمن على نفسه وعلى ماله حتى يصل إلى مأمنه لقاء فدية صغيرة.

لقد استولى الفرنج على جميع المباني والممتلكات داخل مدينة القدس وحرّم على العرب والمسلمين عموما دخول المدينة تحريما قاطعا. ليس هذا فقط بل اعتبروا المسيحين الأقباط هراطقة خارجين عن الدين المسيحي فأصدروا قانونا منعوا بموجبه منعا باتا من دخول القدس لزيارة كنيسة القيامة وكذلك الأماكن المقدسة الأخرى في الأراضي التي صارت تابعة لهم.

أما بالنسبة إلى الحرم القدسي فإنهم نهبوا ما في داخل قبة الصخرة والمسجد الأقصى من تحف ثمينة،[1] ثم حوّلوا قبة الصخرة إلى كنيسة أطلقوا عليها اسم المعبد المقدس Templum Domini.[2] وقلعوا الهلال الذي كان يعلو قبة الصخرة ووضعوا بدلا عنه صليبا كبيرا شأن تلك الصلبان التي تعلوا قباب الكنائس المسيحية في كل مكان.[3]

ثم اتخذ ما يعرفون بـ(فرسان الهيكل) Knights Templars المسجد الأقصى مقرا لهم؛ مع ما لهذا المسجد من القدسية العظيمة لدى المسلمين؛ فهو مسرى الرسول (ﷺ) وأولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين. لقد سمى العرب تلك الفرقة بـ(فرسان الداوية) وكانت من ألد أعداء العرب المسلمين وأكثرهم تعصبا حيث نذر أفراد تلك الفرقة أنفسهم لقتل المسلمين وإفنائهم.

---

(1) ستيفن رانسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، بيروت 1967، 1/ 408

(2) بنيامين التطيلي، رحلة بنيامين، تحقيق عزرا حداد. بغداد 1945، ص101

(3) الأصبهاني، العماد الكاتب، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص141

لقد اتخذت تلك الفرقة جزء من البناء مقرا لهم معتبرين أن ذلك البناء هو البيت الحقيقي للرب. وقد صار شكل قبة الصخرة شعارا لفرقتهم ونقلوا طرازها ذي الشكل المثمن التخطيط إلى أوربا حيث ظهرت كنائس مشابهة لها في عدد من المدن الأوربية.[1] ويكتب المؤرخون المسلمون أن الفرنج زينوا قبة الصخرة بالصور والتماثيل والأيقونات وأفردوا لموضع القدم (الصخرة) قبة صغيرة مذهبة محمولة على أعمدة رخامية وقالوا إنها موضع قدم المسيح فبات عندهم مقاما للتقديس والتسبيح.

ومع ذلك لم تسلم الصخرة المباركة من الطمس والإيذاء؛ فمما كتبه الأصبهاني ويؤيده في ذلك المؤرخون الأوربيون الذين كتبوا عن الحروب الصليبية بأن الفرنج كانوا يقطعون قطعا من الصخرة ويحملونها إلى المدن الأوربية ليبيعوها هناك بوزنها ذهبا حيث كانوا قد اتخذوا من ذلك تجارة؛[2] ويضيف إلى ذلك ابن الأثير بأن الذين كانوا يقومون بذلك العمل هم القساوسة أنفسهم الذين كثيرا ما كانوا يقومون بنقلها يبيعون بعضها إلى الكنائس في القسطنطينية وكبريات المدن الأوربية كانوا في تلك المدن لتودع في خزاناتها وتعرض على الجماهير على أنها من الذخائر الكنسية المقدّسة الجليلة القدر sacred relics. ليس هذا فقط بل أن القسس كثيرا ما كانوا يبيعون بعض تلك الكسر لحجيج بيت المقدس من أثرياء الأوربيين. ومن أجل ذلك اصدر ملوك الفرنج أمرا بتغطية الصخرة بألواح من الرخام حتى لا تختفي كليا نتيجة التكسير والتفتيت المستمر.[3]

---

(1) عبد الحميد زايد، المصدر السابق، ص200

(2) المصدر السابق، ص142

(3) ابن الأثير، المصدر السابق، 9/ 185

وفي سبيل الزيادة في طمس التراث الإسلامي غيّر الفرنج الكثير من معالم المسجد الأقصى وصاروا يسمونه بهيكل سليمان Templum Salomnis أو البلاط Palatium واتخذوا جانبا منه كنيسة والجانب الآخر مكانا لسكنى فرسان الهيكل. وحولوا أيضا البناء المعروف بـ(قبة السلسلة) التي كان عبد الملك بن مروان قد شيدها قبل قبة الصخرة إلى كنيسة صغيرة أطلقوا عليها اسم كنيسة قدس الأقداس.[(1)]

غير أن في الربع الأخير من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي وهي الفترة الزمنية التي تميّزت ببعض مظاهر الوحدة في العالم الإسلامي قاد الجيوش الإسلامية صلاح الدين الأيوبي ضد الفرنج فوجّه لهم ضربة قاصمة في معركة (حطين) الشهيرة التي وقعت في سنة 583 هجرية (1187م)؛ إنها المعركة الفاصلة التي تعد الضربة التي قصمت ظهر الغزاة الصليبيين (شكل57).

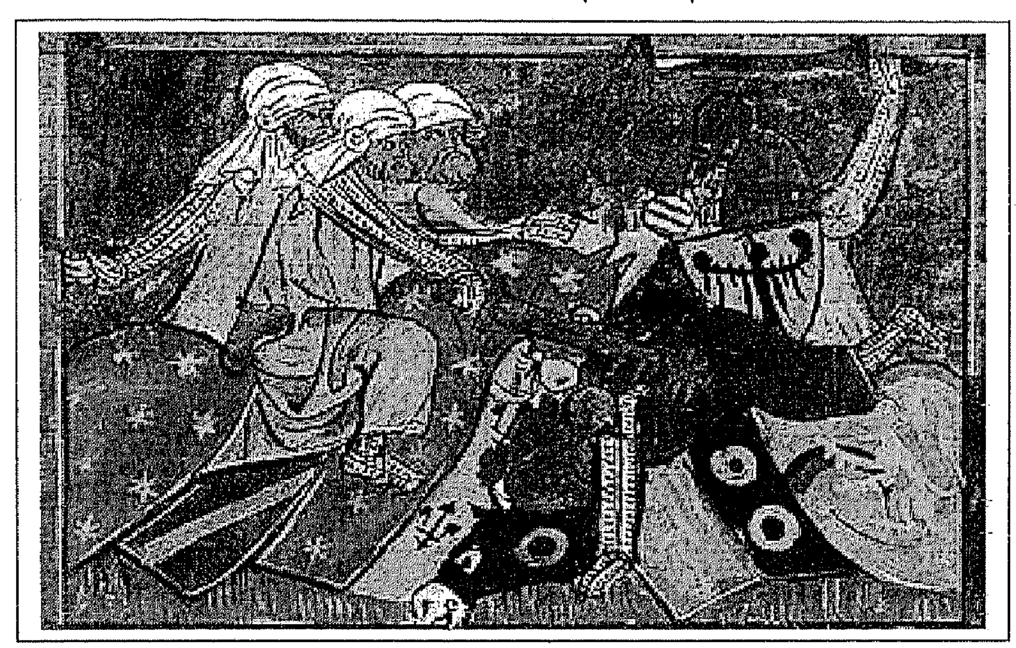
إن اندحار الصليبيين في تلك المعركة (حطين) قد مهّد الطريق تماما أمام الناصر صلاح الدين الأيوبي ليس فقط لاسترجاع بيت المقدس في الرابع والعشرين من شهر ربيع الثاني من سنة 583 هجرية (4/ 7/ 1187م) بل فلسطين برمتها باستثناء مدينة عكا الساحلية (شكل58).[(2)]

---

(1) يقال أن سبب بناء تلك القبة المرفوعة على ست أعمدة رخامية لتكون نموذجا لقبة الصخرة التي لا تختلف في التصميم عنها غير أنها أصغر بناء وأنه لا جدران فيها سوى من ناحيتها القبلية.

(2) توفي السلطان صلاح الدين الأيوبيليلة 27 من شهر صفر سنة 589 هجرية (1193م) عن سبعة وخمسين عاما بعد مرض قصير لم يمهله سوى بضعة أيام: "... ولم يترك في خزانته من المال سوى دينارا واحدا وستة وثلاثين درهما، ولم يترك دارا ولا عقاراولا مزرعة ولا بستانا، ولا شيئا من الأملاك". وقد دفن معه سيفه الذي قاتل به الفرنج الصليبيين. (ابن =

ومما يدل على سمو نفوس -قادة العرب المسلمين في تلك المعارك أنهم لم ينكّلوا بالفرنج أو يؤذوا أهل المدينة من المسيحيين خلافا تماما لما فعله هؤلاء عند اقتحامهم للقدس قبل ذلك بثمان وثمانين عاما عندما قتلوا سكانها من العرب المسلمين شرّ قتلة؛ بل سمحوا لهم بالمغادرة لقاء فدية صغيرة لا تتجاوز بضعة دنانير يدفعها كل رجل منهم بينما تمّ إعفاء النساء والأطفال من تلك الفدية.



(شكل57)

منمنمة من مخطوطة مؤرخة في سنة 1336 ميلادية

تمثل جانبا من الاشتباكات بين مقاتلين من العرب والصليبيين في الأراضي المقدسة

= كثير، الحافظ أبو الفدا، (ت 778هـ)، البداية والنهاية، بيروت، 1988، 13/ 2). إن من أروع كلمات الرثاء التي قيلت بحق صلاح الدين الأيوبي على قصرها وبساطتها ما كتبه القاضي ابن شداد الذي رافق صلاح الدين في حلّه وترحاله في قوله: "...**اللهم إنك تعلم إنه بذل جهده في نصرة دينك، وجاهد رجاء رحمتك فارحمه يا رب العالمين...**" (القاضي ابن شداد؛ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، القاهرة 1964، ص77).

ولما وصلت إلى الإمبراطور البيزنطي عمانوئيل الأول (1143-1180م) أنباء انتصارات العرب واسترجاع بيت المقدس كتب إلى صلاح الدين يلتمس منه إعادة كنيسة القيامة وغيرها من الكنائس المسيحية إلى الكنيسة الأرثوذكسية كما كان عليه الأمر قبل الاحتلال الصليبي لبيت المقدس، فأجيب لطلبه وفي مقابل ذلك أقر البيزنطيون وصاية صلاح الدين على الجالية العربية والإسلامية في القسطنطينية فأرسل إلى المسجد الإسلامي هناك الخطباء والمؤذنين والقراء.

أما بالنسبة إلى قبة الصخرة فقد أرجع المسلمون البناء إلى حالته القديمة فأزالوا معالم الكنيسة ورفع المذبح ومحيت كافة الصور وأخرج التماثيل وكافة الشارات من صلبان وأيقونات وغير ذلك. كما تسلق المسلمون القبة فنزعوا من فوقها الصليب الكبير المذهب الذي كان الصليبيون قد ثبتوه هناك بدلا من الهلال ووضعوا بدلا عنه هلالا كبيرا وجميلا. ورفع المسلمون أيضا الواح الرخام التي كان الفرنج قد كسوا بها الصخرة المشرّفة. وتمّ تزيين القبة من الداخل بالنقوش المذهبة وجددت بعض كسوات الجدران الرخامية.



(شكل58)

صورة مخيلّة أوربية للسلطان صلاح الدين الأيوبي

إن استعادة المسلمين لمدينة القدس قد أحدثت ألما وحزنا شديدين في عموم أوربا حتى ليذكر أن البابا أوربان الثالث Urban III توفى من هول الصدمة حال سماعه الخبر. ونتيجة للحملات أو يمكن القول للصرخات الإعلامية المدوّية للبابا جريجوري الثامن Gregory VIII والرسائل التي بعث بها إلى ملوك ورؤساء وأمراء أوربا يستحث فيها هممهم على العودة إلى الحرب لإنقاذ الأماكن المقدس من العرب والمسلمين ولاسيما أن الصليب الأعظم قد وقع بأيديهم عندما فتح صلاح الدين بيت المقدس.

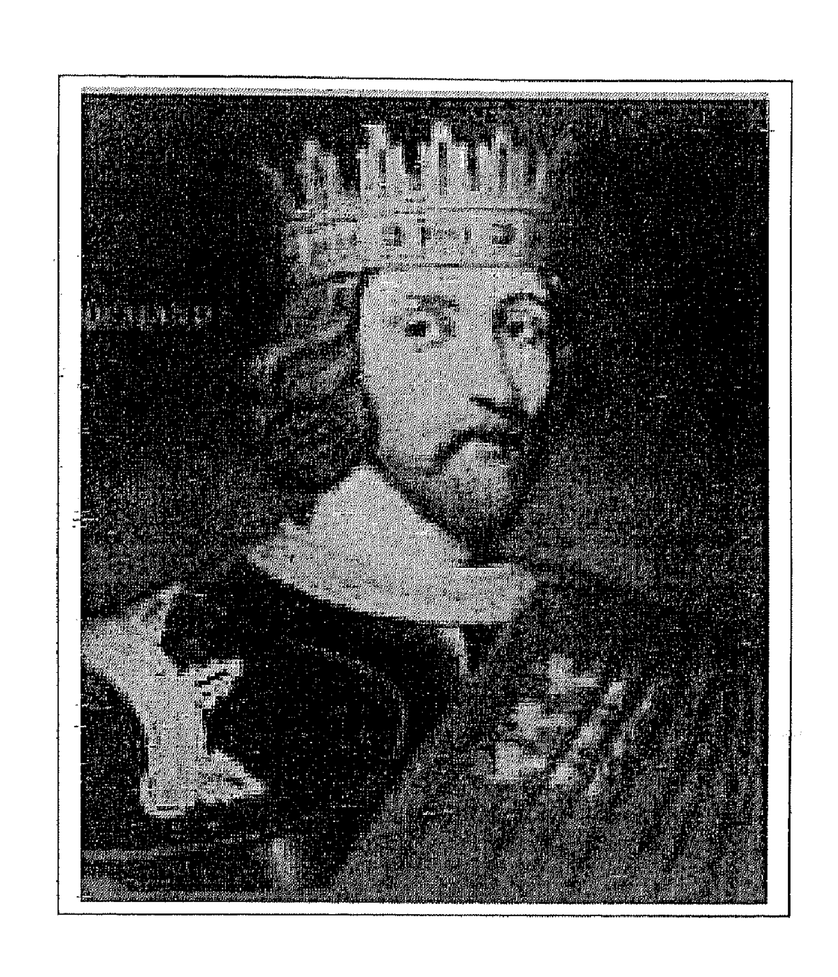
وهنا يمكن القول إن الإعلام المنظم الذي قد حقق نجاحا استثنائيا في عموم أوربا حيث تمكن رجال الدين الكاثوليك من إثارة ضجة إعلامية كبرى وعارمة

في تلك القارة؛ فخرجت مسيرات حزينة في كبرى المدن الأوربية يقودها القسس والشمامسة والرهبان يحمل بعضها صورة كبيرة للسيد المسيح منحنيا وواحدا من المسلمين من وراءه يضربه بالسياط. وتلبية لرغبة البابا تمّ فرض ضريبة جديدة خاصة في معظم الدول الأوربية عرفت بعشور صلاح الدين Saladin Tithe لجمع الأموال لتمويل الجيوش في سبيل استرداد بيت المقدس؛ ليس هذا فقط بل اعتبر البابا أن كل فرد يشارك في تلك الحروب يجبّ الله عنه ما تقدم من خطاياه وذنوبه وما تأخر.

لقد خرج من أجل ذلك ريتشارد الثاني ملك إنجلترا (1189-1199م) الملقب بـ(قلب الأسد) Richard the Lion heard، (شكل59)، وكذلك فيليب الثاني Philip II ملك فرنسا (1180-1223م) متجهين في سنة 586هجرية (1190م) لمحاربة المسلمين في سبيل استرجاع القدس وجميع الأراضي المقدسة؛[1] غير أن الحملة الصليبية الجديدة لم تتمكن من سوى القليل من المكاسب على الأرض، إلا أنها تمكنت بعد حصار طويل اقتحام أسوار مدينة عكا الساحلية والفتك بسكانها بما في ذلك جميع الجنود الذين كانوا يدافعون عن المدينة. وعلى ذلك يمكن القول إنها لم تحقق إلا نجاحا ضئيلا عاد بعدها الملك ريتشارد الثاني خائبا إلى بلاده.

---

(1) لقد وصلت الجيوش الأوربية إلى مدينة (عكا) الساحلية وحاصروها بعد سنة من خروجهم فنشبت الحرب بينهم وبين المسلمين استمرت سنة ونصف السنة أسفرت تلك الحروب عن صلح في سنة 588 هجرية (1192م) بين الجانبين، تبع ذلك رجوع ملوك أوربا مع معظم ما تبقى من جيوشهم خائبين إلى مواطنهم.



(شكل59)

صورة جدارية للملك الإنجليزي ريتشارد الثاني الملقب بقلب الأسد

وتتعاقب الحملات الصليبية بمباركة وتحريض الباباوات في أوربا. أما عن آخر الحملات الصليبية الكبرى تلك الحملة التي روّج لها البابا كليمنت الرابع Clement IV (1265-1268) ثم البابا جريجوري العاشر Gregory X (1271-1272م). والسبب في تلك الحملة الجديدة كانت الانتصارات المتتابعة الباهرة التي حققها المسلمون؛ فقد تمكن سلطان دولة المماليك الظاهر بيبرس (625-676هـ/ 1228-1277م) الذي هزَم المغول في معركة (عين جالوت) الكبرى من مهاجمة بقايا الممالك الصليبية، فبحلول سنة 1265 ميلادية كان

بيبرس قد سيطر على (الناصرة) و(حيفا) و(أرسوف) واسترجاع معظم المدن في سوريا وفلسطين من يد الصليبيين الفرنج.[1]

لقد قاد تلك الحملة الأخيرة الأمير الإنجليزي أدور الأول الذي توّج فيما بعد ملكا على إنجلترا (1272-1303م). وعلى الرغم من أن الصليبيين قد تحالفوا مع التتار المغول ضد العرب المسلمين فإن جيوش الصليبيين قد ألحقت بها هزيمة كبرى على يد الظاهر بيبرس الذي استطاع أن ينهي تحالف الصليبيين والتتار المغول بالحاق الهزائم المتتابعة بالاثنين معا؛ ثم هاجم مملكة طرابلس اللاتينية القوية وطرد الصليبيين منها. ويعد ذلك بسنة واحدة فقط تمكن السلطان المملوكي التالي الأشرف صلاح الدين خليل (689-693هـ/ 1290-1293م) محاصرة مدينة عكا ذات الأسوار المنيعة والاستيلاء عليها وكذلك بقايا معاقل الصليبيين في كل من بيروت وصور وصيدا. وبذلك وضع العرب والمسلمون في اشرق البحر الأبيض المتوسط نهاية فعليّة مفرحة تماما، غير أنها مؤلمة وحزينة للصليبيين في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي. وبتلك الانتصارات الأخيرة التي تحققت انتهت الحروب الصليبية التي استمر أوارها نحو القرنين من الزمن.

---

(1) كان الظاهر بيبرس شجاعا جبارا يباشر الحروب بنفسه، له مواقع هائلة مع التتار المغول والصليبيين معا.

وله الفتوحات العظيمة؛ منها بلاد النوبة وأقاليم أخرى في أفريقيا الوسطى لم يتم فتحها من قبل مع كثرة الغزو الإسلامي لها (الزركلي، الإعلام، 2/ 79).

نعم لقد مني الغرب بخسارة تلك الحروب الطويلة والمريرة؛ ومني الأوربيين في نهاية المطاف بالطرد من العلم الإسلامي في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي. غير أن المؤرخين الغربيين الذين كتبوا في تاريخ الحروب الصليبية قد ذكروا أنهم كنتيجة لتلك الحروب، أو لنقل أن من نتيجة تلك الحروب القاسية والطويلة الأمد أن الحياة العامة في أوربا اضطربت اضطرابا شديدا شمل حياة الناس الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بل وحتى الدينية. حتى أن الفترة اللاحقة على تلك الحروب زادت من عمق العصور المظلمة التي استمرت بعدها لما يزيد عن قرنين ونصف من الزمن. ومع ذلك يمكن القول في مقابل ذلك أنهم قد ربحوا الكثير أيضا. لقد تعلّموا من العرب الأصول الأساس للمقومات الحضارية في كل شيء. لقد تعلموا على سبيل المثال من العرب العلوم الطبية والعلوم الصرفة بما في ذلك الرياضيات وأصول الهندسة والكيمياء وحتى الفلسفة اليونانية التي نقلت إلى أوربا عن طريق العرب. وتعلم الأوربيون الكثير من مقومات العمارة الأساسية التي تعلمها الأوربيون من العرب ووصلت إلى هناك بطرق مختلفة كان منها ما تعلموه من العرب خلال الحروب الصليبية.

ولابد من كلمة أخيرة هنا وهي أن الحملات الصليبية تعد ليس فقط أطول الحروب زمنا على الإطلاق على الصعيد العالمي، بل أنها أكثر الحروب العالمية التي لعب فيه الإعلام المنظم الدور الأعظم؛ الإعلام الذي قاده ووجهه البابوات الكاثوليك لحقبة زمنية تبلغ نحو قرنين من الزمن. لقد أثر هذا الإعلام على الجماهير الأوربية على نحو يفوق الخيال. إن المرء ليعجب كيف تمكن رجال الدين الكاثوليك التأثير عن طريق الإعلام على تلك الشعوب المتفاوتة في الثقافة والمختلفة كليا في اللغة حيث أن الكثير من الناس في أوربا باعوا دورهم السكنية ليتبرعوا بالمال لتمويل الحملات الصليبية. لقد أخبرهم رجال الدين الكاثوليك

إنهن ينالون بذلك رضا ومغفرة السيد المسيح عليه السلام. إن للإعلام قوته وجبروته ولاسيما إذا ما أرتبط الأمر بالمعتقدات الدينية الراسخة في النفوس.

د- التتار المغول:

أن أعظم النكسات التي تعرض لها العرب والمسلمين عموما هي اجتياح التتر المغول لأهم أجزاء العالم الإسلامي وهي العراق وايران وبلاد الشام وسقوطها تباعا وسقوط خلافة بني العباس على يد التتار المغول في سنة 656 هجرية (1258م). وقد حاول هؤلاء الغزاة الذين قدموا من أواسط آسيا طمس كل ما يتعلق بالحضارة العباسية على نحو أكثر عنفا بكثير مما فعلوا العباسيون بالمنجزات الحضارية والمعمارية التي قام بها أسلافهم الأمويون. فقد حاول التتار المغول طمس الحضارة العربية والإسلامية في العراق وإيران وبلاد الشام على نحو شبه كامل.

وفي واقع الأمر أن التتار المغول لم يضعوا حدا للخلافة العباسية والدويلات العربية الأخرى المتاخمة لها فحسب بل أنهم قتلوا جميع المنخرطين في الجيش العباسي والمتعاونين مع الجيش ثم قتلهم لآخر خلفاء بني العباس المستعصم بالله. ليس هذا فقط بل قتلوا أيضا جميع رجال السياسة ومعظم العلماء والأدباء والأساتذة، فضلا عن قتل غالبية العلماء المسلمين من رجال الدين. وفي الأيام الأولى من دخولهم إلى بغداد كانوا يقتلون كل من يصادفونه في الشوارع والدروب سواء كان رجلى أو امرأة أو طفل.[1]

---

(1) يكتب المؤرخون المعاصرون أن عدد الذين استشهدوا في ما يعرف بـ(واقعة بغداد) خلال أربعين يوما فقط من بدء اجتياح ونهب حاضرة العراق كان ما لا يقل عن خمسمائة =

لقد مزّق المغول البلاد العربية والإسلامية في القارة الأسيوية شر ممزّق، فلم يكتف هؤلاء البرابرة الغزاة بقتل خيرة الناس ومثقفيهم، بل دمّروا أيضا المباني العامة ودور العبادة، فلم يعد هناك مسجد جامع وغيرها من العمارات العامة إلا وخرّبت أو أخليت من أصحابها في عهد هولاكو على الأقل. وقد أوقفت التدريس في المدارس وفي دور تدريس القرآن والحديث لبعض الوقت، وحتى التكايا والزوايا الخاصة بالمتصوفة لم تسلم من أذاهم. بهدم المساجد والمشاهد الدينية والمباني العامة فحسب بل حطّموا البنية التحتيّة وأسس المقومات الحضارية العربية والإسلامية في البلاد. لقد أحرقوا الغالي والنفيس من الكتب، كما القوا بمئات الألوف منها في نهر دجلة في بغداد حتى ليذكر المؤرخون المعاصرون لتلك الأحداث، أو ما كانت تعرف عندهم بـ(واقعة بغداد)؛ إن لون الحبر الأسود غلب على مياه دجلة فصار لون المياه اسودا أو قاتما لبعض الوقت. لقد طمسوا بذلك وإلى الأبد عصارة أفكار الكثير جدا من العلماء والأدباء العرب والمسلمين عموما.

ليس هذا فقط بل أن الكثير من هؤلاء العلماء الأفذاذ لم نعد نسمع سوى عن أسماء بعض منتجاتهم العلمية والتاريخية والأدبية التي وصلت إلينا من خلال بعض كتب (التراجم) التي صنفها علماء آخرين. فمن بين التصانيف المهمة في سرد ترجمات لهؤلاء العلماء واللغويين ومصنفاتهم هو كتاب (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) لقاضي القضاة شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان (ت681هـ)، المؤرخ الذي كان شاهد عيان أوعلى الأقل معاصر لتلك

=

الف إنسان، بين امرأة ورجل وطفل. (ابن كثير، الحافظ إسماعيل بن عمر (ت 774هـ)، البداية والنهاية، بيروت 1990، 7/ 333).

الأحداث المأساوية؛ غير أنه من حسن حظه أنه كان بعيدا عن العراق خلال الاجتياح التتري وإلا لكان مصيره القتل. فإن ابن خلكان الذي كان قد ولد في أربل في شمال بلاد الرافدين ودرس في الموصل، كان في ذلك الوقت قاضيا للقضاة في مصر. وكذلك كتب مؤرخ العراق الكبير عبد الرزاق ابن الفوطي (ت723هـ) الذي اعتقله المغول في بغداد وكان حدثا وأوشكوا على قتله لولا تدخل الوزير نصير الدين الطوسي الذي صنف كتبا كثيرة في غاية الأهمية.[1] وكذلك المؤرخ تاج الدين علي بن أنجب المعروف بإن الساعي (ت 674هـ) الذي كان خازن كتب المدرسة المستنصرية ببغداد الذي ترك لنا الكثير من التصانيف؛ منها: (الجامع المختصر في عيون التاريخ وعيون السير) الذي يقع في 25 مجلدا، رتّبه على السنين وبلغ فيه آخر سنة 656 هجرية.[2]

أن ما وصل إلينا من التصانيف العلمية لبعض الأساتذة العظام ليس إلا نسبة صغيرة لما صنفوه من كتب ورسائل. فإن ما وصل إلينا من تأليف الجاحظ على سبيل المثال لا يتجاوز عشرة بالمائة فقط من تصانيفه التي وردت إشارات لها أو أسماءها عند أصحاب التراجم وقدامى المؤرخين.

إن العراق وإيران وبعض أجزاء الشام صارت نهبا للغزاة؛ أما بالنسبة

---

(1) من تصانيفه المهمة جدا كتاب (مجمع الآداب في معجم لأسماء والألقاب) في خمسين جزء ولكن لم يصل إلينا منها سوى الجزء الرابع. ومنها كتاب (تلقيح الأفهام) وهو كتاب في التاريخ من نشأة العالم إلى خراب بغداد على يد التتار، وغيرها من التصانيف.

(2) كتب المرحوم خير الدين الزركلي أنه لم يطبع حتى إلان من هذا الكتاب سوى الجزء التاسع.

للأمور الأخرى فلم يبق بيد أصحاب الأرض سوى بعض المؤسسات الثقافية التي يركن إليها، فكانت خدماتها كبرى وفوائدها عظمى سواء في الأمور الحضارية أو الدينية أو الثقافية، حيث أن ضياع الكتب المهولة العدد وحرق أو هدم الكثير من المكتبات لم تؤثر في سير التدريس كثيرا فكانت لا تزال هناك بقية باقية تغذي العقول.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو ما الهدف أوالغرض من وراء كل ذلك. هل كان هدف الغزاة التتار شطب أو محو من الذاكرة البشرية كل ما يمت بصلة إلى المقومات الحضارية الخاصة بالعرب والمسلمين؟ تماما كما حاول من قبل العباسيون على نحو ضيق أو محدود في طمس إنجازات الأمويين المعمارية والحضارية؟

إن التتار، على ما يبدو، كان لهم هدف مزدوج؛ الأول نهب خيرات الأقاليم المحتلة بمختلف الطرق وبجميع الأساليب المعروفة والمتيسرة لهم. الهدف الثاني إذلال الشعب العربي والإسلامي في العراق أو في غيرها من المدن العربية والإسلامية، وذلك بالقضاء على روحه المعنوية باللجوء إلى ما يعرف بالحرب النفسية ودفعه إلى اليأس تماما من إبداء أية رغبة في مقاومة الغزاة الجدد ولو بعد حين. لقد حاولوا إدخال الرعب إلى قلوب الناس بكل الطرق المتاحة لهم من ذلك على سبيل المثال أدخلت إضافات إلى العبارات التقليدية على النقود؛ فصارت العبارة الخاصة باسم ملك المغول الأول المقيم في أواسط آسيا الذي كان هولاكو وغيره من المغول الإيلخانيين يحكمون باسمه على النحو التالي: (**منكو قاآن الأعظم مالك رقاب الأمم**).

هـ- في الأندلس:

ومع ذلك يمكن القول إن تمكّن في طمس المقومات الحضارية الخاصة بالعرب المسلمين على نحو كامل ونجحوا تماما فيما أرادوا تحقيقه كان الإسبان في بلاد الأندلس بدأ بأواخر القرن الخامس عشر. لقد أدرك أولو الأمر العرب الأندلسيون الخطر المحدق بهم فاستغاثوا بأهل المغرب الأقصى كما كانوا يفعلون في السابق وعلى نحو خاص بملوك بني مرين الذين سارعوا على نهج المرابطين والموحدين الذين كانوا ينهضون ويعلنون الجهاد ويساعوا إلى التدخل السريع لحماية إخوانهم في بلاد الأندلس كلما ضاق الأمر بأهلها. فالسلطان المريني أبو يوسف يعقوب (656- 685هـ/ 1258-1286م) على سبيل المثال قد عبر إلى بلاد الأندلس أربع مرات لنجدة الأندلسيين ووصلت جيوشه إلى طليطلة Toledo وقرطبة Granada وحتى إلى مدريد. فعلوا ذلك قبل أن يدخلوا في دوامة الفوضى والاضطرابات والحروب والفتن الداخلية المتتابعة فلم يستطيعوا أن يفعلوا شيئا هذه المرة.

واستغاث الأندلسيون بملوك بني حفص في تونس (625-941هـ/ 1228-1534م) الذين لم يستطيعوا أن يفعلوا سوى أرسال أسطول فيه أسلحة ومواد غذائية وبعض المواد الإنسانية الأخرى التي لم تصل إلى أيدي الأندلسيين المحاصرين في المدن حيث وقعت بيد الإسبان. حتى أن كتب واحدا من المؤرخين الأندلسيين المعاصرين: (**... إن العدو يزداد قوة ونحن نزداد ضعفا؛ والعدو يأتيه المدد من بلاده ونحن لا مدد لنا).**

ثم توجه الأندلسيون بطلب العون والنجدة من المماليك في مصر

وكان السلطان القائم آنذاك هو الأشرف سيف الدين قايتباي (873- 901هـ/ 1468-1495م) الذي لم يزد على إرسال سفارات إلى البابا وبعض ملوك أوربا يذكرهم بأن المسيحيين في دولته يتمتعون بحرياتهم الدينية الكاملة بينما يتعرض المسلمين في المدن الأندلسية إلى الاضطهاد والتنكيل.

وتقدموا بالتماس آخرإلى الدولة العثمانية طالبين النجدة والغوث؛ كان الطلب الأول إلى السلطان محمد الفاتح (855-886 هـ/ 1451-1481م) الذي لم يستطيع أن يفعل شيئا بسبب التكتلات العسكرية والأحلاف التي نظمها البابا وعدد من الدول الأوربية ضده. ثم طلب الأندلسيون الغوث من السلطان العثماني بايزيد الثاني (8860918هـ/ 1481-1512م) الذي أعقب محمد الفاتح. وهنا أيضا لم يستطيع بايزيد الثاني من تقديم يد العون بسبب المشاكل الداخلية.

وبعد اتحاد دولتي فردنانو إيزابيلا سعيا إلى الحصول على موافقة البابا انوسنت الثامن Innocent VIII (1484-1492م) بإعلان الحرب الصليبية على مملكة غرناطة. وقد تمّ ذلك فعلا فما أن أعلن البابا تلك الحرب حتى هيّ ملوك أوربا إرسال الفرق العسكرية لمساعدة الإسبان كان من بينها فرقة إنجليزيه.

وذلك بعد أن تمكن المسيحيون الإسبان بعد اتحاد من القضاء على دولة بني نصر آخر الدول العربية الإسلامية في شبه الجزيرة الإسبانية. كان ذلك في سنة 1492 ميلادية، بعد حصار دام عدة سنوات قامت القوات الإسبانية خلالها بحرق البساتين والحقول المجاورة لغرناطة؛ مما تسبب في مجاعة رهيبة اضطر أهلها إلى أكل الكلاب والقطط وحتى خيولهم مما اضطرهم أخيرا على الاستسلام مقابل السماح للملك محمد الحادي عشر ومع من يريد من العرب المسلمين

بمغادرة المدينة والبلاد نهائيا. حيث غادر آخر ملوكها محمد الحادي عشر عاصمته غرناطة بلاد الأندلس إلى الشمال الأفريقي إلى غير رجعة، ومعه جماهير غفيرة من العرب المسلمين (شكل60).[1] وعند مغادرة الملك محمد الخامس وصحبه من العرب المسلمين لم يسمحوا للمغادرين إلا بما يستطيعون حمله على ظهورهم من حاجيات ما عدا الذهب والفضة والسلاح الذي أجبروا على تسليمه للإسبان.



(شكل60)

لوحة زيتية إسبانية تمثل خروج آخر ملوك دولة بني لاحمر محمد الحادي عشر من غرناطة وتسليم مفاتيح المدينة وقصر الحمراء إلى ملك قشتاله وملكة أرغون في سنة 1491

(1)-ستانلي لين بول، طبقات سلاطين الإسلام، بغداد، 1968، ص34

وفي واقع الأمرأن العرب المسلمين أخذوا في مغـادرة بـلاد الأنـدلس قبـل هذا التاريخ بعدة عقود على نحو تدريجي على أثر تساقط المدن الأندلسية واحدة تلو الأخرى بيد الإسبان مثل (طليطلـة) و(قرطبـة) وغيرهمـا. وقـد كتـب ابـن خلدون بهذا الشأن: "أما **أهل الأنـدلس فـافترقوا في الأقطارعنـد تلاشـي ملـك العرب بها ومن خلّفهم من البربر وتغلّبت عليهم أمم النصـرانية، فانتشـروا في عدوة المغرب وأفريقيا إلى هذا العهد .... وشاركوا أهل العمران بما لديهم مـن الصـنائع..... إلى آخـر الكـلام)**.[1] وكمـا هـو معـروف أن ابـن خلـدون كـان قد ألّف تاريخه قبل نحو مئة عام على سقوط دولة بني نصر في غرناطة آخر معاقل العرب في الأندلس بيد الإسبان.

وفي واقع الأمر إن ما قام به الإسبان من الأعمال الوحشـية بحـق العـرب والمسلمين عموما في بلاد الأندلس كان مغايرا تمامـا لما فعلـه موسـى بـن نصـير (ت 715م) عند فتحه لبلاد الأنـدلس. لقـد كانـت سياسـته العامـة تقـوم علـى إطلاق الحرية الدينية لأهلها سـواء كـانوا مـن المسـيحين أو مـن اليهـود وإبقـاء أملاكهم في أيـديهم ومـنحهم الاسـتقلال الـداخلي علـى أن يـؤدون الضـرائب وكانت في معظمها لا تتجاوز العشر ممـا كـانوا يكسـبون. في حـين إن مـا كـانوا يدفعونه للدولة في هـذا العهـد كـان أقـل ممـا كـانوا يؤدونـه لحكومـة (القـوط) السابقة.[2]

ولا بد من القول هنا أن العرب لم يكونوا أبدا المسلمين الوحيـدين في بـلا

---

(1) ابن خلدون، المصدر السابق، ص441

(2) الزركلـي، الإعـلام، 7/ 330، ابـن خلكـان، وفيـات الأعيـان، 2/ 134، La Grande Encyclopedie Francaise، Vol. 16، p. 326

الأندلس، فكما هو معروف أن الفاتحين العرب كانوا قد تركوا نساءهم في بلادهم فاقبلوا على مصاهرة الإسبان منذ بداية الفتوحات ومضوا على ذلك النحو يتزوجون من الإسبانيات وعاشروا أهل البلاد وجاوروهم.[1] وعن طريق المجاورة والمصاهرة انتشر الإسلام في الأندلس انتشارا تجاوز كل تقدير. وكنتيجة طبيعية لتلك الزيجات امتزجت دماء العرب والبربر الفاتحين بدماء أهل البلاد الإسبان. فظهر كنتيجة لذلك التزاوج جيل جديد من آباء مسلمين وأمهات إسبانيات عرفوا بالمولدين الذين ظهر منهم أناس باتت لهم شهرة كبيرة في تلك البلاد صار بعضهم أمراء على عدد من الولايات الأندلسية.[2]

وإلى جانب هؤلاء كانت بلاد الأندلس تغض بأناس يعرفون بـ(المسالمة) وهم الإسبان الذين اعتنقوا الإسلام عن طيب خاطر. فقد كان لسياسة التسامح الديني الحكيمة التي سار عليها الفاتحون العرب عقب الفتح اثر كبير في إسلام عدد هائل من الإسبان بنبذ دينهم المسيحي فوقفوا مع العرب على قدم المساواة، ومع ذلك ظل الإسبان المسيحيون يشكّلون الشريحة الكبرى في المجتمع. والواقع أن العرب الفاتحين لم يتعرضوا لأهل الذمة بالضرر ولم يفرضوا عليهم الدين الإسلامي قهرا جريا على سياسة لا إكراه في الدين فقد كانوا

(1) كان القائد عبد العزيز بن موسى بن نصير أول من تزوج منهم بإسبانية فحذا حذوه الكثير من رجال العرب.

(2) مع أن هؤلاء المولدين كانوا يدينون بالإسلام ويعيشون الحياة نفسها التي يعيشها العرب الأندلسيون وإنهم ليفقدوا شخصيتهم الذاتية باعتبارهم إسبانيي الأصل وكثيرا ما قادوا ثورات ضد السلطة المركزية في قرطبة (عبد العزيز سالم، المصدر السابق، ص1299).

يعتبرونهم من أهل الكتاب. وكذا يمكن القول أن هؤلاء الإسبان قد دخلوا في الدين الإسلامي بمحض إرادتهم.

وهكذا يمكن القول إن إخراج العرب والمسلمين عموما من بلاد الأندلس لم يكن حدثا عابرا لا يتطلب من الإسبان إلا شيئا من الإعلام التشهيري الذي قد يظهر أمام الشعب الإسباني عيوب ومثالب العرب المسلمين في الأندلس على حد زعمهم. لقد كان لسقوط غرناطة آخر معاقل العرب المسلمين في الأندلس صدى واسع جدا ورد فعل ليس فقط في إسبانيا بل في عموم أوربا فأقيمت الصلوات في الكنائس والكاتدرائيات والاحتفالات العامة في كبريات المدن الأوربية وفي كل مكان من أوربا تقريبا الذي اعتبروه نصرا عظيما للمسيحية على الإسلام.[1]

ومن البديهي أن تتعرض مدينة غرناطة بمغادرة محمد الحادي عشر لها مع جزء كبير من جيشه إلى النهب والسلب فنهبوا أولا حوانيت التجار وغير ذلك من الممتلكات الخاصة. أما الممتلكات العامة من أولى أعمالهم نزع جميع المشكوات الفضية والذهبية من الجامع الكبير في غرناطة ثم تحويل ذلك الجامع كما حدث سابقة مع جامع قرطبة وغيره من المساجد الجمعة في عموم بلاد الأندلس إلى كنائس.[2]

---

(1) من ذلك على سبيل المثال أن أقيمت الصلوات في في الساحة المقابلة لكاتدرائية سانت بابلو في لندن حضرها رئيس أساقفة كانتربري واسقف لندن ورئيس وأعضاء المجلس البلدي في لندن لتقديم الشكر على تلك المنّة العظيمة عندهم.

(2) محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين،

والحق أن الأعمال أو الأفعال البربرية بحق العرب المسلمين التي قامت بها السلطات الإسبانية لا تقاس بها أية أعمال بربرية وحشيّة بحق الشعوب في العالم المتمدن. لقد غدا العرب المسلمون في الأندلس عموما مع خروج الملك محمد الحادي عشر إلى الشمال الإفريقي كالعبيد في ظل الحكم الإسباني للبلاد؛ فلم يكن يدور في ذهن أي منهم على ما يبدو، شيئا مما دبره القادة الإسبان من مشاريع بعيدة المدى لتصفيتهم أو للقضاء على شعورهم بالمواطنة أو الحفاظ على دينهم وتراثهم. لقد أراد القادة الإسبان ولاسيما رجال الدين منهم تقويض كل المقومات الحضارية الإسلامية لتلك الأمة المغلوبة على أمرها في بلاد الأندلس على نحو سريع وفعّال بما في ذلك إجبارهم على التخلي عن ديتهم الإسلامي واعتناق المسيحية سواء شاءوا أم أبوا.

يكتب المؤرخون من الأوربيين أن المخطط لتلك الإجراءات التعسفية المشينة لأبسط أنواع حقوق الإنسان كان الكردينال الإسباني خمنيس Cardinal Khamnis الذي أوصى بتأسيس محاكم التفتيش في غرناطة ثم في عموم بلاد الأندلس؛ تلك المحاكم التعسفية الرهيبة التي لم تبقي ولم تذر؛ لقد أجبرت المسلمين على التنصر ومن وجدوا في بيته مصحفا أو حتى ورقة من مصحف اعتبرته محاكم التفتيش مرتدا وعوقب بالحرق. ولم يسلم من محاكم التفتيش حتى الموتى التي كانت تنبش قبورهم ثم تحرق جثثهم.[1]

وبعد الفراغ من احتلالهم لمدن بلاد الأندلس بدأ الإسبان بمحو كل ما يمت بصلة إلى الحضارة العربية بعد ذلك التاريخ، حيث تمّ جَمع كل ما استطاعت

---

(1) لقد كان المدعو خمنيس كاردينال على مدينة أشبيليا وبسبب قسوته الشديدة وكراهيته للعرب المسلين عيّن رئيسالمحاكم التفتيش في عموم بلاد الأندلس.

السلطات الإسبانية جَمْعُه من الكتب العربية، مِن أهالي غرناطة والمدن القريبة منها، ونُظِّمت أكوامٌ هائلة في أعظم ساحات المدينة، ومِنْها كثيرٌ من المصاحف البديعة الزُّخرف، وإلافٌ من كتب الآداب والعلوم، وأُضْرِمَت فيها النَّار جَميعًا، ولم يُسْتَثْنَ منها سوى ثلاثِمائة من كتب الطبِّ والعلوم، حُمِلَت إلى الجامعة التي كان تمّ إنشاؤها في قلعة "هنارس". لقد ذهب ضحيَّةَ هذا الإجراء الهمجيِّ والظالم عشراتُ الألوف من الكتب العربيَّة، هي خلاصة ما تبقَّى من الفكر الإسلامي في الأندلس.

غير أن الإسبان في أوائل القرن السادس عشر شعروا بالخطأ الفادح عندما أضرموا النار في تلك الكتب التي لا تقدر بثمن فجمعوا من الناس مجاميع عظيمة منها خلالَ القرن السادس عشر وكميات عظيمة أخرى، من غرناطة ومن مُختَلِف القواعد الأندلسيَّة القديمة، ولا سيَّما بَلَنْسِيَة ومرسيه، ولكنها لم تُحرق هذه المرة بل أودعت في المكتبة الملَكيَّة في إلاسكوريال.

غير أن في سنة 1671 شبَّت النار في قَصْر "الاسكوريال"، والْتَهَمَت معظم هذا الكَنْز الفريد، ولم يُنْقَذ منه سوى زهاء أَلْفَيْن وهي المخطوطات الَّتي كانت قد وضعت في بعض سراديب ذلك القصر."[1]

ولم يقتصر الأمر على إتلاف الكتب وحرقها بل شمل أيضا هدم المساجد التي لم يكن بإمكانهم تحويلها إلى كنائس وبيع فضلا عن تخريب المدارس

---

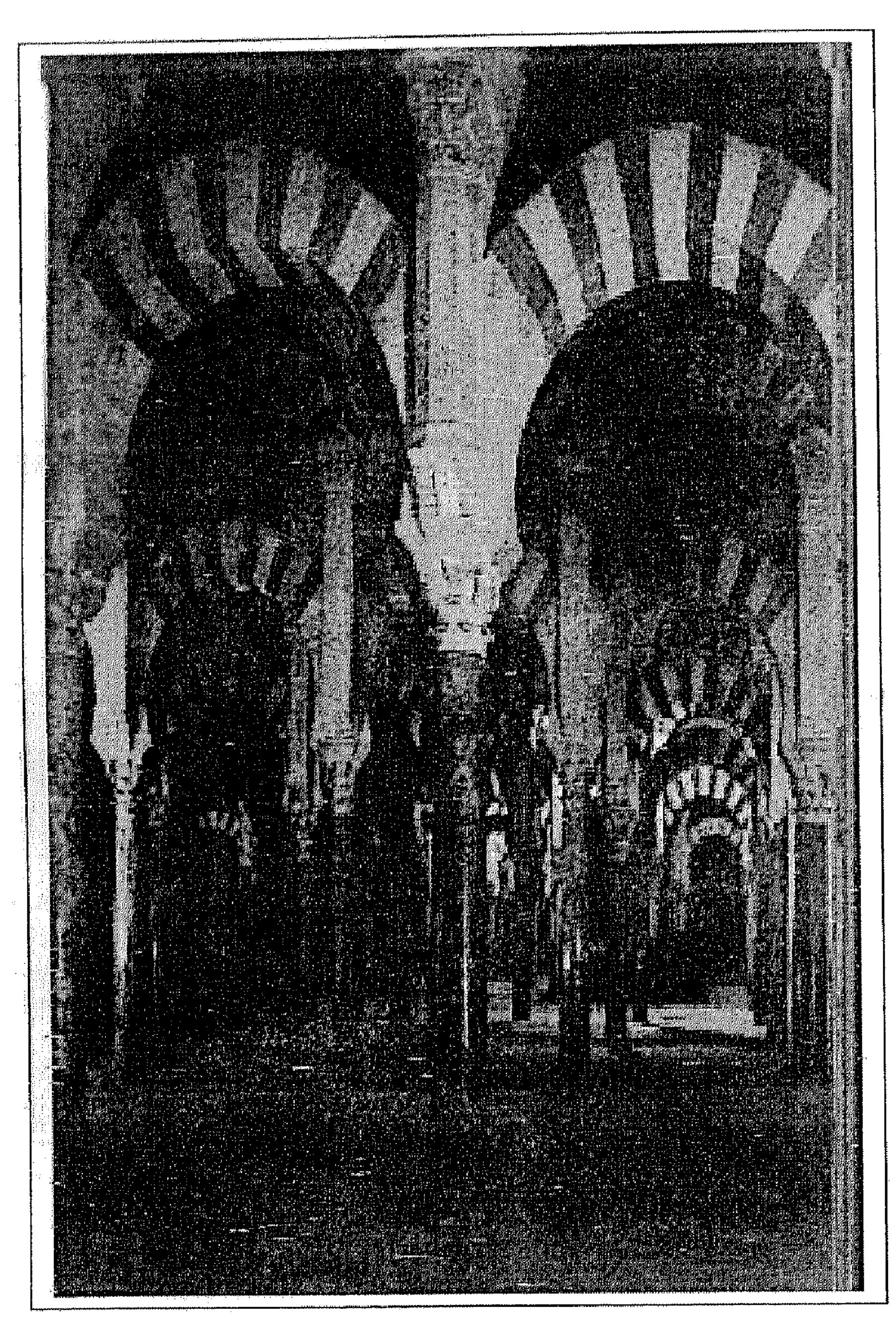
(1) وفي سنة 1612م وقع حادثٌ ترتَّب عليه أنْ ضُوعفت المجموعة العربيَّة بالمكتبة الملكية؛ وذلك أنَّ أسطولاً إسبانيًّا كان يجوس خلال المياه المغربيَّة ففاجأ قافلة من السُّفن المغربية كانت تصحب ملك المغرب زيدان الحسَنِي، وكانت من بينها سفينة مشحونة بالتُّحَف، وبها نحو ثلاثة آلاف سِفْر من كتب الفلسفة والأدب والدِّين، فاستَولى عليها الإسبان، وكانت هذه الكتب من مُحتويات المكتبة الزيدانيَّة الشهيرة.

والمشاهد والعمارات العامة الإسلامية الأخرى وأحرقوا الكتب. وأجبروا من بقي في بلاد الأندلس من العرب المسلمين على التخلي عن دينهم واعتناق المسيحية وإلا أحيلوا إلى ما يعرف بـ(محاكم التفتيش) المرعبة حيث كان يتم إحراقهم وهم أحياء بحجة مساعدتهم للتخلص من الشيطان المقيم في جسدهم عن طريق تطهيرهم بالنار المتأججة!!

ولم يتوقف الأمر على القتل والحرق والتخريب والسلب بل أن الإعلام أيضا قد لعب دورا كبيرا في حملتهم لتنصير العرب المسلمين. وهنا يمكن القول أن الموضوع لم يكن إعلاما من أي نوع، بل اردوا هنا في واقع الأمر وببساطة محو كل ما يتعلق بتعاليم الدين الإسلامي مع كل أثر وعلاقة للحضارة العربية في الأندلس وتدميرها تدميرا كاملا. ويبدو أنهم كما سبق أن ذكرت قد نجحوا نجاحا شبه تام في تحقيق مبتغاهم هذا.[1] مع ذلك وبسبب الثورات والانتفاضات المتكررة التي قام بها العرب المسلمون فكر رجال الكنيسة والسلطات الحاكمة في إسبانيا باللجوء إلى أساليب جديدة، بعضها عن طريق الإقناع. وفي سبيل تحقيق ذلك شجعوا رجال الكنيسة الإسبان على تعلم العربية لأقناع العرب والإسبان المسلمين بأن الدين الإسلامي دينا باطلا وأن عليهم العودة إلى السيد المسيح

(1) إن أعمالهم الوحشية تذكرنا بما قام بها بالمدن الفلسطينية حيث أفادنا التوراة إن اليهود لم يكتفوا بالاحتلال والسكنى في المدن بل كانوا في كثير من الأحيان يقتلون جميع من فيها من السكان كما فعلوا ذلك بأهل مدينة (مدين) حيث لم يكتفوا بقتل الرجال بل قتلوا أيضا النساء والأطفال باستثناء البنات الصغيرات اللواتي لم يبلغن بعد؛ ليس هذا فقط بل أنهم قتلوا عند اجتاحهم لمدينة (أريحا) في فلسطين بالإضافة إلى قتل جميع الناس قتلوا حتى الحيوانات الداجنة التي كانت فيها كالأغنام والأبقار وغيرها (التوراة، سفر العدد، الفصل 31، الفقرات، 29-39).

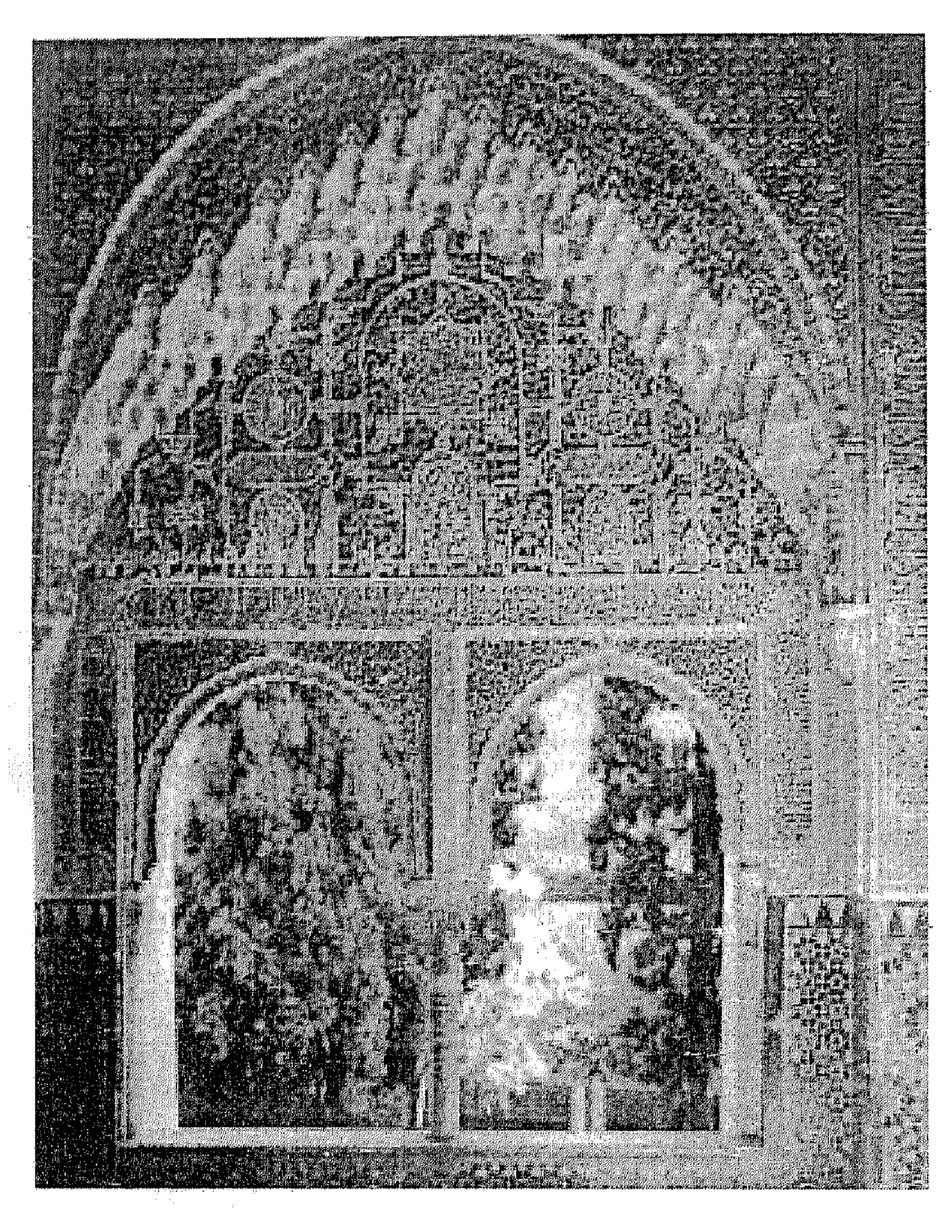
والاعتصام بجبل المسيحية. لقد ذكر على سبيل المثال أن في سنة 1505 ميلادية أدخلت أول مطبعة إلى غرناطة لطبع الكتب التي تساعد رجال الدين المسيحيين على تنصير المسلمين؛ كان منها طبع كتاب في أسرع الطرق لتعلم اللغة العربية الغرض منه تعليم القسس ورجال الكنيسة عموما اللغة العربية حتى يتمكنوا، كما ذكرت، من تنصير العرب وإقناعهم بصحة الديانة المسيحية ومساوئ الإسلام. ومن البديهي أن لا يقتصر طباعة مثل تلك الكتب على مدينة غرناطة، فنحن نعلم أن من أوائل الكتب التي طبعت باللغة العربية في إسبانيا كان الكتاب الإعلامي المسيء للإسلام الذي طبع في أشبيليا سنة 1573م عنوانه (تهافت النحلة الإسلامية) لمؤلفه الإسباني سكاليخ.



(شكل61)

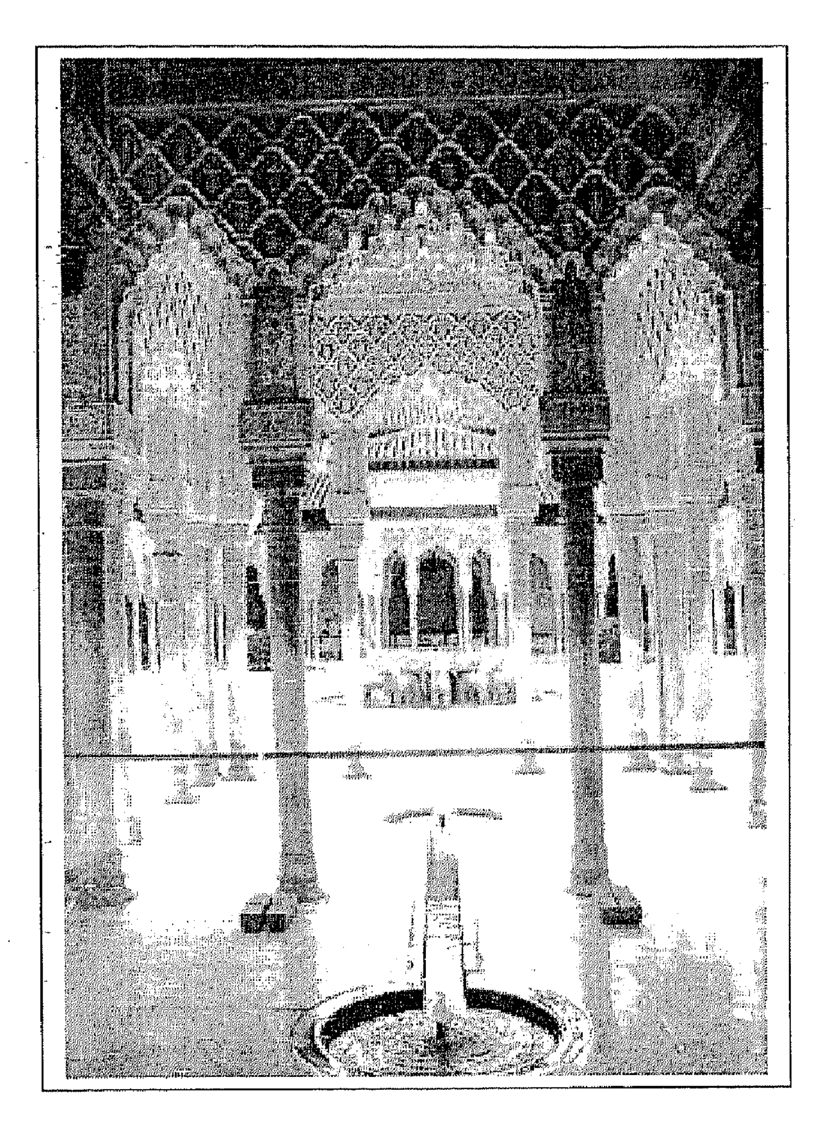
بيت الصلاة في الجامع الكبير في قرطبة الذي أقام صرحه الخليفة عبد الرحمن الناصر لنحو سنة 365 هجرية

واستمر الأمر على هذا النحو لما يزيد على القرنين من الزمن. وبذلك نجحوا على نحو كبير في مسعاهم ليس فقط بإنهاء الدين الإسلامي ومعتنقيه في شبه الجزيرة الإسبانية بل أيضا محوا التراث العربي الأندلسي من ذاكرة التاريخ. غير أن الإسبان على ما يبدو قد ندموا في القرن التاسع عشر أشد الندم لا على إجبار العرب على الدخول في حظيرة الدين المسيحي أو على تهجير العرب المسلمين بل فقط على هدم المباني الإسلامية العامة على نحو شبه عشوائي في القرنين السادس عشر والسابع عشر، لا حبا بالعرب المسلمين، بل بسبب أن النادر الذي بقي من المخلفات المعمارية العربية اليوم مثل المسجد الجامع في مدينة قرطبة كبرى المدن الأندلسية (شكل61)، قصر الحمراء في غرناطة (شكل62) و(شكل63) الذي أقام صرحه ملوك بني حماد في غرناطة، وكذلك مئذنة مدينة أشبيليه الشهيرة التي مرت الإشارة إليها في فصل سابق التي صارت هذه العمارات العربية الأندلسية يؤمها منذ أواخر القرن التاسع عشر أو مطلع القرن العشرين على الأقل ملايين السيّاح سنويا من مختلف أصقاع العالم، فباتت إسبانيا بفضل هذه العمارات العربية القليلة جدا المتبقية واحدة من أكثر دول العالم استقبالا للسياح على مدار السنة، وما لذلك من مردود اقتصادي عظيم التي صارت تشكل نسبة عالية من الدخل القومي الإسباني في العصر.



(شكل62)

جانب من قصر الحمراء في غرناطة الذي يعود بناؤه إلى ملوك بني حماد

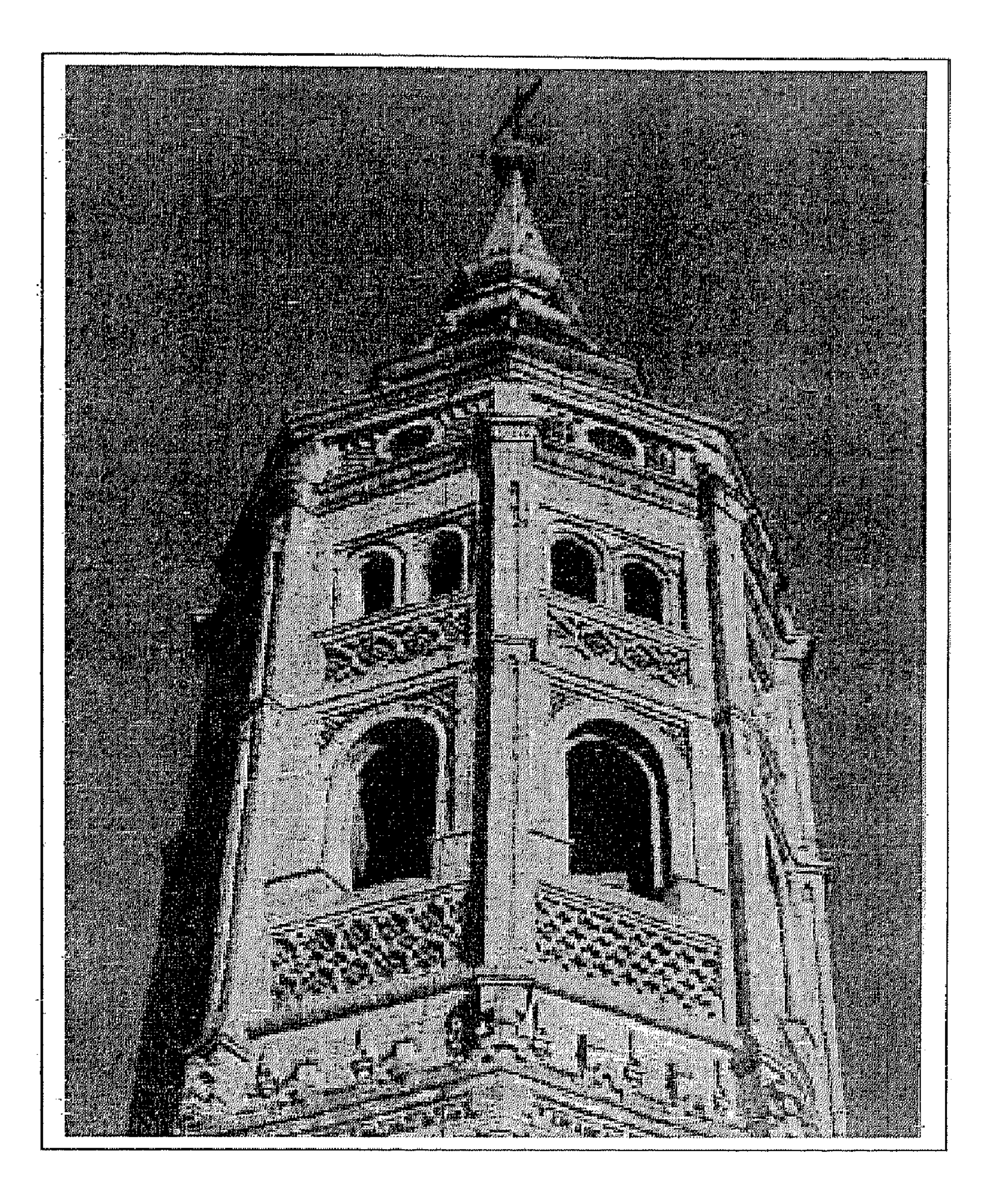


(شكل-63)

ساحة السباع في قصر الحمراء في غرناطة. القرن الرابع عشر

الحديث. ولابد من القول أيضا أن من فضّل من العرب المسلمين البقاء في إسبانيا واعتناق المسيحية قد عرفوا منذ ذلك الوقت بالمدجنين Mudajjers. وقد سخّر أصحاب الصنائع منهم قدراتهم العلمية والفنية في خدمة الكنيسة والملوك والأمراء الإسبان وأصحاب الشأن في البلاد، فأشادوا لهم الكنائس والقصور

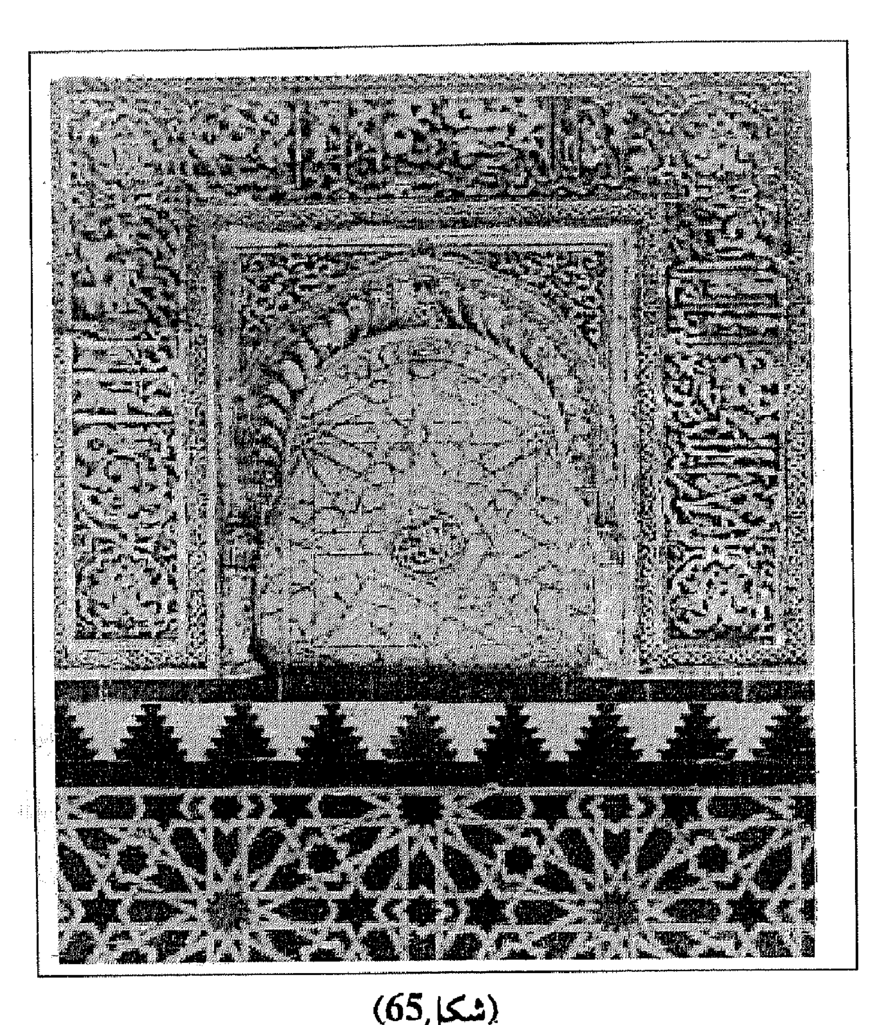
وفق المعايير الفنية العربية الإسلامية. من ذلـك علـى سـبيل المثـال بـرج كنيسـة سانت أندرو في سرا كوزا (شكل64). وكذلك قصر الملـك بـاردو في إشـبيليا في القـرن السـادس عشـر؛ القصـر الـذي يعـرف اليـوم باسـم القصـرAlqasra (شكل65). لقد أخذت الحكومة الإسبانية منذ القـرن التاسـع عشـر في جمع مـا تبقى من المخطوطات العربيـة مـن المـدن الأندلسـية ولاسـيما الموجـود منهـا في الكنائس والأديرة أوما كان منها في حوزة بعض العائلات الإسبانية ذات العروق العربية أيداعها في مكتبة إلاسكوريال قرب مدريد. ليس هـذا فقـط بـل اتجهـت أيضا إلى مدن المغرب الأقصى مثل تونس والمغرب والجزائر لشراء ما تيسـر لهـم من المخطوطات التي كتبت في الأنـدلس لإيـداعها في تلـك المكتبـة حيـث صـار يزورها اليوم طالبوا العلم ليس فقط من العالم العربي بل أيضـا مـن جميـع أنحـاء العالم المتحضر.



(شكل64)

برج كنيسة سانت أندرو في سارا كوزا بمقاطعة كاالليتونيا الإسبانية.

يعود إلى أوائل القرن السادس عشر



(شكل65)

واحدة من الواجهات الداخلية في قصر باردو في أشبيليا.

القرن الخامس عسر

وكنتيجة لكل ذلك الطمس للحضارة العربية أن اختفى على نحو كبير الكثير جدا من معالم الحضارة الأندلسية وما قدموه للعالم من مكاسب حضارية، ثم بدأت خيوط من أضواء التاريخ الأندلسي تبدد شيئا فشيئا ذلك الظلام الحالك الذي أحاط بتاريخ العرب في الأندلس وتكشفت حقائق كانت خافية وذلك بفضل جهود كثير من العلماء المستشرقين. وبدأ الغرب وقد بهرته الاكتشافات الجديدة التي توصل إليها هؤلاء العلماء والمؤرخين يهتم بتاريخ

الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس بعد أن وضح لهم تفوقها على الحضارة الأوربية في القرون الوسطى وتبين فضلها عليها.[1]

لقد كانت الأندلس مركز الاتصال بين آسيا وأفريقيا من جهة وبين أوربا من جهة أخرى، أو الجسر الذي عبرت منه تأثيرات الحضارة الإسلامية المتفوقة إلى القارة الأوربية؛ فمنه انطلقت أشعة هذه الحضارة فغمرت جنوب فرنسا وإيطاليا وأدركت أضواؤها شمال أوربا، في الوقت الذي كانت فيه القارة الأوربية برمتها في ظلمات الجهل والانحطاط مسلطة على رقابها رجال الدين وعلى رأسهم البابا الذين كانوا يحاربون كل ما يمت إلى العلم بصلة.

وهنا عرف الأوربيون عظم ما تدين به أوربا للعرب المسلمين في الأندلس، فأقبلوا على دراسة الحضارة العربية الأندلسية وزيارة آثارها التي أصبحت، كما ذكرت، تؤلف أعظم مراكز السياحة في العالم. ونتج عن ذلك الاهتمام أيضا نشاط الدراسات الأندلسية حيث تقدمت تقدما هائلا لم يكن بالحسبان خاصة بعد أن أخذ الكثير من المستشرقين يقومون بنشر الكثير من المصادر التاريخية والأدبية الأندلسية؛ وربما أهم ما صدر بهذا الشأن المجلدات العشرة وهي الكتالوجات الخاصة بالكتب الأندلسية وغيرها المحفوظ في مكتبة قصر الإسكوريال قرب مدريد.

أما الأساتذة العرب المحدثين فكان نشاطهم محدود في مثل تلك الدراسات، ثم ازداد اهتمامهم بها بعد أن نضج الوعي القومي العربي فبدأوا يوجهون اهتمامهم لدراسة التراث العربي الإسلامي في تلك البلاد.[2]

---

(1) عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، القاهرة 1961، ص6

(2) المصدر نفسه، ص7

الفصل العاشر

المنشورات والرقاع والملصقات الإعلامية

الفصل العاشر

المنشورات والرقاع والملصقات الإعلامية

يمكن القول أن الدول العظمى في العصور الواغلة في القدم كانت تصدر متشورات كلما استدعت الحاجة إلى اطلاع الشعب على ما تريده اطلاعهم من أخبار. وكثيرا ما كان يتم ذلك عن طريق المسلات التي تعدّ بمثابة الصحيفة الرسمية للدولة التي يمكن لنا تسميتها مجازا بـ(الوقائع) أو(الصحيفة) أو (الحولية) السنوية الخاصة periodical التي كانت تقوم الدولة بإصدارها ربما مرة واحدة في كل سنة، أو كل سنتين أو اكثر، أو كلما استدعت الحاجة إلى ذلك. كانت توضع تلك المسلات في الأماكن العامة السالكة حيث يمكن لأي شخص الوصول إليها وقراءتها. كانوا يعرضون على الشعب عن طريقها الأحداث الجسام كانتصاراتها العسكرية في الخارج أو الأخبار التي تتعلق بمجريات الأمور في البلاد، أو الإنجازات العظيمة التي تحققت في ظلها مثل تشييد المعابد أو كري الأنهار أو إقامة السدود؛ أي بمجمل الأحداث الخاصة بشؤون الدولة التي وقعت أو حدثت خلال السنة أو السنتين السابقتين على تاريخ إصدار تلك المسلة أو حتى الوقت الذي دوّنت فيه.

ومن البديهي أن مثل هذا النوع من الصحافة الإعلامية لم يستخدم في العراق فحسب بل كانت الحكومات المصرية في وادي النيل تتبع الأسلوب نفسه في الإعلام الرسمي. ويرى علماء الآثار أن الآشوريين وكذلك المصريين كانا سباقين إلى الاستعانة بهذا الضرب من ضروب الصحافة؛ إنها الحوليات التي يعتبرها بعض أساتذة الإعلام نوع من الصحافة الواقعية. وسواء صحَّ هذا الافتراض أم لم يصح فقد ترك لنا الأشوريون وكذلك البابليون الكثير من

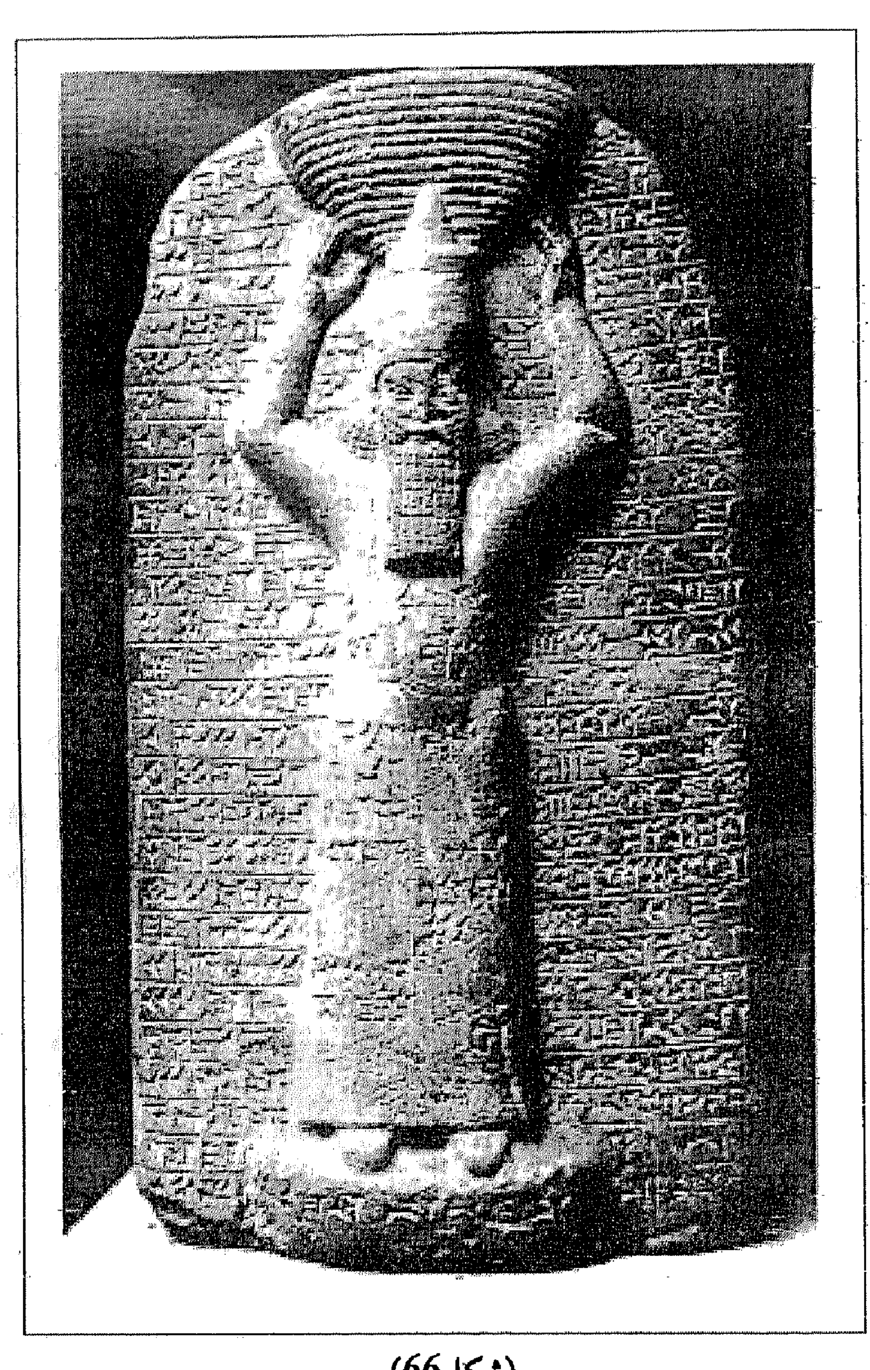
المسلات والحوليّات الإعلامية المصوّرة التي تظهر أمام بعض الأخبار التي تريد الدولة اطلاع الشعب عليها رسوما منقوشة تمثل جانبا من جوانب تلك الإنجازات. ففي المسلات الآشورية كثيرا ما كان يصوّر عدد من جنود العدو الذي وقعوا في قبضة الجيش الأشوري وهم يرسفون بالأغلال؛ أو أن تظهر مشاهد من إعدام بعض ملوك أو قادة جيوش الدول المعادية الذين كانوا قد أعلنوا العصيان ووقعوا في الأسر؛[1] أو التي تظهر صورة الملك الأشوري وهو في عربته الحربية يهاجم الأعداء أو يصطاد الأسود وما شابه ذلك من أمور إعلامية.

من المؤكد أن لا الآشوريين ولا البابليين أو المصريين قد أشاروا في أي من تلك المسلات إلى أية نكسة أو خسارة في حرب أو معركة منوا بها، وإنما كانت تظهر دائما الجانب المضيء مثل عظمة الدولة وقوتها وهيمنتها على مقاليد الأمور؛ ليس هذا فقط قد يضيف الملك إلى المسلة صورة شخصية له تمثّله وهو يقدم بعض فروض الطاعة إلى الإلاة الذي يستمد منه قوته وسلطاته.

من ذلك على سبيل المثال أن الآشوريين الذين كانوا قد سيطروا على القسم والأوسط والجنوبي من العراق في أواسط القرن السابع قبل الميلاد أعادوا بناء معبد الإلاة مردوخ ليكسبوا رضا الشعب البابلي قد دوّنوا في مسلة لهم إضافة إلى الأخبارالإعلامية التي أراد الأشوريون اطلاع الناس في بابل عليها صورة للملك آشوربانيبال (668–626 ق.م.) وهو يحمل على رأسه سلة أو وعاء فيها بعض المواد البنائية عند إعادة تشييده معبد الإلاة مردوخ (شكل66).

---

(1) منير بكر، الصحافة العراقية نشأتها وتطورها، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد 12، سنة 1969، ص410



(شكل66)

-مسلة للملك آشوربانيبال محفوظة في المتحف البريطاني

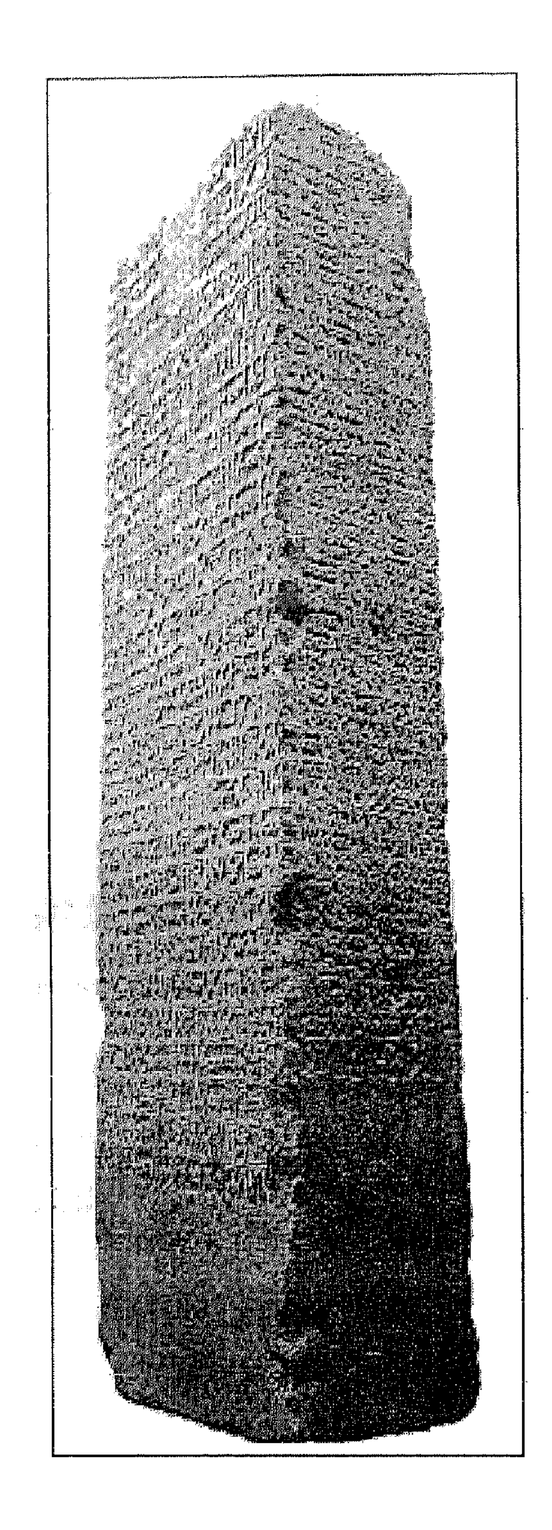
ومن الواضح أن الملك الأشوري أراد هنا أن يحقق نصرا إعلاميا مهما في

محاولة منه للتقرب من الشعب البابلي. لقد أراد هنا أن يظهر للبابليين عن طريق هذه المسلة مقدار محبته واحترامه للبابليين ولإلههم القومي (مردوخ) وذلك في سبيل توحيد بلاد الرافدين وجعلها تحت مظلة واحدة.

غير أن تلك المحاولات للتقرب من البابليين لم يحالفها النجاح، فسقطت الإمبراطورية الآشورية على يد البابليين الذين تحالفوا مع الميديين وذلك بعد وفاة الملك أشور بانيبال بأثني عشر عاما فقط؛ حيث سقطت المدن الآشورية تباعا الواحدة تلو الأخرى بيد الغزاة؛ لقد سقطت آخرها العاصمة نينوى في سنة 614 قبل الميلاد.

ومن المؤكد أن الوسائل الإعلامية في العالم القديم لم تقتصر على الحوليات أو المسلات الكبيرة. فعندما كانت الدولة تطالب رعاياها القيام بها أو تنفيذها مثل التذكير بالضرائب الواجب دفعها أو الضرائب الاستثنائية التي تفرض عادة عند حصول حالات طارئة وعلى نحو خاص أثناء الحروب أو عند تعرض البلاد للفيضانات أو الأوبئة الخطيرة؛ كانت مثل تلك البيانات أو الأوامر والإرشادات تدوّن على رقم طينية كبيرة أو تنقش في مسلات من الحجارة المصقولة ثم توضع أو تثبّت في أماكن معيّنة رئيسة أو في ساحات المدن ليقرأها من يستطيع من أفراد الشعب ثم يعلم الآخرين.

أما في شبه جزيرة العرب فقد ترك حاكم اليمن (أبرهة) من قبل الأحباش مسلة-إعلامية كبيرة جدا وهي مسلة على شكل لوح منشوري الشكل من الرخام؛ إنها أشبه بالصحيفة الإخبارية الرسمية أراد بها إعلام العرب من أهل اليمن بقوة الأحباش وشدة بأسهم في الحروب وبعزيمتهم بالضرب بيد من حديد كل من تسوّل له نفسه الخروج عن الطاعة. لقد كانت تلك المسلة بمثابة الصحيفة الرسمية.



(شكل67)

المسلة-الخاصة بالأمير (أبرهة) تعود إلى القرن السادس الميلادي

عن: **John Simpson**

للأحباش ولحاكمهم على اليمن قبيل انهيار سد مأرب بسنوات قليلة. لقد ثبّت (أبرهة) في هذه المسلة التي كتبت بقلم المسند أمورا كثيرة أراد بها أن يبهر الناس بها؛ فإلى جانب الأخبار الخاصة بانتصاراته في حروبه ضد العرب ثبّت فيها إنجازاته العمرانية وغير ذلك من الموضوعات الإعلامية. لقد وضعها في الميدان الكبير بمدينة (مأرب) العاصمة الرسمية لبلاد اليمن أنذاك ليقرئها السكان والاطلاع عليها (شكل67).[1]

غير أن هذا النوع من الإعلام أو حتى القوة والقسوة التي مارسوها ضد أهل البلاد لم تنفع الأحباش كثيرا، فقد عجّلوا في نهايتهم في اليمن باعتدائهم على أعراض الناس وأموالهم، وأخذهم عنوة كل ما كانوا يجدونه أمامهم حتى ضج أهل اليمن وضجروا، فهبوا يريدون تغيير الحال وطرد الحبشة عن أرضهم؛ فهب اليمانيون على الحبش، وثار عليهم ساداتهم في مواضع متعددة، غير أن ثوراتهم لم تفدهم شيئا، إذ أخمدت وقتل القائمون بها. ومن أهم أسباب إخفاقها أنها لم تكن ثورة عارمة عامة انضوت تحت لوائها كل الجماهير اليمنية.[2]

غير أن أهل البلاد لم يصبروا على ذلك طويلا، فوجهوا أنظارهم نحو الخارج للحصول على معونة عسكرية أجنبية خارجية لتكره الأحباش على ترك البلاد. وكان صاحب ذلك الرأي سيف بن ذي يزن وقد نجح في مشروعه الحربي، فاكتسب صفة البطولة وانتشر اسمه بين اليمانيين حتى صار أسطورة من

---

(1) غير أن من المؤكد أن الأحباش قد تعلموا الكثير من المقومات الحضارية من بلاد اليمن، ربما من أهمها أنهم اقتبسوا منهم الكتابة بالمسند الحميري والتي ما تزال هي الكتابة المعوّل عليها في بلاد اليمن حتى يومنا هذا.

(2) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 3/ 521

الأساطير. المهم هنا أن الأحباش طردوا نهائيا من اليمن. كان ذلك في القرن السادس الميلادي.[1]

أما في العصور الإسلامية المبكرة فأن جمع القرآن الكريم في عهد ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان (23-35هـ/ 644-656م) وإرسال نسخا منه إلى عواصم الأمصار حيث كان الناس هناك يستنسخونه في دفاترهم كليا أو جزئيا ما هو إلا نوع من أنواع الإعلام الديني.

وقد سبق ذلك أن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان قد بعث إلى ملوك ورؤساء الدول المجاورة برسائل يدعوهم فيها إلى الدخول في الدين الإسلامي. إنها رسائل ربما لا تدخل في صلب المبدأ الإعلامي في النشر على الملأ؛ غير أنه قد تمّ العثور مؤخرا على وثيقة قديمة مدوّنة على الرق في أربع صفائح مخيّطة إلى بعضها في 67 سطرا تحتوي على الأسس الرئيسية التي يقوم عليها الدين الإسلامي.[2] إنها في واقع الأمر رسالة إرشادية موجّهة من رسول الله إلى ملوك ورؤساء اليمن الذين كانوا قد دخلوافي الدين الإسلامي الحنيف.[3] غير أن الوثيقة لم تكتب بالقلم العربي الشمالي وإنما بقلم المسند الحميري ولكن بلهجة قريش؛ أي بما يعرف اليوم بالعربية الفصحى.[4] وقد تبيّن للعلماء من دراستها

---

(1) المصدر نفسه، 3/ 522

(2) إنها محفوظة في متحف اللوفر بباريس

(3) ابن هشام، عبد الملك الحميري، (ت218هـ)، المغازي، القاهرة 1936، الجزء الأول، ص211

(4) لقد ذكر الرجل الذي اكتشف هذه الوثيقة، وهو الفرنسي ديفيد كوهين David Cohen أنه وجدها محفوظة في معبد يهودي قديم بمدينة دمشق synagogue وقد تم نشرها في سنة 1971.

أنها ليست الوثيقة الأصلية التي كان قد بعث بها رسول الله إلى رؤساء وملوك اليمن بل ترجمة أو واحدة من الترجمات من القلم العربي الشمالي إلى المسند الحميري القلم الذي كان في قيد الاستعمال في بلاد اليمن في ذلك الوقت. إنها النسخة الوحيدة التي وصلت إلينا ربما كانت واحدة من عشرات أو مئات النسخ التي وزعت على الناس في اليمن ليقرأ ما جاء فيها ويتعلموا منها المبادئ الأساس للدين الإسلامي الحنيف. إن تلك الوثيقة يمكن أن تعد والحالة هذه نوعا من المنشورات الإعلامية عند العرب في فجر الإسلام.

وفي العصر الراشدي وكذلك في العصر الأموي كان هم الناس استنساخ ما يقع في أيديهم من صفحات القرآن الكريم ثم اتجهوا في العصر الأموي إلى جانب استنساخ ما يرويه الثقات من الأحاديث النبوية الشريفة فضلا عن الأخبار التاريخية والأدبية. وفي الواقع أن صناعة نسخ الكتب والرسائل قد شاعت عند العرب في العصور الوسطى ولاسيما في البصرة والكوفة والفسطاط ودمشق، ثم في بغداد حيث ازدهرت صناعة الوراقة والنسخ على نحو لم يشهد لها مثيل من قبل.

أما بالنسبة إلى الوسائل الأخرى المتبعة في الإعلام في العهود الإسلامية فلم تختلف كثيرا في العهود التي أعقبت العصور القديمة في العالم العربي؛ فلم يكن الإعلام ليختلف كثيرا عما كان عليه الأمر في القرون التي سبقت عهدهم. فإذا كانت هناك أخبار مهمة تريد الدولة اطلاع الناس عليها فكثيرا ما نجد أن الإشهار كان يتم عن طريقين؛ أما عن طريق النداء من فوق المآذن أو عن طريق المنادي الذي كان يتجول في الشوارع والدروب وهو يقرع الطبل أو النقارة في بعض الأحيان وينادي بما يريد إعلام الناس به كأن يقول لهم: (**على حاضركم أو السامع منكم أن يبلغ غائبكم بكذا وكذا...**). وإذا كان الأمر يحتمل التأجيل

قليلا فيتم الإبلاغ في المساجد عن طريق المنبر بعد خطبة الجمعة أو قبلها. وليس منا من لم يسمع الضرب على الطبول في شهر رمضان في الساعات المتأخرة من ليالي رضان ليتم أيقاظ الناس ليتناولوا شيئا من طعام السحور قبل صلاة الفجر. ليس هذا فقط بل غالبا ما ينادي المؤذن من فوق المآذن قبل الأذان عند الفجر يطلب من الصائمين لامساك قبل قيامه بالأذان بدقيقتين أو بثلاث دقائق

وكما سبق أن ذكرت في المبحث الخاص في الإعلام عن طريق الشعر أن المعلقات التي كانت العرب تعلّقها على جدران الكعبة المشرفة ما هي في واقع الأمر إلا نوعا من الملصقات الإعلامية ليتمتّع بقراءتها من يحسن القراءة من الوافدين إلى بيت الله الحرام. وكان الوافدون لايكتفون بقراءتها بل يجتهدون في حفظها، أو يقرأها من يحسن القراءة على من لا يقرأ من العرب. والحق أن الهدف أو الغرض من تلك المنشورات والملصقات لم يكن فقط لإدخال المتعة والبهجة إلى نفوس من يقرأها من الوافدين بل أيضا لتشجيع رجال القبائل على زيارة المدينة ليستفيد من وجودهم أصحاب الحوانيت التجارية وغيرهم.

وربما أن أقدم مشاهرة عرفتها العرب عن طريق الملصقات وأهمها وثيقة مشهورة عرفت عند أصحاب السير والتاريخ الإسلامي المبكر (**صحيفة المقاطعة**) التي تمّ تعلّيقها في جوف الكعبة المشرفة عندما قررت قريش والقبائل المنضوية تحت لوائها التوقف عن التعامل مع بني هاشم.

وفي واقع الأمر أن قريش قد حققت نصرا إعلاميا مؤكدا عن طريق صحيفة المقاطعة تلك؛ فقد أفادنا أصحاب السير من المؤرخين المسلمين أن بني هاشم وعموم المسلمين قد اضطروا إلى ترك مساكنهم في مكة واللجوء إلى ما يعرف بـ(شعاب مكة) وفي المناطق الجبلية الوعرة القريبة من مكة أو المتاخمة لها التي لا زرع فيها، فقط ليتخلّصوا من أذى ومضايقات المشركين من أهل مكة؛

وظلوا هناك إلى الوقت الذي قرر فيها المشركون من قريش رفع الحظر عن بني هاشم فعادوا وعاد بقية المسلمين سويا إلى بيوتهم وممارسة أعمالهم في مكة. غير أن الاضطهاد والمضايقات ظلت مستمرة وفي تزايد؛ ولهذا السبب أذن رسول الله لعدد كبير من المسلمين بالهجرة الموقتة إلى بلاد الحبشة ليقيموا موقتا كلاجئين عند ملكها النجاشي.

وكثيرا ما كانت الفئات المعارضة تلجأ إلى توزيع (الرقاع) في العصرين الأموي والعباسي وكذلك في العصر الفاطمي في مصر؛ أي أنها باتت تستعين بالمنشورات التي كانت تكتب بنسخ متعددة ليتم توزيعها على الناس أما على نحو علني كما كان عليه الأمر في مصر الفاطمية، أو بطرق سرية مختلفة؛ يلصق بعضها على واجهات الجدران الخارجية لاسيما جدران المباني العامة كالمساجد والمدارس والزوايا وحتى القصور أو عند الجسور المنصوبة على الانهر داخل المدن.

وقد يبدو غريبا أن نجد أن الخليفة العباسي الورع المهتدي بالله (255-256هـ/ 869-870م) أو بعض رجال الحاشية المقربين منه قد لجأوا أو عمدوا إلى مثل هذا الأسلوب في الإعلام؛ فقد كتب الطبري الذي عاصر تلك الأحداث أن رقاعا وزّعت في الطرقات والقيت في المسجد الجامع في سامراء في محرم من سنة 256 هجرية (870م) جاء فيها أن قادة الجند الأتراك يريدون أن يوقعوا الأذى العظيم بالخليفة الشرعي للبلاد ثم يخلعوه بطرق غير شرعية أو قانونية، وأضافوا في تلك الرقاع أو الملصقات أن القادة العسكريين الأتراك على وشك أن يفتكوا به.[1]

(1) الطبري، المصدر السابق، 9/ 462-465

وقد أثبتت تلك الملصقات والمنشورات صحتها فقد تعرّض الخليفة إلى الضرب المبرّح من قبل بعض القادة العسكريين الأتراك المناهضين لسياساته لاسيما المالية منها، فعزل بعد التعذيب الشديد ثم قتل شر قتلة كما أفادتنا بذلك كتب التاريخ التي تناولت تلك الفترة العصيبة من العصر العباسي التي سيطر فيها القادة العسكريين الأتراك على مجريات الأمور في سامراء.[1]

وفي مصر يذكر المؤرخون أيضا أن الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (386-411هـ/ 996-1020م) كان قد وزّع منشورات ألصقت على جدران المساجد وفي بعض الأزقة في كبرى المدن المصرية فيها شتم أو لعن للخليفتين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهم؛ فثارت العامة من الناس وأخذوا في شتم الخليفة ومهاجمة حرسه فنصحه وزيره بتغيير ذلك وأن يقتصر في اللعن على معاوية بن أبي سفيان فأمر بفعل ذلك فهدأت العامة بعض الشيء.[2]

ولا علم لنا على نحو دقيق بما كان يجري في العراق في العصر العباسي الثاني الذي أعقب عودة الخلفاء إلى بغداد من سامراء؛ ولا ما كان عليه الأمر بخصوص الملصقات الجدارية في العهود التي أعقبت العصر العباسي. غير أن الذي نعلمه أن كثيرا ما كانت الفئات غير الحكومية تلجأ إلى الملصقات الجدارية

(1) لقد جاء في واحد من تلك الرقاع كم كتب الطبري بعد البسملة: "بسم الله الرحمن الرجيم يا معشر المسلمين ادعوا الله لخليفتكم العدل الرضا المضاهي لعمر بن الخطاب أن ينصره على عدوّه ويكفيه مؤنة ظالمه ويتمم النعمة عليه وعلى هذه الأمة ببقائه، فإن الموالي (الأتراك) قد أخذوه بان يخلع نفسه وهو يعذّب منذ أيام والمدبّر لذلك ..... الخ" (الطبري، المرجع نفسه، 9/ 465).

(2) آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، بيروت، 1968م، 1/ 132

في العصر العثماني المتأخر المناهضة للسلطة ولسياستها ولاسيما في الأقاليم أو الولايات التابعة لها.

ثم يدور الزمن دورته ويتجه الأوربيون إلى الأقاليم المشرقية مرة أخرى؛ غير أننا نجد أن الإعلام هنا يتخذ شكلا مختلفا يتماشى تماما مع الأفكار الاستعمارية الجديدة. ومن أغرب هذا الضرب من الإعلام وأكثره تطرفا ذلك الذي انتهجه الفرنسيون عند غزوهم لمصر في صيف سنة 1798 ميلادية بقيادة نابليون بونابرت حيث أرادوا أن يجعلوا من مصر قاعدة استراتيجية تكون نواة للإمبراطورية الفرنسية في الشرق؛ وفي الوقت نفسه أن يقطعوا الطريق ما بين بريطانيا ومستعمراتها في الهند وغيرها من الأقاليم المشرقية؛ ليس هذا فقط بل أرادوا استغلال موارد مصر في حروبها في أوربا كما أفادنا بذلك المؤرخون الأوربيون.[1] فالذي نعلمه أن نابليون بونابرت والقادة العسكريين الفرنسيين في مصر استعانوا بالملصقات الإعلامية بكثرة خلال تواجدهم في مصر كما أفادنا بذلك المؤرخون المصريون المعاصرون.

وفي سبيل تحقيق ذلك على الوجه الأفضل استعان الفرنسيون بالإعلام كسلاح ماض في سبيل تحقيق مآربهم تلك. فنجد أن وزير الخارجية الفرنسية المسيو تاليران الذي يعد المهندس الحقيقي لتلك الحملة قد أوعز لقادة الجيش الفرنسي قبل مغادرتهما الأراضي الفرنسية بضرورة مراعاة تقاليد أهل مصر وعاداتهم وشعائرهم الدينية، وأن يعملوا جاهدين أو ما في وسعهم في استمالة

---

(1) كان القنصل الفرنسي في مصر شارل مجالون قد شرح في تقرير له إلى الحكومة الفرنسية في شهر شباط من سنة 1798 ضرورة احتلال مصر وعدد المزايا التي ينتظر أن تجنيها فرنسا من منتجات تلك البلاد وتجارته فضلا عن أهميتها الاستراتيجية بالنسبة للتجارة العالمية ولاسيما مع الهند والشرق الأقصى عموما.

المصريين إليهم وكسب مودتهم بتبجيل علمائهم وشيوخهم واحترام أهل الرأي منهم، لأن هؤلاء العلماء هم على الدوام أصحاب مكانة كبيرة عند المصريين بجميع طبقاتهم.

غير أن نابليون في سبيل كسب ثقة المصريين ذهب في الإعلام ابعد من ذلك بكثير. لقد انتهج جميع السبل المتاحة له في سبيل تثبيت أقدام الجيش الفرنسي في أرض مصر حتى أنه ادعى في بيانه الأول الموجه إلى المصريين أن الشعب الفرنسي برمته قد اعتنق الدين الإسلامي الحنيف بما فيهم هو شخصيا مع العلم أن غالبية الفرنسيين كانوا وما يزالون يدينون بالمذهب الكاثوليكي تحت سلطة البابا الدينية. ليس هذا فقط بل ادعى أنه قضى على دولة البابا وهو في طريقه إلى مصر؛ وأنه أنهى، وهو في طريقه إلى مصر، وجود الفرقة العسكرية المعروفة بـ(فرسان القديس يوحنا) التي كان مقرها في جزيرة (مالطا) وهي أخر فلول الصليبيين المتزمتين الذين كانوا يعتبرون أن في قتل المسلم أجرا عظيما عند الله وعند السيد المسيح عليه السلام. وجاء في بيانه الأول أيضا أن العرض الأساس من قدوم الجيش الفرنسي إلى مصر هو القضاء على المماليك المغتصبين للسلطة والمهيمنين على مقدرات الشعب المصري وخيراته، وأن الفرنسيين يريدون أن تعود الأمور إلى نصابها بإعادة سلطة السلطان العثماني على مصر الذي يكنون له كل احترام وتقدير.

واقتطف هنا بعض فقرات أو مقتطفات من البيان الفرنسي الأول بكلماته الأصلية وبلغته العربية الركيكة لا من المصادر الفرنسية بل كما جاء مدونا في الكتب التاريخية المصرية التي عاصر مؤلفوها الحملة الفرنسية على مصر: (بسم **الله الرحمن الرحيم لا اله إلا الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه. إنه من طرف الفرنساوية المبني على أساس الحرية والتسوية، السر عسكر الكبير أمير الجيوش**

الفرنساوية بونابرته (أي القائد الأعلى للجيش الفرنسي نابليون بونابرت) .... أيها المشايخ والأئمة وأعيان البلد أن الفرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون وإثبات ذلك أنهم نزلوا في روميا الكبرى وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائما يحث النصارى على محاربة الإسلام...) وقد أوضح البيان أن الهدف من تلك الحملة هو القضاء على المماليك أعداء الشعب المصري والذين كانوا يعاملون الفرنسيين معاملة سيئة جدا فحانت ساعة عقوبتهم. ثم حاول نابليون أن ينفي الإشاعات التي باتت تدور في مصر بأن الفرنسيين مختصبين يناصبون الإسلام والمسلمين العداء؛ فجاء في البيان: (... وقد قيل لكم إنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه، وقولوا للمفترين إنني ما قدمت إليكم إلا لأخلّص حقّكم من يد الظالمين وإنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم...).[1]

ثم يمضي في بيانه فيقول للشعب المصري: (إن الفرنساوية صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء أعدائه أدام الله ملكه.....).[2]

غير أن البيان لم يخل من التهديد والوعيد؛ من ذلك: (....طوبى ثم طوبى لشعب مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلو مراتبهم؛ وطوبى أيضا للذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين لأحد... ولكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك في محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريق إلى الخلاص ولا يبقى منهم أثر...)[3]

وفي سبيل التأكيد على ادعاءات نابليون اعدم عددا من الجنود الفرنسيين

---

(1) الجبرتي، عجائب الآثار، 2/ 182.

(2) المصدر نفسه، 2/ 183.

(3) المصدر نفسه، 2/ 184.

رميا بالرصاص الذين ثبت إجرامهم بحق الأهالي. ويذكر أنه كان يتجول وهو مرتديا الملابس الشرقية بما في ذلك العمامة والجلباب. كما كان يتردد على المساجد في أيام الجمع ويساهم بممارسة الشعائر الدينية الإسلامية. ثم أن القادة الفرنسيين كانوا يقيمون ولائم الإفطار الكبيرة للوجهاء المصريين في شهر رمضان ويحضرون أيضا موائد الإفطار عند المصريين إذا ما دعوا إليها، ويشاركون المسلمين بالاحتفال بالأعياد.[1]

ومع كل تلك الأساليب الملتوية في الإعلام التي اتبعها الفرنسيون لم يتمكنوا طويلا من خداع الشعب المصري الذي أدرك أن من أهم أهداف المحتل إضافة إلى ما ذكرت هو امتصاص خيرات البلاد وإذلال الشعب المصري، فقامت انتفاضات وثورات كثيرة نظمها المصريون وعلى نحو خاص في القاهرة ولاسيما بعد مقتل رئيس الحملة الفرنسية الجديد الجنرال (كليبر) على يد سليمان الحلبي. ففي واحدة من تلك الانتفاضات قتل ما لا يقل عن ثلاثمائة عسكري فرنسي. وبسبب ذلك صار الفرنسيون يصدرون البيانات ويلصقونها على الجدران في الأسواق وعلى جدران المساجد باسم رجال الدين المصريين يطلبون فيها من الشعب المصري التهدئة وعدم الأصغاء لمثيري الفتن بالوقوف بوجه الجيش الفرنسي.

جاء في واحد من تلك البيانات: **نصيحة من كافة علماء الإسلام بمصر المحروسة؛ نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، ونبرأ الله من الساعين في الأرض فسادا. ونعرف أهل مصر... بأن الأشرار حركوا الشرور بين الرعية وبين العساكر الفرنساوية بعد أن كانوا أصحابا وأحبابا.... ولكن حصلت**

---

(1) المصدر نفسه 2/ 256.

ألطاف الله وسكنت الفتنة بسبب شفاعتنا عند أمير الجيوش بونابرته... لأنه رجل كامل العقل عنده رحمة وشفقة على المسلمين ومحبة إلى الفقراء والمساكين ولولاه لكانت العساكر أحرقت جميعالمدينة ونهبت جميع الأموال وقتلوا كامل أهل مصر. وعليكم أن لا تحركوا الفتن وتطيعوا أمر المفسدين.... فتكونوا من الخاسرين.... إن الله يؤتي ملكه من يشاء ويحكم ما يريد... ونصيحتنا إليكم أن لا تلقوا بأنفسكم إلى التهلكة... وادفعوا الخراج الذي عليكم... والسلام".[1]

غير أن كل هذا الأسلوب من الإعلام لم ينفعهم كثيرا؛ فاستمرت القلاقل والثورات وأيضا محاصرة الأسطول الإنجليزي للموانئ المصرية وتدميرهم للسفن الفرنسية وتحركات الجيش العثماني في فلسطين وسوريا لم يستطع الفرنسيون الصمود طويلا في مصر فغادروها بعد ثلاث سنوات عائدين إلى فرنسا؛ كان ذلك في شهر أيلول من سنة 1801.

ويبدو من تلك الملصقات أنهم كثيرا ما كانوا يلجؤون إلى التهدئة في سبيل تجنب الثورات أو الانتفاضات الشعبية ضد الوجود الفرنسي في البلاد. من تلك الملصقات التي وزعها الجيش الفرنسي أو ألصقوها على الجدران في أسواق القاهرة وغيرها، منها: "الحمد لله وحده، **هذا خطاب إلى جميع أهل مصر من خاص وعام.... نعلمكم معاشر أهل مصر أن حضرت ساري عسكر الكبير بونابرته (نابليون) أمير الجيوش الفرنساوية صفح الصفح الكلي عن كامل الناس والرعية بسبب ما حصل من أراذل أهل البلد... من الفتنة والشر مع العساكر الفرنساوية... كل ذلك من كمال عقله وحسن تدبيره ومزيد حبه بمصر وشفقته على سكانها... فاشتغلوا بأمر دينكم وأسباب دنياكم ولتركوا الفتنة والشرور**

---

(1) الجبرتي، 2/ 226-227.

ولا تطيعوا شيطانكم وهواكم وعليكم بالرضا بقضاء الله وحسن الاستقامة لأجل خلاصكم من أسباب العطب والوقوع في الندامة؛ رزقنا الله وإياكم التوفيق... والسلام على أفضل الرسل على الدوام).[1]

إن الهدف من وراء مثل هذه الملصقات واضحة تماما للقارئ الكريم فهي ليست بحاجة إلى أي شرح أو تعليق.

ومع ذلك زرع الفرنسيون عن غير قصد بذور الحضارة الأوربية الحديثة في مصر فقد كان بصحبة الجيش الفرنسي نحو ألفين من العلماء والمهندسين والفنيين فنظّموا ما يعرف بالمعهد العلمي المصري. وقد عمل الفرنسيون على تفعيل الحياة المدنية بإقامة مجالس من مجموعة مختارة من الشخصيات المرموقة في البلد بما فيهم كبار رجال الدين ومشاركتها في إدارة حكم البلاد وتعيين الموظفين؛ إنه النظام الذي ابتدع في عهد الثورة الفرنسية الكبرى قبل احتلال مصر ببضع سنوات. وعرف المصريون أيضا لأول مرة الأنظمة الإدارية واستحداث ما يعرف اليوم بسجلات المواليد والوفيات. ومن نتائج الاحتلال الفرنسي لمصر منها أيضا إدخال المطابع والصحف لأول مرة وكانت واحدة من النتائج المهمة أن فتّحت أعين الناس لأول مرة على الكثير من الأمور التي كانت خافية تماما عنهم مثل الجمعيات الوطنيّة ومجالس البلديات والجمعيات التعاونية أو الخيرية أو الطريق إلى ما يعرف بالمنظمات النقابية الحرة بثوبها الجديد التي لا علاقة مباشرة لها بالحكومة. ومع ذلك فإن نوعا من أنواع النقابات كانت معروفة في العصر العثماني ولاسيما في العاصمة أستانبول. كان تعرف في ذلك الوقت باسم (الرابطة)؛ مثل (رابطة الخطاطين) و(رابطة المذهبين) و(رابطة الحرفيين)،

---

(1) المصدر السابق، 2/ 247-248

غير أن الاختلاف بين النقابات والرابطة الخاصة بأصحاب الحرف التي تشكلت في بعض المدن الإسلامية أن الأولى كانت تتمتع بالكثير من الاستقلالية في حين أن الثانية كانت في ذلك الزمن تحت الأشراف المباشر للدولة.[1]

وخلاصة القول أن الأساليب القديمة في الإعلام قد تطورت رويدا رويدا في العالمين العربي والإسلامي مع بداية عصر النهضة في أوربا، فدخلت بوادر الحضارة الأوربية ولاسيما عندما خضعت بعض البلدان العربية إلى الاستعمار الأوربي، مثل دخول الجيش الفرنسي إلى مصر في أوائل القرن الثامن عشر الذي أثار الوعي القومي لدى المصريين ولفت الانتباه إلى أمور كانت غائبة عن أذهانهم.

وإذا تركنا نابليون ومصر وشأنهما يمكن القول أن الرقاع والملصقات تعد في أيامنا هذه واحدة من أهم الوسائل المتبعة في الإعلام أو في الإعلانات التجارية إن لم تكن أهمها جميعا. وليس منا من لم يلحظ أن مثل تلك الملصقات الجدارية الكبيرة غالبا ما يلصقها المرشحون للانتخابات في عموم البلاد سواء كانت خاصة بالمرشحين للمجالس البلدية أو البرلمانية. ومن البديهي أن ذلك يشمل أيضا الرقاع التي توزع باليد على الناس من قبل أصحاب الشأن.[2] ولاشك أن الذي ساعد في كثرة هذه الملصقات والرقاع التي توزّع في أيامنا هذه الطباعة الحديثة ولاسيما الملوّنة منها. ليس هذا فقط بل أخذت في جميع أنحاء

---

(1) محمد عبد-الستار عثمان، المدينة الإسلامية، الكويت 1988، ص299

(2) هناك اليوم في معظم أنحاء العالم بما في ذلك الكثير من البلدان العربية شركات متخصصة في طبع وتوزيع المنشورات الخاصة والإعلانات عن طريق الرقاع على الناس؛ إنها تدفع للعاملين عندها الاجور أوالرواتب لتوزيع الرقاع على السابلة أو لتودعها على دور الناس وشققهم السكنية في المدن.

العالم المتحضر تطبع صحف ومجلات خاصة قد يبلغ عدد صفحاتها الثمانين أو يزيد مكرّسة كلها للإعلانات التجارية ليس غير؛ إن مثل هذه المنشورات الإعلانية التجارية تظهر على الأقل مرة في الأسبوع وتوزع على الناس بلا مقابل؛ وغالبا ما نجد عددا منها مطروحة أمام أبواب الدور السكنية والشقق في العمارات المختلفة في الصباح الباكر ولاسيما في أيام العطل الرسمية فضلا عن مجموعة من الملصقات أي الإعلانات المطبوعة المستقلة.

الفصل الحادي عشر

الحركات السرّية والإشاعات والحرب النفسية

الفصل الحادي عشر

الحركات السرّية والإشاعات والحرب النفسية

لقد استخدمت أو استعانت الدول منذ أقدم العصور بعلم النفس Psychology في تعاملها مع الشعوب بما في ذلك شعبها هي. لقد كانت حكومات الدول القديمة تظهر على الدوام لشعوبها أن الدولة مستقرة تماما وأن لها المقدرة والقابلية التامة على إدارة شؤون البلاد وعلى حماية الشعب وسحق خصومه الخطرين والذود عن الناس بكل الإمكانيات المتاحة لها.

فعلى سبيل المثال كانت للسلطات في بغداد حاضرة الخلافة العباسية مخبرين سريين؛ إنهم عيونا لها في كل مكان؛ كان الواجب المناط بهؤلاء (العيون) جمع المعلومات والأخبار سواء كانت سيئة أو جيدة وأن يأتوا بتلك الأخبار إلى موظف كبير تعينه الدولة كان يعرف في ذلك الزمن بـ(صاحب الأخبار)؛ الوظيفة التي تقابل في الوقت الحاضر بـ(مدير جهاز المخابرات)، تجري له الدولة أرزاقه أو راتبه مثل أي موظف كبير آخر، له ديوان خاص فيه عددا من الموظفين الذين كانوا يرتبون ويبوبون الأخبار التي يأتي بها العيون الذين كان من واجبهم أن يتسقّطوها من منابعها الأصلية بما في ذلك الشائعات ولاسيما في الأماكن التي يتجمّع فيها الناس مثل الأسواق والتكايا والمساجد والمدارس والأزقة والحمامات وغيرها ويأتون بها إلى الديوان حيث يقوم صاحب الأخبار بجمعها وتبويبها وترتيبها زمنيا ثم يقدمها للسلطات أولا بأول.

وليس من المستبعد أن من الواجبات المناطة بـ(العيون) لم يكن فقط تدوين ما يلتقطونه من المعلومات والإشاعات التي كانت تدور بين الناس؛ بل أيضا بث الإشاعات وترويج الأخبار التي يكون في نشرها بين الجمهور فائدة كبيرة للسلطة

الحاكمة؛ ليس هذا فقط بل قد يدخل في ذلك ترويج الإشاعات على نحو مدروس ومنظّم العرض منها التخويف وإرهابهم من السلطة أو تطمين الناس بأن الدولة مسيطرة على الأوضاع تماما فلا داع للقلق والخوف.

وكثيرا ما كانت تستخدم النساء كعيون للدولة للاطلاع على مجريات الأمور من داخل البيوت السكنية؛ حتى البائعات المتجولات اللواتي كن يدخلن الدور الخاصة ليبيعوا للنساء ما يحملن من بضائع أو النساء اللواتي كن يقمن بالحجامة أو غيرها من الخدمات لهن. من ذلك على سبيل المثال ما كتبه البيهقي المتوفى نحو سنة 320 هجرية (932م) عن امرأة جيء بها إلى أبي جعفر المنصور ليسألها عن مكان محمد ذي النفس الزكية، [1] ولما استمرت على الإنكار فاجأها بقوله لها أنه يعرف جميع أخبارهم من امرأة حجّامة كانت تدخل إلى بيتها وغيرها من بيوت الناس، وقال لها إنها تعمل عنده كجاسوسة تأتيه بأخبار تلتقطها من الدور السكنية لقاء راتب شهري ثابت. [2] وقيل أنه كان للمأمون الف وسبعمائة عجوز يتفقد بهن أحوال الناس لمعرفة من يحبه ويبغضه ومن يفسد حرم المسلمين، وكتب أنه كان لا يجلس إلى دار الخلافة حتى تأتيه أخبارهن. [3]

---

(1) إنه محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب؛ إنه أحد الأشراف من الطالبيين، لما بدا الانحلال في دولة بني أمية في الشام، اتفق رجال من بني هاشم على بيعته سرا، وكان من دعاته أبو العباس السفاح وأبو جعفر المنصور؛ ثم قامت دولة بني العباس فتوارى عن الأنظار هو وأخوه بالمدينة ولم يفدا على السفاح أو المنصور (الإعلام، 7/ 90).

(2) البيهقي، محمد أبو الفضل إبراهيم، (ت نحو 320هـ)، المحاسن والمساوئ، القاهرة، ص160

(3) صلاح الدين المنجد، بين الخلفاء والخلعاء، بيروت 1957، ص93

وقد ينصرف الأمر في بعض الأحيان إلى خارج حدود الإقليم الخاص بالدولة؛ أي في مدن أو أقاليم لم تكن تابعة لها. من ذلك على سبيل المثال ما كتبه بعض قدامى المؤرخين المسلمين أن الأمير البويهي المتسلط في بغداد عضد الدولة قد رفع اليه خبرا مفاده أن رجلا مصريا في القاهرة كان يقوم بترويج إشاعات سيئة فيها الكثير من الافتراء والتجني ضد المتسلّط على مقاليد الأمور في العراق الأمير عضد الدولة أبو شجاع خسرو(338- 372- 932-949م) في الوقت التي كانت فيه مصر تابعة للفاطميين؛[1] فاحتال عضد الدولة عليه حتى جيء به إلى بغداد فعاتبه فقط ثم أعاده مكرّما إلى القاهرة.[2]

ومن البديهي أن يستعين خصوم الدولة من المعارضة بترويج الإشاعات التي كانت في غاية الخطورة في نقل الأخبار سواء كانت صحيحة أو ملفّقة ولاسيما أن الغالبية العظمى من الناس كانت أميّة بعيدة عن الثقافة تصدّق معظم ما كان ينقل لها. إن الغرض من تلك الإشاعات المغرضة كان قبل كل شيءالإساءة للنظام القائم وإظهاره بأسوأ صورة أمام الجمهور. فكما هو معروف لنا جميعا أن نقل الرسالة الإعلامية عن طريق الكلام المرتبط بالإشاعات كان يدور أو يتنقل بين الناس انتقال النار بالهشيم كما يقال ولاسيما أنها ليست بحاجة أي وسيلة في النشر بين جماهير المستقبلين غير الاتصال المباشر؛ أي عن

---

(1) يعد عضد الدولة واحدا من أعظم الأمراء من غير العرب الذين كانت لهم السلطة الأولى في ذكر المؤرخون أنه نظم ميزانية الدولة تنظيما ممتازا وشيّد العديد من المستشفيات منها المستشفى الكبير في بغداد (المارستان العضدي) وأقام السدود ورصف الطرق بالإضافة لكل ذلك أعاد الأمن والاستقرار والنظام للبلاد. ومن حسن لحظ أن أمارته امتدت لأربع وثلاثين سنة متواصلة؛ أعقبه أمراء بويهيون في غاية السوء والضعف.

(2) آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، 1/ 62

طريق الكلام الاعتيادي الذي يحاول المرسل أن يوصل الأخبار المسيئة للدولة إلى أكبر عدد من الناس. ولكن قد يكون صاحب الرسالة الإعلامية لا يريد برسالته تلك جميع الناس لاسيما إن كان يدعوا إلى مبايعة رجل معيّن أو فئة مميّزة خاصة؛ أو أن في الرسالة الإعلامية توجيه خاص أو يعملون إلى جر أو سحب أفكار الناس في اتجاه سياسي معيّن، أوأن يكون الغرض من وراء ذلك الضرب من الإعلام أن يجعلوا الناس يميلون إلى نصرة حركة دينية أو مذهبية جديدة.

لقد كانت أخشى ما تخشاه الحكومات الإسلامية المتعاقبة نشر أو ترويج الإشاعات المغرضة بين العامة من الناس الغرض منها هدم المحبة وزعزعة ثقة الجماهير بالدولة القائمة؛ فإذا ما أراد القارئ الكريم معرفة السبب في ذلك لنطلع على ما قاله المعتضد بالله الخليفة العباسي الخامس عشر عندما سأله واحد من ندمائه عن السبب في اهتمامه الشديد بقول واحد من العامة بأن الدولة لم تهتم بمراقبة البيع والشراء في الأسواق، فاستدعى المحتسب حالا وأمره بمراقبة الباعة حتى لا يبخسوا الناس في الميزان؛ فقال: **"أنت تعلم ما يجره هذا القول إذا تداولته الألسن...ولقنه هذا عن هذا لم يؤمن أن يولد لهم في نفوسهم امتعاضا... يخرجون فيه إلى إثارة الفتن وإفساد النظام وليس شيء أبلغ في هذا من قطع هذه الأسباب... وإزالة دواعيها وموجباتها..."**[1]

ولاشك أن الإشاعات وحتى الأخبار العادية عندما تنتقل من شخص إلى آخر يبالغ فيها كثيرا ومع ذلك يقبلها العامة من الناس على علاتها. ليس هذا فقط بل حتى قدماء الكتبة والمؤرخين قد ينقلون عن غير قصد أخبارا فيها الكثير

(1) ابن الجوزي، المنتظم، 5/ 130

من المبالغة والتهويل والأمثلة على ذلك كثيرة جدا في بطون كتب التاريخ القديمة.[1]

وقد تكون الرسالة الإعلامية خاصة موجّهة لا إلى جميع الناس بل الهدف منها إقناع شريحة واحدة أو أكثر من شرائح المجتمع بقبول دعوة معينة ولاسيما الدعوات السرية الثورية أو العسكرية الخطيرة الموجّهة ضد النظام القائم في البلاد.

ففي القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي كانت الخلافة العباسية في بداية ضعفها وتسلّط القادة العسكريين من العرب أو غير العرب عليها. ففي ذلك القرن كثر ظهورالفتن والثورات العارمة فضلا عن الحركات السرية المناهضة والمعادية للدولة والمناهضة للدين الإسلامي أيضا؛ والتي منها كما سبق أن ذكرت كانت ثورة بابك الخرمي في إيران وثورة الزنج في جنوب العراق. لقد

---

(1) ولا ضير من أن أنقل للقارئ الكريم مثلا واحد لمثل تلك المبالغات والتهويل في كتب التاريخ وكتب الجغرافية القديمة. من ذلك مثلا وصف الرحالة فتاحية الذي زار بغداد في سنة 579 هجرية (1183م) ووصف بغداد وسورها الذي كان قد أقيم حولها قبل زيارته لها ببضعة عقود؛ غير أن وصف فتاحية اتسم بالكثير من المبالغة والتهويل، فقد ذكر مثلا إن طول بغداد مسيرة يوم واحد واستدارتها مسيرة ثلاثة أيام.

ويقول أيضا أنه شاهد في بغداد بابا من النحاس البراق ارتفاعه مائة ذراع؛ أي أكثر قليلا من خمسين مترا، وعرضه عشرة أذرع؛ أي نحو خمسة أمتار، على الباب من الصور ما ليس باستطاعة أحد أن يصنع نظيره. وحدث أن سقط منه مسمار فلم يستطع أحد إعادته إلى مكانه، ويبلغ من شدة بريق نحاس هذا الباب أن الخيل كانت تجفل عند الاقتراب منه لانعكاس صورها عليه ولذلك اضطروا إلى غسل النحاس بالخل فذهب بريقه، ولكن جزؤه الأعلى ظل على بريقه السابق. (بنيامين التطيلي، الرحلة، ص139، حاشية رقم واحد).

استفادت جميع الفئات الناقمة على النظام القائم في أيامهم من الإعلام عن طريق الاتصال المباشر مع جماهير الناس فقد وجدت أنها وسيلة فعالة في نشر أفكارها سواء كانت دينية أو سياسية أو عسكرية.

ليس هذا فقط بل إن التاريخ الإسلامي زاخر بالعديد من الحركات السرية الباطنية التي كانت لها أفكار الكثير جدا منها هدّامة للقيم الدينية الإسلامية والأخلاقية. لقد عملت على نشر الأفكار الخاصة بها خارجة عن سياق العرف والدولة وحتى في كثير من الأحيان بعيدة كل البعد عن تعاليم وحتى أسس الدين الإسلامي الحنيف. من تلك الفرق الثورية المارقة التي جاءت بعد ثورة الزنج على نحو شبه مباشر حركة (القرامطة) التي تعد صاحبة أشهر تنظيم سري في تاريخ الإسلام. وهم نوع من الملاحدة على حد تعبير جلال الدين السيوطي. لقد عملوا سرا في محاولة إقناع أكبر عدد ممكن من الطبقة الكادحة من الجمهور إلى الأخذ بمبدأ الشيوعية في المال وفي الأراضي الزراعية. أما بالنسبة للشباب الذين يعدون العنصر الأساس ووقود كل تمرد وثورة فقد وجدوا أن خير وسيلة لإقناع القسم غير المثقف أو غير الواعي منهم بمشاعيه النساء والسماح بالملذات الدنيوية الأخرى.

لقد ظهرت هذه الحركة في الكوفة أولا نحو سنة 278 هجرية (890م)، وقد تمكن أشهر قادتهم المؤسس حسين الأهوازي ثم ناشر الدعوة الكبير حمدان بن الأشعث (قرمط) الذي إليه نسبت الحركة والدعوة القرمطية ومن جاء بعده من زعماء القرامطة الكثيرين. أن الأول كان قد وضع اللمسات الأساس في الدعوة القرمطية الذي كان يمني أتباعه بأنهم سيمتلكون الأرض ووضع عنهم الصلاة والصوم إلا في يومي (النيروز) و(المهرجان) والحج لا إلى مكّة بل إلى بيت المقدس، ووضع عنهم والزكاة وبقية الفرائض؛ وكذلك إبطال القول بالثواب

والعقاب، وأن الجنة هي النعيم في الدنيا والنار هي الضنك والعذاب فيها، فألغى بذلك أحكام الشريعة الإسلامية الأساسية. لقد أحلّوا لأتباعهم أموال المخالفين ودماءهم وأعراضهم، فنفق قولهم في الجهال ولاسيما الشباب منهم.

لقد نشرت القرامطة أفكارها عن طريق الاتصال المباشر، ومن ينخرط أو يقبل بأفكارهم عليهم دفع مبلغا ثابتا معلوم هو دينار واحد للتنظيم يكرّس لشراء السلاح. وأن يتعهد من ينخرط في سلك القرامطة بالتبشير بالدعوة بين الآخرين. وهنا تظهر قوة الإيصال الجماهيري المباشر عند العرب في أوضح صورها؛ إنها تذكرّنا بنشر الدعوة الإسلامية الأولى عن طريق الاتصال المباشر ولكن شتان بين الدعوتين؛ الدعوة الأولى إلى الخير والمحبة والمثل العليا إلى الخير كله وإلى معرفة الله جلّ شأنه والثانية إلى السلب والقتل والشر في أعنف صوره.

لقد ظهرت حركة القرامطة السرية في أوائل القرن الرابع الهجري ولاسيما في عهد خلافة المقتدر بالله (295-320هـ/ 908-932م) لتشكل خطورة داهمه على الخلافة العباسية في العراق وكذلك في الجزيرة وبلاد الشام وفي شبه جزيرة العرب.

وحقق القرامطة نجاحا في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي في التبشير بمعتقداتهم وأفكارهم بين العمال والفلاحين والبدو الجفاة وضعفاء النفوس وبين الذين يميلون إلى عاجل اللذات. فبات الناس في بغداد في هلع شديد خوفا من أن يقتحم القرامطة حاضرة الخلافة العباسية؛ وكانوا قبل ذلك قد اقتحموا الكوفة والبصرة فصار الناس يشتمون المقتدر علنا ويدعون عليه لضعفه وتخاذله. لقد أحل رئيس القرامطة لأتباعه أموال المخالفين لهم ودماءهم وأعراضهم وقد استخدموا العنف وسيلة لتحقيق أهدافهم. وهكذا صارت

منظمة القرامطة السرية مجمعا للملاحدة والسفهاء، فأخذ هؤلاء يستحلّون النفوس والأموال والأعراض.

لقد تم تنظيم من ينتمي اليهم تنظيما دقيقا ولاسيما الجانب المتعلق منها في إنهاء معاناة الفقراء والمعوزين. لقد جذبت دعوة القرامطة إضافة إلى الجهال من الشباب الفقراء من الناس فالتحق الكثير منهم بتلك المنظمة. ليس هذا فقط بل بات القرامطة يشترون السلاح بكثرة فأخافوا بذلك الناس من أفراد الطبقة المتوسطة فالتحق بهم الكثير من الرجال ولاسيما الشباب منهم أما خوفا وتخلّصا من شرهم أو طمعا في المغانم التي منّوهم بالحصول عليها.

ومن فظائعهم التي صارت على لسان كل عربي ومسلم في العصر العباسي أن في موسم حج سنة 317 هجرية (929م) في أيام خلافة المقتدر بالله اقتحم القرامطة مكة ووافوا الكعبة يوم التروية فقتلوا الحجيج في المسجد الحرام قتلا ذريعا وطرحت جثث الكثير منهم في بئر زمزم. وضرب زعيمهم أبو طاهر القرمطي الحجر الأسود بدبوس فكسره ثم أمر بقلعه ونقله معه إلى مدينة (هجر) في شمال الجزيرة العربية بعد أن أمضى في مكة أحد عشرة يوما وروي أنه أنشد:

أنـا بالـله وبالـله أنـا   يخلـق الخلـق وأفنـيهم أنـا

ولم يكتفوا بقتل حجيج بيت الله الحرام بل استباحوامكة المكرمة؛ وإن كان فيها آنذاك عدد قليل جدا من الناس حيث تركوها إلى مدن أخرى عندما شعروا بقرب وصول هؤلاء المارقين عن الدين إليها التي استباحوها وأخذوا معهم عند انسحابهم منها الحجر الأسود إلى مدينة (هجر) حيث ظل هناك نحو عشرين عاما، فلم تتم أعادته إلى موضعه إلافي سنة-339 هجرية (950م) لقاء فدية كبيرة من المال وذلك في أيام خلافة المطيع لله (334-363هـ/ 946-974م) وعلى نحو

مهشّم وقد جعل له طوق من الفضة شدّ به؛ وظل الحج متوقفا من العراق بعد تلك الحادثة الشنيعة لمدة عشر سنوات، ولم يستأنف الحج من العراق إلا بعد مفاوضات مريرة مع القرامطة بما في ذلك دفع فدية كبيرة لهم عند كل موسم حج.[1] وما برح أمر القرامطة قويا وخطيرا طيلة ما تبقى من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي.

ثم أن الخلفاء العباسيين عندما شعروا بضعفهم أمام القرامطة من جهة وأمام الفاطميين الذي كانوا قد اجتاحوا مصر في أواسط القرن الرابع من جهة أخرى، أخذوا يبذلون ما في وسعهم من قوة لكسب أكبر قسم من صفوف القرامطة إليهم كي يتخذوا منهم أداة للهجوم على سوريا وتخليصهم من الفاطميين.[2] وقد حصل ذلك بالفعل، ففي سنة 360 هجرية في عهد الخليفة العباسي المطيع لله (334-363هـ/ 946-974م) سار اليه واحدا من أكبر زعماء القرامطة آنذاك المعروف بـ(الحسن الأعسم) واتفقا على أن يزوّده الخليفة بالمال والسلاح.[3] وقد تلقّب منذ ذلك الوقت بـ(السيد الرئيس) كما تشهد على ذلك الدراهم التي ضربها والتي وصل إلينا البعض منها. لقد دارت المعركة الأولى بين القرامطة والفاطميين في سنة 360 هجرية نفسها، انكسر فيها الجيش الفاطمي

---

(1) أي إلى سنة 327 هجرية، وذكر أيضا أن القرامطة سمحوا بالحج من العراق على أن يدفع لهم عن كل جمل خمسة دنانير.

(2) كان القرامطة في بدء دعوتهم يعدّون نفسهم من العلويين، فكانوا لا يحاربون إلا بأمرهم حيث كان تحالف الفاطميين مع القرامطة على أشده،

(3) وقد انظم إلى جانب القرامطة في محاربة الفاطميين بنو عقيل والإخشيديون والحمدانيون.

قرب دمشق وقتل فيها قائد الفاطميين جعفر بن فلاح الكتامي واستولى القرامطة على دمشق.

ثم استمر القرامطة بزحفهم فتمّ احتلال فلسطين بأكملها؛ ثم زحفوا باتجاه مصرواستولوا على مدينة (الفرم) مفتاح الديار المصرية ثم مدينة (قلزم) وهي مدينة السويس الحالية. ولم يزل الحسن الأعسم متابعا زحفه حتى دق أبواب القاهرة؛ غير أنه انكسر بعد معركة دامت أربعة أيام أمام الجيش الفاطمي فكرّ راجعا إلى بلاد الشام منهزما. ومع ذلك استمرت المناوشات بين الفاطميين والقرامطة حتى أيام خلافة العزيز أبو منصور (365-386- هـ975-996م) حيث استطاع الفاطميون في تلك الفترة أن يغيّروا اتجاه القرامطة بدهاء ويبعدونهم عن الخلافة العباسية ويثيروا حفيظتهم ضدهم مرة أخرى.

ويكتب هنا عبد الرحمن ابن خلدون أن القرامطة رجعوا إلى الدعوة للفاطميين أو العلويين ومحاربة بني العباس.[1] غير أن أمرهم قد ضعف كثيرا في الربع الأخير من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي فخسروا المعركة تلو الأخرى أمام العباسيين في شمال بلاد الرافدين؛ ومع ذلك هناك إشارات تاريخية تؤكد وجودهم حتى أواسط القرن الخامس الهجري على الأقل في شمال شرق شبه الجزيرة العربية.[2]

---

(1) ابن خلدون، كتاب العبر، ج 4، ص21

(2) من ذلك أن القرامطة في سنة 357 عندما سيطروا على مدينة دمشق ومعظم بلاد الشام وكان من زعمائهم الكبار في ذلك الوقت يحي بن زكرويه ثم أخيه الحسين بن زكرويه الملقب بـ(أبو شامة) الذي قتل في سنة هجرية (903م)، ومن زعمائهم الكبار أبوسعيد =

ومن الحركات الدينيّة التي نمت واتسعت عن طريق (الدعوة) أي عن طريق الاتصال الفردي المباشر ولا سيما بين العلويين حركة المذهب الإسماعيلي التي انشقّت عن الشيعة الاثني عشريّة. لقد بدأت هذه الحركة الدينية الباطنية، التي هي أكبر فرق الشيعة بعد الاثني عشرية الأمامية، في أواسط القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. إن أصحابها يتفقون مع أصحاب المذهب الاثني عشرية في الأئمة الستة الأوائل فقط وبعدها يرون أن الإمامة لم تنتقل من جعفر الصادق إلى ولده الأصغر موسى الكاظم بل إلى ولده الأكبر إسماعيل، ثم من بعده إلى محمد بن إسماعيل الذي احتجب خوفا من السلطة العباسية وانه المهدي المنتظر عندهم.[1] ومع ذلك يرى معظم المعنيين بالتاريخ الإسلامي في الوقت الحاضر أن الفاطميين والإسماعيليين مذهب متقارب جدا.

وعندما استتبّت الأمور للفاطميين في الشمال الأفريقي ثم في مصر ابتدعوا وسيلة جديدة لها فعالية خاصة في (الدعوة) وكذلك في ترويج الإشاعات ونقل المعلومات التي يريدون نقلها إلى جماهير الناس سواء كان ذلك في البلاد التابعة لهم أو في الأقاليم الأخرى؛ فالمذهب الفاطمي شأنه في هذا شأن الشيعة الاثني عشرية مذهب تبشيري أعلامي من الطراز الأول.

= القرمطي. وقد كتب الرحالة الفارسي ناصر خسرو الذي اجتاز ببعض أجزاء البحرين (قطر) في النصف الأول من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي وهو في طريقة من الحجاز إلى البصرة بعد الحج أنه سأل بعض سكان القرى التي اجتاز بها عندينهم فقالوا له إنهم (بو سعيديين).

(1) Farhad Daftary, Ismaili and Fatimid Studies, (edited) Bruce D. Cray, Chicago,2010 , p. 3-4

واستغلت النقود الإعلامية أيضا كوسيلة هامة جدا في الحرب النفسيّة، حيث سكّ الفاطميون نقودا ذهبية جيدة العيار تحمل اسم الخليفة الفاطمي المعز أبو تميم معد (341-365 هـ/ 952-975م) وعليها عبارة يفهم منها أنها قد سكّت ليس في المغرب الأقصى بل في مصر نفسها وذلك قبل احتلالهم الفسطاط العاصمة الإدارية لمصر ببضع سنوات. وزّعت من تلك الدنانير الذهبية الألاف منها على يد الدعاة الفاطميين السريين. وبسبب جودة عيارها قبلت بسهولة من قبل التجار المصريين وعامة الناس في مصر. ومن الواضح أن إصدار تلك النقود كان من جملة متطلبات الحرب النفسية الدعائية على السلطة الحاكمة هناك، وقد كان الإخشيديون يحكمون البلاد آنذاك، للإيحاء اليهم وإلى الجماهير المصرية أن الفاطميين في طريقهم إلى دخول مصر لا محالة وأن لا جدوى من المقاومة. وفعلا تم احتلال مصر من قبل الفاطميين بعد إصدار تلك النقود بوقت قصير نسبيا ليس فقط بسهولة بالغة بل دخل الجيش الفاطمي إليها وانتزعها من أيدي الإخشيديين في سنة 354 هجرية (868م) من دون أية مقاومة تذكر.

ومن الواضح أنهم أرادوا من وراء ذلك نشر الإشاعات المدعومة أو الموثّقة بتلك الدنانير الذهبية كجزء من الحرب النفسيّة المنظمة التي خطط لها (كبير الدعاة) في (المهديّة) عاصمة الدولة الفاطمية في المغرب الأقصى.

ومن الواضح أيضا أن هدف الفاطميين الأكبر كان قلب نظام الحكم في العراق وشرق العالم الإسلامي بسحب البساط من تحت أقدام الخلفاء العباسيين وضم العراق والأقاليم التابعة للخلافة العباسية إلى الفاطميين، فكان الدعاة الفاطميين يلعبون دورا نشطا ومنظما في إقناع الناس في المدن التابعة للعباسيين ولاسيما المتنفذين منهم بقبول الأفكارالدينية الفاطمية. غير أن من حسن حظ العباسيين أن الغالبية العظمى من الشيعة في العراق وكذلك في إيران كانوا على

المذهب الأمامي- الاثني عشري، بعيدين تماما عن المذهب الإسماعيلي الذي كان يدين به الفاطميون الذين لم يكونوا يؤمنون بالمهدي المنتظر عليه السلام الأمام الثاني عشر والأخير عند الأمامية، فهم يرون أن الإمامة انتقلت من الأمام موسى الكاظم لا إلى الأمام علي الرضا عليهما السلام بل إلى ولده الآخر إسماعيل ثم انتقلت الإمامة من بعده إلى أولاده ومنهم الفاطميين.

وقد استغل الفاطميون تردي الأوضاع في العراق وشرق العالم الإسلامي عموما في تلك الفترة الزمنية فلم تكن الأمور مستقرة في تلك الأقاليم في أواخر القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس الهجري؛ فكان الخلفاء العباسيون مجردين من السلطة لم يكن لهم من الخلافة إلا الاسم حيث كانت بيد الأمراء البويهيين جميع السلطات الدنيوية والسياسية.

غير أن الأمور لم تستمر طويلا على ذلك النحو فقد ضعف أمر البويهيين تدريجيا ووصلوا إلى غاية الوهن والضعف في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن الذي يليه؛ فالدسائس والمكايد كانت تدور في بلاط البويهيين وقلة المال في أيديهم جعلتهم يسلبون الناس أموالهم عن طريق الغصب والمصادرات غير الشرعية.[1] ومما زاد في الوضع سوء الغلاء من جهة ورداءة النقود التي صار البويهيون يضربونها. وكما ذكرت في الفصل الخاص بالنقود أن المؤرخين في العصر العباسي قد ذكروا أن قيمة الدينار الذي كانوا يضربونه بما في ذلك ما كان يعرف بـ(الدينار الركني) الذي كان قد أصدره ركن الدولة البويهي كانت ثلث قيمة الدينار العباسي في عهد القادر بالله (381-422 هـ/ 991-1031م) والسبب في ذلك عياره المنخفض حيث أن نسبة الذهب الخالص في ذلك الدينار لم تتجاوز

(1) ابن الجوزي، المنتظم، 8/ 75، 8/ 82-83

نصف وزنه الكلي بأي حال من الأحوال، أما النصف الآخر فكان من المعادن الرخيصة.[1]

لقد استغل العباسيون ضعف البويهيين فكان أن أصدر الخليفة القادر بالله مرسوما مشهورا عرف في التاريخ الإسلامي بـ(الرسالة القادرية) لعن بموجب ذلك المرسوم أصحاب المذهب الإسماعيلي واعتبر الفاطميين الذين كانوا يدينون بهذا المذهب أعداء للإسلام والمسلمين؛ وأخذ رجال الشرطة يتتبعون الدعاة الفاطميين ورجال الباطنية الآخرين ويلقون القبض عليهم أينما وجدوا. ليس هذا فقط بل أخذوا بموجب ذلك المرسوم يتتبعون أصحاب مذهب المعتزلة الذين كانوا يقولون بخلق القرآن وهم يختلفون بذلك عن أهل السنة.

غير أن ما أن توفي القادر بالله حتى عاد الدعاة الفاطميون إلى مزاولة نشاطهم بهمة بالغة؛ كان هدفهم هذه المرة كسب القادة العسكريين وكبار رجال الدولة العباسية للعمل على قلب نظام الحكم في العراق لصالح الفاطميين. وكثيرا ما كان الفاطميون يبعثون بالخلع والهدايا والأموال إلى أولئك القادة والتي كثيرا ما كانت تحرق أمام بعض بوابات دار الخلافة في الجانب الشرقي من بغداد إذا ما افتضح أمر وصول بعض تلك الهدايا.[2]

وعندما شعر الفاطميون بخطورة السلاجقة على دولتهم عرض كبير الدعاة هبة الله المؤيد في الدين مكاتبة كبيرهم السلطان طغرلبك وغيره من المحيطين به ليستميلهم إلى الدولة الفاطمية؛ وكانت وجهة نظره في ذلك أنه أما أن يصيب التدبير وتنجح كتبه في اجتذابهم بالوعود إلى جانب الفاطميين، وأما أن تبلغ

---

(1) المصدر نفسه، 8/ 40

(2) المصدر نفسه، 8/ 16

مسامع الخليفة العباسي خبر تلك المكاتبات فلا يأمن جانب طغرلبك، وقد وافق الخليفة القاطمي على هذا الرأي، ولكن تلك الكتب لم تأت بالنتائج المرجوة فرؤي مكاتبة بعض كبار القادة العسكريين العباسيين لاجتذابهم إلى جانب الفاطميين.[1]

ومن كبار القادة العسكريين الذين جاهد الفاطميون في ضمه إلى صفوفهم كان القائد التركي الأصل أبا الحارث أرسلان بن عبد الله البساسيري الذي كان القائم بأمر الله (422-467 هـ/ 1031-1075 م) قد جعله القائد العام للجيش في بغداد،[2] فقد نجح الدعاة الفاطميين من أقناعه بالانضمام إلى جانبهم.[3] وكان البساسيري وهو في الأصل من مماليك بهاء الدولة البويهي (388-403هـ/ 998-1012م) قد اشتد ساعده وعظم أمره في خلافة القادر بالله حتى أن كتب الخطيب البغدادي أن الخليفة لم يكن يقطع أمرا دونه ولا يحل ويعقد إلاعن رأيه.[4] ونحن نعلم من المصادر التاريخية العباسية المتيسرة أنه قد تناهى إلى سماع الخليفة العباسي نشاطات البساسيري المريبة واتصالاته بالفاطميين فكتب إلى الأمير البويهي آنذاك وهو الملك الرحيم أبي نصر (440-447هـ/ 1048-1055م) آخر السلاطين البويهيين أن البساسيري قد خلع الطاعة وكاتب الأعداء الفاطميين؛ فخرج البساسيري من بغداد مغاضبا هو وأتباعه إلى واسط. وكما ذكرت كان الفاطميون قد كاتبوا البساسيري ومن معه وتضمنت رسائلهم تأييدهم له. فلما وردت اليه تلك الكتب رحّب بها وكتب إلى المصريين: إن

---

(1) محمد حمدي المناوي، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، القاهرة 1970، ص206

(2) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 1/ 172

(3) سمي بالبساسيري نسبة إلى مدينة (بسا) في إيران.

(4) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، 9/ 399-400

أخذتم بأيدينا أخذنا لكم البلاد."[1] وكان البساسيري على اتصال بكبير الدعاة الفاطميين هبة الله المؤيد في الدين الذي قدم إلى بغداد من مصر حال استلام البساسيري السلطة.

وتتابع الأحداث ويستغل البساسيري خروج طغرلبك والجيش السلجوقي لإخماد ثورة في همدان، فيتمكن بمن معه بالقيام بما يشبه الانقلاب العسكري بالاستيلاء على السلطة في بغداد فدخل حاضرة الخلافة العباسية وعلى رأسه رايات فاطمية تخفق مكتوب عليها: (الأمام المستنصر بالله أبو تميم معد أمير المؤمنين)، وقام فور دخوله بقتل الوزير علي بن الحسن الملقب برئيس الرؤساء وبنفي الخليفة القائم بأمر الله إلى مدينة (عانة) في أعلى الفرات. وحال استلام البساسيري مقاليد الأمور أعلن رسميا تبعية مدينة السلام والعراق على نحو عام بما في ذلك مدينتي واسط والبصرة للخلافة الفاطمية. وأقام الخطبة في سائر جوامع بغداد لصاحب مصر وذلك بدأ من السادس عشر من شهر ذي القعدة من سنة 450 هجرية؛ وأضاف بعض قدامى المؤرخين إلى ما تقدم أن البساسيري:[2]" ... سيرّ ثياب الخليفة القائم بالله وعمامته إلى مصر."[3]

وظل القائم بأمر الله منفيا في مدينة عانة لمدة عام كامل وذلك لحين القضاء على حركة البساسيري وقتله في شهر ذي القعدة من سنة 451 هجرية قرب مدينة واسط وحمل رأسه إلى بغداد حيث بقي رأسه محفوظا في (خزانة الرؤوس) بدار الخلافة ببغداد حتى احترق مع جميع ما في الخزانة من رؤوس مشهورة

---

(1) هبة الله الشيرازي، ديوان المؤيد في الدين، تحقيق محمد حسين كامل، ص41-42

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 8/ 84، ابن الجوزي، 8/ 192

(3) كتب المقريزي أنه وجد في خزائن العاضد (555-567 هـ/ 1160-1171م) آخر خلفاء الفاطميين بعد وفاته عمامة القائم بأمر الله وطيلسانه بحاله. (المقريزي، الخطط، 1/ 356)

وذلك في الحريق الكبير الذي وقع في ذلك المجمّع العمراني الكبير في شهر جمادى الآخر من سنة 601 هجرية (1204م).

ومن البديهي أن تضرب نقودا تحمل اسم صاحب مصر وهو الخليفة الفاطمي المستنصر بالله (427-487هـ/ 1035-1094م) وقد وصل إلينا منها بضعة دنانير عرفت في التاريخ بالدنانير (المستنصرية) واحد منها مضروب في سنة 450 هجرية وثلاثة منها في سنة 451 هجرية. وكانت نقوش الوجه الأول للدينار الأقدم تحمل عبارات تتضمن عبارة (**علي ولي الله**) ويحمل الوجه الثاني عبارة: (**معد عبد الله ووليه الأمام أبو تميم المستنصر بالله أمير المؤمنين**). ويحمل هذا الوجه أيضا عبارة: (**بسم الله ضرب هذا الدينار بمدينة السلام في شهر رمضان سنة خمسين وأربعمائة**).

غير أن من الغريب أن البساسيري لم يدخل إلى بغداد وإعلان تبعيتها رسميا إلى الخلافة الفاطمية إلا في يوم الخميس العاشر من ذي الحجة، وأقيمت الخطبة في سائر جوامع بغداد لصاحب مصر بدأ من السادس عشر من شهر ذي القعدة من تلك السنة: أي بعد شهرين على التاريخ المثبت على هذا الدينار؛ فليس أمامنا إلا تفسير واحد لذلك وهو أن الفاطميين كرروا ضرب مثل تلك الدنانير ووزعوها لا في مصر هذه المرة بل في العراق ولاسيما في بغداد. وبعبارة أخرى أن هذه الدنانير قد ضربت في مصر لتوزع على الناس في بغداد قبل دخول البساسيري إليها كجزء من الإعلام أو ما تسميه بالحرب النفسية على العراقيين عامة وأهل بغداد خاصة ليعلم الناس أن بغداد باتت لا محالة واقعة بيد البساسيري وأنها باتت جزء من الخلافة الفاطمية.

ومع ذلك فإن محاولات الفاطميين في مصر بقلب نظام الحكم في العراق وضم هذا الإقليم إلى تلك الدولة لم تتوقف برحيل البساسيري، فقد نشط الدعاة

مرة أخرى بعد عقدين من الزمن ولجأوا هذه المرة إلى اتباع طرق إعلامية جديدة في نشر الدعوة الفاطمية ولاسيما بين الشباب فاستفادوا من نظام (الفتوة) الذي كان قد عرف عند العرب منذ العصر الجاهلي وكذلك في العهود الإسلامية المتعاقبة حتى أن صار لهذا النظام رابطة على رأسها رجل يعرف بـ(كبير الفتوات). ومن ملتزمات من يريد أن ينضوي تحت هذا النظام من الشباب ويقبله كبير الفتوات عدة شروط لابد من أن تتوفر فيه بشهادة عدد من الشهود بأن يتميّزوا بالكرم والجود والعفة والنجدة وكبر النفس وعلو الهمة وسائر خصال الفضل والخير.[1] وقد تبنى الفاطميون الدعاة الفاطميون في مصر هذه الرابطة ظلت قائمة طوال ذلك العصر واستمرت حتى نهاية العصر المملوكي على الأقل. وتحدثنا المصادر التاريخية الإسلامية أن الخليفة الناصر لدين الله (575-622 هـ/ 1180-1225م) قد اشتهر باهتمامه بهذا النظام واعتبر نفسه (كبير الفتوات) وجعل للفتوة ملابس خاصة ونظاما خاصا.

وكما سبق أن ذكرت أن نظام الفتوة قد لعب دورا مميزا في العصر الفاطمي سواء في مصر أو في الأقاليم التابعة لها؛ فقد كان في كل إقليم رابطة ينظم أمورها كبير الفتوات؛ واحدة منها في بلاد الشام وأخرى في المدينة المنوّرة بالحجاز؛ التي تولت أمور إقامة فرع سري لها في بغداد ظاهره إقامة نظام عادي للفتوة وباطنه الدعوة للفاطميين في مصر. كتب ابن الجوزي أنهم اتخذوا من واحد من المساجد المهجورة في الجانب الغربي مقرا لهم. غير أن أعوان صاحب الأخبار في بغداد ما لبث أن اكتشفوا نشاطات تلك المنظمة: (وقالوا إن هؤلاء

---

(1) لقد عرف هذا النظام في الكثير من الأقطار الأوربية بدأ بعصر النهضة على الأقل ولاسيما في إنجلترا وفرنسا، فكان لا يقبل فيها إلا من قبل الملك نفسه ويتم ذلك بمراسيم خاصة ويلقّب، من يقبل في تلك الرابطة بـ(فارس) knight.

القوم يدعون لصاحب مصر ويجعلون ذكر الفتوة عنوانا لجمع الكلمة على هذا الباطن)؛ فألقي القبض على رئيس الفتوات في بغداد وعلى أعوانه ووجدوا في مقر عملهم كتبا ورسائل إليهم من رئيس الفتوات الفاطمي في المدينة المنورة وكتبا منه إليهم.(1)

والحق إن الإعلام المسيء للدول القائمة قد لعب دورا كبيرا في العالم الإسلامي ولاسيما الإشاعات منها التي بات يروّجها خصوم الخلافة العباسية والخلافة الفاطمية على حد سواء. من ذلك على سبيل المثال أن الإشاعات الخطيرة التي كان هدفها الأساس ترويج الطائفية وتأجيجها والتي لعبت دورا قاتلا في تقويض أركان الخلافة العباسية ككل. لقد تسبّبت الطائفية في هدّ كيان الدولة وعدم تمكنها على النحو الأمثل في الدفاع حتى عن حدودها وحماية شعبها من الغزوات الخارجية الكبيرة مع الأسف الشديد. لقد لعبت الطائفية في بادي الأمر دورا خطيرا في بث الحقد والكراهية والعداء بين المسلمين والمسيحيين ولاسيما في مصر وعلى نحو خاص في العصر الفاطمي، ثم تحولت إلى ترويج الفرقة والعداء بين السنة والشيعة والتي ظلت جذورها قائمة على نحو أو بآخر حتى يومنا هذا.

لقد أخذت الطائفية تتشرى واتخذت مظهرا قويا في عهد المتوكل على الله في أواسط القرن الثالث الهجري عندما أجبر النصارى على لبس الغيار، وزادت الفرقة أيضا وتعمّقت الكراهية وعدم الثقة بين السلطة الحاكمة في العراق وجماهير الناس بما في ذلك المسلمين بمختلف مذاهبهم: (**عندما أمرالمتوكل على الله بهدم قبر الحسين وهدم ما حوله من الدور وأن يعمل مزارع ومنع الناس من**

(1) ابن الجوزي، 8/326-327

زيارته، وخرّب وبقي صحراء. وكان المتوكل معروفا بالتعصّب. فتألم المسلمون من ذلك، وكتب أهل بغداد شتمه على الحيطان والمساجد وهجاه الشعراء ...الخ).[1]

لقد استغل خصوم الخلافة العباسية هذا الحدث أعظم استغلال. فنشروا خبر هدم قبر الحسين (ﷺ) بين جميع طبقات الشعب ليس في العراق فحسب بل في جميع الأقاليم العربية والإسلامية. وعلى الرغم من أن بناء المشهد الحسيني في كربلاء بعد عهد المتوكل قد أعيد سريعا إلى أفضل مما ما كان عليه، فإن هذا الحدث يمكن أن يعد صفحة سوداء للخلافة العباسية واستغلت أعظم استغلال من قبل خصوم الدولة العباسية ولاسيما في الإعلام السلبي الفعّال ضد الخلفاء العباسيين. وفي واقع الأمر إن ذلك الحدث قد ترك أثرا قويا لم يكن بالإمكان محوه أبدا من ذاكرة الجماهير المسلمة حيث بدأت تلك الدولة المترامية الأطراف بعد عهد المتوكل على الله بالضعف؛ حيث استمر الأمر على ذلك النحو في عهود الخلفاء الذين أعقبوه وفي الحكم، فبدأت الخلافة العباسية بالتفكك والانقسام حيث اقتطعت منها وتشكلت ضمن حدودها دويلات كثيرة لا تكنّ المودّة أو المحبّة إلى الأسرة العباسية.

ومع أن بعض الخلفاء العباسيين قد حاولوا وبقوة وضع حد للطائفية ولاسيما في العراق وإيران في النصف الثاني من العصر العباسي حتى أن الخليفة المستنصر بالله (623-640 هـ/ 1226-1242م) قد أعاد تجديد إعمار قبر الإمامين موسى بن جعفر ومحمد الجواد رضي الله عنهما في الكاظمية ببغداد إلا أن ذلك العمل لم ينفع كثيرا في وضع حد للطائفية البغيضة في العراق مع الأسف

---

(1) السيوطي، المصدر السابق، ص224

الشديد فقد اشتدت أوزارها في أواخر العصر العباسي ومما لاشك فيه ان الطائفية هذه قد لعبت دورا مهما في تقويض أركان تلك الدولة والخضوع للتسلط المغولي التتري البغيض.

ولم يتوقف الإعلام السلبي على العرب المسلمين وحدهم ففي العصر الفاطمي في مصر كان الأقباط ومعظمهم من المسيحيين يروّجون مختلف أنواع الإشاعات بين الناس في سبيل بث الكراهية والفرقة بين الجماهير والفئة الحاكمة. ليس هذا فقط بل ذكر أنهم كانوا لا يتورعون حتى عن بث أخبارا بين المسيحيين أنفسهم عن اضطهادات تعرض لها المسيحيون في بلاد الشام وفلسطين قد لا يكون لها نصيب من الصحة. من ذلك أن المؤرخين المسيحيين ولاسيما في مصر قد جاؤوا بالكثير من الأقاصيص القاسية ونسبوها لبعض خلفاء الفاطميين وذلك لتقوية أيمان المسيحيين إن معظم تلك التهم كانت توجه إلى الحاكم بأمر الله (386-411هـ/ 996-1020م)؛[1] فاتهمه خصومه على سبيل المثال أنه أمر بتعذيب بطريق بيت المقدس الأب (أورسيس) تعذيبا شديدا ثم أمر بقتله. وصارت الكنيسة القبطية في مصر تحتفل لسنوات طويلة تلت في شهر أيار من كل عام بذكرى استشهاد (أورسيس) وعدّوه من القديسين الأبرار مع أن مؤرخا مسيحيا مصريا الذي كان معاصرا لهذا البطريق قد أكد ثلاث مرات في كتاب له أن البطريق (أورسيس) قد مات ميتة طبيعية في القسطنطينية وليس في بيت المقدس.[2]

وكما سبق أن ذكرت أن الطائفية البغيضة ضمن الإعلام المضاد

(1) اسمه الكامل مع لقبه: الحاكم أبو علي منصور

(2) آدم متز، المصدر السابق، 2/ 195

أو السلبي قد ساعد على نحو كبير في تقويض أركان الخلافة العباسية ووضع حد نهائي لحكمها؛ الدولة لتي استمرت نابضة بالحياة لما يزيد على خمسة قرون (132-656هـ/ 750-1258م).-فمما يؤسف له حقا أنه عندما هاجم الوثنيون التتار المغول إيران والعراق ثم بلاد الشام في أواسط القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي لم يواجهوا سوى مقاومة ضعيفة أو هزيلة من قبل الجيش العباسي مع أنها كانت حرب حياة أو موت. فكان يجب أن تكون المقاومة شرسة إلى أبعد حدود الشراسة، فقد يكون واحد من الأسباب الرئيسة في ضعف المقاومة؛ الطائفية التي كانت مستفحلة في البلاد آنذاك.

صحيح أن المغول في العقود الأولى التي تبعت اجتياحهم للمراكز الحضارية في الأقاليم الإسلامية قد عملوا على الهدم والتخريب غير أن سياسة التتار قد تبدلت بعد بضع سنوات؛ بسبب فشلهم في تحطيم الروح المعنوية للناس، فبدأوا عن طريق وسائل الإعلام المتيسرة بث الأخبار ولاسيما عن طريق الإشاعات والرقاع الهادفة إلى حمل المواطنين العرب بمختلف دياناتهم أو مذاهبهم على اتباع سلوك مسالم جديد تجاه التتار المغول. ثم ما لبثوا أن أدخلوا تعديلات مهمة في سياساتهم فأخذوا بسياسة هدفها استمالة الناس عقليا وعاطفيا. بدأوا في اتخاذ أسلوبا جديدا يعتمد على الإقناع وليس عن طريق الضغط والتهديد أوالإكراه، كما كان عليه الأمر من قبل. فقد حاول التتار بكل الوسائل المتاحة لهم إفهام الناس أنهم يكنّون لهم الخير والمودّة لاسيما بعد أن استقر بهم المقام في العراق وإيران وكانوا عازمين على ما يبدو أن يظلوا مقيمين في هذين الإقليمين.

ومع كل ذلك فإنهم لم يتمكّنوا أبداعن طريق الدعاية أو هذا الضرب من الإعلام تغيير الأوضاع القديمة وإبدال الكراهية بالحب. والسبب الرئيس في ذلك أنه لم يكن هناك اتصال إعلامي أو تواصل فكري أو روحي بين الشعب وبين

التتار المسيطرين على مقاليد الأمور رغم محاولات هؤلاء الجادة في التوصل إلى مثل ذلك التواصل عن طريق خطب الجمعة من على المنابر أو غيرها من الوسائل الإعلامية الدعائية التي كانت متيسّرة أو متاحة لهم.

إن السبب في ذلك واضح تماما فما تزال المرارة الشديدة كامنة في أفواه العرب والمسلمين عموما؛ كيف يمكن لهم أن ينسوا أو يتغاضوا عن أعمال القتل والغدر والتشريد والسلب والتجويع وهدم المباني العامة والخاصة وتعطيل المباني الدينية مثل الجوامع والمدارس وغيرها في عهدهم الأول على الأقل. ثم أن التتار هم من جنس غير الجنس العربي ولا يتكلمون بلغتهم ولا حتى بلغة قريبة من لغتهم؛ وبالإضافة إلى كل ذلك أن التتار كانوا كفرة ملحدين أو وثنيين، فكيف للعرب المسلمين أن يغفروا لهم ويرضوا عنهم أو يتعاونوا معهم وهو أمر مخالف للشرع الإسلامي تماما؟

ومع ذلك يمكن القول أن لمن حسن الحظ أن التتار المغول ولاسيما بعد وفاة هولاكو باتوا يخشون الجمهور العربي المسلم ويحسبون حساباتهم ولاسيما بعد عدد من الانتفاضات والثورات التي كان يقوم بها الشعب اذا ما تعرضوا إلى شؤونهم الخاصة وإلى تقاليدهم وأعرافهم وعلى نحو خاص إلى كل ما يتعلق بالأمور الدينية الإسلامية. ومما زاد الطين بلّة أن المغول لم يتمكنوا من دحر المماليك في مصر ليس هذا فقط بل أن المماليك استرجعوا الجزء الأكبر من بلاد الشام؛ وبسبب كل تلك الاعتبارات صار التتار يحجمون عن المساس بمشاعر الناس فلم يعودوا يتعرضون للمساجد أو للكنائس وكذلك للمؤسسات الثقافية ومنها المدارس والكتاتيب والربط والتكايا إلا على نطاق محدود خوفا من ردود الفعل الشعبية.

كان من نتيجة ذلك أيضا الحفاظ بالمعارف والعلوم ولاسيما الدينية منها

حيث ظلت تلك المؤسسات الثقافية والدينية تعمل في صمت في ظل الاحتلال التتري المغولي للبلاد، فكانت خير وسيلة للم الشعث واستيفاء الحضارة العربية الإسلامية والحضور الدائم للفكر العربي والإسلامي في جميع مناحي الحياة في تلك السنوات العصيبة التي مرّ بها في بلاد الرافدين والجزء الشرقي من سوريا..

وقد يكون من المفيد أن أذكر للقارئ الكريم أن واحدة من أعظم الأمور التي ساعدت في تلك الأعمال التبشيرية الإعلامية التي اضطلع بها رجال الدين المسلمون في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي وطوال النصف الأول من القرن الذي يليه أنهم جاهدوا في سبيل إدخال أكبر عدد ممكن من التتار المغول في الدين الإسلامي الحنيف.[1] ليس هذا فقط بل أن أحد كبار الدراويش من أصحاب الطريقة الأحمدية قد أفلح في إقناع الأمير تيكوتر Teguter الأخ الأصغر للسلطان (أبقا خان) في الدخول إلى الإسلام. وكان (تيكوتر) عند اعتناقه الإسلام ما يزال حدثا وأطلق على نفسه اسم (أحمد) تيمنا بأحمد الرفاعي صاحب الطريقة الأحمدية في الدروشة. وقد اختير (تيكوتر) سلطانا جديدا للبلاد بعد وفاة أخيه (أباقا).

ولاشك أن وزيره شمس الدين الجويني قد لعب دورا فاعلا في تثبيت إسلامه وتشوّقه له ومن ثمّ تحوّل اتجاه الدولة العام في عهد السلطان أحمد نحو الإسلام بما في ذلك احترام الوقف واعتبار النصارى واليهود من أهل الذمة. غير

---

(1) قد سبق رجال الدين المسيحيين المبشرين من رجال الصوفية المسلمون الذين حاولوا أن يحملوا الأسرة الحاكمة التترية المغولية إلى اعتناق المسيحية ولاسيما بعد زواج هولاكو من سيدة مسيحية هي (دقّوس خاتون)، غير أنهم لم يفلحوا في ذلك فما لبثوا أن خسروا المعركة أمام الدعاة أو المبشّرين المسلمين.

أن الأمر وصل إلى نهاية مأساوية بثورة أخيه (أراغون خان) عليه ثم قتله واعتلاءه العرش في سنة 683 هجرية (1284م)؛ ومن ثمّ العودة إلى الوثنية.[1]

ويبدو أن سلاطين المغول وأمراؤهم كانوا غير مستعدين آنذاك لاعتناق الدين الإسلامي الحنيف؛ فلم يتم إسلام سلاطين المغول إلا في عهد (غازان خان) سابع سلاطين التتار المغول. لقد كان اعتناق (غازان خان) الإسلام بعد مقتل السلطان أحمد بأحد عشر عاما مفاجأة كبيرة جدا، حيث أقنعه في الدخول في الدين الإسلامي الحنيف وأحد من مشايخ الصوفية الكبار، وصار إيلخان المغول التتار هذا يعرف منذ ذلك الوقت بالسلطان غازان محمود خان (694-703 هـ/ 1295-1304م). ودخل معه في الإسلام تباعا الغالبية العظمى من التتار المقيمين في العراق وإيران بما فيهم أفراد الجيش وقادته الكبار.

وهنا يتغيّر الأمر قليلا بخصوص الإعلام؛ فقد أعاد غازان محمود بناء ما هدّمه هولاكو من المباني العامة ولاسيما المساجد الجامعة مثل جامع الخلفاء في الجانب الشرقي من بغداد، وأعاد التدريس على نحو كامل إلى المدارس الرئيسية في بغداد باستثناء المدرسة النظامية التي كانت تسمى في العصر العباسي الثاني بـ(أم المدارس) التي ظل التدريس فيها مستمرا حتى أواسط القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي. غير أن التدريس في المدرسة المستنصريّة لم يتوقّف إلا لأمد وجيز بعد اجتياح التتار لبغداد واستمرت قائمة فيها حتى دخول بغداد

---

(1) توفي اراغون في سنة 1291 ميلادية مسموما نتيجة لتناوله عقارا قيل له أنه يديم الحياة أبديا فتسمم ومات.. وقد دخل المغول بعد وفاته في حقبة قصيرة من الاضطرابات وعدم الاستقرار وقد تمّ إعدام إثنان من سلاطين المغول على التعاقب خلال أربع سنوات.

ضمن حكم ما يعرف بدولة (الخروف الأبيض) التركمانية في أوائل القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي.

لقد قام السلطان غازان نفسه بزيارة المدرسة المستنصرية والوقوف على سير الدراسة فيها. وأعاد التتار المغول أيضا إعمار ما كان قائما من المدارس في مدن العراق الأخرى وكذلك في إيران. فالسلطان وعليّة القوم من التتار باتوا، كما سبق أن ذكرت منذ عهد غازان مثل المسلمين يدخلون المساجد ويقيمون شعائر الدين. ليس هذا فقط بل ان غازان صار يقرّب الفقهاء والعلماء والخطاطين ولاسيما خطاطي وكتبة المصحف الشريف ويرعاهم ويحضر مجالسهم ويناقشهم وأنه على الأرجح كان يفهم العربية ويتكلم بها.

وانه لمن حسن حظ السلطان غازان محمود أن تيسر له وزير كفوء وقدير هو (رشيد الدين فضل الله الطوسي) الذي ساعده على كسب ثقة المسلمين من العرب والعجم على حد سواء. وقد استمر الأمر على ما هو عليه في عهد ولده وخليفته السلطان أولجايتو محمود (703-716 هـ/ 1304-1316م) الذي ظل رشيد الدين وزيرا له طيلة عهده،[1] وسار ابنه وخليفته أولجاتوا على خطا أبيه وكذلك حفيده السلطان أبو سعيد (716-736هـ/ 1316-1335م). إن عهود هؤلاء السلاطين الثلاثة مجتمعة تعد العصر الذهبي بالنسبة لحكم التتار المغول للعراق وإيران. فعادت الأمور تقريبا إلى سابق رونقها وروعتها ونسي الناس أو

---

(1) لقد اعتنق السلطان غازان الإسلام على يد كبير الصوفية الشيخ صدر الدين حمويه.
(Blair ،S. ،The Coins of the late Ilkhanids ،the Journal of the Economic and Social History of the Orient ،vol. 26 ،1983 ،p.295)

تناسوا على الأقل المآسي القديمة وبـدأوا يتقبلـون وضـعهم الجديـد بشـيء مـن الواقعية، فلم نسمع عن ثورات أو انتفاضات لها شأنها حدثت في عصـر هـؤلاء السلاطين الثلاثة.

ومع كل ذلك فإن العرب المسلمين لم يكن ليكنّوا أبدا شيئا مـن المـودة أو الاحترام للغزاة المغول أو أن يثقوا بهم. أن كل ما كانوا يفعله-هؤلاء الغزاة حتى لو كانوا صادقين فيما يفعلون كان العرب والمسـلمون عموما يعدّونـه مراوغـة، وأن مقارعتهم وسحب البساط من تحت أقدامهم واجبة. وبعبارة أخـرى يمكـن القول أنه لم يعد إطلاقا للعرب المسلمين يثقون بالتتار المغول ولم يقبلوا بقراراتهم إلا مرغمين أو أن عليهم أن يقوموا بمحاربة قراراتهم بمختلف الوسـائل المتاحـة. من ذلك على سبيل المثال أنه عندما حاول التتار المغول سـحب النقـود الفضـية والذهبية من التداول وإدخال بدلا عنها العملة الورقية التي عرفت بـ(الجاو)، أو (البالشت)،[1] كما سماها ابن بطوطة، ثار العراقيون وكذلك السـكان في إقليم إيران وامتعضوا واختفت المسكوكات الفضية والذهبيـة مـن التعامـل التجـاري فاضطر الحكام الدخلاء إلى صرف النظر عن العملة الورقية فعـادت الأمـور إلى سابق عهدها.

إن النظام الورقي في التعاملات النقدية التجارية كان معمولا به آنـذاك في الصين، فعملوا جهدهم في سحب الفضـة والـذهب مـن التـداول والاستعاضـة عنها بما أصدروه من العملة الورقية؛ وهي صكوك صغيرة مطبوعة مسحوبة على خزانة الدولة يحمل كل صك منها قيمته بما يقابـل ذلـك مـن النقـود الفضـية أو

(1) تعني كلمة (الجاو) العملة الورقية بالفارسية وهي من أصل صيني، أما (البالشـت) فـتعني الشيء نفسه ولكن من أصل تركي.

الذهبية. وعلى الرغم من المزايا العظيمة للنظام الورقي الجديد المعمول به في الوقت الحاضر في جميع أنحاء العالم إلا أن محاولة التتار في إدخاله إلى العراق وإيران جوبهت بمعارضة شديدة بسبب عدم ثقة الناس بالسلطة الحاكمة. ربما السبب الأساس في ذلك يعود إلى الإشاعات التي كانت تروج ضد الغزاة التتارالمغول؛ فبات الاعتقاد أنهم كانوا يريدون بتلك الطريقة سحب كل ما بأيدي الناس من الذهب والفضة وإرساله إلى (مراغة) عاصمتهم في أواسط آسيا فتوقف البيع والشراء في بغداد وفي بقية المدن الإسلامية التابعة لحكم الإيلخانيين. وهكذا لم يكتب لتلك المحاولة النجاح؛ فعادت الأمور إلى ما كانت عليه من قبل في التعامل التجاري بالمعدنين الثمينين الفضة والذهب.

الفصل الثاني عشر

الإعلام حتى نهاية العصر العثماني

الفصل الثاني عشر

الإعلام حتى نهاية العصر العثماني

بدأت العهود المظلمة في أقاليم المشرق العربي بسقوط الخلافة العباسية بالغزو المغولي المدمّر في سنة 656 هجرية (1258م) تحت قيادة هولاكو خان. وظل التتار المغول مهيمنين على مقاليد الأمور في هذه الأقاليم نحو من 130 عاما، ثم تلاهم في السيطرة على البلاد أمراء دولتي (الخروف الأبيض) و(الخروف الأسود) التركمانيتين؛ أعقبتها غزوة دموية أخرى قادها التركي تيمورلنك التي لم تكن بأقل شراسة وأخف فتكا بأرواح الناس ودمارا لممتلكاتهم المادية والثقافية من التدمير الذي لحق بالبلاد بهجوم التتار المغول مع أن تيمورلنك كان مسلما وليس وثنيا كما كانت التتار عند اقتحامهم لبلدان الشرق الأوسط.

وهنا أيضا ظلت مقاليد الأمور بيد التيموريين لما يزيد على قرن من الزمن، خضع بعدها المشرق العربي لهيمنة واستعمار من نوع جديد هو الاحتلال التركي العثماني حيث حكم الأتراك معظم البلاد العربية الحنيف لأربعة قرون متواصلة باسم الدين الإسلامي وذلك من سنة 1516 ولغاية سنة 1917 ميلادية عندما أجبرهم الاستعمار البريطاني الجديد على الانسحاب وترك البلاد وشأنها. ومع ذلك ظلت أجزاء مهمة من بلاد الرافدين وشمال سوريا تحت حكمهم أو سيطرتهم حتى يومنا هذا.

ولا أريد القول إن حاضرة الخلافة العثمانية مدينة استانبول كانت أفضل حالا من وضع المدن أو الشعوب غير التركية في الأقاليم التي باتت تابعة لها، فالشعب التركي في بلاد الأناضول قد عانى هو الآخرالأمرين من الفقر والجهل

والمرض في العصر العثماني الطويل شأنه في هذا شأن الأقاليم العربية والإسلامية أو بعض الأقاليم الأوربية التي كانت خاضعة لسيطرتها.

ولا شك أن الذي ساعد في النهضة الكبرى في العالم العربي في مطاوي القرن التاسع عشر هو الإعلام الذي قاده أصحاب العقول المتفتّحة من أبناء هذه الأمة الذين كانوا يمثلون آنذاك الفئة المتنوّرة من الرأي العام. وقد لا نكون مجافين للحقيقة إذا قلنا أن الذي ساعد مساعدة عظيمة في ذلك دخول المطابع إلى العالم العربي والإسلامي وإن كان دخولها متأخرا نسبيا، فقد ساعدت المطابع على مثل ذلك الاتصال والتواصل مساعدة فاعلة. فنحن نعلم أن الإعلام عن طريق الرقاع الورقية وما شابهها قد تغيّرت في أوربا منذ أوائل عصر النهضة على الأقل ولاسيما بظهور بدعة أو اختراع المطابع.[1] وكان من نتيجة ظهور بدعة المطابع أن ازداد على نحو كبير انتشار الكتب والمنشورات والملصقات الجدارية بين أكبر عدد من الناس مما سهل عملية تداولها بين الجماهير.

وكما هو معروف إن الطباعة الأولى بدأت في الصين؛ ولاشك أن الذي ساعد على اختراع الطباعة في الصين ابتداع ورق الكاغد الذي توصل إلى صناعته الصيني تساي لون Tsai Lun في سنة 105 ميلادية في عهد أسرة هان Han Dynasty، لما تمكن الصينيون من أن يكونوا على الطريق الصحيح إلى اختراع الطباعة.

---

(1) وقد يكون من المفيد أن أذكر هنا أن الطباعة في اللغة تعني الختم والتأثير في الطين أو نحوه (الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح، 3/ 1253). ويضيف الزبيدي إلى ذلك بأن الطبع هو تصوير الشيء بصورة ما وهو أغم من الختم وأخص من النقش، والذي يعني أيضا تأثر الشيء بنقش الخاتم (تاج العروس، 21/ 239).

لقد ابتدع الصينيون الطباعة على الأقل منذ القرن التاسع الميلادي حيث أكتشف في سنة 1899 في كهف دونهونك Dunhuang الواقع في المنطقة الجبلية في الجزء الغربي من الصين على طريق الحريرالذي يربط الصين بالشرق الأوسط أقدم كتاب كامل مطبوع في العالم؛ إنه يعود إلى أواخر حكم أسرة تانج Tang Dynasty (618–907م).[1] وكانت الطريقة المتبعة آنذاك في الطباعة عند الصينيين هي حفر الحروف أو بالأحرى الرموز أو العلامات الكتابية الصينية charactersChinese على نحو بارز على الواح من الخشب على أن تكون الألواح بحجم واحد؛ سطوحها مستوية تماما وصقيله. ترسم العلامات على نحو معكوس ثم تنحت على اللوح الخشبي بدقة وعناية فائقة. وفي سبيل الحفاظ على مستوى سطحي واحد لجميع العلامات كان النقّاش يتجنب المساس بالسطح الأعلى للعلامات المحفورة على اللوح الخشبي لتبقى جميع العلامات الكتابية characters بمستوى واحد.

ومن المؤكد أيضا أن الذي ساعد على السرعة في ابتداع الطباعة في ذلك الإقليم المترامي الأطراف انتشار الديانة البوذية فيه منذ القرون الميلادية الأولى ومن ثم زيادة الطلب على الكتب الدينية البوذية المقدسة؛ ومن الصين انتقلت

---

(1) لقد رتب هذا الكتاب الديني البوذي على نحو لفافة طولها ستة عشر قدما مكوّنة من أوراق مستطيلة ملصقة إلى بعضها بمادة صمغيّة. يتضمن الكتاب الديني المطبوع هذا نصوص الكتاب المعلومات الدينية التي تعرف في الديانة البوذية بـDiamond Sutra الذي يضم إلى جانب ذلك أيضا صورا لبوذا وبعض الرهبان البوذيين وغير ذلك التي تعد هي الأخرى أقدم صور مطبوعة في العالم تصل إلينا.

الطباعة في القرن التالي إلى كوريا ثم اليابان.[1] وقد أضاف الكوريون وكذلك اليابانيون لمسات جديدة على فن الطباعة في الشرق الأقصى.

ويذكر أن أول من نقل تلك التقنية من الصين إلى الجهة الأخرى من العالم؛ أي إلى أوربا كان أحد الرحالة الأرمن؛ كان ذلك في القرن الرابع عشر، ويقال أن أول سفير أوربي إلى الصين وهو المدعو نيكولاس ميليسو كان له دورا مهما في ذلك. غير أن الاستعانة بالأساليب الصينية في حفر الحروف على الواح خشبية لم تستمر طويلا الوحيدة في هذا الميدان فقد ابتدع في أوربا في النصف الأول من القرن الخامس عشر ما يعرف بالحروف الطباعية المتحركة؛[2] وإن كان هذا لا يعني التوقف عن الطريقة القديمة بالطباعة عن طريق حفر الحروف على الألواح الخشبية فقد ظلت كلا الطريقتين مستخدمتان في أوربا لبعض الوقت. ولاشك أن الذي ساعد مساعدة فاعلة على ظهور الطباعة في أوربا وانتشارها هو إقامة مصانع للورق في هذه القارة حيث أن أول مصنع للورق أقامه الفرنسي جان مونت جولفيه في جنوب فرنسا في سنة 1244 ميلادية. وكما هو معروف أن

---

(1) وأفادنا المؤرخون المحدثون أن بدعة الطباعة انتقلت من الصين إلى كوريا التي كانت تستعين في الكتابة هي الأخرى بالخط الصيني. وانتقلت بعد ذلك إلى اليابان حيث تطورت الحضارة اليابانية في ظل تأثيرات الصين المباشرة بما في ذلك اقتباسهم الكتابة الصينية وذلك في الفترة الزمنية المحصورة بين القرن الرابع والسادس الميلاديين (خالد غراب وأحمد منصور، الكتاب العربي المطبوع من الجذور إلى مطبعة بولاق، القاهرة 2011)

(2) خالد عزمي وأحمد منصور، الكتاب العربي المطبوع من الجذور إلى مطبعة بولاق، القاهرة 2010، ص21

الأوربيون تعلموا صناعة الورق من عرب الأندلس حيث أن أول معمل قد أقيم هناك كان في سنة 1150 ميلادية في مدينة قرطبة.[1]

إن الفضل الأول في ظهور تلك البدعة الجديدة في عالم الطباعة يعود إلى رجل يدعى يوهان كوتنبرك Johann Gutenberg (1395-1468م) من أهل مدينةماينز Mainz بألمانيا وذلك بين سنتي 1436-1438 ميلادية (شكل68)؛ الأساس في تلك البدعة أو الحدث





شكل68)

صورة تخطيطية وأخرى زيتية ليوهان كوتنبرك مبتدع الحروف المتحركة في الطباعة في الغرب

---

(1) من المؤكد أن العرب الأندلسيين قد ساعدوا في إقامة ذلك المصنع، وقد انتقلت صناعة الورق إلى إيطاليا في سنة 1250م؛ وصارت إيطاليا تصدر الورق إلى جميع أنحاء أوربا لعدة قرون. وفي سنة 1411 دخلت صانعة الورق إلى ألمانيا؛ ولم تدخل تلك الصناعة إلى إنجلترا إلا في سنة 1588.

الجديد هو الاعتماد على الحروف المتحركة التي تتم صناعتها عن طريق صب سبيكة معدنية منصهرة في قوالب خاصة؛ كل حرف يصنع على نحو مستقل عن الآخر. ترتب الحروف وتهيأ للطباعة عن طريق التنضيد اليدوي.

لقد أحدث كوتنبرك بإنجازه هذا ثورة عظيمة في علم الاتصال الجماهيري فوضع أوربا ببدعته هذه على الطريق الصحيح في الدخول إلى علم الطباعة الحديث؛ ليس هذا فقط بل وضع الأوربيين على بداية السلم للصعود أو الدخول إلى عصر حديث، حيث انتقلت أوربا بهذا الإنجاز العظيم من العصور المظلمة أو ما يعرف أيضا بـ(عصر الأقطاع) إلى ما يعرف في أيامنا هذه بعصر النهضة المبكرEarly Renaissance. والحق إنها ثورة ما بعدها ثورة في عالم العلم والأدب والمعرفة عموما والتي كانت سببا رئيسا في تطوّر الحضارة البشرية وانتشار المعرفة والعلوم عموما في شتى بقاع الأرض تقريبا. ومن الواضح أن الكنيسة قد لعبت دورا كبيرا في ذلك الاختراع الذي ساعد في التوصل اليه أيضا انتشار صناعة الورق وتطوّره في أوربا.[1]

لقد طبع كوتنبرك عددا ليس بالقليل من الكتب غير أنه لم يضع على أي من مطبوعاته تاريخا أو يذيّلها بتوقيع. إن أهم إنجازاته كان بلا شك طبعه

---

(1) كانت الصياغة حرفة هذا الرجل في الأصل ومختصا أيضا بنحت وقطع الأحجار الكريمة. وقد عمل مع أبيه لبعض الوقت بدار سك النقود بمدينة مايتز، ولذلك فإن الحروف المعدنية كان يصغها صياغة وقد استخدم أيضا معه لذلك الغرض ستة عشر حرفيا. حيث أن كان بحاجة لصناعة 46 الف حرف متحرك ليطبع بها كتابا كبيرا مثل الكتاب المقدس، لقد منحته الدولة في سنوات حياته الأخيرة لقب سيد Gentleman ومنح راتبا تقاعديا بسيطا. وفي القرن العشرين أفتتح متحفا خاصا في مدينة ماينز يحمل اسم كوتنبرك.

(الكتاب المقدس) باللغة اللاتينية الذي يعرف اليوم بـ(إنجيل كوتنبرك) الذي تمّ الفراغ في شهور سنة 1455ميلادية. لقد طبع من ذلك الكتاب 180 نسخة، ما تزال بعض المكتبات في أوربا مثل المكتبة البريطانية بلندن والمكتبة الوطنية بباريس تحتفظ بنسخ منه والتي تعتبرانها من الذخائر النفيسة الجليلة القدر.

أما عن ظهور واستخدام الحروف العربية لأول مرة في الطباعة فقد تم أيضا في أوربا؛ ويقال أن ذلك الإنجاز قد تم على يد راهب دونيميكي يدعى مارتن روث Martin Ruth في سنة 1468م؛ إنه تاريخ ليس ببعيد عن ظهور المطابع ذات الحروف المتحركة الأولى في أوربا. ومن الواضح أن ما طبع من كراسات باللغة والحروف العربية كانت دينية تبشيرية مسيحية؛ حيث أن أول كتاب طبعه كانت: (**الرحلة والحج إلى قبر المسيح بمدينة القدس**) تأليف برنارد بيدنباخ Bernard Beydenbach في سنة 1468 بمدينة مأينز.

ومن الواضح أن الحروف العربية لم تبتدع في أوربا حبا بالعرب بل كانت من أجل أمرين أساسيين هماالاستعمار والتبشير بالمسيحية وفي محاولة تنصير العرب والمسلمين. وقد ذكر بعض الأساتذة العرب أن ظهور المطابع التي تطبع باللغة العربية في أوربا كانت مرتبطة ارتباطا وثيقا بحمى التنصير والهيمنة الاستعمارية؛ فلولا الطباعة باللغة العربية لما كان هناك الاستعمار الأوربي بضروبه المختلفة ولما كان هناك مجالا للتنصير المنظم؛ وقد اعتقد رجال الدين المسيحيين في عصر النهضة أن جهل المسلمين بالإنجيل كان العقبة الكؤود في تنصيرهم؛ ولذلك لا نكاد نسمع بمطبعة في عصر النهضة تملك حروفا عربية لم تنشر طبعة أو طبعات من الإنجيل باللغة العربية.

وعلى ذلك فإن الغالبية من الكتب الأولى التي طبعت باللغة العربية في تلك القارة كانت كتبا دينية مسيحية صرفة. وحتى عندما كان الأوربيون يطبعون كتبا باللغة العربية غير دينية أو كتبا غير تبشيرية بالمسيحية فإن الكتب العربية التي كانوا يطبعونها بذي فائدة عظيمة لهم؛ من ذلك على سبيل المثال كتاب (القانون) في الطب لابن سينا الذي تمّ طبعه في ألمانيا في سنة 1593 مع ترجمة له إلى الألمانية لتتم الاستفادة منه في كليات الطب في الجامعات الأوربية التي كانت كتب الطب العربية هي المعوّل في أوربا في ذلك الزمن.

ومع ذلك يجب أن لا نتجاهل المردود الاقتصادي ولاسيما في طبع القرآن الكريم وبيع نسخ عديدة جدا منه في العالم العربي والإسلامي حيث أدخل هؤلاء في حساباتهم أنّ غالبية الشعوب المنضوية تحت مظلة الدولة العثمانية كانوا عربا أو مسلمين يستعينون بالقلم العربي في كتاباتهم. وكانت المصاحف الشريفة قد طبعت لأول مرة في أوربا قد تم في مدينة البندقية بأمر من البابا يوليوس الثاني Julius II (1503–15013م) الذي كان قد درس الفلسفة والمنطق في غرناطة. غير أن القرآن الكريم لم تنجز طباعته إلا في عهد خلفه البابا ليون العاشر Lyon X (1513–1521م). غير أنه لم تصل إلينا أية نسخة من تلك الطبعة من المصحف الشريف التي يبدو أن جميع نسخ المطبوعة قد تمّ إتلافها أو حرقها.

أما عن دخول المطابع إلى الأقاليم العربية والإسلامية فلم يبدأ إلا في عهد متأخر قياسا بالأقاليم الأوربية. ويعود السبب في ذلك ليس فقط إلى خشية السلطات التركية العثمانية البعيدة عن الديمقراطية من أن تستخدم من قبل المعارضة في طبع الكتب والكراسات أو المنشورات المعادية للسلطة، بل يعود أيضا إلى التعصب الديني الشديد من قبل بعض الفقهاء المسلمين في استانبول

الذين كانوا يقولون أن الطباعة بدعة مستندين في ذلك على الحديث النبوي الشريف: (**شر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلاله في النار**)،[1] حتى ليروى عن هؤلاء قولهم: (**إن المطبعة رجس من عمل الشيطان**).[2]

وعلى ذلك لم تسمح السلطات العثمانية إلا لليهود فقط باستخدام المطابع، ويذكر أن أول مطبعة أدخلتها اليهود إلى استانبول كانت في سنة 1486ميلادية في عهد السلطان بايزيد الثاني (886-918 هـ/ 1481-1512م). إن أغلب مطبوعاتها كانت بالعبرية والقليل منها بلغات الأوربية ولكن ليس من بينها باللغة العربية. ومع ذلك المنع تمكن اليهود من إقناع السلطات العثمانية في استانبول السماح لهم بطبع ترجمة للتوراة إلى العربية؛ فتم ذلك في شهور سنة 1551 ميلادية. إن تلك الترجمة تعدأول كتاب يطبع بالعربية في ظل الدولة العثمانية. وبعد بضع عقود طبع الإنجيل في لبنان باللغة العربية سنة 1591 ميلادية.

وفي القرن الثامن عشر بدأت النظرة إلى المطابع تتغيّر في تركيا العثمانية حيث صدر أمر ديواني رسمي(فرمان) من قبل السلطان أحمد الثالث (1115-1143هـ/ 1703-1730م) بجواز استخدام المطابع من قبل الجميع في عموم الأقاليم التابعة للدولة العثمانية بعد أن صدرت فتوى من قبل شيخ الإسلام في العاصمة العثمانية في سنة 1129 هجرية (1716م) ربما كان ذلك بتوجيه من السلطان أيضا. لقد سمحت الدولة بطبع جميع أنواع الكتب عدا ما يتعلق منها

(1) أخرجه البخاري ومسلم.

(2) أديب مروة، الصحافة العربية نشأتها وتطورها، بيروت، 1961، ص139

بتفسير القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والفقه، وكذلك كتب الكلام؛ أي كتب الفلسفة.[1] ومن البديهي أن تضيف الحكومة المركزية إلى قائمة الممنوعات الكتب والمنشورات السياسية التي يشم منها رائحة-أي نوع من أنواع المعارضة للسلطة العثمانية الحاكمة للبلاد والأقاليم التابعة لها.

ويذكر أن أول مطبعة تمّت إقامتها في استانبول بعد 222 سنة على إدخال اليهود لمطبعتهم لاستانبول كانت المطبعة التي أقامها السفير التركي السابق لفرنسا سعيد أفندي بن محمد أفندي كان ذلك في سنة 1723 والتي طبعت عليها كتب الحكمة واللغة والتاريخ وعلم الهيئة والطب. أعقبتها مطبعة أقامه الصدر الأعظم سعيد شلبي في سنة 1723 طبعت عليها كتب مهمة في اللغة والأدب والتاريخ بالعربية والتركية.[2] وفي سنة 1727 طبع المصحف الشريف في استانبول وهي أول طباعة له في الأقاليم المشرقية بعد أن كانت طباعته حصرا في أوربا.

أما في البلدان العربية والإسلامية فلم تدخل المطابع إليها إلا متأخرة جدا؛ فكما هو معروف أن معظم البلدان العربية قد خضعت لتسلط الدولة العثمانية لفترة زمنية زادت قليلا على أربعة قرون وذلك من سنة 1516 ولغاية سنة 1918 ميلادية. لقد اتسمت هذه الفترة الطويلة من تاريخ العرب في معظمها بالتخلّف والجمود. ولابد من القول أيضا حتى في العاصمة استانبول لم يكن حال الشعب التركي أحسن مما كان عليه الأمر في الدول العربية؛ وفي الواقع أن الدولة كلها كانت في غاية التخلف قياسا بما كانت عليه الدول في أوربا الغربية.

لقد كان العرب في الأقاليم التي كانت تابعة للحكم العثماني على أسوء ما

---

(1) المصدر نفسه، ص140

(2) تاريخ الطباعة العربية- بواكير المطابع النصرانية في الشرق- موقع المعرفة:
/http:II qurancomplex.org

يمكن أن يكونوا من حيث حرية التعبير عن الرأي أو حتى حق الإنسان الطبيعي في التعلّم. والواقع أن الدولة العثمانية قد حرصت كل الحرص على فرض العزلة عليها وأبعاد سكان تلك الأقاليم جهد الإمكان عن كل ما هو حديث؛ والسبب في ذلك خشيتهم أن تهب تلك الشعوب التي كانت ترزح تحت سيطرتها مطالبة بالحرية والاستقلال والحياة الكريمة. فكان من نتيجة ذلك أن تأخرت الأقطار العربية ثقافيا، وبقيت خالية من المطابع فترة زمنية طويلة رغم انتشارها في الأقطارالأخرى. أن بوادر الاصلاح لم تظهر على نحو واضح في ظلال استعمار العثماني إلا في وقت متأخر جدا؛ وفي الواقع أنها لم تبدأ على نحو فعّال أو ملموس إلا في أوائل القرن التاسع عشرعندما بدأت على نحو ضعيف تهب رياح النهضة العربية الحديثة؛ وعندما ظهرت كان ظهورها في حدود ضيّقة جدا.

ومع ذلك أن أول مطبعة تدخل إلى العالم العربي كانت تلك التي أدخلت إلى لبنان ربمافي سنة 1610ميلادية. لقد تمّ استيرادها من روما من قبل الرهبان المارونيين لنصبها في دير (قزحيا) الواقع في بعض المناطق الجبلية اللبنانية.[1] لقد استخدمت هذه المطبعة التي كانت تعمل بحروف سريانية لطبع الكتب الدينية المسيحية فقط.[2] ربما لهذا السبب لم تعترض السلطات العثمانية على إدخالها إلى الدير؛ أو ربما وافقت كنتيجة لضغط شديد من بعض الدول الأوربية مثل فرنسا أو إنكلترا؛ أوربما أنها قد أدخلت إلى ذلك الدير المنزوي في بعض جبال لبنان دون علم حاكم الولاية العثماني الذي مقره الرسمي كان في دمشق ونائبه كان يقيم في بيروت.

---

(1) (قزحيا) كلمة سريانية تعني (الحياة) أو (الكنز).

(2) خليل صابات، تاريخ الطباعة في الشرق العربي، القاهرة، 1966، ص18-19

ثم أدخلت مطبعة مشابهة لها إلى مدينة حلب في سنة 1706، أي بعد نحو قرن من الزمن على إدخال المطبعة الأولى؛ وهنا أيضا تمّ إدخال المطبعة من قبل الرهبان أيضا وربما للأسباب نفسها وبالطريقة ذاتها.

أما عن أول مطبعة بحروف عربية في العالم العربي فقد كان قد تمّ إدخالها أيضا إلى لبنان وذلك في شهور سنة 1733 كان ذلك في أيام السلطان محمود الأول (1143-1168هـ/ 1730-1754م). وهنا أيضا تمّ إدخال المطبعة عن طريق واحد من الأديرة المسيحية المارونية.[1] أن إدخال تلك المطبعة بالحروف العربية إلى لبنان كان قد تمّ دون صعوبات؛ فقد كان ذلك بعد صدور الفرمان الخاص بالموافقة على إدخال المطابع إلى الأقاليم التي كانت تابعة للخلافة العثمانية آنذاك.

والحق أن جميع المطابع التي تمّ إدخالها إلى العالم العربي في القرنين السابع عشر والثامن عشر كانت تابعة لمؤسسات دينية مسيحية، حيث ارتبطت حركة الطباعة في هذه الاقطار في بادئ الأمر بنشاطات الأديرة والبعثات التبشيرية المختلفة، اللهم باستثناء المطبعة التي أدخلها الفرنسيون إلى مصر مع الاحتلال الفرنسي لتلك البلاد في عهد نابليون بونابرت في شهور سنة 1798. وكان نابليون قد حمل معه ضمن ما حمل آلات مطبعة كاملة بحروف فرنسية وعربية ويونانية. ولم يكن سبب إدخال تلك المطبعة إلى القاهرة لأمور دينية أو لنشر الثقافة الفرنسية أو الغربية في البلاد وذلك لطبع المنشورات التي كانت توزّع على الناس متضمنة أوامره وبياناته وأيضا لإصدار الملصقات الجدارية أو التي كانت توزّع على الناس متضمّنة الاوامر والبيانات والتحذيرات من مقاومة السلطة

(1) المصدر نفسه، ص18-19

الفرنسية العسكرية. ولاشك أيضا أنه قد طبعت ووزعت على الناس قرار حكم الإعدام عن طريق (الغاروق) بحق السوري الأزهري سليمان الحلبي... الذي كان قد قتل القائد الفرنسي كليبرKleber في سنة 1800. فإن كانت تلك المطبعة تعمل آنذاك فلابد أنها قامت بطبع الكثير من الملصقات والمنشورات التي تم توزيعها في دروب وشوارع القاهرة التي تخص قرار الحكم والتنفيذ. أو أنها طبعت ووزّعت القرارات تلك على قطعات الجيش الفرنسي في مصر من أجل طمأنة العساكر المرابطة في مصر. وعلى الأرجح أن تلك المنشورات قد ترجمت إلى العربية ووزعت حتى على أئمّة الجوامع في عموم البلاد لتقرأ على المصلين مع خطبة الجمعة لغرض إعلامي في سبيل أن يظهروا للجمهور المصري حسن نيتهم في حملتهم تلك وأن الغرض منها إنهاء سطوة المماليك ووضع حد لاضطهاد الشعب المصري حسب زعمهم.

وفي دمشق دخلت الطباعة لأول مرة في سنة 1864؛ إنه بلا شك تاريخ متأخر نسبيا. تمّ ذلك على يد إبراهيم باشا عندما كان واليا على سوريا من قبل أبيه محمد علي باشا المتسلط على شؤون الديار المصرية آنذاك. ويذكر معنيون آخرين بالمطابع في العالم العربي أن أول مطبعة أقيمت في دمشق كانت تلك التي جلبها حنا الدوماني في سنة 1855.[1] ولا أريد أن أستمر قي سرد التواريخ التي دخلت فيها المطابع لأول مرة إلى بقية الأقاليم العربية خشية الإطالة. ومهما يكن من أمر كل ذلك فإن أول كتاب مطبوع باللغة العربية في العالم العربي يرى النور

(1) هلال، فؤاد ونديم فقش، دليل حلب، 2000، ص305-309

كان في سنة 1841 كان ذلك في لبنان.[1] ومن الواضح أيضا أنه كان واحدا من الكتب الدينية المسيحية.

والواقع أن حركة الطباعة في العالم العربي في القرن التاسع عشر أو ما قبل ذلك القرن بقليل قد ارتبطت بنشاطات الإرساليات التبشيرية الدينية المختلفة. منها نشاطات الآباء الدومنيكان في الأقاليم العربية؛[2] من ذلك على سبيل المثال الإرسالية الدومنيكانية إلى الموصل في العراق التي بدأ نشاطها في سنة 1750. فنحن نعلم أنهم كانوا من أوائل المهتمين بإدخال الطباعة الآلية الحديثة إلى هناك. غير أن ذلك لم يكن قد حدث فعلا قبل سنة 1856 حيث تمّ نصب أول مطبعة آلية في الموصل على يد الراهب الدومنيكي الفرنسي المدعو هياسانت بيصون.

---

(1) عصام الموسى، المصدر السابق، ص306-307

(2) ظهرت حركة الرهبنة الدومنيكية في جنوب فرنسا في القرن الثالث عشر الميلادي على يد أحد الرهبان الإسبان. كان الغرض منها محاربة بعض أصحاب البدع أو الهرطقة بين رجال الدين المسيحيين في أوربا آنذاك. وقد يبدو غريبا حقا أن الرهبنة الدومنيكية قد انتقلت إلى بغداد في الربع الأخير من القرن السابع عشر الميلادي غير أنها لم تستمر طويلا هناك حيث انتقلوا إلى شمال بلاد الرافدين في منتصف القرن الثامن عشر وكان ذلك على يد بعض الإباء الإيطاليين، ثم أعقبهم الفرنسيون متخذين من الموصل وبغداد مركزين لهما، وما يزال الإباء الدومنيكان متواجدين في العراق حتى يومنا هذا حيث يوجد لهم في العراق اثنين من الأديرة؛ واحدا قرب الموصل والآخر في بغداد. ولم تعد الرهبنة الدومنيكية مقتصرة على الأجانب من الأوربيين، فهناك اليوم عدد ليس بالقليل من الرهبان المنخرطين تحت لوائها من العرب والعراقيين (الأب أميرججي الدومنيكي، الإباء الدومنيكان في العراق، مجلة (سلطانة السلام)، السنة الثانية، العدد 2، نيسان 2012، ص39-40).

وفي سنة 1863 وجدوا أن مطبعتهم غير كافية أو أنها لم تكن تفي بالغرض فعملوا على توسيعها بشراء معدات طباعية كاملة من باريس. كما جلبوا من فرنسا كميّات أو مجاميع من الحروف العربية والسريانية والفرنسية.

لقد تولت مطبعة الدومنيكان مهمة طبع عدد من الكتب بأربعة لغات هي العربية والتركية والسريانية والفرنسية. وفي سنة 1861 طبع أول كتاب باللغة العربية في العراق كان واحدا من الكتب الدينية المسيحية هو كتاب **(رياضة درب الصليب)** لمؤلفه الخوري يوسف داود الموصلي. وفي السنة التالية تمّ طبع عدد من الكتب العربية الخاصة بتعليم اللغة العربية والسريانية للأولاد الصغار. ثم لم تلبث أن تمّ طبع مجموعة من الكتب التاريخية والأدبية مثل كتب في التاريخ القديم والإسلامي والحديث. لقد أسهم المشرفون على هذه المطبعة مشكورين في توجيه النشء الجديد وتوسيع الأفق بالنسبة للبالغين؛ ومن ثم توعية للجماهير العربية المغلوب على أمرها في الكثير من الأمور التي من الضروري أن يتطلع عليها.

لقد ظلت تلك المطبعة تعمل بجد ونشاط لمدة زادت على الخمسين عاما وذلك تحديدا حتى الحرب العالمية الأولى عندما أصدرت السلطات العثمانية أوامرها بمصادرة المطبعة بدعوى تبعيتها لدولة معادية ولاسيما بعد أن تحالفت مع ألمانيا والنمسا وأعلنت الحرب على بريطانيا وفرنسا. وقد عادت المطبعة إلى نشاطها بعد تحرير الموصل من يد العثمانيين في سنة 1918 فطبعت عدة كتب مهمة.

وبالرغم من ارتباطات المسؤولين عن مطبعة الدومنيكان بأروبا بسبب أن الكثير من الرهبان الدومنيكان كانوا أنفسهم من الأوربيين إن لم يكن معظمهم،

إلا أن كان لتلك المطبعة أثر واضح على تنامي الوعي القـومي في العـراق وربمـا على بلاد الشام أيضا بسبب ما كانت تنشره من كتب باللغة العربية؛ ففـي واقـع الأمر كانت تلك المطبعة عاملا مساعدا وكبيرا من عوامل النهضة الفكرية في هذا القطر من العالم العربي وبلاد الشام وربما بعض الأقاليم العربية الأخرى.

وكانت قد تأسست في بغـداد والموصـل مطـابع أخـرى في مطلـع القـرن العشرين؛ مثل مطبعة (الشابندر) في بغـداد ومطبعـة (نينـوى) في الموصـل. لقـد جهّزت مطبعة الشابندر التي كانت تعمل بالبخار بحروف عربية وحروف لاتينيـة ممتازة. لقد كانت تلك المطبعة تعدّ طفرة أو خطوة كبيرة بالنسبة للمطابع آنـذاك. لقد استخدمت تلك المطابع في طبع الكثير من الكتب التاريخية والتراثيـة. وربمـا من الكراسات التي طبعت فيها كانت مجموعات الأناشيد الوطنيـة المعـدة لطلبـة المدارس التي قد تبدوا أنها ليست بذات أهمية اليـوم؛ غـير أن تلـك الكـراريس لعبت دورا عظيما في تأجيج الشـعور الـوطني بـين الطـلاب. لقـد مثلـت تلـك الأناشيد الوطنية حالة من البعث القومي والوطني إبان تلك الفـترة الـتي غلبـت عليها نزعة التتريك التي كما سبق أن ذكرت قد لاقت معارضـة قويـة مـن قبـل العراقيين والعرب أجمعين.

وفي الموصل تأسست في سـنة 1910 مطبعـة جديـدة بعيـدة عـن الرهبـان الدومني كان أو أي من المؤسسـات الدينيـة هـي مطبعـة (نينـوى). لقـد عملـت المطبعة الجديدة على نشر الوعي القومي على نحو فعّال جدا؛ والسـبب في ذلـك أن عددا ليس بالقليل من المناضلين العرب العاملين في الحركـة القوميـة العربيـة آنذاك قد لجأوا إليها. فساهمت مطبعة (نينوى) في طبع مؤلفـاتهم ووضـعها بـين

أبدي القراء العرب.[1] ليس هذا فقط بل قامت تلك المطبعة بطبع الكتب والأناشيد العربية الحماسية التي لها صبغة قومية تتغنى بمجد العرب التاريخي وإذكاء الحماسة في أفئدة النشء العربي ومن ثم صارت تثير حماس الشباب من أجل التخلص من نير الاستعمار التركي. فلاشك أن تلك والأناشيد الحماسية فضلا عن المنشورات السياسية المناهضة للاستعمارذات الصبغة القومية كان لهما أثر كبير في أذكاء الحماسة في أفئدة النشء العربي ومن ثم تحفيز الشعب على التخلص من الحكم العثماني والدعوة إلى مقاومته بالقوة للحصول على الحقوق العربية.

وبسبب ما كانت تلك المطبعة تقوم بطبعه من منشورات مناهضة لأفكار ووجهات نظر الأتراك أثار حفيظة أوغضب الدولة العثمانية، ولذلك أقدمت السلطات التركية مع بداية الحرب العالمية الأولى على مصادرة مطبعة (نينوى) ليس بحجة أنها تابعة لدولة معادية بل بسبب أنها تثير الرأي العام بمطبوعاتها ضد السلطات التركية، وبعد أن تمت مصادرتها أخذت تطبع فيها جريدة تركية اسمها (حقي طوغرو) أي دعوة إلى الحق وذلك من أجل الدعاية للحكومة العثمانية وحلفائها.[2]

لقد تبنّت المطابع في العالم العربي نشر الكتب المهمة التي كانت تعد حالة من البعث القومي والوطني في فترة عصيبة من تاريخ العرب التي غلبت عليها نزعة التتريك؛ أي إجبار الشباب العربي على الدراسة باللغة التركية لغة

(1) إبراهيم خليل أحمد، حركة التربية والتعليم والنشر، موسوعة حضارة العراق، بغداد، 1985، الجزء 11، ص323

(2) المصدر نفسه، ص323

المستعمرين العثمانيين لمعظم البلدان العربية بدأ بالنصف الثاني من القرن التاسع عشر ولاسيما في العراق وبلاد الشام وفلسطين وعلى نحو ما في مصر. لقد لاقت نزعة التتريك معارضة قوية من لدن الجماهير العربية وهي في معظمها مناهضة للاستعمار التركي العثماني على نحو عام.

ليس هذا فقط بل كان للمطابع دورا عظيما في نشر العديد من الكتب والمنشورات الأخرى التي عملت أو ساعدت على الأقل على انتشار الأفكار العربية وبداية شعور العرب بقوميتهم، لذلك يمكن القول أنه كان لها دورا فاعلا في النهضة الفكرية ونشر الوعي بين الجماهير العربية اكثر من غيرها من الوسائل الإعلامية المتيسرة. لقد ساعدت في طبع مؤلفات عدد من العاملين في الحركة القومية ووضعها بين أيدي الناس ولاسيما الشعر الحماسي التي استفاد منها أعضاء الجمعيات السياسية السرية في الأقاليم العربية والوقوف بحزم ضد نزعة التتريك والنضال من أجل الاستقلال.

ومن البديهي أن تتنبه السلطات العثمانيةإلى أهمية وخطر تلك المطابع غير الحكومية كوسيلة إعلامية خطيرة في تحفيز الشعب العربي على الثورة أوالانخراط في الحركات والانتفاضات السرية، فعملت أسوة بما قامت به من إجراءات قسريةفي الموصل بمصادرة الكثير من المطابع واستغلال المصادرة منها في بغداد وحلب ودمشق وبيروت من أجل الدعاية للحكومة العثمانية قبيل وخلال الحرب العالمية الأولى.

وهكذا يمكن القول أن كانت للمطابع أثرا بالغ الأهمية في تنمية الوعي القومي بما كانت تقوم بطبعه من كتب ومنشورات سرية؛ غير أن الأهم من كل ذلك الصحف أو الجرائد اليومية أو الأسبوعية التي كانت تطبعها.

أما بخصوص الصحافة فإن أول الصحف المطبوعة في العالم هي(غازيتا) Gazette والتي تعني الجريدة الرسمية أو (اليوميات) أو (الوقائع) باللاتينية، وإن أول صدور لها كان في سنة 1610 ميلادية في مدينة (البندقية) في شبه القارة الإيطالية. لقد كانت صحيفة يومية تطبع بصفحة واحدة فقط تحتوي على الكثير من الأخبار التي كانت تهم الإيطاليين الاطلاع عليها أو معرفتها ولاسيما أهل مدينة البندقية. ومن البديهي أن تحوي كل الأخبار الهامة ومع ذلك كانت تطغي عليها الأخبار التجارية والاجتماعية والأخبار السياسية التي ليس فيها مساسا بالسلطة الحاكمة. ومع ذلك تطورت الصحافة حتى باتت الواسطة بين السلطة والشعب والوسيلة لنشر الدعايات والأفكار الجديدة.

غير أن ظهور الصحافة في الأقاليم التي كانت تابعة للدولة العثمانية كانت متأخرة جدا. فنحن نعلم أن السلطان محمود الثاني (1223-1255 هـ/ 1808-1839م) كان قد أمر بإصدار أول صحيفة في استانبول في عام 1831 تحت اسم (وقائع). إنها صدرت بعد (الوقائع المصرية) بثلاث سنوات.[1] لقد كانت هذه الصحيفة الرسمية التي كانت تصدر باللغة التركية تحوي بالإضافة إلى الأوامر الحكومية القليل من المقالات التي تمجد السلطة الحاكمة في استانبول. إنها الصحيفة الوحيدة التي كانت الدولة العثمانية تريدها أن تصل إلى الأقاليم العربية التابعة لها مثل العراق وسوريا وفلسطين والحجاز.

أما بالنسبة إلى العالم العربي فلم تعرف الصحافة إلا مع قدوم الحملة

(1) لم تكن مصر آنذاك تابعة للدولة العثمانية فقد كان محمد علي باشا قد استقل عنها عمليا وأن إرتباطه بها كان إسميا فقط.

الفرنسية إلى مصر في سنة 1798 ميلادية؛ فيذكر أن نابليون بونابرت قد أمر بإصدار جريدة يومية في القاهرة اطلق عليها اسم (الحوادث)،[1] صدر العدد الأول عدد منها في سنة 1799؛ ثم توقفت عن الصدور مع رحيل الحملة الفرنسية عن مصر في سنة 1801. وبهذا يمكن اعتبار أن تلك الجريدة هي الأولى في العالم العربي؛[2] ومع ذلك هناك بعض الشكوك تحوم حول صدور أي عدد منها مع أن قرارا رسميا فرنسيا كان قد أتخذ أبان الحملة الفرنسية على مصر إصدار تلك الصحيفة.

أما عن ثاني جريدة تصدر في العالم العربي فهي (جورنال العراق)؛ أي (أخبار العراق) التي كانت الأولى من نوعها بعد جريدة (الحوادث) المصرية أصدرها في بغداد الوالي العثماني داود باشا الذي تولى أيالة بغداد في سنة 1816 باللغتين العربية والتركية طبعت بمطبعة حجرية كان قد استوردها من أوربا؛ كان الغرض الرئيس منها أن تكون صحيفة رسمية للولاية، وأيضا نشر أخبار القبائل العراقية وأخبار الخلافة العثمانية وأسماء الموظفين وما يتعلق بهم والإصلاحات المزمع تنفيذها في الولاية وغير ذلك من أخبار.[3] غير أن المؤرخين المهتمين بتاريخ العراق الحديث لم يحددوا تاريخ صدورها؛ ليس هذا فقط بل لم يصل إلينا أي عدد منها. وفي الأرجح أنها توقفت عن الصدور دون أن يظهر العدد الثاني

---

(1) يذكر أن رئيس تحرير جريدة (الحوادث) كان إسماعيل سعد الخشاب.

(2) رزوق عيسى، تاريخ الصحافة في العراق، مجلة (النجم) الموصلية، العدد 7، 1934، ص249.

(3) محسن حسين، من أوراق صحفي عراقي، مجلة دبي الثقافية، العدد 65، تموز 2012، ص55-57

منها. ومع ذلك فأن الكثير من المعنيين بتاريخ العراق الحديث يشكّون في صحة الأخبار التي تذكر إصدار أية جريدة في عهد داود باشا، والسبب كما يذكرون أن لم تكن في العراق في ذلك الزمن أية مطبعة، فالمطبعة الحجرية الأولى التي دخلت إلى تلك البلاد كانت بعد عهد ذلك الوالي بعدة عقود.

الصحيفة التالية كانت جريدة (زوراء) الرسمية التي صدر العدد الأول منها في سنة 1869 باللغتين العربية والتركية؛[1] تمّ إصدارها في عهد والي بغداد مدحت باشا (1868-1872م) الذي يعد واحد من أعظم الولاة العثمانيين المصلحين فقد ذكر أنه كان يعمل كل ما في وسعه ضمن إمكانات الولاية في سبيل النهوض بالعراق في ظل الحكم العثماني.[2]

لقد ظلت تلك الصحيفة تقوم بنشر الأخبار المرتبطة بشؤون ولأية بغداد

---

(1) نشرت جريدة الزوراء في عددها الأول صورة الأمر السلطاني (الفرمان) الذي عيّن بموجبه مدحت باشا واليا على بغداد؛ وفيها أيضا الخطاب الذي القاه في الاحتقال الذي أقيم بمناسبة توليه الحكم، فضلا عن الأخبار الخارجية وغير ذلك من المواد الصحفية الرسمية في ذلك العهد (إبراهيم خليل أحمد، حركة التربية والتعليم والنشر/ الصحافة، موسوعة حضارة العراق، بغداد، 1985، الجزء الحادي عشر، ص239)

(2) قد يكون من المفيد للقارئ الكريم أن أقتبس بعضا مما كتبه الدكتور مصطفى جواد رحمه الله بخصوص مدحت باشا: (ضرب مدحت باشا رقما قياسيا في الأعمال الإصلاحية التي قام بها خلال مدة الثلاث السنوات التي قضاها في الحكم، ويصح أن تكون هذه الأعمال نموذجا للمثل العليا في باب الخدمة العامة تتجلى فيه إمكانيات الفرد الواحد وما يستطيع أن يقوم به من أعمال جسيمة حتى في الأحوال الشاذة وذلك اذا ما اتخذ الإخلاص رائدا له والجد شعارا لجهوده). (مصفى جواد وأحمد سوسة، دليل خارطة بغداد المفصل، بغداد، 1958، ص232).

التي تعبّر أيضا عن أهداف وأفكار مدحت باشا لإصلاحية (شكل69). لقد أراد مدحت باشا رحمه الله إفهام العراقيين: أن هناك حكومة وأنظمة وقوانين، وأن ديدن الجريدة تهيأت الأذهان إلى الاستقرار والقضاء على عوامل التذمر. ليس هذا فقط بل كانت الجريدة تشجّع الناس على نقد الولاة والحكام، فضلا عن نشر الأوامر السلطانية (الفرمانات).

لقد ظلت (الزوراء) مستمرة في الصدور مرة في الأسبوع باللغتين العربية والتركية إلى أن احتل العراق الجيش البريطاني في سنة 1917 فتوارت عن الأنظار. والحق أن جريدة الزوراء قد عكست أوضاع العراق الثقافية والاجتماعية والسياسية آنذاك، كما أنها قدمت صورة للفكر والأدب في الفترة التي عاشتها في ظل ذلك الوالي الخيّر. غير أن الأمر تغيّر تماما بعد أن تمّ عزل


زوراء

(شكل69)

الصفحة العربية من أحد أعداد جريدة (زوراء) البغدادية من الأرشيف

مدحت باشا. أن المتصفح لأعدادها في سنواتها الأولى يجد أنها اتخذت الحق ديدنها والمصلحة العامة رائدها، غير أنها اتخذت نهجا جديدا بعد مغادرة مدحت باشا للعراق فأصابها ما أصاب الصحافة العراقية في عهد السلطان عبد الحميد من الضغط والتشديد عليها وخنق حريتها. ثم الغي القسم العربي من الصحيفة وصارت تصدر باللغة التركية فقط، أدى ذلك التصرف إلى قيام

احتجاجات الشديدة من قبل الغيارى من العراقيين من ذوي النزعة العربية القومية، فأذعنت الحكومة في بغداد لهذه الطلبات المكررة خشية حدوث ملابسات جديدة ضارة بالدولة العثمانية فعادت جريدة الزوراء تنشر أخبارها كما كانت في السابق باللغتين العربية والتركية، غير أنها مع ذلك لم تعد الجريدة نفسها التي يعرفها العرب والعراقيون؛ والسبب في ذلك ان الأسلوب العربي الخالي من الأخطاء والجزالة اللغوية لم تعد فيها كما كانت عليه في السابق؛ فقد كسبت رطانة شديدة وركّاكة غير معهودة في اللغة؛ بسبب أن المحررين الذين تولوا في هذه الفترة تحرير القسم العربي منها كانوا من الأتراك الذين لم يكونوا يحسنون اللغة العربية إلا قليلا؛[1] ليس هذا فقط بل أنهم كانوا غير متمكنين حتى من لغتهم التركية.

وإلى جانب صحيفة الزوراء ظهرت في الموصل صحيفة (الموصل) في سنة 1885 ثم صحيفة (البصرة) في مدينة البصرة في جنوب العراق في سنة 1895. وكلا الصحيفتين كانتا تصدران مرة في الأسبوع. لقد احتجبت كلا الصحيفين عن الصدور بدخول الجيش البريطاني إلى العراق، ولا ندري إن كان ذلك قد تمّ بأمر من السلطات البريطانية.

أما في مصر فإن جريدة (الوقائع المصرية) التي قد أصدرها محمد علي باشا في القاهرة بدأ بسنة 1828 كانت أول صحيفة مؤكدة تصدر بعد جريدة (الحوادث) المرتبطة بالاحتلال الفرنسي؛[2] ولم تكن (الوقائع المصرية) في السنة

---

(1) إبراهيم خليل أحمد، المصدر السابق، 11/ 229–332

(2) ويذكر بعض المختصين في الصحافة أنه كانت هناك قبل صدور صحيفة (الوقائع =

الأولى من صدورها واسعة الانتشار؛ وقد كانت تصدر مرة واحدة في الأسبوع. ولم يتجاوز عدد النسخ من تلك الصحيفة في أعدادها الأولى سوى ما يكفي لتوزع، وربما مجانا، على أعضاء الأسرة الحاكمة وموظفي الحكومة وبعض طلبة المدارس العليا في داخل مصر وخارجها، وكذلك بعض أفراد الشعب المصري من المثقفين. وفي أواخر القرن التاسع عشر صارت تصدر ثلاث مرات في الأسبوع ويباع العدد الواحد منها بقرش صاغ واحد (شكل70).

المصرية) صحيفة مصرية تسمى بـ(جورنال الخديوي) غير أنه تبين لمحمد علي باشا أن مثل تلك الصحيفة لا تخدم أغراضه فاصدر عوضا عنها (الوقائع المصرية) (منير بكر، المصدر السابق، ص412).


الوقائع المصرية

القسم الرسمي

(شكل 70)

الصفحة الأولى لصحيفة (الوقائع المصرية) الرسمية من العدد 48 لسنة 1897

وفي لبنان كانت أول صحيفة تصدر هناك هي جريدة (طرابلس) التي صدر العدد الأول منها في المدينة التي تحمل اسمها سنة 1858 (شكل71) وهي جريدة

رسمية أسبوعية. ولا علم لي بالصحف الأولى التي صدرت في بيروت. ولا اظن أن العاصمة اللبنانية، وهي المدينة الزاخرة بالمثقفين وبالوافدين من جميع أنحاء العالم العربي قد انتظرت طويلا لتصدر فيها صحفها ومجلاتها الأولى. ففي سنة 1851 صدرت فيها أول مجلة سنوية، ثم صدرت مجلة شهرية أخرى في سنة 1855، ومن البديهي أن تصدر فيها العديد من الصحف الأسبوعية ثم اليومية. ولا أريد أن أمضي في هذا الاسترسال خشية الإطالة.



طرابلس

(شكل71)

الصفحة الأولى من جريدة (طرابلس) اللبنانية التي كانت تصدر بدأب سنة 1858

ولابد من القول أن الصحف الأولى التي ظهرت في الأقاليم العربية قد نبّهت الشعب العربي إلى أن هناك صحافة وهناك رقابة على الولاة التي كانت تبعث بهم الدولة العثمانية إلى الأقاليم التابعة لها. فقد كانت تلك الصحف تنشر بين فينة وأخرى شكاوي المواطنين وتطلعاتهم إلى حياة أفضل مما كان عليها

الحال في جميع الأقاليم العربية التابعة للدولة العثمانية في القرن التاسع عشر وما قبل ذلك.

ومن الواضح أن الصحافة قد ساعدت على نحو عظيم في تطوّر البلدان العربية ونهضتها بما كانت تقدمة من مقالات وأخبار كان لها الدور الأهم في تنامي الوعي القومي بين الجماهير العربية في كل مكان تقريبا إذا كنا نعد الصحافة وسيلة للتزويد بالأخبار باطلاع أكبر عدد من الناس عليها.[1] لقد كانت الصحافة أداة مهمة منذ أواخر القرن التاسع عشر أو في أوائل القرن العشرين في التعبير عن الشعور القومي العربي. لقد عكست في ذلك الوقت كمرآة صادقة أوضاع العالم العربي الثقافية والاجتماعية والسياسية وحتى على نحو ما الدينية منها أيضا. ليس هذا فقط بل كانت الصحافة عبر تلك الفترات الزمنية العصيبة من تاريخ الأمة العربية الحديث قد قدمت صورا صادقة لتطلعات الجماهير العربية في كل مكان.

ومما لا شك فيه أن الجرائد والمجلات قد ساهمت مساهمة عظيمة في حركات النهضة الفكرية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر وطوال العقد الأول من القرن العشرين. غير أن الأوضاع قد تبدّلت تماما على حين غرّة عند اندلاع الحرب العالمية الأولى في سنة 1914 فقد أصدرت وزارة الداخلية العثمانية

(1) وفي الواقع أن الصحف الخطيّة كانت قد ظهرت في العالم المتحضر قبل ظهور بدعة الطباعة بقرون طويلة؛ ثم بظهور المطبعة صارت الصحافة مقرونة بها، فغلبت الصحف المطبوعة على الصحف الخطيّة ولاسيما في البلدان الأوربية (منير بكر، المصدر السابق، ص411).

في معظم الأقاليم التابعة لها أوامر بتعطيل معظم الصحف والمجلات العربية بسبب إصدار القوانين العرفية في البلاد. ولم تكتف السلطات العثمانية بتعطيل الصحف والمجلات بل شرّدت الكثير من أصحابها والمحررين العاملين فيها بحجة مساهمتهم في نشر الكراهية والحقد ضد الأتراك وتحريض الناس على الثورة ضدها.

والحق أن الأعمال الصحفية قبل نشوب الحرب العالمية الأولى ولاسيما بعد صدور الدستور كانت قد اتصفت بالجرأة والشجاعة مع أنها قد عملت في ظل حكومات سيطر على تصرفاتها الاستبداد والتعسف وحتى الكراهية أو البغضاء أيضا. ليس هذا فقط بل جابهت الصحافة الكثير من الصعوبات ولاسيما الصعوبات الفنية والتي منها ما يتعلق بقلة الأخبار وارتفاع أثمانها وعدم التمكن من الحصول على الورق الخاص بالطباعة إلا بجهد جهيد؛ وفوق هذا كله قلة القراء لتأخر الثقافة وتفشي الأمية بين الناس.

ومع كل ذلك يمكن القول إن الأوان قد فات على العودة إلى الأساليب القمعية القديمة؛ فلم تعد تلك الأساليب تجدي السلطات العثمانية كثيرا فقد أدرك الناس تماما في جميع أنحاء العالم العربي وبخاصة المثقفون منهم أهمية ومعنى الحرية؛ فلم يعودوا يطيقون الاستبداد والضنك الشديد الذي يعيشونه في ظل الاستعمار البغيض الذي لا يرحم أبدا. ليس هذا فقط بل حتى إرسال الكثير من زهرة شباب العرب الواعي وخيرة مثقفيهم إلى حبل المشنقة كما حدث في المحكمات العرفية العسكرية في مدينتي (عالية) وبيروت في لبنان التي قادها وخطّط لها السفاح جمال باشا في مطاوي سنتي 1916-1917 لم تنفع السلطات

العثمانية كثيرا في قمع الحريات. لقد ثار العرب في كل مكان وانتهت تلك الثورات التي بدأت في الحجاز في شبه جزيرة العرب بطرد العثمانيين من فلسطين وسوريا ولبنان وجزيرة العرب ثم من العراق بمساعدة الجيش البريطاني.

وإن الكلمة الأخيرة التي أريد قولها بهذا الخصوص إن الصحافة العربية الحرّة قد لعبت دورا مشرفا في تنبيه أفكار الناس وتوسيع أفق أفكار القراء بخصوص ما كان يجري في العالم من حولهم. ليس فقط في اطلاعهم على مجريات الأمور ولاسيما الحركات السياسية المناهضة للاستعمار والذي كان من جملة نتائجه المزيد من الإدراك بالنسبة للجماهير العربية وعلى نحو خاص فيما يرتبط بالوعي السياسي في معظم الأقاليم العربية.

خاتمة المطاف

لقد أوضحت للقارئ الكريم في مقدمة هذا الكتاب أن الاتفاق عام بين علماء الإعلام اليوم أن وسائل الاتصال الجماهيري متعددة ومنوعة وقد تختلف من عصر لآخر. وعلى ذلك نجد أن صاحب الرسالة الإعلامية في كل زمان ومكان ينشد الوسائل الأقوى والأعمق أثرا في نفوس الجمهور المتلقي ولكن وفق ما كان متيسر له من وسائل. ومن البديهي أن مثل هذا يسري أو ينطبق على وسائل الإعلام القديمة التي استعانت بها الشعوب قاطبة في الماضي البعيدأو القريب بما فيهم العرب.

وفي واقع الأمر أن الجمهور المتلقي يكون على الدوام هو الاهم في عملية الاتصال الجماهيري؛ فهوالأساس في هذه العمليات. إن الرسائل الإعلامية توجه على النحو الذي يتقبلها الجمهور، غير أن الجمهور الذي يستقبل المعلومات الإعلامية هو الذي يقرر قبولها أو رفضها أو التحفظ عليها حسب اتفاقها أو توافقها مع مخزونه المعرفي. وفي حالة الرفض يكون الذي بعث بالرسالة الإعلامية قد فشل في مبتغاه. لهذا السبب نجد أن عمالقة الإعلام قد اعترفوا في السنوات الأخيرة بالدور الإيجابي الذي يلعبه الجمهور كمشارك رئيس في العملية الإعلامية في أي مكان وفي أي زمان.

لقد أدرك أولي الأمر الأهمية البالغة للرأي العام في الإعلام؛ فالناس قد ترفض أو تقبل بالرسالة الإعلامية-ولكن على نطاق محدود: أي على نحو أقل من المطلوب ولذلك نجد أنهم في سبيل التأثير على الجمهور يعملون على الاستفادة من جميع الوسائل المتاحة بما في ذلك استنفار جميع من تستطيع حشده للوقوف إلى جانبها وعلى نحو خاص برجال الدين. فكما هو معروف أن لرجال

الدين حرمة خاصة عند الناس ولاسيما في الأقاليم المشرقية ومن ثم لهم تأثير بيّن على الرأي العام؛ ولكن مع ذلك يكون التأثير بنسب متفاوتة حسب المكان والزمان والإقليم خلافا لما هو عليه الأمر في الغرب في العصر الحديث حيث يبدو أن الإعلام بات حرا فلم يعد له ارتباطا مباشرا بأي جهة دينية أو حتى سياسية كما أكدت ذلك استطلاعات للرأي العام التي جرت مؤخرا في بعض دول الغرب حيث أظهرت أن الإعلام الحر هو الأقوى في النفوس في الوقت الحاضر في الدول الأوربية على الأقل.

لقد تتبعت في هذا الكتاب على نحو متسلسل موضوع الاتصال الجماهيري عند العرب والطرق أو الوسائل التي انتهجوها في سبيل الوصول إلى مبتغاهم سواء كان ذلك قبل بزوغ نور الإسلام أو بعده؛ وقد لاحظنا سويا أن العرب لم تختلف في هذا الأمر إلا قليل عما كانت تتبعه أو تسير عليه غيرها من الأمم والشعوب ولاسيما المتحضرة منها سواءفي الماضي وحتى وقت قريب. من ذلك على سبيل المثال أن الشعر كان يعد أعظم وأنجع سلاح عند العرب في الإعلام في العصور المبكرة. كان الشعر في الأيام الغابرة يقوم مقام الصحف المحلية والتلفاز والمذياع في أيامنا هذه. وبكلمة أخرى يمكن القول أن الشعر كان الوسيلة الفضلى الأكثر فعالية في الإعلام في نشر الخبر بين الجمهور، ولذلك كثيرا ما كان رؤساء القبائل العربية يجزلون في العطاء للشعراء ليس فقط من أجل قصيدة ينظمونها في مدح أو ثناء أو هجاء بل من أجل تجنب ما يمكن أن ينظموه من قصائد فيها إساءة بالغة لهم شخصيا. وربما يتذكر القارئ الكريم كيف أن الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك قد أطلق سراح الفرزدق سريعا من السجن خشية أن ينظم قصيدة يهجوه فيها.

والحق أنه مهما يكن من أمر تلك السلبيات يمكن اعتبار الشعراء الجيدين

في مختلف العهود عملة نادرة قلما يجود الدهر بمثلهم. وإلى جانب رسول الله كان هناك الكثير من فحول الشعراء انبروا للدفاع عن الإسلام وعن النبي (ﷺ) والدعوة إلى الدخول في الدين الجديد. غير أن علينا أن نتذكر أنه كان هناك شعراء كبار استعان بهم المشركون في محاربة الدين الإسلام؛ كان بعضهم من فحول الشعراء مثل كعب بن زهير ابن أبي سلمى وغيره.

ولم تكن الخطابة باقل أثرا في الجمهور من الشعر؛ لقد كان الناس يحفظون بعض خطب أعاظم الخطباء العرب في الجاهلية وفي فجر وصدر الإسلام ويستعرضون في مجالسهم ودواوينهم ما جاء في الخطابة من الحكم ونصائح وإرشادات وغير ذلك من أمور مثل خطب قس بن ساعدة الأيادي وغيره من الخطباء الحكماء المشهورين عند العرب؛وهذا ما نسميه هنا بالاتصال المباشر بالجماهير.

لقد استعين بالخطابة كثيرا في فجر الإسلام وعلى نحو خاص في نشر الدعوة إلى الدين الإسلامي الحنيف، حيث أجمع المؤرخون القدماء وأصحاب السير أن رسول الله (ﷺ) لم يكن خطيبا مفوّها فحسب بل كان قوي الحجة ومقنعا لمن يستمع اليه. وكذلك كان أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما. ويعد الأمام علي ابن أبي طالب (ﷺ) واحدا من أعظم الخطباء الذي أنجبهم الإسلام،[1] فإلى جانب خطبه الإرشادية الدينية هناك خطب يستحث فيها الناس على الجهاد في سبيل الله التي يعود معظم المعروف منها إلى سنوات خلافته.

---

(1) جمع جانب كبير من تلك الخطب الشريف الرضي في مجلد نحو سنة 400 هجرية في كتاب سماه بـ(نهج البلاغة) طبع في مصر بعناية الشيخ محمد عبدة طبعات كثيرة.

وإلى جانب ذلك فإن هناك خطبا تحريضية خطيرة للمعارضين للإمام علي(ﷺ) كانت تلقى على نحو شبه مستمر من على منبري المسجد الجامع في دمشق ومسجد عمرو في الفسطاط حيث كان معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص يحرضان المسلمين بل يؤججون صدورهم وعواطفهم ضد الإمام علي بن أبي طالب بحجة أنه أوى أو احتضن قتلة عثمان بن عفان رضي الله عنهما؛ فنحن نعلم أن خطبهما تلك قد لاقت حظا وافرا من النجاح في بلاد الشام ومصر؛ وقد يعزى السبب الأول في ذلك ليس فقط أن كليهما كانا خطيبين قديرين بل أن لعثمان ابن عفان (ﷺ) كانت مكانة خاصة في نفوس المسلمين ليس فقط أنه كان من العشرة المبشرين بالجنة بل قد تزوّج أيضا باثنتين من بنات رسول الله (ﷺ) حتى أن عرف بـ(**ذي النورين**).

وفي العصر الأموي لم تفقد الخطابة أو الشعر سطوتهما؛ فمن الملاحظ أن بعض الخطب التي كانت تلقى من فوق أعواد المنابر في المساجد الجامعة كانت ذات أهمية بالغة في الاتصال الجماهيري؛ إنها تعد خطبا سياسية وإعلامية كبرى كان يلقيها رجال السياسة أو الولاة. إنها خطب تتضمن الكثير من التهديد والوعيد؛ مثل الخطبة التي عرفت بـ(البتراء) وهي الأولى التي ألقاها من فوق منبر المسجد الجامع في الكوفة الحجاج بن يوسف الثقفي الذي كان واحدا من أبلغ الخطباء في ذلك العصر؛ إن له خطب تعد قمة في البلاغة أراد الحجاج عن طريقها إدخال الخوف والرهبة في قلوب سكان ذلك الإقليم الذي اشتهر بثوراته وانتفاضاته المتتابعة ضد الأمويين.

وكان عبد الملك بن مروان خطيبا مفوّها أدخلت خطبه الرهبة في نفوس من يسمعها. من خطبه المتميزة تلك التي ألقاها من فوق منبر رسول الله في المدينة المنوّرة على من تبقى من الصحابة الأجلاء والتابعين وتابعي التابعين التي تعد

من الخطب التهديدية الخطيرة جعلت من أراد العصيان أو الثورة منهم أن يفكّر كثيرا قبل أن يتخذ مثل ذلك القرار.

ومن وسائل الإعلام المهمة التي استعين بها في العهود الإسلامية النقود التي كانت تسكّها الدولة في المناسبات الخاصة والعامة التي كانت تبغي من وراء إصدارها إشعار الناس بقوة وبصلابة وثبات الدولة؛ أو أن تؤكد لهم عن طريقها الانتصارات التي حققتها جيوشها ضد الثوار والمارقين عن الإسلام، أو إخطار الناس ببعض المناسبات السارة مثل ختان ولي العهد أو زواجه وما شابه ذلك من أمور تستوجب الاحتفالات وتوزيع الصلات والهدايا على الشعب لكسب ودّهم وتعاونهم فضلا عن ثقتهم بالخلافة أو بالسلطة أيا كانت سواء في شرق العالم الإسلامي أو غربه.

وعلينا أن لا ننسى أيضا النقود الإعلامية المسيئة إلى الدولة التي كانت تسك من قبل بعض الأحزاب السرية المناوئة للسلطة في بعض كبريات المدن الإسلامية ولاسيما في دمشق أو بغداد أو في غيرهما من حواضر العالم الإسلامي؛ كان الغرض من إصدارها تأليب الجماهير وبث الحقد والكراهية في نفوس الناس ضد السلطة الحاكمة.

وقد يأتي التحريض والتأليب ضد الدول الإسلامية في أقاليم ودول بعيدة لا علاقة مباشرة لها بها، فنجد كيف أن رجال الدين المسيحي في أوربا ولاسيما البابوات والأساقفة قد لعبوا دورا خطيرا جدا ومميزا في أثارة الرأي العام الأوربي وملوك كبرى تلك البلدان ضد العرب والمسلمين بحجة أنهم اضطهدوا النصارى وسيطروا بالإكراه على أكثر الأقاليم والمدن ذات القدسية الخاصة عند المسيحيين في بلاد الشام وفلسطين وعلى نحو خاص مدينتي (بيت لحم) و(القدس)؛ حيث ولد السيد المسيح عليه السلام في الأولى وصلب في الثانية.

لقد تحقق للبابا ما أراد وقد ساعده في مآربه تلك عددا كبيرا من رجال الكنيسة الكاثوليك، وقد تحمّس لفكرة غزوا بلاد الإسلام أيضا عشرات الألوف من الرهبان الذين كانت تغص بهم أديرتهم الموزعة في كل مكان في أوربا تقريبا. فقد تمكن البابا من أثارة أطول حرب في التاريخ حتى يومنا هذا حيث بلغت نحو قرنين من الزمن، متمثلة في عدة حملات عسكرية كبرى متتابعة؛ بدأت الأولى في سنة 492 هجرية (1092م) والحملة الأخيرة كانت في النصف الثاني من القرن الثالث عشر على الرغم من أنها كانت من أفضل الحملات تنظيما وأكثرها عددا حيث تحالف فيها معظم ملوك أوربا إلا أنها انتهت بالفشل الذريع حيث طردت آخر فلولهم بجلائهم من الأراضي المقدسة وعموم بلاد الشام في شهور سنة 690 هجرية (1291م) في عهد السلطان المملوكي صلاح الدين خليل.

وهكذ افشل التحالف الأوربي ضد العرب والمسلمين تماما: وإن كان يعد أكبر تحالف في التاريخ بين الدول ليس في أوربا فحسب بل في العالم أجمع. لقد كان في واقع الأمر تحالفا بين أربع وأربعين دولة بالتمام والكمال. إنها الحرب التي كلّفت الأوربيين ما لا يقل عن مئة الف نفس من خيرة شبابها. ليس هذا فقط بل فقد رجال الدين في أوربا الكثير من سطوتهم حيث أدركت الجماهير في تلك البلدان إن الله لم يكن أبدا مع المعتدين الأوربيين كما كان يزعم رجال الدين في خطبهم الدينية ولاسيما في أيام الآحاد والأعياد المسيحية.[1]

وهنا نأتي مرة أخرى إلى ما ذكرته في التمهيد إلى هذا الكتاب حول

---

(1) لقد كان رجال الدين الأوربيين المرافقين للحملات العسكرية يحرضون جنودهم ليس فقط على الإستماتة في القتال بل يقولون لهم أن في قتل المسلم أجرا عظيما عند الله.

موضوع الاتصال الجماهيري والدور الحيوي للجمهور المتلقي، وأن الجمهور هو الذي يقرر قبول الرسائل الإعلامية أو رفضها وفق مخزونه المعرفي؛ فلم تقبل الشعوب أو الجماهير الأوربية تبريرات رجال الدين والحكام الخاصة بتلك الخسارات الأوربية الفادحة في الحروب الصليبية؛ لقد اعتبرت تلك التبريرات ضربا من الأكاذيب الملفقة والالتفاف حول حقائق. لقد اكتشفت الجماهير في جميع البلدان الأوربية أن الحروب الصليبية الطويلة كانت حربا خاسرة في كل شيء ليس فقط بأرواح شبابها بل بالأموال الجسام التي أنفقتها تلك الدول ولاسيما فرنسا التي كانت تعد المموّل الأكبر للأموال في تلك الحروب فقد تأكد للشعوب الأوربية أن رجال الدين إن لم يكونوا قد ضللوهم عن سبق إصرار فأنهم كانوا في غاية الجهل والحمق.

لقد ظلّت مرارة تلك الهزائم المتكررة عالقة في نفوس الأوربيين طوال القرون الطويلة التي تلت حتى ليذكر أن الجنرال البريطاني أدموند اللنبي A. Allenby عندما دخل مدينة القدس بجيشه في السادس من شهر تشرين ثاني سنة 1917 قال ضمن أول خطاب القاه على جنوده كلمة سجّلها له التاريخ جاء في آخرها: **(اليوم انتهت الحروب الصليبية!)**.

ولهذا السبب ترتّب على فشل الغرب في الحروب الصليبية أمورا في غاية الخطورة في أوربا؛ فقد لعب الإعلام المضاد للسلطات القائمة في تلك البلدان دورا عظيما وأساسيا في إنهاء وجودها أو هيمنتها على مقاليد الأمور؛ ليس هذا فقط أن ظهرت في تلك الأقاليم أحزابا سياسية سرية باتت تنادي بالتخلص من نير الأقطاع الذي كان عاما في عموم الدول الأوربية. لقد بدأ رجال الأقطاع في أوربا الغربية يفقدون تدريجيا قوتهم وهيمنتهم على مصائر سكان المقاطعات فلم

يعد بمقدورهم دفع الرجال إلى حروب لا يريدونها، فتحطم سريعا ذلك النظام في جميع الأقاليم الأوربية.

وكنتيجة غير مباشرة للفشل في الحروب الصليبية وقعت انقسامات مذهبية في غاية الأهمية والخطورة في أوربا؛ منها أن ظهر رجال دين انشقوا على الكنيسة الكاثوليكية في روما حيث باتوا يدعون إلى التحرر من تعنّت البابا ورجال الدين الكاثوليك عموما. وظلت تلك الدعوات والانشقاق عن الكنيسة الكاثوليكية طويلا إلى أن توّجت بظهور الراهب الألماني مارتن لوثر Luther Martin (1483-1546م) الداعي إلى التحرر من سيطرة البابا ومن الكنيسة الكاثوليكية عموما. ليس هذا فقط بل حتى أن الملك البريطاني هنري الثامن (1491-1547م)، لأسباب شخصية تجرأ على فصل الكنيسة البريطانية عن سلطة البابا فأصبحت لبريطانيا كنيسة لا علاقة لها بالبابا وبالمذهب الكاثوليكي لا من قريب ولا من بعيد.

ثم يدور الزمن دورته ويتجه الأوربيون إلى الأقاليم المشرقية مرة أخرى؛ غير أننا نجد أن الإعلام هنا يتخذ شكلا مختلفا يتماشى تماما مع الأفكار الاستعمارية الجديدة. ومن أغرب هذا الضرب من الإعلام وأكثره تطرفا الإعلام الذي انتهجه الفرنسيون عند غزوهم لمصر في صيف سنة 1798 ميلادية بقيادة نابليون بونابرت. لقد أرادوا أن يجعلوا من مصر قاعدة استراتيجية تكون نواتا للإمبراطورية الفرنسية في الشرق وفي الوقت نفسه يقطعوا الطريق ما بين بريطانيا ومستعمراتها في الهند وغيرها من الأقاليم الشرقية؛ ليس هذا فقط بل أراد الفرنسيون استغلال موارد مصر في حروبها في أوربا.

وعلى الرغم من أن نابليون قد ذهب في الإعلام ابعد من ذلك بكثير حتى أنه لم يتورع في أن وضع في بياناته وملصقاته ومن خلال خطب الأئمة في

الجوامع خداع الشعب المصري بادعاءات وأقوال بعيدة كل البعد عن الصدق منها. ومن الواضح أنه انتهج جميع السبل المتاحة له في سبيل تثبيت أقدام الجيش الفرنسي في أرض مصر حتى أنه ادعى في بيانه الأول الموجه إلى المصريين أنه كان مسلما يجل النبي محمد عليه الصلاة والسلام ويقدس القرآن الكريم وكذلك جنوده وجميع الشعب الفرنسي.

ولا أريد في هذا الموجز أن أعيد ما كتبته بخصوص النقوش الكتابية الإعلامية بمختلف صورها وأساليبها ولاسيما عن طريق الرقاع والملصقات الجدارية أو الكتابة على الجدران على نحو مباشر، أو ما يرتبط منه بالعمارات الإسلامية ذات الأهمية البالغة في الإعلام. ولا أريد أن أكرر بالأساليب التي اتبعت في طمس المقومات الحضارية الإسلامية سواء كان ذلك من قبل العباسيين أو من قبل التتار المغول أوالإسبان في بلاد الأندلس.

ولكن ما أريد أن أختم به هذا الموجز هو القول في الإعلام الذي اتبعه العرب كان ناجحا تماما في مواجهة الاحتلال التركي العثماني للبلدان العربية الذي ناف على الأربعة قرون على نحو متواصل ولاسيما في العراق وبلاد الشام وفلسطين أو في شبه جزيرة العرب. والواقع إن الاستعمار التركي يعد استمرارا للعهود المظلمة التي بدأت بالاجتياح التتري المغولي للأقاليم المشرقية العربية والذي تلاه عهد الاحتلال الجلائري ثم عهد دولتي (الخروف الأسود) و(الخروف الأبيض) التركمانيتين على التوالي.

غير أن لابد من القول أن بلاد الأناضول ومنها العاصمة استانبول لم تكن بأفضل حالا من بقية الأقاليم التي كانت تابعة للعثمانيين؛ فالدولة العثمانية نفسها كانت قائمة على الأساليب التقليدية القديمة التي لم تكن تعرف شيئا عن التطور الديمقراطي الذي ظهر في الأقاليم الأوربية في عصر النهضة ولاسيما بعد

الثورة الفرنسية التي قامت في سنة 1789 ميلادية وتأثرت بها معظم الأقاليم الأوربية.

أما في الأقاليم العربية فلاشك أن الذي ساعد على النهضة فيها ومن ثم التخلص من الاستعمار العثماني كان للدور الرائد والمساهمة الفاعلة للغيارى من المثقفين العرب في القرن التاسع عشر الذين عملوا ما في وسعهم عن طريق الإعلام أو الاتصال الجماهيري. ومما لاشك فيه أيضاأن الذي ساعد على ذلك المطابع ثم الصحافة وما لعبته من دور عظيم في تخليص الشعوب العربية من الاستعمار بكل صوره وأشكاله ولا أريد أن أدخل في تفاصيل جديدة في هذه الخلاصة إذ يجد القارئ تفاصيل كل ذلك في الفصل الأخير.

وأخيرا أرجوا بل أتمنى أن يكون القارئ الكريم قد وجد في هذا الكتاب الصغيرالمعزز بالصور التوضيحية القليل من الفائدة المصحوبة بشيء من المتعة؛ وأستميح العذر إن وجد فيه هفوات وعثرات التي مردّها إلى قصر الباع

والله ولي التوفيق.

مراجع الكتاب

المراجع العربية

القرآن الكريم

العهد القديم

- إلاطرقجي، واجدة مجيد عبد الله؛ المرأة في أدب العصر العباسي، منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية، بغداد 1981
- ابن الأثير، عز الدين علي بن أبي كرم الجزري، (ت 630هـ)؛ الكامل في التاريخ، بيروت، 1957
- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله اللواتي، (ت779هـ)؛ تحفة النظار في غرائب الأمصاروعجائب الأسفار، تحقيق على المنتصر الكناني، الطبعة الرابعة، بيروت، 1985
- ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد، (ت 614 هـ)؛ الرحلة أو رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار والمناسك، الطبعة الثانية، بيروت، 9861852
- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد، (ت 597هـ)؛ المنتظم في تاريخ الملوك، حيدرآباد، 1357 هجرية
- ابن الجوزي، عبد الرحمن؛ صفوة الصفوة، بيروت، 1963
- ابن خلدون، عبد الرحمن، (ت808هـ)؛ المقدمة، القاهرة، 1977
- ابن خلدون، عبد الرحمن؛ ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن جاورهم من ذوي السلطان الأكبر، القاهرة، 1996
- ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد، (681هـ)؛ وفيات الأعيان وأنباء الزمان، القاهرة، 1948

- ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن، (ت 321 هـ)؛ جمهرة اللغة، القاهرة، 1987
- ابن طباطبا، محمد بن علي، (709 هـ)؛ الفخري في الآداب السلطانية، القاهرة، 1922
- ابن شداد، القاضي بهاء الدين أبو المحاسن، (ت632 هـ)؛ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة 1964
- ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله بن محمد بن مسلم، (ت 276 هـ)؛ كتاب المعارف، القاهرة 1969
- ابن كثير، الحافظ إسماعيل بن عمر، (ت 774هـ)؛ البداية والنهاية، بيروت، 1988
- ابن منظور، (ت 711 هـ)، لسان العرب، بيروت، 1973
- ابن هشام، عبد الملك الحميري، (ت 218هـ)؛ السيرة النبوية، القاهرة، 1936
- أحمد، إبراهيم خليل؛ حركة التربية والتعليم والنشر، موسوعة حضارة العراق، بغداد، 1985
- الأصبهاني، عماد الدين، (ت 597م)؛ خريدة القصر وجريدة العصر، بغداد 1978
- الأصفهاني، أبو الفرج، (ت 356هـ)؛ كتاب الأغاني، طبعة ساسي، 1882
- الباشا، حسن؛ الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، القاهرة 1978
- باقر، طه؛ مقدمة في أدب العراق القديم، بغداد 1976
- باقر، طه، ملحمة كالكامش، بغداد، 1980
- باقر، طه؛ من تراثنا اللغوي القديم، بغداد 1980
- باقر، طه وعبد العزيز حميد؛ طرق البحث العلمي في التاريخ والآثار، وزارة التعليم العالي العراقية، بغداد 1980

- باموك، شوكت؛ التاريخ المالي للدولة العثمانية، ترجمة عبد اللطيف الحارس، بيروت 2005
- بكر، منير؛ الصحافة العراقية: نشأتها وتطورها، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد 12، سنة 1969
- بكر، منير؛ الشعر إعلام العرب وصحافتهم، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد 19، سنة 1976
بنيامين التطيلي، ابن يونه، (ت 569هـ)؛ رحلة بنيامين، ترجمة عزرا حداد، مع مقدمة للمؤرخ عباس العزاوي، بغداد 1945
- البيهقي، إبراهيم بن محمد، (ت 418هـ)؛ المحاسن والأضداد، بيروت، 1988
- التهامي، مختار؛الإعلام في الإسلام، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد 21، سنة 1977
- الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود، (ت 282هـ)؛ الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة 1959
- الجاحظ، عمر بن بحر، (ت 255 هـ)؛ البيان والتبين، تحقيق درويش جودي، بيروت، سنة 2000
- الجبرتي، الشيخ عبد الرحمن، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، بيروت، (بلا تاريخ طبع)
- الجبوري، شاكر محمود؛ المدرسة العراقية في الخط العربي، بغداد، 2001
- الجهشياري، ابن عبدوس، (ت 331 هـ)، الوزراء والكتاب، القاهرة، 1952
- جواد، مصطفى، وأحمد سوسة؛ دليل خارطة بغداد، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1958
- جواد، مصطفى وآخرون؛ بغداد، نقابة المهندسين العراقية، بغداد 1961

- الجوهري، إسماعيل بن حماد، (ت 400 هـ)؛ تاج اللغة وصحاح العربية، الطبعة الرابعة، القاهرة 1990
- حسن، إبراهيم حسن؛ تاريخ الإسلام السياسي، القاهرة
- حسن، زكي محمد؛فنون الإسلام، القاهرة، 1945
- الحسيني، محمد باقر؛ دراسات وتحقيقات إسلامية في نقود الثوار والدعاية والشعارات، مجلة المسكوكات العراقية، العدد 5، سنة 1974
- الحسيني، محمد باقر؛ النقود العربية ودورها الإعلامي والتاريخي والفني، موسوعة حضارة العراق، بغداد، سنة 1985
- الحسيني، محمد باقر؛ دور بغداد/ مدينة السلام في سك نقودها الإعلامية والتاريخية والفنية في العصر العباسي؛ ضمن كتاب بغداد مدينة السلام، جامعة بغداد، 1990
- الخضري، الشيخ محمد؛ تاريخ الأمم الإسلامية، العصر الأموي، القاهرة، 1370هجرية
- الخطيب البغدادي، أحمد بن علي، (ت 463هـ)؛ تاريخ بغداد، القاهرة، 1931
- دائرة الآثار المصرية؛ الموسوعة المصرية، تاريخ مصر القديمة وآثارها، القاهرة، 1960
- الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود، (ت227 هـ)؛ الأخبار الطوال، بيروت، 1959
- الدوري، عبد العزيز؛ تاريخ العراق الاقتصادي، بغداد، 1948
- دوزي. رينهارت؛ المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة أكرم فاضل، وزارة الإعلام، بغداد، 1971
- دفتر، ناهض عبد الرزاق؛ رأي جديد لمسكوكة الصلة للخليفة المتوكل على الله، مجلة المسكوكات العراقية، العدد 7، سنة 1976

- الدومنيكي، أمير ججي؛ الآباء الدومنيكان في العراق، مجلة (سلطانة السلام)، السنة الثانية، العدد 2، سنة 2012
- ديورايت، ول، قصة الحضارة، (مترجم)، أنفقت على ترجمته إلى العربية المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التابعة لجامعة الدول العربية، القاهرة، 1965 -1980
- رانسيمان، ستيفن؛ تاريخ الحروب الصليبية، (مترجم)، بيروت 1967
- الروسان، محمد محمود؛ القبائل الثمودية والصفوية، الرياض، 1987
- روكان، محمد كامل؛ سقوط أور عاصمة حكم سلالة أور الثالثة، مجلة بين النهرين، العدد، 161-162، السنة 41، 2013
- رؤوف، عماد عبد السلام؛ معالم بغداد في القرون المتأخرة؛ في ضوء الوقفيّات والإعلامات والحجج الشرعية المحفوظة في وزارة الأوقاف العراقية، إصدارات بيت الحكمة. بغداد 2000
- زايد، عبد الحميد؛ القدس الخالدة، القاهرة 1974
- الزبيدي، محمد بن محمد مرتضى، (ت 816 هـ)؛ تاج العروس من جواهر القاموس، الطبعة الثالثة. طبعة الكويت ضمن سلسلة التراث العربي،
- الزركلي، خير الدين؛ الإعلام، الطبعة السابعة، 1984
- الزعبي، سلافة فاروق؛ صورة العرب في الإعلامالأمريكي، عمان، 2006
- سالم، السيد عبد العزيز؛ تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس: من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة في قرطبة، القاهرة 1961
- سلوم، داود؛ الإسلام والشعر، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد الأول، سنة 1959
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، (ت 911 هـ)؛ تاريخ الخلفاء، بيروت، 2008

- شما، سمير؛ المدينة معدن أمير المؤمنين، مجلة المسكوكات العراقية، العدد 7، سنة 1976
- الشميري، فؤاد عبد الغني، المسكوكات الأيوبية بالمتحف العراقي، رسالة دكتوراه مقبولة، مقدمة إلى معهد التاريخ والتراث العربي ببغداد، سنة 2003
- صابات، خليل؛ تاريخ الطباعة في الشرق العربي، القاهرة، 1966
- الطبري، محمد بن جرير، (ت 310 هـ)؛ تاريخ الرسل والملوك، طبعة دار المعارف، القاهرة، 1973
- القرطبي، عريب بن سعيد، (369 هـ)؛ صلة تاريخ الطبري، القاهرة 1982
- طلعت، رامية؛ القديسة تقلا، مجلة (سلطانة السلام)، السنة الثانية، العدد 4، بغداد، سنة 2012
- عثمان، محمد عبد الستار؛ المدينة الإسلامية، منشورات عالم المعرفة، الكويت 1988
- عرفات، وليد (تحقيق)؛ ديوان حسان بن ثابت، بيروت. 1974
- عزمي، خالد وأحمد منصور؛ الكتاب العربي المطبوع من الجذور إلى مطبعة بولاق، القاهرة 2010
- العش، محمد أبو الفرج؛نشأت الخط العربي وتطوره، الحوليات الأثرية السورية، المجلد 23، سنة 1973
- علي، جواد؛ تاريخ العرب قبل الإسلام، بغداد، 1955
- علي، جواد؛ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، 1993
- العلي، صالح أحمد؛ التدوين وظهور الكتب المصنّفة، مجلة المجمع اللغوي العراقي، المجلد 31، سنة 1981
- عيسى، رزوق؛ تاريخ الصحافة العراقية، مجلة (النجم) الموصلية، العدد 7، سنة 1934

- القاضي الرشيد بن الزبير، (من علماء القرن الخامس الهجري)؛ الذخائر والتحف، تحقيق محمد حميد الله، النجف، 1966
- القزاز، وداد؛ الدراهم الإسلامية المضروبة على الطراز الساساني في المتحف العراقي، مجلة المسكوكات، العدد 1، سنة 1969
- القزاز، وداد؛ قوة يزيد بالله على درهم إسلامي في المتحف العراقي، مجلة المسكوكات العراقية، العدد 7، 1976
- القسوس، جورج نايف؛ نميّات نحاسية أموية في مجموعة خاصة مساهمة في إعادة نظر في نميّات بلاد الشام، عمان، 2004
- فهمي، عبد الرحمن؛ صنج السكة في الإسلام، القاهرة، 1957
- فهمي، عبد الرحمن؛ تحف نادرة في المسكوكات والأوزان والاختتام الإسلامية، مجلة المجمع العلمي المصري، المجلد 53، سنة 1970-1971
- الفيروزابادي، محمد بن يعقوب، (ت 816 هـ)؛ القاموس المحيط، القاهرة، الطبعة الأولى، طبعة بولاق
- الليثي، مالك بن يحي، (ت 234 هـ)؛ الموطأ، بيروت، 1981
- لين بول؛ طبقات سلاطين الإسلام، ترجمة علي البصري، بغداد، 1968
- الكتبي، محمد بن شاكر، (ت 774 هـ)؛ فوات الوفيات، بيروت، 1973
- الكرملي، الأب أنستانس ماري؛ النقود العربية، القاهرة، 1936
- المرسي، عصام سليمان؛ المدخل في الاتصال الجماهيري، عمان، 2009
- متز، آدم؛ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، بيروت، 1967
- محفوظ، حسين علي؛ دراسات في المسكوكات الإسلامية، مجلة المسكوكات العراقية، العدد 7، سنة 1076

- المسعودي، علي بن الحسين، (ت 347 هـ)؛ مروج الذهب ومعادن الجوهر، القاهرة، 1948
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، (ت845هـ)؛ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، طبعة بولاق، 1853
- المقريزي، تقي الدين محمد بن علي؛ شذور العقود في ذكر النقود، النجف، 1978
- المناوي، محمد حمدي؛ الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، القاهرة، 1970
- المنجد، صلاح الدين؛ بين الخلفاء والخلعاء، دار الحياة، بيروت 1957
- الهاشمي، عادل؛ الموسيقى والغناء، موسوعة حضارة العراق، بغداد، 1985
- الهمداني، محمد بن عبد الملك، (ت 521هـ)؛ تكملة تاريخ الطبري، القاهرة 1967، طبعة دار المعارف
- الهيتي، نعمان؛ اللغة في عملية الاتصال الجماهيري، بغداد 1997
- الهيتي، نعمان؛ الاتصال الجماهيري: المنظور الجديد، بغداد، 1998
- النقشبندي، أسامة ناصر؛ التذهيب والزخرفة، موسوعة حضارة العراق، بغداد، 1985، الجزء التاسع
- اليعقوبي، أحمد بن وضاح، (ت 289 هـ)؛ كتاب البلدان، طبعة لأيدن، 1892

المراجع الاجنبية:

- Artuk, Ibrahim, Islami Sikkler Kataloque, Istanbul, 1971
- Aruz, J. and R. Wallenfels, Arts of the First Cities, New York, 2003
- Baynes, N. H., Byzantine Empire, London, 1926

- Blair, S., the Coins of the Late Ilkhanids: the Journal of the Economic and Social History of the Orient, vol. 26, 1983

- Cantor, Norma F. Medieval History: *the life and death of a Civilization*, USA, 1970, second printing

- Contadine, Anna, Fatimid Art, London, 1998

- Craig, Bruce D., (editor), Ismaili and Fatimid Studies, on the Honor of Paul, E. Walker, Chicago, 2010

- Creswell, K. A. C., A Short Account of Early Muslim Architecture, Beirut, 1968

- Daviston, W., On the Effects of Communication and Public Opinion, edited by R. O. Carson, New York, 1975

- Edwards, George W., Vanished Halls and Cathedrals of France, London, 1917

- Fonda, Jaroslov, Crusader Art in the Holy Land, from the Third Crusade to the fall of Acre, 1187-1291, New York, 2005

- Hennessy, B. C., Public Opinion, USA, 1975

- Hitti, Philip, History of the Arabs, London, 1958

- Institut du Morde Arabe Chateaux Omayyades de Syrien, Paris, 1991

- Jansen, H.W., A History of Art, revised edition, London, 1974

- John Samson, Queen of Sheba, London, 2002

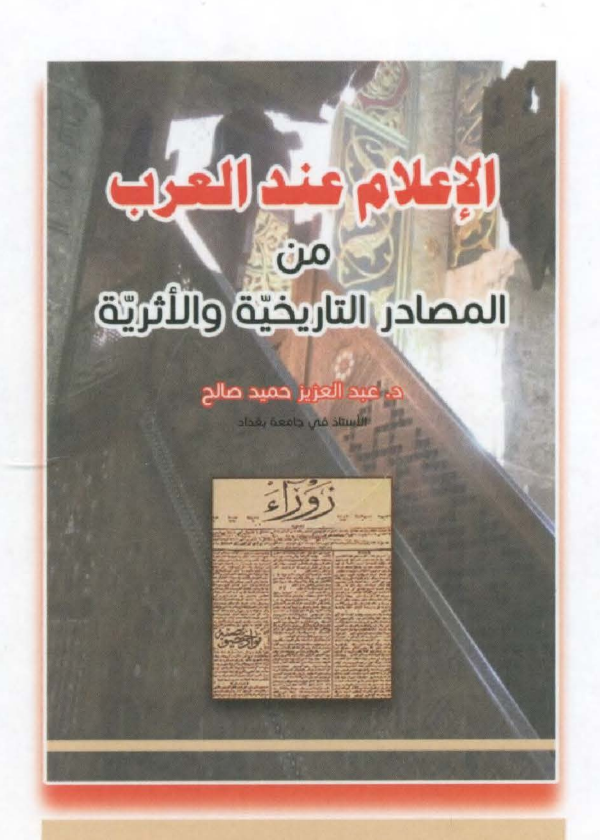
- Lewis, B., the Arabs in History, London, 1950
- Miles, George C., the Numismatic History of Ray, New York, 1938
- Miles, George C., Earliest Arab Gold Coinage, *the American Numismatic Society,* vol. 13. 1967
- Milwright, Marcus, An Introduction to Islamic Archaeology, Edinburgh, 2010
- Museo Senza Frontiere, L'Arte Mudejar, Madrid, 2000
- Plato, the Republic, London, 1956
- Robin, Andrew, the Story of Writing, London, 1995
- Shiter, William, L., the Rise and Fall of the Third Reich: A History of Nazi Germany, London, 2011

COMMUNICATIONS AMONG THE ARABS

from Historical and Archaeological Sources

Abdul Aziz Hameed Salih

University of Baghdad






عمّان - شارع الملك حسين - مجمع الفحيص التجاري
تلفاكس: 96264647550+ خلوي: 962795265767+
ص ب: 712773 عمان 11171 الأردن
E-mail: dardjlah@yahoo.com
www.dardjlah.com

designed by
M. Khudair


9789957714789